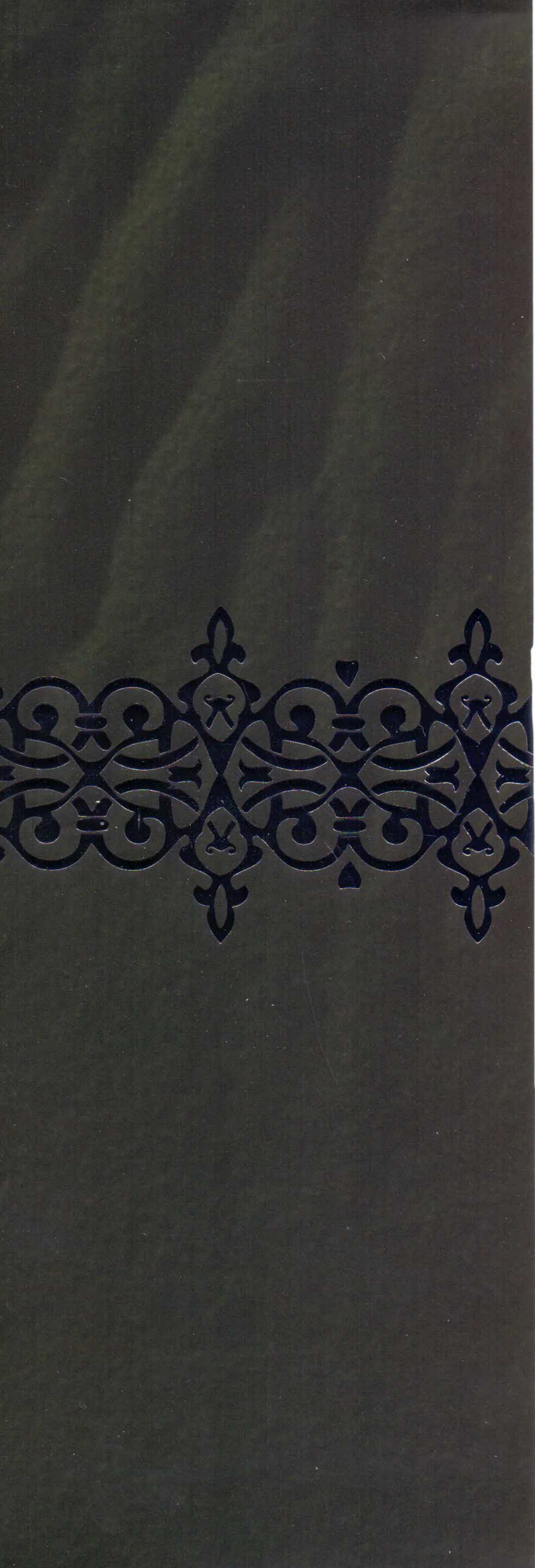
تاريخ المسلمين في إفريقية

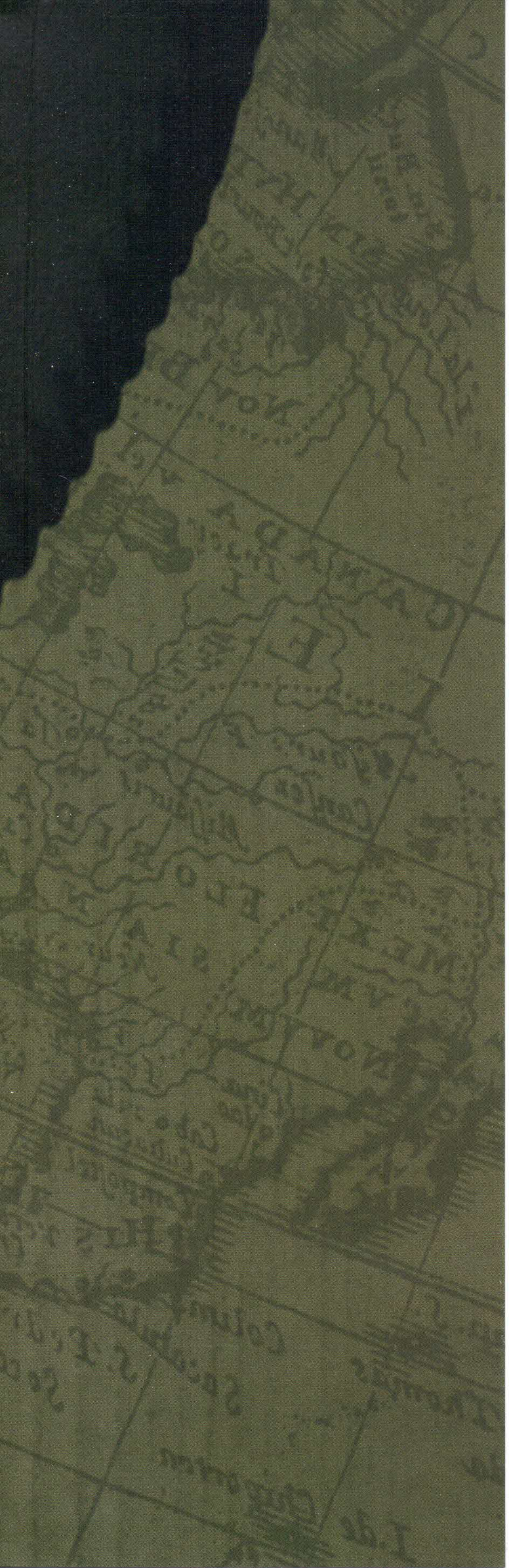


تأليف

الدكتور تقي الدين الدوري

الدكتورة خولة شاكر الدجيلي





تاريخ المسلمين في إفريقية

عرف العرب الساحل الإفريقي الشرقي منذ قرون عديدة سبقت الميلاد بسبب مهارتهم في الملاحة البحرية؛ حيث اتصلوا بأهله، وعرفوا لغتهم، وأقاموا مراكز تجارية في الساحل لتسهيل معاملاتهم التجارية، وكان لحسن معاملتهم للسكان المحليين الأثر الفعال في تمتين علاقاتهم معهم.

وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وما صاحبه من حركة فتوحات واسعة تعرفت الشعوب الإفريقية على تعاليم الإسلام الهادفة ومبادئه العالية.

وقد أخذ طابع هجرة العرب والمسلمين إلى إفريقية شكل الاستقرار الدائمي، ومن ثم تحولت مراكزهم التجارية المؤقتة إلى مراكز دائمية مستقرة، لعبت دورها في نشر الإسلام وأسس الحضارة العربية الإسلامية بين الأهلين الذين تقبلوها قبولاً حسناً؛ مما زاد الإسلام رسوخاً بين أهلها.

إن الفترة الزمنية التي يشملها البحث تمتد حتى نهاية القرن التاسع الهجري، لكن الموضوع لا يتعلق بالمدى الزمني بقدر ما يتعلق بالتوصل إلى رسم الصورة الشاملة والنهائية لما أسفرت عنه مجهودات العرب الحضارية في إفريقيا، والتي بلغت أقصى مداها في القرن التاسع الهجري.

السعر 55 درهماً







تاريخ المسلمين في إفريقية

تأليف

الدكتور تقي الدين عارف الدوري

الدكتورة خولة شاكر الدجيلي

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

BP64.A32 D87 2014
دوري، تقي الدين عارف.
تاريخ المسلمين في إفريقية/ تأليف: تقي الدين عارف الدوري، خولة شاكر الدجيلي.-ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.
تدمك: 2 - 389 - 17 - 9948 - 978
1. الإسلام -- إفريقيا الشرقية. 2. المسلمون في إفريقيا الشرقية
3. العالم العربي -- العلاقات الخارجية -- إفريقيا الشرقية. 4. إفريقيا الشرقية-- العلاقات الخارجية -- العالم العربي.
أ. دجيلي، خولة شاكر. ب. العنوان.





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

تاريخ المسلمين في إفريقية

الإهداء

المرحوم الأستاذ الدكتور تقي الدين عارف الدوري

الأخ الغالي

والصديق الوفي

والعالم الكبير

تعبنا معاً.... لكنك تركتنا مبكراً

عزاؤنا في تراثك العلمي

أهدي جهدنا.... هذا الكتاب

إليك....

د. خولة شاكر الدجيلي

المقدمة

تم استحداث مادة تاريخ الإسلام في إفريقية وجنوبي شرق آسيا في مناهج المرحلة الثانية، لأقسام التاريخ المتناظرة، في كليات التربية في الجامعات العراقية، وذلك بموجب مقررات المؤتمر الثالث للتعليم العالي 21-28/ 7/ 1987.

ونظراً إلى عدم توافر كتاب معتمد لتدريس هذه المادة، فقد ارتأى قسم التاريخ في كلية التربية للبنات وجوب إعداد محاضرات تفي بالغرض المطلوب، لذا قام كل من الأستاذ الدكتور تقي الدين عارف الدوري رئيس القسم و الدكتورة خولة شاكر الدجيلي بإعداد هذه المحاضرات.

ثم تولدت لدى كل من الدكتور تقي الدين والدكتورة خولة فكرة إعداد كتاب مفصل عن تاريخ الإسلام في إفريقية (شرقي إفريقية وغربيها؛ أي [السودان الغربي] والسودان الأوسط)، وهو هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «تاريخ المسلمين في إفريقية».

مؤلفا الكتاب

الباب الأول
تأريخ المسلمين في شرقي إفريقية

الفصل الأول

العلاقات العربية مع شرقي إفريقية قبل الإسلام

تمهيد لدراسة تاريخ العرب والمسلمين في شرقي إفريقية ومصادره

نشهد اليوم بوادر توجه نشط وملحوظ لبحث مجالات انتشار الحضارة العربية والإسلامية خارج الوطن العربي، هذه المجالات التي لم تحظ بالدراسات الكافية التي تفيها حقها من الاهتمام، وتبرز أثرها الحقيقي في مثل تلك المجتمعات التي كان انتشار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية فيها يعدّ نقطة تحول مثيرة ومهمة جداً في مسيرتها الفكرية والاجتماعية عبر قرون عديدة، ولعل أهم هذه المجالات منطقة الساحل الإفريقي الشرقي.

إن المؤلفات الحديثة التي تبحث في قدم الوجود والاستقرار العربي في الساحل، ومن ثم أثر الإسلام والحضارة العربية الإسلامية في شرق إفريقية، تكاد تكون نادرة، على الرغم من أهمية الموضوع وخطره. وبنتيجة مهارة العرب في الملاحة البحرية

فقد عرفوا الساحل الإفريقي الشرقي منذ قرون عديدة سبقت الميلاد، حيث اتصلوا بأهله، وعرفوا لغتهم، وأقاموا مراكز تجارية في الساحل لتسهيل معاملاتهم التجارية، بل إنهم فرضوا ـ منذ عدة قرون قبل الميلاد ـ سيطرتهم السياسية على بعض مناطق الساحل، وكان لحسن معاملتهم للسكان المحليين الأثر الفعال في تمتين علاقاتهم معهم.

وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وما صاحبه من حركة فتوحات واسعة شملت كل مناطق الساسانيين وبعض مناطق الإمبراطورية البيزنطية، تعرفت شعوب هذه الأقاليم إلى تعاليم الإسلام الهادفة ومبادئه العالية. إلا أن القرون التالية ـ ولأسباب سياسية ودينية سوف نعرض لها في بحثنا ـ شهدت تحولاً في توجه العرب والمسلمين إلى الساحل الإفريقي الشرقي، بحيث أخذ طابع هجرتهم إليها شكل الاستقرار الدائم، ومن ثم تحولت مراكزهم التجارية السابقة المؤقتة إلى مراكز دائمة مستقرة، أخذت بالازدهار تدريجياً، وأصبحت أشبه ما تكون بـ (دويلات مدن) لعبت دورها في نشر الإسلام والحضارة العربية الإسلامية بين الأهلين الذين تقبلوها قبولاً حسناً.

وإضافة إلى أثر الأحداث الدينية والسياسية التي شهدها مجتمع الدولة العربية الإسلامية في تكثيف الهجرات العربية والإسلامية إلى الساحل الشرقي، فقد لعبت التجارة دوراً مهماً في هذا الصدد، وشكلت ثاني عاملين ساعدا على نشر الإسلام فيه. وبمرور الزمن أصبح كل الساحل الشرقي مسلماً، ابتداءً من الصومال حتى موزمبيق.

تردد التجار المسلمون كثيراً على ساحل إفريقية الشرقي متابعين بذلك النشاط العربي قبل الإسلام، وكان لمكانتهم الاجتماعية المرموقة وصدقهم وإخلاصهم الأثر الكبير في تقبل الأهلين للإسلام. وشيئاً فشيئاً ازداد اهتمام مدن الساحل بالتجارة، فسيطرت على الطرق التجارية البحرية المعروفة آنذاك، واحتكرت تجارة المواد الثمينة التي تطلبتها دول العالم المتمدن، مثل الذهب والعاج والحديد وغيرها، فزادت غنى، وزاد الإسلام رسوخاً بين أهلها، وبدأت رقعتها بالاتساع تدريجياً نحو الداخل. لكن هذه المدن كانت تختلف عما رأيناه في أقطار إفريقية أخرى في هذه المرحلة نفسها من التطور، فلم يؤسس إفريقية أسر من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا، بل أسستها أسر مسلمة عربية الأصل، أو عربية النسب.

ستتناول هذه الدراسة المنطقة الساحلية الممتدة بين خط عرض 12 شمالاً تقريباً وخط عرض 25,8 جنوباً، وهي التي تشمل منطقة شرق إفريقية، بحيث تضم بحسب المصطلح العصري كلاً من الصومال، وكينيا، وتنزانيا، وموزمبيق، مع أهم الجزر الساحلية التي كانت مراكز إسلامية وتجارية فائقة الأهمية.

إن الفترة الزمنية التي يشملها البحث تمتد حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وقد اضطررنا إلى توسيع فترة البحث الزمنية بسبب أن معالم الحضارة العربية الإسلامية واكتمال انتشار الإسلام كانا عملية طويلة الأمد استغرقت طوال هذه المدة؛ ذلك أن القرون الأولى للهجرة لم تكن كافية لقيام مدن مستقرة وحضارة راسخة، كما لم تؤد إلى انتشار الإسلام في الساحل بأجمعه، ومن هنا يتحتم على الباحث أن يتابع نمو هذه الظواهر الحضارية حتى اكتمالها ونضجها. وبتعبير آخر فإن الموضوع لا يتعلق بالمدى الزمني وبعدد

القرون بقدر ما يتعلق بالتوصل إلى رسم الصورة الشاملة والنهائية لما أسفرت عنه مجهودات العرب الحضارية في الساحل، والتي بلغت أقصى مداها في القرن 9هـ/ 15م، ومع ذلك كان لابد لنا من أن نقدم المعلومات في هذا الصدد المتعلقة بالقرون الأولى؛ لأنها ضرورية لمعرفة الخلفية التي بُني عليها صرح الحضارة العربية الإسلامية في القرون التالية.

استوجبت مادة البحث تقسيمه إلى أربعة فصول، عنى الفصل الأول بمعرفة وتتبع أقدم العلاقات التي ربطت العرب بساحل إفريقية الشرقي، وتحديد النطاق الجغرافي لمصطلحي «بلاد الزنج» أو «أرض الزنج» اللذين أطلقهما الجغرافيون العرب على ما يسمى الآن (إفريقية الشرقية)، حيث اتفق المصطلحان - القديم والجديد - على تحديدها ابتداءً من الصومال حالياً حتى موزمبيق. كما اهتممنا بمعرفة أصول الساحل السكانية، وأولى الأقوام التي سكنته، والهجرات القديمة التي وصلت إليه من قارة آسيا واستقرت فيه، ثم تمازج هذه الأقوام مع الأهلين، ومن ضمنهم العرب على الأخص، وما أدى إليه هذا من نشوء الجنس السواحيلي ولغته.

كان العرب أهم رواد هذه المنطقة على الإطلاق، بحيث أطلق الكتاب اليونان اسم إحدى مدن جنوب الجزيرة العربية التي ازدهرت قبل الميلاد بقرون عدة ـ وهي (أوسان) ـ على الساحل فسموه بـ «قارة أوسانيا» أو «الساحل الأوساني». وكانت السفن العربية تواصل رحلاتها إلى الشاطئ الإفريقي، كما اختير البحارة ممن عرفوا المنطقة وأهلها ولغتها جيداً.

أما الفصل الثاني فقد تناول بالبحث المراكز العربية والإسلامية التي نشأت في الساحل، وذلك منذ بدايات الاستقرار العربي والإسلامي فيه، ودوافعه، والهجرات العربية والإسلامية العديدة إلى الساحل، وأماكن استقرارها، والمدن التي أسستها. والجدير بالذكر هنا أن مادة هذا الفصل اعتمدت على الروايات المحلية المتداولة في الساحل، والتي انتقلت من جيل إلى آخر، حيث دونتها بعض المخطوطات المحلية، مثل (تاريخ باتا)، و(خبر اللامو)، و(السلوة في أخبار كلوة)، وكذلك على مؤلفات الآثاريين والمنقبين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عن نتائج أبحاثهم

ومشاهداتهم.

كان منهجنا في بحث هذا الموضوع المحافظة على وحدته، وعدم تشتيته، لذا فقد عنينا ببحث تاريخ كل هجرة، ثم مكان استقرارها الأول، ومتابعة تطورها خلال الفترات التي أعقبت أول استقرار لها، ثم ازدهارها الحضاري، ونمو مؤسساتها المختلفة، والمناطق التي ارتبطت بها سياسياً بفعل تعاظم قوتها، كما حدث مثلاً لمقادشو، أو باتا، أو كلوة. وقد تناولنا هذه الهجرات بحسب تسلسلها الزمني، كما حاولنا أن نحدد تواريخ حدوثها، ومكان استقرارها قدر الإمكان، نظراً إلى اختلاف المؤرخين وتناقضهم في هذا الصدد.

وقد أكدنا على أن مصدر هذه الهجرات واحد تقريباً، وهو منطقة الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية. كما تناول هذا الفصل بالبحث أهم المراكز والمدن التي استقر فيها العرب والمسلمون في الساحل، كمقادشو، وباتا، ولامو، وكلوة، وماليندي، وممومباسا، وزنجبار. وتحدثنا عن وصول العرب والمسلمين إلى أقاصي بلاد الزنج؛ وهي سفالة، كما تناولنا بالبحث طبيعة العلاقة التي ربطت مدن الساحل بالدولة العربية الإسلامية. وقد توقفنا في بحثنا لهذا الموضوع عند أواخر القرن 9هـ/ 15م؛ أي عند بداية الغزو البرتغالي للساحل، واستيلائهم عليه، وتدميرهم لمدنه وحضارتها العربية الإسلامية الزاهرة.

أما الفصل الثالث فقد كرسناه لبحث التجارة؛ فوجهنا اهتماماً إلى الصلات التجارية العربية الإسلامية مع الساحل الإفريقي الشرقي، مؤكدين دور العرب والمسلمين الملاحي، ومهارتهم البحرية، وتضلعهم بأمور الفلك، ومعرفتهم بمواسم هبوب الرياح الموسمية التي كانوا أول من عرفها واستخدمها أحسن استخدام في تنظيم رحلاتهم التجارية في المحيط الهندي ومع الساحل الإفريقي الشرقي موضوع البحث، حيث كثر ورودهم إليه لينقلوا إلى سكانه ما يحتاجون إليه من مواد، وليحصلوا على السلع الثمينة ليزودوا بها مدن العالم في الشرق الأقصى وأوربا. وقد برز دور العرب كوسيط تجاري لعب دوراً بالغ الأهمية في التجارة العالمية آنذاك، لأنهم بسيطرتهم على مناطق الساحل الشرقي سيطروا على إنتاج وتصدير العديد من المواد

الأولية الثمينة والمرغوبة.

وقد عنينا بدراسة عمليات التنظيم التجاري التي شهدها الساحل، واتصالات سكانه التجارية مع المناطق الداخلية لجلب ما يحتاجون إليه من مواد، وأنواع البضائع التي جلبها العرب معهم لمبادلتها بالمواد الخام التي يحصلون عليها. ويظهر لنا أن نظام المقايضة كان شائع الاستعمال في معظم مدن الساحل، كما أنشئت النظم الضريبية لتنظيم التجارة الواردة والصادرة بحيث تناسبت هذه الضرائب مع طبيعة المواد. وبسبب ازدهار مدن الساحل كان من الطبيعي أن تنمو عندهم تقاليد تجارية جميلة وطريفة في طريقة استقبال السفن ومعاملة التجار. وقد بحثنا أيضاً الرحلات التجارية، والطرق البحرية التي اعتاد البحارة العرب الإبحار فيها، وأهم الموانئ التي اشتهرت بفعل تجارتها الواسعة، سواء في المنطقة العربية أو الساحل. تطرقنا كذلك إلى وصف السفن العربية، ومناطق صناعتها في الساحل. وقد خصصنا الجزء الأكبر من هذا الفصل لبحث أنواع المواد المصدرة من الساحل خصوصاً، مع الإشارة إلى المواد المجلوبة إليه أيضاً.

وحددنا الفصل الرابع لدراسة أثر الحضارة العربية الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي، منوهين إلى أن خصائص الإسلام الفريدة مكنته من البقاء والانتشار في مختلف المجتمعات التي حل فيها، حيث أسهم بشكل فعال في تطوير حضاراتها. إلا أن خصائص هذه المجتمعات أثرت بدورها على الحضارة العربية الإسلامية، مما أدى إلى ظهور مزيج فريد، إن دل على شيء فإنما يدل على مدى المرونة التي تمتع بها الإسلام، وهي ما مكنته من معالجة الاختلافات في البيئات المحلية التي انتشر فيها.

كما تناول هذا الفصل بالبحث عوامل ظهور الجنس السواحيلي، الذي نشأ من تزاوج البانتو الأفارقة بالعرب خصوصاً وغيرهم من الوافدين إلى منطقة الساحل، مؤكدين أن هذا الجنس بدأ بالظهور في فترات مبكرة ربما تعود إلى ما قبل الميلاد. كما عنينا بإعطاء فكرة عن مدى تأثر اللغة السواحيلية باللغة العربية.

وعمدنا في هذا الفصل أيضاً إلى دراسة طرز وفنون العمارة في الساحل، كطرز بناء المدن والمساجد والقبور والحصون والأسوار، وأكدنا على التأثير العربي والإسلامي في هذا المجال. وتناولنا مظاهر الحياة الاجتماعية، والزراعة، والصناعة في مدن الساحل، إضافة إلى بحث بعض المؤسسات الإدارية، مثل عملية سك النقود وتأثرها الواضح بالطرق العربية الإسلامية في ضرب النقود. كما بحثنا أيضاً طرائق التعليم في المساجد، ودور الجوامع في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي في الساحل، واستخدام اللغة العربية فيه، إضافة إلى اللغة المحلية.

أما بالنسبة إلى مصادر البحث فالحق أن من الصعب جداً تحديد مصادر ومراجع معينة يمكن اعتبارها مصادر أولية أو رئيسة، فطبيعة الموضوع جعلت مادته قليلة ومتناثرة، وبخاصة عند كتابنا ومؤرخينا القدامى الذين لم يهتموا بذكر أي شيء عن «أرض الزنج»، أما المتأخرون منهم فقد وجهوا اهتماماً قليلاً إلى منطقة الساحل، فأوردوا إشارات ضئيلة جداً، إلا أنها ذات أهمية في هذا البحث.

ويمكننا أن نقسم طبيعة المصادر التي اعتمدنا عليها إلى ثلاث مجموعات:

1ـ المصادر المحلية: من المؤكد وجود عدد من المصادر المحلية التي كُتبت في منطقة الساحل، والتي تناولت تواريخ أحداثه بالتفصيل، إلا أن معظم هذه التواريخ غير موجودة الآن بسبب ضياعها أو تلفها في أثناء الغزو البرتغالي للساحل في أواخر القرن 9هـ/ 15م؛ إلا أننا لم نعدم وجود بعض التواريخ المحلية المختصرة التي اعتمدت على الروايات الشفوية المتناقلة، سواء أكانت روايات عربية أم سواحلية، وهي ذات قيمة تاريخية كبيرة، كما أنها تشكل عماد التواريخ المحلية الضائعة التي أشرنا إليها. ومن هذه التواريخ مخطوطة (خبر اللامو) لمؤلفها شيبو فرج بن حميد الباقري اللاموي، وهي مخطوطة سواحلية ترجمها إلى الإنكليزية ونشرها William Hichens, Bantu Studies, Vol X 11, 1939، وقد ترجمت بشكل حرفي، بحيث بدت بعض فقراتها مبهمة وغير واضحة. وقد وضع Hichens الترجمة الإنكليزية في مقابل كل صفحة سواحلية. وهي مخطوطة مهمة سدت نقصاً واضحاً عن تاريخ لامو، وخاصة فيما يتعلق

بوصول أولى الهجرات العربية إليها من بلاد الشام، ومكان استقرارها، وتوافد الهجرات إليها، كما اهتم المؤلف بذكر الحروب والمنازعات بين سكان لامو الأوائل ومن جاورهم، وانتصارهم على باتا وومباسا، كما تطرق بشكل بسيط إلى ذكر بعض النتف عن إدارة لامو.

أما مخطوطة (تاريخ باتا)، فقد نشرتها A. Werner في مجلة: Journal of African History, Vol.XIV, London – 1915.، ويبدو أن هذه المخطوطة هي نسخة ملخصة لتاريخ أكبر يدعى (ملوك باتا) دمر في أثناء الغزو البرتغالي لمدينة ويتو عام 1890م. إلا أن أحد أفراد العائلة الحاكمة أهدى قسماً منها إلى الكابتن Stigand الذي نشرها في كتابه: أرض الزنج The land of Zing، كما كتب ملخصاً عنها بالسواحيلية.وهناك عدة نسخ لهذه المخطوطة، إضافة إلى نسخة Stigand، ومنها نسخة Hollis وهي التي قامت Werner بنشرها. وHollis هذا كان يشغل منصباً رسمياً في شرق إفريقية عام 1911، ويبدو أن المخطوطة نسخت عام 1903م بأمر من والي لامو آنذاك المدعو عبد بن محمد، من مخطوطة كانت قد كتبت من قبل محمد بن فومو عمرى النبهاني، الذي لقب ببوانا كتيني، وقد حصل هذا على معلوماته من جده محمد بن بوانا مكو Bwana Mkuu، الملقب: ببوانا سمبا؛ أي: الأسد، وإن كنا لا نعرف فيما إذا كان قد أخذها عنه شفهياً أو وجدها مدونة. وهناك نسخة أخرى كتبها Reddie الذي كان يشغل منصباً رسمياً في لامو، حيث قام بكتابة موجز لتاريخ باتا مستنداً إلى معلومات أخذها عن شخص يدعى Mshom bin Kombo. ولا تتفق هذه النسخ الثلاث في المعلومات التي توردها.

والملاحظ على المخطوطة أنها تبدأ بذكر مجيء النبهانيين إلى باتا عام 600 هـ بقيادة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني، وزواجه بابنة حاكمها المدعو البتاوي. والمعتقد أنها نسبة إلى قبيلة البتاوة العربية الحضرمية الأصل، وكيف انتقل الملك إلى النبهانيين، ولا تذكر لنا المخطوطة شيئاً عن التواريخ التي سبقت عام 600هـ كما أنها لا تشير إلى تاريخ تأسيس باتا، الذي يحتمل أنه كان في عام 69 هـ/ 689م على يد الأخوين سليمان وسعيد ابني الجلندي اللذين فرا من

عُمان بعد فشل حركتها ضد الخلافة الأموية. وتستطرد المخطوطة فتتحدث عن ازدهار قوة باتا وتوسعها، والمناطق التي سيطرت عليها، إضافة إلى ذكر أسماء سلاطينها. وتشير المخطوطة إلى تاريخ مجيء البرتغاليين إلى الساحل، ومعاملة السكان لهم، وتستمر في ذكر أحداث القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

وتحتل مخطوطة (السلوة في أخبار كلوة) مكانة ممتازة، وهي لعبد الله الصوافي، نقلاً عن أوراق الشيخ محيي الدين الزنزباري، وقد كتبت باللغة العربية، وهي محفوظة الآن في مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 2666، كما ترجمها إلى الانكليزية ونشرها مع النص العربي: Strong, Journal of The Royal Asiatic Society. April – 1895، وهي نسخة ملخصة عن تاريخ عربي كبير يدعى (السنة الكلوية)، والذي لا توجد منه أية نسخة الآن. وقد حصل السير جون كرك المقيم البريطاني في زنجبار على ملخص الشيخ محيي الدين الزنزباري لها بعد وفاته، والذي كان بعنوان (السلوة في أخبار كلوة)، حيث قام بكتابة نسخة منها قبل إعادتها لسلطان زنجبار المدعو برغش بن سعيد، وهي النسخة التي أهداها إلى مكتبة المتحف البريطاني. وقد عثر البرتغاليون على نسخة أخرى من المخطوطة حملوها معهم إلى لشبونة، حيث ترجمت واستخدمت من قبل بعض مؤرخيهم، مثل: دي باروس. وتقع المخطوطة في (17) ورقة من الحجم المتوسط، مكتوبة باللغة العربية المتأثرة نوعاً ما باللغة المحلية، وقد ركزت على الأحداث السياسية التي شهدتها كلوة منذ قدوم أول هجرة إليها حتى مجيء البرتغاليين، كما ذكرت أسماء السلاطين، وتواريخ حكمهم. وقد جعل المؤلف مخطوطته في مقدمة وعشرة أبواب، هي:

الباب الأول ـ في ذكر وصول أول هجرة إلى كلوة.

الباب الثاني ـ يتناول ذكر اضطراب الأمر في كلوة، وسيطرة المتمندلين.

الباب الثالث ـ في ذكر قصة أبي المواهب.

الباب الرابع ـ يركز على حكم السلطان الملك العادل الملقب بالمطر الجديد.

الباب الخامس ـ في انتقال الملك إلى عائلة أبي المواهب.

الباب السادس ـ في ذكر ولاية الحسن بن سليمان، وقصة الأمير محمد كواب.

الباب السابع ـ يبحث ولاية السلطان الفضيل بن السلطان سليمان.

الباب الثامن ـ ولاية الحاج محمد بن ركن الدين الدابولي.

الباب التاسع ـ يذكر ولاية السلطان محمد مكات.

الباب العاشر ـ يتناول ذكر ولاية الملك العادل السلطان محمد بن السلطان الحسين.

والملاحظ على هذه الأبواب أنها مختصرة جداً، مما يؤكد الظن بوجود نسخة مفصلة لتاريخ كلوة أخذت عنها هذه النسخة الملخصة.

وهذه المخطوطات، على الرغم من أنها أغنت البحث من جوانب عدة، إلا أنها تعاني من النقص في بعض جوانبها، إضافة إلى أن معلوماتها تتناقض أحياناً مع نتائج التنقيبات الأثرية التي أجريت في الساحل، وبخاصة فيما يتعلق بتواريخ الهجرات العربية والإسلامية إلى الساحل، فهي مثلاً أكدت الوجود العربي في الساحل، إلا أنها أرجعته إلى فترات متأخرة نسبياً عما أثبتته التواريخ والمصادر المحلية، كما أنها أغفلت في بعض الأحيان أماكن استقرار هذه الهجرات.

إن استناد بعض هذه المصادر على الروايات الشفوية يجعلنا نتساءل فيما إذا كان هناك سند تاريخي أصيل يشكّل المصدر الرئيس الذي استقت هذه الروايات معلوماتها عنه؟ ونحن نميل إلى ترجيح هذا الاعتقاد، بدليل أن الإشارات العديدة تؤكد وجود تواريخ محلية قديمة ومفصلة ومكتوبة باللغة العربية تناولت أحداث الساحل ضاعت بفعل أحداث معينة. كما أن من الممكن أن تتأكد قيمتها إذا ما شرحت وقورنت بالمصادر والمواد الأخرى. وعلى أية حال فإن من المهم جداً أن نتعرف إلى المعلومات التي يعتبرها أي شعب من الشعوب تاريخاً له مهما كانت مضطربة أو مشوشة، إضافة إلى أن بعض هذه المخطوطات تعاني من نقص في موادها، إلا أننا نستطيع أن نغطي هذا النقص من موارد أخرى كالنقود التي سكت في الساحل، أو

نتائج التنقيبات الأثرية، والتي كان لها مجتمعة الفضل في تكوين صورة واضحة عن موضوع البحث.

وبالنسبة إلى النقود فقد كان لها دور هام: فكثيراً ما أوردت كتب التواريخ معلومات غير وثيقة عن أسماء الحكام أو سنوات حكمهم، إلا أنها عدلت على ضوء المعلومات المستقاة من النقود التي سكت في عهودهم وحملت المعلومات الصحيحة عنهم. ومعظم النقود التي عثر عليها، والتي سكت في الساحل خاصة بكلوة بالدرجة الأولى، وبعضها يعود إلى مافيا وزنجبار، إضافة إلى عدد كبير من مختلف أنواع النقود التي استعملت في مختلف أرجاء الدولة العربية الإسلامية التي يدل وجودها على عمق الصلات التجارية بين المنطقتين. ونلاحظ أن العديد من مدن الساحل أسست دوراً لضرب النقود، كما ضرب السلاطين أنواعاً عدة منها، نقشوا أسماءهم عليها مع آيات قرآنية ونقوش بالخط الكوفي. ومن كثرة النقود أو قلتها نستطيع أن نستنتج حالة المدينة السياسية، ومدى قوتها أو انحلالها، كما نستطيع أن نربط بين كثرة أنواع النقود التي تسكها مدينة ما، ككلوة مثلاً، ومدى ازدهارها وقوتها. وقد حملت نقود الساحل صفات فنية مميزة؛ فقد استخدم فيها سجع مناسب مع اسم السلطان، كما استخدم السجع الذي يتناول صفات الخالق عز وجل. والملاحظ أن ألقاب خلفاء المشرق نفسها كالمعتمد على الله، والمقتفي بالله قد استخدمت في نقود الساحل، كما وجدت بعض النقود التي تحمل أبياتاً مقفاة من الشعر.

2 ـ المصادر العربية القديمة: غطت بعض المخطوطات العربية القديمة جزءاً من جوانب البحث، كمخطوطة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي. وعلى الرغم من معلوماته المفصلة إلا أنه وقع في بعض الأخطاء، وخاصة في ترتيب بعض المواضع، أو تحديد المسافات التي تفصلها بدقة، كما أنه لم يذكر كلوة ومقادشو، على الرغم من أن تأسيسهما يعود إلى فترة سابقة لعصره.

وتجدر الإشارة إلى مخطوطة (تاريخ عُمان) لمؤلف مجهول، وهي محفوظة في مكتبة المتحف

البريطاني تحت رقم or. 6568، ويعتقد أن مؤلفها من مؤرخي القرن 12هـ/ 18م، وهي تتكون من (123) ورقة، تنتهي حوادثها بسنة 1783م. إلا أنها ركزت على تاريخ عمان الداخلي، ولم تفد البحث إلا من حيث تأكيد حدوث هجرة الأخوين سليمان وسعيد ابني الجلندي من عمان إلى الساحل.

وهناك مخطوطات أخرى رجعنا إليها انطوت على إشارات قليلة جداً تتعلق ببعض جوانب الموضوع، وقد ثبتنا أسماءها في قائمة المصادر، ولم نجد داعياً للتحدث عنها لقلة الإشارات التي وردت فيها فيما يتعلق بموضوع البحث.

وتأتي في مقدمة المصادر العربية القديمة كتب الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين التي كان لها نفعها الكبير، وقد احتل أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي مكانة مهمة من حيث طبيعة المعلومات التي أوردها، وتعتبر كتبه من المصادر البالغة الأهمية، وخاصة فيما يتعلق بالفترات المبكرة. وقد استفاد من المعلومات المتوافرة في عصره، إضافة إلى ما شاهده هو بنفسه خلال رحلاته الكثيرة التي شملت شرق إفريقية. وقد تميزت كتاباته بالسعة والشمول، وخاصة في كتابه المعروف «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، حيث كان للمعلومات التي أوردها عن بلاد الزنج، وأصل الزنج، وأماكن استقرارهم، إضافة إلى وصفه لعادات الأهلين وملبسهم ومأكلهم، ونوعية المواد الثمينة التي تتوافر لديهم، وما ذكره كذلك عن طبيعة الرحلات التجارية بين الساحل والخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية عموماً، أهمية كبيرة ـ رغم ضآلتها ـ في رسم صورة عن بعض جوانب هذا الموضوع الشائك.

وتأتي إشارات العلامة أبي الريحان البيروني في كتبه: «في تحقيق ما للهند» و«تحديد نهايات الأماكن» و«القانون المسعودي» و«الجماهر في معرفة الجواهر»، حول بلاد الزنج وسفالة، وأنواع المواد الثمينة التي تزخر بها أرض الزنج، إضافة إلى طرق المعاملة والبيع والعقود لتثري بحثنا في جانب مهم منه.

كما أورد لنا ياقوت الحموي في معجمه نتفاً متناثرة من المعلومات التي سدت نقصاً في

معرفتنا عن بعض المدن العربية الإسلامية في الساحل، وطبيعة الإدارة والحكم في بعض مدنه، كمقادشو مثلاً، وإن لم يُذكر لنا شيء يذكر عن كلوة مثلاً، على الرغم من شهرتها، إضافة إلى بعض الإشارات عن بعض منتوجات هذه المنطقة، كالأخشاب وبعض المزروعات مثلاً. وكان لابن سعيد المغربي الذي استقى مادته عن شرق إفريقية من معلومات بحار يدعى ابن فاطمة أبحر على طول الساحل الشرقي حتى وصل سفالة ومدغشقر، كما يشير إلى ذلك كراتشكوفسكي[1]. وقد دون ابن سعيد معلوماته في مخطوطة «عجايب الأقاليم السبعة»، المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم or. 1524 وهي مخطوطة ضخمة نهج فيها منهج الجغرافيين العرب في تقسيم العالم إلى أقاليم عدة، وشرح كل إقليم من الناحية الطبيعية والجغرافية على حدة، مع ذكر أهم مميزاته. كذلك رجعنا إلى كتابيه «الجغرافيا» و«بسط الأرض في الطول والعرض»، وقد تشابهت المعلومات التي أوردها فيهما تشابهاً كلياً، ولكن هذا لم يمنع من أنه كان لها دور في الكشف عن بعض المعلومات المهمة فيما يتعلق بمناطق الساحل، وأهله، وعاداتهم، ومنتوجات المنطقة المهمة. كما أفدنا فائدة محققة من كتابي «نخبة الدهر في عجايب البر والبحر» لشيخ الربوة الدمشقي، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري، على الرغم من أن مادتهما عن بلاد الزنج قليلة ومتناثرة. يضاف إلى ذلك ما كتبه أبو الفدا في «تقويم البلدان» الذي استقى مادته من المصادر التي سبقته، ومن القصص المتداولة بين الرحالة والتجار. أما كتاب «تحفة النظار» لابن بطوطة فيشكل بحد ذاته مصدراً مهماً جداً كأهمية كتاب «مروج الذهب» للمسعودي؛ لأن مؤلفه سافر على طول الساحل الشرقي الإفريقي في رحلته الثانية، فزار مقادشو وومباسا، ووصل إلى كلوة. وكانت معلوماته التي أوردها عن مقادشو رائعة جداً مقارنة بما أورده عن ومباسا وكلوة، وعلى الرغم من أنه وقع في عدة التباسات إلا أن هذا لا يقلل أبداً من قيمة معلوماته.

والجدير بالذكر أن مصادر تاريخ عمان التي اطلعنا على قسم منها لم تضف إلى البحث سوى

---

(1) أغناطيوس يوليا نوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، موسكو، 1957، القسم الأول، ص 359.

حقيقة واحدة مهمة، هي تأكيدها على أن أول هجرة عربية بعد الإسلام إلى الساحل هي هجرة الأخوين سليمان وسعيد ابني الجلندي، حاكمي عمان، بعد انكسار جيشهما أمام الجيش الأموي، وفرارهما إلى بلاد الزنج حيث استقرا هناك. ومن هذه المصادر مخطوطة «كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة»، وهي في جزأين، وتوجد في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة بغداد تحت رقم 2005، وتتألف من مقدمة وأربعين باباً، تتناول تاريخ عمان من قبل الإسلام حتى عام 1728، وقد اعتمد فيها على «كتب السلف من علماء الإباضية»[1]، كما وضحت استقرار القبائل العربية في عمان. وكذلك كتابي «الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين» و«الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان» لابن زريق. وقد حقق الكتاب الأول ونشره كل من عبد المنعم عامر ومحمد مرسي، وترجمهُ بادجر Badger، ونشره بالإنكليزية تحت اسم «أئمة وسادة عمان». ويتناول الكتاب تاريخ عمان من عام 661هـ – 1856م، ويذكر فيه قبائل عمان وتاريخها خلال العصرين الأموي والعباسي، وإن كانت أهمية الكتاب بالدرجة الأولى تتعلق بفترة حكم البوسعيد. أما كتاب «الشعاع الشائع» فهو عبارة عن مجموعة قصائد تناولت ذكر أحداث عمان، ابتداءً بالإمام الجلندي بن مسعود، انتهاء بعهد الإمام سلطان بن مرشد اليعربي عام 1156هـ مع ذكر لطريقة انتشار الإسلام في عمان، وشيوع المذهب الإباضي الخارجي فيها، والمعارك التي نشبت بينهم وبين الأمويين والعباسيين. أما مخطوطة «أنساب العرب» لسلمة بن مسلم العوتبي الصحاري (من القرن 5هـ/ 11م) فلم تذكر شيئاً عن صلة العمانيين بالساحل، على الرغم من أنها تناولت حركات القبائل العربية: وخاصة العمانية، وهجراتها، وأماكن استقرارها. وربما يرجع اهتمام المؤرخين العمانيين بنشر كل ما له علاقة بانتشار المذهب الإباضي الخارجي[2] هو السبب في عدم تطرقهم إلى علاقات العمانيين الخارجية، باعتبارها لم تساهم إلا قليلاً في نشر المذهب الإباضي، وخاصة في منطقة الساحل.

3 ـ المراجع الأجنبية: تتمثل بعدد كبير جداً من المراجع التي عني مؤلفوها بدراسة الساحل

(1) عمر، الفاروق، مقدمة في دراسة التاريخ العماني (الخليج العربي)، بغداد ـ 1979، ص 127.
(2) عمر، الفاروق، مقدمة في دراسة التاريخ العماني، ص 18.

الإفريقي الشرقي. وهنا يحسن أن نشير أولاً إلى مصدر قديم يعود إلى القرن الأول الميلادي، أو بداية القرن الثاني الميلادي، وهو كتاب (الطواف حول البحر الإرتيري) (The Periplus of The Erythraean Sea). فبنتيجة توسع روما التجاري خلال العصر المسيحي ألف تاجر يوناني مجهول كان يعيش في مصر كتاباً يعتبر أقدم وثيقة تتعلق بشرق إفريقية. ويبدو أن معلوماته تستند إلى خبرة كاتبها، إلا أن من الصعب مطابقة أسماء بعض الأماكن التي وردت فيه مع التسميات التي أوردتها المصادر التالية. وقد زودنا هذا الكتاب بمعلومات قيمة عن وضع الساحل الإفريقي، والتجارة العربية معه، وسيطرة العرب السياسية على بعض أجزائه، إضافة إلى ذكر أنواع التجارات الواردة إلى الساحل أو المصدرة منه.

ونعود للحديث عن المراجع الحديثة، والكثير منها ذات قيمة كبيرة، وتتركز قيمتها في أن مؤلفيها هم من الذين زاروا منطقة الساحل، واهتم بعضهم بالتنقيب فيه، فخرجوا بنتائج وأفكار واستنتاجات نشروها في مؤلفاتهم. إن هذه الدراسات قيمة إلى أبعد الحدود، وهي تكشف لنا كثيراً من الغموض والإبهام في المعلومات اللذين تعاني منهما المصادر المحلية أو العربية القديمة. ولم تملك هذه الدراسات إلا أن تؤكد قدم الوجود العربي في الساحل، وانتشار الإسلام فيه، حيث عاش الساحل في ظلهما حقباً طويلة من الزمن. وتأتي في مقدمة هذه الكتب ما كتبه الآثارى J.Kirkman حول نتائج تنقيباته في الساحل، ومنها كتابه The Arab City of Gedi. ومن عنوانه نستنتج عمق الوجود العربي في الساحل، بحيث لم يستطع هذا المؤلف إلا أن يظهره ويجسده في عنوان كتابه، فقد تناول هذا البحث القيم تاريخ تأسيس جيدي في كينيا حالياً، والأسباب الموجبة لتأسيسها، كما عني بدراسة جامعها، وأكد على طراز بنائه العربي، كما اهتم المؤلف بدراسة قطع الفخار والخزف والأواني الزجاجية التي جلبت من سيراف أو زبيد أو سامراء، إضافة إلى وجود الخزف الصيني، وهذه كلها تدل على سعة تجارة الساحل. كما اهتم Kirkman بدراسة جوامع وقبور الساحل، وبخاصة في Kilifi، وخرج بنتيجة مؤكدة، وهي تشابهها مع طرز البناء العربية. ومعلوماته الغزيرة جداً أفادتنا في رسم صورة واضحة عن بعض جوانب الحياة والمجتمع في الساحل في ظل العرب والإسلام.

وقد بذل Mathew الاهتمام ذاته، حيث قام بإجراء العديد من التنقيبات، ودراسة نتائجها، وتركز اهتمامه بمنطقة سونغو منارا في كلوة، فحدد موقعها وتخطيطها، ودرس جامعها، وزينته والنقوش المستخدمة فيه، كما ركز على دراسة القبور وشواهدها المكتوبة بالعربية، إضافة إلى تطرقه لشرح بعض جوانب تاريخ كلوة.

وقد أفادتنا مؤلفات N.Chittick فائدة محققة في توضيح كثير من الجوانب المبهمة من تاريخ الساحل، من حيث نطاقه الجغرافي، وسكانه، وتواريخ الهجرات العربية الإسلامية إليه، حيث اهتم بنقدها وتحليلها بدقة علمية، إضافة إلى ما أورده من معلومات حول كثير من طرز بناء المدن أو البيوت والمساجد. وقد كان لمؤلفات Freeman – Grenville الأهمية نفسها في توضيح كثير من جوانب هذا البحث، وخاصة في دراسته القيمة عن سلاطين كلوة، بعد مجهوده الكبير في مقارنة النصين العربي والبرتغالي لمخطوطة (السلوة). إضافة إلى ما أفادتنا به دراسته حول النقود، وخاصة تلك التي سكت في كلوة، كما أنه تطرق إلى بحث تاريخ وصول العرب والمسلمين إلى الساحل، وأماكن استقرارهم، وتوسع مدن الساحل وازدهارها السياسي والاقتصادي، وخاصة في كتابه: The Medieval History of The Coast of Tanganyika.

وكان لكتابَيْ Oliver and Mathew, History of East Africa. و The Cambridge History of Africa.

قيمة كبيرة، حيث تناولا بالبحث تواريخ الهجرات العربية إلى الساحل، والمدن التي أسستها وتطورها، كما تطرقا إلى ذكر بعض أنواع المزروعات والصناعات، ومقدار الضرائب المفروضة على مواد التجارة الواردة أو الصادرة من الساحل.

إن الشواهد الأثرية كثيراً ما تختلف عن الأخبار التي أوردتها الروايات والمصادر المحلية، وبسبب هذا التناقض فإن بعض المؤرخين المحدثين يعتقدون أن الأدلة الآثارية هي المعول عليها في حسم الحقيقة أو الحدث التاريخي. إلا أننا لا نستطيع أن نهمل قيمة الروايات المحلية والمخطوطات التي تتحدث عن قدم الوجود العربي والإسلامي في الساحل، وربما يكمن الحل

في المستقبل في العثور على آثار تؤكد صحة تلك الأخبار والروايات.

ولابد من التنويه أخيراً بأن الباب الأول من هذا الكتاب كان في الأصل أطروحة دكتوراه قدمتها المؤلفة إلى قسم التاريخ ـ كلية الآداب جامعة بغداد لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ـ حضارة وفكر ـ بإشراف المرحوم الأستاذ الدكتور فيصل السامر، الذي كان بمثابة الأب والمرشد العلمي لي، تغمده العلي القدير برحمته.

ومن دواعي سرورنا وامتناننا أيضاً تقديم جزيل الشكر لكل الذين أعانونا في هذا البحث، سواء بتقديم المعونة العلمية أو الإرشاد أو التنويه ببعض المصادر. مع تحية وفاء إلى موظفات وموظفي المكتبة المركزية بجامعة بغداد، ومكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب، ومكتبة المتحف البريطاني، ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن؛ لما بذلوه من جهد واضح في مساعدتنا.

أولاً ـ النطاق الجغرافي:

أطلق تعبير بلاد الزنج[1] للدلالة على جزء من ساحل إفريقية الشرقي، يمتد طولًا من جنوب مقادشو، وتحده حدود طبيعية هي: المحيط الهندي من الشرق، ونهر روفما[2] Ruvuma من الجنوب، والبحيرات الكبرى من الغرب، أما من الشمال فتحده الصحراء. فحدوده هذه تعطيه كياناً منفصلاً عن السودان والحبشة في الشمال، وغابات الكونغو غرباً[3].

وقد استخدم الجغرافيون العرب مصطلح بلاد الزنج للدلالة على جزء معين من الساحل الذي قسموه إلى أربعة أجزاء، لكل منها خصائصه، هي:

1 ـ بربرا، أو ناحية بربرا من بلاد الزنج والحبشة، وتشكل الآن السواحل الشرقية والشمالية من الصومال. إن الامتداد الأخير سمي في الفترات التالية بساحل بنادر[4]، ونستطيع القول إن هذه المنطقة تغطي الآن منطقة القرن الإفريقي، وتمتد إلى شمال ويبي شيبلي[5] Shebele.

---

(1) استخدم المؤرخون العرب هذه الكلمة بتسميات مختلفة، فقد ذكرها البلاذري بلفظة «أرض الزنج»، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، مخطوطة مايكروفلم، لفلم الأول، ص957؛ وسماها المسعودي «بلاد الزنج»، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط3 ج1، القاهرة ـ 1958، ص107؛ أو «جزيرة الزنج»، المسعودي، أخبار الزمان (منسوب) تحقيق: عبد الله الصاوي، ط1، القاهرة ـ 1938، ص 36؛ وذكرها ابن تغري بردي باسم «بلاد الزنج»، جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ـ 1929، ص296. القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ـ 1960، ح2 ص22. و«الزِنج والزَنج»، جيل من السودان، ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، بيروت ـ 1955، ج2، ص290، مادة زنج.

(2) نهر روفما: يقع في موزمبيق Kirby, c, East Africa. Kenya, yganda and Tenzania, London, 1968, P. 4.

(3) المسعودي، مروج، ج1، ص107. وحول وصف الخليج أو البحر البربري هذا يمكن مراجعة: قدامة بن جعفر، «الخراج وصنعة الكتابة»، نشر: دي غويه، ليدن ـ 1889 ص230؛ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، ط1، ح1، القاهرة ـ 1906، ج1، ص20؛ البكري، أبو عبيد الله عبد الله، المسالك والممالك، مخطوطة مصورة، مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة بغداد، رقم 1860، ح1، ص 101. أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل، تقويم البلدان، تحقيق: رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ـ 1840 ص 25 ـ 26.

(4) Trimingham; The Arab Geographers and the East African Coast, P. 120.

(5) ويبي شيبلي: أحد نهرين تتجمع فيهما أنهار الصومال، أما الآخر فهو نهر جوبا Guiba الذي يصب في المحيط الهندي جنوب خط الاستواء، أما نهر ويبي شيبلي فيمر على مقربة من مقادشو قبل أن يغور في الصحراء جنوب مركة. ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، ط1، بيروت ـ 1970، ص 214.

2 ـ أرض الزنج التي تمتد من ويبي شيبلي إلى حدود تانغا Tanga، أو الطرف الجنوبي لجزيرة بمبا.

3 ـ ومن بمبا تمتد أرض سفالة التي لا تعرف نهايتها الجنوبية، والتي ربما تكون في منطقة نهر لمبوبو Limpope(1).

4 ـ وبعد هذه المنطقة تأتي أرض الواق واق الغامضة(2).

ويقول المسعودي إن الزنج ((قطعت دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى بحر الزنج، فسكنت الزنج في ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج.

فمساكن الزنج هي من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق،

---

(1) نهر لمبوبو: أحد ثلاثة أنهار تخترق الهضبة الكائنة إلى الجنوب من الزامبيزي، أما النهران الآخران فهما الزامبيزى والاورانج. بولم، دنيز، الحضارات الإفريقية، ترجمة: نسيم نصر، بيروت ـ 1974، ص134 - 135. وهو يصب في الساحل الجنوبي الغربي شمال الترنسفال الحالي.

(2) The Cambridge History of Africa, vol. 3. P. 190.

وكما استخدم تعبير «الواق واق» على هذه المنطقة من إفريقية، فإنه أطلق أيضاً على بعض جزر جنوب شرق آسيا، مراجعة Zamani, Asurvey of East African History, Edited By: Aogot, Kenya - 1969, P. 101.

أما ياقوت الحموي فهي عنده بلاد تقع فوق الصين، وأكثر ورودها في الخرافات. معجم، ج8، ص430. وربما هي جزر الهند الشرقية والفلبين. السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، باريس ـ 1977، ص9. ومن خلال النصوص التي يوردها الجغرافيون العرب نستطيع التعرف إلى بلدين مختلفين حمل كل منهما اسم الواق واق، ومن المحتمل أن أولهما يقع في جنوب الصين أو شرقها، فابن سعيد يعتقد أن الواق واق هي إحدى جزر بحر الصين، بسط الأرض في الطول والعرض تحقيق: خوان فرنيط خينيس، تطوان ـ 1958 ص21. ويعتقد البيروني أنها تقع في الشرق الأقصى. أبو الريحان، في تحقيق ما للهند حيدر آباد ـ الهند ـ 1958، ص169. أما ثانيهما، فتتصل بأرض سفالة من إفريقية الشرقية. الإدريسي أبو عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مخطوطة مصورة ـ مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم 795، ص31؛ المسعودي، مروج ، ج2، ص6؛ الرامهرمزي، بزرك بن شهريار، عجائب الهند، بريل ـ 1883، ص174 ـ 175؛ ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر، خريدة العجائب وخريدة الغرائب، القاهرة ـ 1314، ص49. أمّا دي غويه فيعتقد أن واق واق الشرق الأقصى هي اليابان، ذلك أن اسم اليابان القديم باللغة القانطونية هو: ووك ـ ووك Wok - Wok، ومنها اشتق العرب لفظة واق واق. ولكن فران يرى أن هذه الواقواق ليست اليابان وإنما هي جزيرة سومطرة حالياً، أو مكاناً ما في جزيرة مدغشقر. إلا أن هول Hall المتخصص بتاريخ جنوب إفريقية القديم يرى أن الواق واق هو الاسم الذي أطلقته قبائل البانتو التي قطنت في الشواطئ الجنوبية الشرقية من إفريقية على جيرانها البوشمان Bushman، ابن سعيد، الجغرافيا، ص225.

ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو 700 فرسخ[1] أودية وجبال ورمال[2])).

وقد قصد الجغرافيون العرب المسلمون بـ (بحر الزنج)[3] هذا الجانب الغربي من المحيط الهندي الذي يطل عليه الشاطئ الإفريقي، وقد سمي بهذه التسمية نسبة إلى الشاطئ المطل عليه والمسمى «بلاد الزنج» أو «زنجبار» التي تعني «أرض الزنج»[4].

وإذا أردنا تحديد المنطقة التي تبتدئ بها بلاد الزنج فنستطيع اعتبار مقاديشو نقطة البداية لأرض السواحل[5]؛ فبعد اجتياز النجا وهي آخر بلاد بربرا[6] فقرنوة التي هي مدينة صغيرة على البحر[7]، تبتدئ أرض السواحل. أما آخر حدود أرض الزنج التي تتصل بأرض سفالة فهي قرية البايس[8]، فبلاد الزنج إذن هي المنطقة الممتدة من أعالي النيل حتى سفالة[9]، وبتعبير أدق: هي المنطقة الواقعة جنوب بربرا حتى سفالة، والمحصورة بين نهري جوبا والزامبيزي[10].

---

(1) الفرسخ: يساوي ستة كيلو مترات. هنتس، والتر، المكاييل والأوزان، ترجمة: كامل العسلي، الأردن، ص94.

(2) المسعودي، مروج، ج2، ص6. ينظر كذلك: البكري، المسالك، ج2، ص187.

(3) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخطط المقريزية، ج1، لبنان ـ 1959، ص90.

(4) بكر، مادة: بحر الزنج، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وآخرون، ج3، ص378.

(5) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، تحفة النظار، المسماة رحلة ابن بطوطة، تحقيق: أحمد العوامري ح1، القاهرة ـ 1938، ص191.

(6) بربرا: تقع بين الحبشة وأرض الزنج. الحموي، معجم، ج2، ص106. الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، اعتناء: كوتنجن، 1846، ص42؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مخطوط في مكتبة المتحف البريطاني رقم 4636. Or، ص11. وقد شملت فيا بعد كل بلاد الصومال، وتطلق تسميتها اليوم على مدينة في الساحل الشمالي للصومال، وسكانها خليط من الأحباش والزنج. مراجعة: ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ليدن ـ 1891، ص88؛

Stigand; The Land of Zing, London – 1913, P. 7

Robinson, Some Historical Notes on East Africa, Tanganyika Notes and Records, No. 2, October – 1936, P. 38.

ومن مدنها القديمة قرفونة، التي سماها العرب قرن الأسير، ثم غير البرتغاليون تسميتها إلى رأس كوارد افوي Guardafui، وهي منطقة القرن الإفريقي، مراجعة: ابن سعيد، الجغرافيا، ص81، 212.

(7) الحموي، معجم، ج، ص268؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق، ص11.

(8) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص31؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق، ص14.

(9) السامر، فيصل، ثورة الزنج، ط2، بغداد ـ 1971، ص23.

(10) Stigand,The Land of Zinj, p7; Trimingham, The Arab Geographers, P. 140.

ولزيادة المعلومات حول المناطق التي يضمها بر الزنج والسفال مراجعة المهرى، سليمان، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، تحقيق: إبراهيم خوري، دمشق ـ 1971، ص12 ـ 13؛ المهرى، العمدة المهرية، ص35 ـ 36؛ المهرى، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب،

ونخلص أخيراً إلى القول إن الرحالة والكتاب العرب المسلمين أرادوا بتعبير «بلاد الزنج» كل المنطقة التي تسمى الآن[1] إفريقية الشرقية، وتضم اليوم كلًا من الصومال، وكينيا، وتنزانيا وموزمبيق[2]، والتي تمتد بين خطي عرض 12 درجة شمالًا تقريباً و25,8 درجة جنوباً.

وقد أطلق العرب لفظة زنج - التي كانت شائعة الاستعمال لدى سكان الخليج العربي - على سكان شرق إفريقية[3]، وعنوا بهم البانتو السود. ولهذا نجد أن لفظة (زنج) عند العرب استخدمت للدلالة على جماعات سوداء معينة، وأطلقت في الوقت نفسه على السود عموماً[4]، وكذلك على القبائل الزنجية التي قطنت ساحل إفريقية الشرقي[5].

ولابد لنا من أن نستعرض تطور مدلول كلمة أرض الزنج، فقديماً، وقبل عهد الميلاد، كان لدى الإغريق والرومان والمصريين القدماء بعض المعرفة عن شرق إفريقية[6]، وغالباً ما كانوا يطلقون عليها اسم: أزانيا Azania[7]. بل إن الساحل الإفريقي الشرقي عرف كما يقول صاحب كتاب الطواف باسم ساحل أزانيا[8]؛ فقد أورد المؤرخون اليونان كلمة Zingis، وربما كانت كلمة (أزانيا) أو (عزانيا) تحريفاً لهذه اللفظة، ومن المحتمل أن هذه الكلمة مشتقة من أوسان، وهي الدولة العربية الجنوبية المعروفة التي هاجر قسم من سكانها في القرن السادس قبل الميلاد إلى الساحل الإفريقي الشرقي، واستقروا في الأراضي المقابلة لبمبا وزنجبار، التي اتخذوا منها مركزاً للانطلاق نحو الجنوب، حيث سمي الساحل باسم أزانيا Azania[9].

مصنفات سليمان المهري، تحقيق: إبراهيم خوري، دمشق - 1972، ص561 - 571.

(1) Reusch, R: History of East Africa, 1954, p. 61.

(2) Reusch, R: History Of East Africa, 1954, P. 61

(3) Trimingham, The Arab Geographers, P. 116; Zamani, A: Survey Of East African History, P. 101.

(4) وحول تسمية السود بالزنج أو السودان، مراجعة: المسعودي، مروج، ج1، ص110؛ الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة فخر السودان على البيضان، ج1، ص177 - 226.

(5) ماسنيون، مادة: زنج، دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص422؛ Trimingham, TheArab Geographers, P. 119

(6) Murphy, History of African Civilization, P. 223.

(7) Freman – Grenville, Coinege In East Africa Befor Portogues Time. Numismatic Chronicle, Vol. XV11, London – 1957, p. 153; Zamani, A Survey of East African History, P. 103.

(8) Schoff, W: The Periplus of The Erythraeen Sea, London 1921, PP. 27 – 28; Zamani, A Survey Of East African History, p. 103.

(9) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، ط1، ص 450 - ص 453؛ الحداد، محمد يحيى، تاريخ اليمن السياسي،

وفي القرون الوسطى سماها العرب «أرض الزنج»[1] تمييزاً لها عن البربر[2].

ثانياً ـ أصول السكان في شرق إفريقية:

تُرجع كتابات المؤرخين العرب المسلمين الأصول الجنسية لسكان الساحل الإفريقي الشرقي إلى تفرق ولد كوش بن حام بن نوح في الأرض، واستقرار قسم منهم في أراضي النوبة[3]، والبجة[4]، والحبشة، والزنج[5].

وتشير الدراسات التي أجريت في هذا الميدان إلى أن أبناء المنطقة الذين يعيشون اليوم على طول الساحل لم يكونوا السكان الأصليين، فقد سكنتها شعوب عدة يمكن تقسيمها إلى[6]:

1 ـ الأقزام: الذين يطلق على بقاياهم اليوم اسم «البوشمان» Buschmen[7].

ط3، 1976. ص99. مراجعة: Gray, History Of zanziber from The Middle Ages To 1956, London – 1962, P. 11.

(1) Freeman – Grenville, Coinege in East Africa, P. 153; Zamani, ASurvey Of East African History, P. 103.

(2) Freeman – Grenville, Coinege In East Africa, P. 153.

(3) النوبة: وهم فرقتان، سكنت الأولى على جانبي النيل، وتوسعوا حتى وصلوا إلى أعالي النيل، وعاصمتهم دنقلة. أما الثانية فيسمون علوة، وعاصمتهم سرية. المسعودي، مروج، ج2، ص17.

(4) تقع أراضي البجة بين الحبشة والنوبة، وبتحديد أدق بين النيل والبحر، وتتصل أراضي النوبة والبجة بالحبشة من جهة الشمال. مراجعة: الإدريسي صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن ـ 1968، ص26؛ المسعودي، مروج، ج2، ص17؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص59 – 60؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ط1، القاهرة، ج1، ص96؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص48؛ ابن الوردي، زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، القاهرة ـ 1285، ج2، ص84. ولزيادة المعلومات حول البجة وسكانها وإسلام أهلها واستقرار قبائل عربية بينها وعادات أهلها، مراجعة: اليعقوبي، البلدان، ليدن ـ 1891، ص336؛ ابن جبير، أبو الحسن محمد، رحلة ابن جبير، بيروت 1959، ص48؛ المسعودي، مروج، ج2، ص18؛ المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، ط1، القاهرة ـ 1961، ص44؛ الاصطخرى، المسالك، ص31؛ البكري، المسالك، ج2، ص191؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص42 – 43؛ شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطربورغ ـ 1865، ص 269؛ ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة: يحيى الخشاب، ط7، بيروت ـ 1970، ص 118.

(5) القلقبشندي، أبو العباس أحمد بن علي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني رقم 2181، ص7؛ البخاري علاء الدين، كتاب الطراز المنقوش في محاسن الحبوش، مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 3128 ص11؛ اليعقوبي، تاريخ، ج1، ص216؛ المسعودي، مروج، ج2، ص4؛ المسعودي، أخبار الزمان، ص63، 67؛ البكري، المسالك، ج2، ص187؛ ابن بطريق، افتشيوس، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ـ 1905، ص17؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص266.

(6) Hollingsworth; Ashort History Of The African Coast, London – 1999, P. 3.

(7) بينما يميز بولم بين البوشمان والبغميين؛ أي الأقزام، الحضارات الإفريقية، ص99، 114.

2 ـ الزنوج: ويقال إن أول شعب زنجي دخل إفريقية قبل عدة آلاف من السنين جاء من آسيا الجنوبية، وهم يعتبرون أجداد الزنوج الذين يعيشون الآن في السودان.

3 ـ الحاميون[1]: الذين نزحوا إلى إفريقية من الجزء الشمالي الغربي لآسيا.

4 ـ وبنتيجة تزاوج هؤلاء الحاميين مع الزنوج نتج عرق آخر هو البانتو Bantu[2]، ومن هنا يظهر لنا بأن عرق البانتو ليس عرقاً زنجياً نقياً تماماً، بل هو نتاج تمازج الأقوام الزنجية بأقوام من العرق الحامي.

5 ـ السواحيليون[3]. إن معظم سكان الساحل الإفريقي الشرقي هم من السواحيليين الذين هم نتيجة تمازج العرق البانتوي بالدم العربي، فبنتيجة توافد العرب على هذه المنطقة وتزاوج العديد منهم مع البانتويين الذين كانوا يعيشون على الساحل نتج القوم الذين سموا بالسواحيليين[4].

ويبدو أن مستجمع مياه الكونغو – الزامبيزى الأعلى كان نقطة الانتشار للزنوج المتكلمين بلغة البانتو. ففي بداية العصور الوسطى كان هناك حزام زنجي على طول الساحل من سفالة إلى شمال مقادشو في الصومال. وهذا يتطابق مع تعبير أرض الزنج الذي ورد عند الجغرافيين العرب[5]. ومن المحتمل أن الطليعة الأولى منهم[6] بدأت بالخروج من الداخل متجهة نحو

---

(1) الحاميون: نسبة إلى حام بن نوح، تمييزاً لهم عن النسبة إلى سام، على الأقل فيما يتعلق باللسان الذي ينطقون به؛ لأنهم من حيث النظر إلى تصنيفهم فهم متوسطيون نسبة إلى البحر المتوسط، ونتيجة التزاوج بين الساميين والسود كان الحاميون الشرقيون الذين قطنوا مصر والحاميون في بلاد البجة والنوبة والحبشة والصومال والد ناقل وغيرها. بولم، الحضارات الإفريقية، ص24.

(2) البانتو: لفظة مكونة من: Ba التي تدل على الجمع، ntu والتي تعني الإنسان أو الرجل. بولم، الحضارات الإفريقية، ص134. وحول المقطع الأخير من كلمة بانتو، مراجعة:

Doke, C: The Earliest Records of Bantu, Bantu Studies Journal, Vol. x11, Johannesburg 1938, P. 135.

وعن أصل البانتو ومواطنه الأولى، مراجعة: باسكوم، وليم، الثقافة الإفريقية، ترجمة: عبد الملك الناشف، بيروت ـ 1966، ص 46 ـ ص 49؛ Doke, The Earliest Records, P. 135.

(3) السواحيليون: هم الشعب الذي يسكن منطقة الساحل، وقد اشتقت من الكلمة العربية: ساحل.

Hollingsworth, A short History, P. 3.

(4) Ibid, pp. 3 - 7.

(5) Oliver. R, and Mathew, History of East Africa, Vol. I, Oxford – 1968, P. 111.

(6) ويدنر، دونالد، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة: راشد البراوي: ص126.

الساحل حوالي منتصف الألف الأول للميلاد[1]، حيث كانوا ينشئون في أثناء هجرتهم هذه تنظيماً عسكرياً بسيطاً يمكنهم من فرض سيطرتهم.

وقد واصلوا سيرهم حتى بلغوا تنزانيا وكينيا حالياً[2]، وبلغوا في توسعهم هذا شمالاً إلى ويبي شيبلي. ولكنهم فيما بعد ـ وربما كان هذا في حدود القرن 5هـ/ 11م ـ انسحبوا جنوباً إلى وادي نهر جوبا تحت ضغط الصوماليين[3]. وفي تقدمها هذا دفعت هذه المجاميع أمامها بالشعوب الإفريقية الأقدم منها[4]، وأنشأت ممالك مهمة في الجزء الشرقي من إفريقية، استمر بعضها قائماً حتى القرن 9هـ/ 5م. كان أبرزها مملكة مونوموتابا Monomotapa، التي امتدت في منطقة ما بين حوضي نهري الزمبيزي واللمبوبو. يؤكد هذا الحروب العديدة التي وقعت بين سكان الساحل العرب والمسلمين وبينهم[5]. وأيضاً حقيقة إقامة معظم المدن العربية في الساحل فوق جزر يفصلها عن البر شريط ضيق من الماء، مثل كلوة وباتا ولامو، كي تكون بمنجى من غارات قبائل الداخل التي سماها العرب بالكفار[6].

وهناك عدة نظريات تتناول طريقة انتشار البانتو الزنوج في المنطقة التي وصفها الجغرافيون العرب والمسلمون؛ والمعتقد أنها تمتد ما بين شرق تنزانيا وشمال شرق موزمبيق. وبعض هذه النظريات يتعارض مع الأدلة اللغوية[7]، كما أنها لا تعطي حلّاً عن طريقة وصولهم إلى الصومال،

---

(1) Posnansky, Prelude to East African History Oxford university, london. P. IO6; Trimngham, The Arab Geographers, P. 122; Zamani, A survey of East African History, P. 107.

(2) ويدنر، تاريخ إفريقية، ص126.

(3) Posnansky, Prelude To East African History, P. 106.

(4) العقاد، صلاح وجمال زكريا قاسم، زنجبار، القاهرة ـ 1959، ص 10.

(5) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

(6) السامر، ثورة الزنج. ص 23؛ العقاد، زنجبار، ص 10.

(7) تتميز القارة الإفريقية بوجود خمس أسر لغوية أساسية، هي: (النيجر ـ الكونغو، الأفرو ـ آسيوية، الماكرو ـ سودانية، الصحراوية الوسطى، والكليك). إضافة إلى ذلك هناك سبع لغات فردية يمكن إضافتها إلى الأسر اللغوية الخمس ليصبح مجموع الأسر اللغوية الإفريقية عموماً اثنتي عشرة لغة. ومن لغات أسرة النيجر ـ كونغو تبرز لغة البانتو الواسعة الانتشار، أما الأسرة الأفرو ـ آسيوية فهي تنتشر أساساً في إفريقية الشمالية ومنطقة القرن الإفريقي، وتتضمن اللغات التالية: البربري، الكوشي، السامي، المصري القديم (وهي لغة منقرضة)، والتشادي. باسكوم، الثقافة الإفريقية، ص 41 ـ ص 42.
وللمزيد من التفاصيل حول الأسر اللغوية الإفريقية، ومناطق انتشارها، والتأثيرات اللغوية المتباينة بينها، مراجعة: ويدنر، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ص 22؛ باسكوم، الثقافة الإفريقية، ص 41 ـ ص 45؛

أو لا تتفق مع فكرة الجغرافيين العرب عن الموطن الأم للزنوج[1]. إلا أن ما يذكره المسعودي[2] من أن الزنج وحدهم من بين جميع قبائل الأحباش عبروا الخليج الذي يترك المجرى الأعلى للنيل ويصب في بحر الزنج، حيث استقروا في هذه البلاد، ووسعوا أماكن استقرارهم حتى بلاد سفالة، يشكل أهمية خاصة بشأن خصائص السكان. ومما لا شك فيه أن سكان الساحل في القرن 8 هـ/ 14م كانوا من الزنوج المتكلمين بلغة البانتو، وقد وشموا وجوههم بطريقة وشم زنوج الليميين Limis[3] سكنة بلاد الذهب[4]، لأن وشم الوجوه هو إحدى سمات قبائل ماكوا ـ ما كوندا Makua – Makonda التي تعيش في هذه المنطقة[5].

والذي يهمنا هنا وجود سكان زنوج في جنوب الصومال. واستناداً إلى التسمية التي أطلقتها بعض الكتابات العربية على مقادشو حيث أسمتها (مقادشو الزنج)[6]، يمكن القول إن سكان المدينة كانوا ـ ولو جزئياً ـ من الزنج المتكلمين بلغة البانتو[7]. أما تاريخ وصولهم واستقرارهم في هذه المنطقة من الساحل فيتراوح ما بين القرن الأول الميلادي إلى ما قبل القرن 3هـ/ 9م حيث أقاموا مراكز مهمة، أشهرها عاصمتهم شنغوايا[8].

وتؤكد المصادر أن المتكلمين بلغة البانتو وصلوا إلى ساحل الصومال الجنوبي قبل بداية القرن 4هـ/ 10م. وفي أقل من تسعة قرون انتشر البانتو على طول الساحل الإفريقي ابتداءً

Chittick, The Peopling of The East African Coast, East Africa And The Orient cultural Syntheses In Precolonicl Times. London – 1975, P. 29.

(1) Chittick, The Peopling of The East African coast, PP. 28 – 30.

(2) مروج الذهب، ح2، ص 6.

(3) ابن بطوطة،الرحلة، ح1، ص 200.

(4) بلاد الذهب: هي دولة جنوب إفريقية الحالية.

(5) chittick, The Peopling of The East African coast, P. 26.

(6) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 89.

(7) Chittick, The Peopling of The East African coast, P. 27.

(8) شنغوايا: يُعتقد بأن موقعها قريب من نهر جوبا في الصومال.

Chittick, The Peopling of The East African coast, P. 27.

يُنظر أيضاً:

coupland, East Africa And Its Invaders, oxford – 1938, P. 17. Schoff, The Periplus of The Erythraean Sea, P. 28.

من الصومال وإلى الجنوب[1]. ففي خلال بضعة قرون انتشرت جماعات البانتو مهاجرة من كتانغا[2]، ومن حوض نهر الزمبيزي في موزمبيق متجهة إلى سواحل المحيطين الهندي والأطلسي، حيث استقروا فيما يدعى الآن: زائير، وأوغندا، وكينيا، وتنزانيا. وفي حدود القرن 4هـ/ 10م وصلوا إلى أبعد نقطة من نقاط انتشارهم، وهي وديان الأنهر جنوب الصومال[3].

وقد أحدث توسع البانتو هذا تغييراً كبيراً في الجغرافية البشرية لوسط وجنوب شرق إفريقية. وعلى أية حال فقد شكل الوجود البانتوي هذا عنصراً هاماً؛ ذلك أن مجموعات البانتو أقامت مجتمعات حسنة التنظيم، و«تقبلت المؤثرات الكوشية[4] بالتدريج»[5]. ويبدو أن هذه المؤثرات كانت جنسية وحضارية في آن واحد، بينما واصل غيرها التوغل باتجاه الساحل الإفريقي الشرقي[6].

ثالثاً ـ العلاقات العربية مع شرقي إفريقية قبل الإسلام:

1 ـ أقدم الصلات بين بلاد العرب والساحل:

إن من المهم أن نتعرف إلى قدم الوجود العربي في الساحل الإفريقي الشرقي، والمصالح التجارية القديمة المتبادلة بين بلاد العرب وهذا الساحل، وما أفرزته من عوامل وظروف جعلت التأثير العربي واضحاً في هذا الساحل. ومن الطريف أن نذكر هنا أن إحدى النظريات الجغرافية القديمة تعتقد بأن الجزيرة العربية والقارة الإفريقية كانتا أرضاً واحدة في العصور القديمة، ثم انفصلتا بسبب انكسار الأخدود الإفريقي الذي أدى إلى نشوء البحر الأحمر وما

---

(1) Murphy, History of African civilization, P. 225.

(2) كتانغا: تقع على بحيرة تانجانيقا. يُنظر:

Encyclopedia International, Newyork 1975, Vol. 10, P. 131.

(3) Murphy, History of African civilization, P. 183.

(4) الكوشية: هي الأقوام السامية ـ الحامية، نسبة إلى بلاد كوش؛ وهو تعبير استُخدم في مصر القديمة للدلالة على كل البلاد الواقعة فيما قبل الشلال الأول. بولم، الحضارات الإفريقية، ص 24. ويعتقد د. جواد علي بأن كوش هي الحبشة ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 1952، ص 291.

(5) ويدنر، تاريخ إفريقية، ص 30 ـ ص 32.

(6) ويدنر، تاريخ إفريقية، ص 32.

تبعه من انفصال الجزيرة العربية عن القارة الإفريقية، وهذه النظرية – لو صحت – تعطينا فكرة عن مدى الاتصال التاريخي القوي القائم بين المنطقتين[1].

قامت في منطقة الخليج العربي، وبالتحديد في العراق، واحدة من أقدم الحضارات في العالم، حيث عرف سكانه القدامى صناعة السفن، وقاموا بالرحلات البحرية[2]. وقد عثر في موقع جزيرة سانجي ياكاتو الواقعة جنوب كلوة بقليل على مستوطنة فيها بقايا برج بني على طراز الزقورة[3]. كما تشابهت العادات والطقوس السحرية التي مارسها السومريون والآشوريون وسكان الشاطئ الإفريقي الشرقي[4]، فمثلًا استخدم الأشوريون في كتاباتهم ومنحوتاتهم رسم القرن للدلالة على القوة والسيطرة[5]، ونجد هذه العادة نفسها سائدة في الساحل. كما نجد كثيراً من هذه القرون التي تسمى باللغة السواحيلية سيوا siwa ما تزال تشاهد في العديد من مدن الساحل الإفريقي الشرقي[6].

وتتحدث النقوش السومرية والآكدية التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد عن الصلات البحرية بين الجزيرة العربية ودلمون[7] وماجن Magan[8] وملخا Malukha[9]. وقد عثر على نقش سومري يرجع إلى حوالي عام 2050ق. م يتحدث عن بنائي السفن في ماجن بل إن هذه

(1) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية،القاهرة ـ 1975، ج6، ص35.

(2) Hollingsworth, A Short History, P. 9.

(3) Mathew; Islamic Merchant Cities of East Africa,Times, june – 26 – 1951, P. 5.

(4) Hellings worth, A short History, P. 10.

(5) يرمز القرن في المعتقدات الإفريقية القديمة إلى القوة والصيد وعلاقته بالسحر، لذا صنعوا الأقنعة ذات القرون التي نراها تتكرر في الصور والمنحوتات الإفريقية القديمة. يُنظر:

Haberland, E, (Editer), Loe Frobenius
An Anthology, Boon – Badgodesberg, 1937, P. 65.

يُنظر أيضاً: أمين، محمد محمد، تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، معهد البحوث والدراسات، 1977، ص 45.

(6) Hollingsworth, A short History, P. 10.

(7) دلمون: هي البحرين الآن. مراجعة: علي، تاريخ العرب، ج2، ص294.

(8) ماجن: هي عمان باتفاق الآراء. مراجعة :علي، تاريخ العرب، ج2، ص289 – 294.

(9) ملخا: كانت في البداية تعني عمان والخليج العربي، لكنها أصبحت في العصور المتأخرة تعني الحبشة. مراجعة: علي، تاريخ العرب، ج2، ص290 – 293.

النقوش تربط عادة بين ماجن وملخا[1].

وكان الفينيقيون أيضاً من الشعوب القديمة التي عرفت الساحل الإفريقي الشرقي؛ فالمصادر تحدثنا عن الاتفاقية التي عقدت بين بعض ملوك الفينيقيين الذين أرسلوا سفنهم إلى الشاطئ الإفريقي لجلب مختلف البضائع، وكان هذا حوالي 1000 ق.م[2].

ويعتبر العرب أهم زوار منطقة الساحل الإفريقي الشرقي؛ فقد شهدت هذه المنطقة منذ عدة قرون قبل الميلاد روابط متينة مع المنطقة العربية[3]، كان للعرب فيها تأثير يفوق أي تأثير لزوار المنطقة الآخرين[4]. وصلات العرب بالحبشة قديمة جداً، ترجع إلى ما قبل الميلاد[5]، والمعتقد أن العرب الجنوبيين هم الذين «مونوا السواحل الإفريقية المقابلة بالعناصر السامية»[6]، بل إن من المعتقد أن غرب اليمن هو الوطن الأصلي للحبش[7] الذين أسسوا مملكة اكسوم، وكانت المدن الساحلية الحبشية تمتار «مما يجلب إليها من اليمن في البحر»[8]، وقد شبهت الحبشة

---

(1) حوراني، جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة: السيد يعقوب بكر، القاهرة، ص 27 – 28.

(2) الكتاب االمقدس، العهد العتيق،سفر الملوك الثالث، بيروت ـ 1960، م1، ص576 و588ـ590.

مراجعة:

Stigand, The Land of Zinj, P. 2. Hollingsworth, A short History, P. 1 3.

والجدير بالذكر أن المصريين القدماء اهتموا أيضاً ببناء السفن، كما أرسلوا بعثات تجارية إلى الصومال، التي من المرجح أنها سميت قديماً ببلاد بنت Punt. حوراني، العرب والملاحة، ص30؛ شهاب، حسن صالح؛ أضواء من تاريخ اليمن البحري، ص81؛ Hollingsworth, A short History, P. 12.

وقد جلبت هذه البعثات البخور والذهب والعاج وجلود النمور والعطور والأخشاب التي استخدمت في قصور الملوك والنبلاء المصريين. شلبي، موسوعة التاريخ الإعلامي، ج6، ص33. ينظر أيضاً: Hollings worth, A Short History. P. 12 كما اهتموا بالحصول على الفيلة لاستخدامها في الجيش. حوراني، العرب والملاحة، ص57.

(3) Gray, History of Zanzibar, P. 11.

(4) علي، المفصل، ج3، ص499؛ Hollings Worth, A short History, P. 14.

(5) الحيمي، الحسن بن أحمد، سيرة الحبشة، تحقيق: مراد كامل، القاهرة ـ 1958 ص46.

(6) علي، المفصل، ج3، ص449.

(7) يوجد في اليمن جبل يدعى «حبيش» يرى بعض الباحثين أن لأسمه صلة بالأقوام التي هاجرت إلى السواحل الإفريقية وأطلقت اسمها على الأرض التي استقرت بها، وهي حبشت أو الحبشة. علي، المفصل، ج3، ص449. وفي رواية أخرى عن مصدر التسمية تذكر أنه جاء نسبة إلى إحدى القبائل العربية اليمنية المسماة حبشات. العارف، ممتاز، الأحباش بين مأرب وأكسوم بغداد ـ 1975، ص9؛ بولم، الحضارات الإفريقية، ص58.

(8) الإدريسي، صفة المغرب، ص24. ويقول الطبري إن أرض الحبشة كانت متجراً لقريش. أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ـ 1939، ج2، ص68.

بقرطاجنة، فكما أنشأ الفينيقيون قرطاجنة في شمال إفريقية، أنشأ العرب الجنوبيون الحبشة في إفريقية أيضاً[1].

وقد شهد القرن السادس قبل الميلاد هجرة السبئيين الذين استقروا في أرتيريا والحبشة التي سميت باسم تعزية Taizziya[2]، وهذه التسمية تثير عندنا تساؤلًا مهمًا، عمّا إذا كانت لها علاقة بتعز المدينة العربية الواقعة في جنوب الجزيرة العربية؟! كما استقر الأوسانيون الذين أسسوا دولتهم في جنوب الجزيرة العربية، وقد وصلت أوج ازدهارها في القرن 7ق. م في أزانيا Azania التي يعتقد أنها الأرض المقابلة لجزيرتي بمبا وزنجبار، ومنها توسعوا نحو الجنوب[3]. وقد سمي هذا الساحل قديمًا باسم الساحل الأوساني، وهي نقطة مثيرة للانتباه؛ إذ تظهر لنا مدى السيطرة التي مارستها أوسان على الساحل الإفريقي الشرقي[4]. وتذكر لنا الأخبار أن هذا الساحل كان خاضعاً منذ القرن الأول للميلاد ـ وربما قبل هذا التاريخ بقرون عديدة ـ لسلطة زعماء المعافر، حكام دولة سبأ وذي ريدان، الذين فرضوا سيادتهم على الساحل الإفريقي وفق (حق قديم) على حد قول صاحب الطواف[5]. إضافة إلى ذلك فقد عرف العرب كل مناطق الساحل، وفهموا لغته، وتداخلوا مع سكانه بالتزاوج المختلط المستمر[6]. وقد دفع سكان الساحل الجزية إلى زعماء المعافر الذين كانوا يختارون الموظفين وجباة الضرائب من الذين عرفوا الساحل، وكانت لهم مع سكانه روابط قربى، وعادة ما يرسلون من ميناء مخا في اليمن[7]. كما كان حكام المعافر يرسلون إلى الساحل سفناً كثيرة كبيرة يقودها ربابنة عرب

---

(1) نلسن، ديتلف وآخرون، التاريخ العربي القديم، ترجمة: فؤاد حسنين علي، القاهرة ـ 1958، ص52.

(2) علي، المفصل، ج3، ص450.

(3) علي، المفصل، ج3، ص450 – 453.

(4) Coupland, East Africa, P. 17; Rousch, History of East Africa, P. 47.

ويقول صاحب كتاب الطواف إن سفن أزانيا الكبيرة والصغيرة تملأ الساحل، وهو يطلق على الساحل تسمية غريبة هي: قارة أزانيا. Schoff, The preiplus of The Erythraean sea, pp. 27 – 28.

(5) Schoff, The preiplus of The Erythraean sea, P. 28.

(6) Zamani, A survey of East African History, P. 105.

(7) علي، تاريخ العرب، ج8، ص338.

يعرفون سكان الساحل الأصليين ويفهمون لغتهم[1].

ثم حدثت هجرة سبئية أخرى في القرن 5 ق. م، اتجهت أول الأمر إلى سواحل البحر الأحمر، ومنها توجهت نحو الشاطئ الإفريقي، كما مد السبئيون طرق القوافل نحو المناطق الداخلية[2]. وفي القرن الأول قبل الميلاد كان الشاطي الإفريقي تحت سيادة الحميريين[3].

والسبئيون بحارة مهرة بفضل حسن معرفتهم بالفلك والطقس واتجاه هبوب الرياح الموسمية، فقد مكنتهم معلوماتهم هذه من تنظيم رحلاتهم البحرية[4]، ومن ثم استطاعوا السيادة على كل التجارة في بلاد العرب والشرق[5]، بل إن تجارة التوابل كانت في أيديهم وحدهم، ومونوا العالم الشرقي بمختلف المواد التي جلبوها بسفنهم المسماة (الضوء) من ساحل الزنج. وقد استمرت سيادتهم التجارية هذه حتى القرن الأول قبل الميلاد، حين تدهورت بفعل انهيار دولة سبأ[6].

ترك السبئيون آثاراً واضحة جداً على المنطقة الإفريقية التي وصلوا إليها، ناقلين بذلك مظاهر حضارتهم الراقية المزدهرة حينذاك في الجنوب العربي. وتعتبر المؤثرات الثقافية أبقى أثراً من كل ما أدخله السبئيون من أسباب الحضارة المادية؛ فقد أدخلوا لغتهم، لغة الجعيز[7] Ge-ez بحروفها السبئية والحميرية، والتي أصبحت فيما بعد اللغة الرسمية لمملكة أكسوم،

---

(1) Coupland, East africa, P. I 7; Schoff, The Preiplus of The Erythraean sea, P. 27.

(2) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، البيان والإعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، ط1، القاهرة ـ 1969، ص141 - 148.

(3) علي، المفصل، ج3، ص450 - 453؛ الحداد، تاريخ اليمن السياسي، ص99؛
Zamani, A Survey of East African History, P. I05.

(4) وهي حقيقة قديمة ومعروفة. مراجعة: العزيز، حسين قاسم موجز تاريخ العرب والإسلام، بيروت ـ 1971 ص58.

(5) Ommanncy, Lsle of Cloves, A View of Zanzibar, P. 49.

(6) Ibid, P. 49.

(7) نسبة إلى قبيلة عربية يمنية تدعى: الأجاعز. العارف، ممتاز، الأحباش بين مأرب وأكسوم، ص12؛ بولم، الحضارات الإفريقية، ص58. وقد أعطت هذه القبيلة اسمها للغة الكلاسيكية في الحبشة، وما زالت باقية إلى اليوم لغة الكنيسة الرسمية المعروفة باسم (جعيز Cheze). بولم، الحضارات الإفريقية، ص58. ولغة الجعيز هي أقدم لغة عربية عرفت في الحبشة، وقد حافظت على كيانها في منطقة التجرى Tigre وعاصمتها اكسوم. أما معنى (الجعيز) فهو: أحرار؛ أي لغة القبائل الحرة. ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ـ 1929، ص254.

وشاع استخدامها بين الناس في مختلف معاملاتهم الرسمية ونشاطهم التجاري[1]؛ كما أدخلوا مهارتهم الزراعية والصناعية؛ وفن النحت؛ وسادت ديانتهم، حتى أصبح الحاميون يعبدون نفس الآلهة السبئية[2].

وكما كانت سبأ فقد اشتهرت حمير، وكبرت رقعتها في الجزيرة العربية، وتوغل قسم من أبنائها في مناطق السواحل الإفريقية[3]، حتى إن زعيم المعافر فرض سيادته بموجب حق قديم على مدينة رهابتا Rhapta التجارية المشهورة[4]، ومن المحتمل أن هذا الحق القديم كان للأوسانيين؛ فبلادهم هي أول ما يقابله القادم من (السواحل) من بلاد العرب[5]، بل إنهم وصلوا ـ كما تشير الدلائل ـ إلى شمال مدغشقر، وهي حقيقة أيدتها نتائج التقنيبات الأثرية التي أجريت في مناطق مختلفة من الساحل الإفريقي الشرقي[6].

ويرجع وفود العرب على الساحل الإفريقي الشرقي إلى عوامل عديدة، منها ما سببه انهيار سد مأرب عام 120م من قلة الأراضي الصالحة للزراعة، وما تبعه من تدهور الأوضاع المعاشية للسكان[7]. والملاحظ أن العرب في هذه الفترة ـ أي الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ـ اكتفوا بالاستقرار المؤقت على الساحل، ولم يحاولوا الدخول إلى الداخل مكتفين بإنشاء المراكز التجارية[8] لتصدير المواد الثمينة كالذهب والعاج إلى دول العالم المتمدن.

---

(1) العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم، ص12.
(2) العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم، ص11 – 12.
(3) الأسعد، رشيد جبر، أضواء على القضية الأرتيرية، ط1، بغداد ـ 1969، ص10.
(4) من المعتقد أن رهابتا الآن هي كويليمن الواقعة على الفرع الشمالي لدلتا نهر الزامبيزي، وإن كان البعض يعتبرها كلوة. حوراني، العرب والملاحة، ص84، هامش رقم (1). أما الدكتور جواد علي فيرى أنها تقع على مقربة من زنجبار، تاريخ العرب، ج8، ص73 و83. ويذكر صاحب كتاب الطواف أن رهابتا هي آخر وأقصى مدينة تجارية في قارة أزانيا، والغريب أنه يقول إن اسمها مشتق من اسم السفن المخيطة Rhapton Ploiarion Schoff, The Preiplus of The Erythraean sea, P. 28.
(5) شهاب، أضواء عن تاريخ اليمن، ص 238.
(6) دافدسن، باذل إفريقية تحت أضواء جديدة، ترجمة: جمال أحمد، ص244. ولزيادة الاطلاع حول سيادة الدولتين السبئية والحميرية، مراجعة: حسن، حسن إبراهيم، اليمن البلاد السعيدة، القاهرة ص14 – 31.
(7) العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم، ص11.
(8) قاسم، جمال زكريا، دولة بو سعيد في عمان وشرق إفريقية، القاهرة ـ 1968، ص 13 – 14.

2ـ الصلات التجارية قبل الإسلام:

شهد الساحل الإفريقي الشرقي حركة تجارية قديمة نشطة ومؤثرة، كان أبطالها العرب القادمون من الجزيرة العربية على الأخص؛ فقد استطاع هؤلاء أن يبحروا بسفنهم حاملين معهم المواد التي رغب سكان الساحل الإفريقي في الحصول عليها، مقابل المواد الثمينة المتوافرة لديهم، مثل الذهب والعاج والحديد وغيرها من المواد التي تطلبها العالم المتمدن آنذاك. وقد ساعدهم في رحلاتهم البحرية هذه قرب الساحل الإفريقي منهم، فالمسافة المائية الضيقة نسبياً التي تفصل الشاطئ الإفريقي عن جنوب الجزيرة العربية شجعتهم على الإبحار إلى منطقة الساحل الإفريقي، إضافة إلى معرفتهم الجيدة بالفلك والأنواء التي مكنتهم من قيادة سفنهم بأمان في رحلتي الذهاب والإياب هاتين.

والحقيقة أن العرب هم أقدم الأقوام التي وفدت على الساحل الإفريقي الشرقي للتجارة حيناً، أو للاستقرار حيناً آخر، أو لكلا الأمرين فيما بعد. حيث أحبهم سكان الساحل الأصليين، وتزوجوا فيهم، وأقاموا مراكز للتجارة يفيد منها أهل البلد وينتفعون هم بما ينتجون[1]. وقد استطاعوا أن يصبغوا الساحل بصبغة عربية منذ ألف سنة قبل الميلاد على الأقل، وكلما ذابت مجموعة منهم وسط المجتمع الجديد جاءت مجموعة أخرى من جنوب الجزيرة العربية أو الخليج العربي، الأمر الذي مكنهم من أن يحتفظوا بسماتهم المميزة بين قبائل الساحل الذين عاشوا بينهم واختلطوا بهم[2]. والواقع أن التجارة العربية الواسعة هذه انتقلت من دولة عربية إلى أخرى. فمنذ القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد كانت هذه التجارة مزدهرة، بحيث يذهب البعض إلى أن اسم الساحل الذي عرف به قديماً وهو أزانيا Azania، مشتق من أوسان؛ وهي الدولة العربية الجنوبية التي اندثرت قبل الميلاد بعدة قرون.

والظاهرة الطبيعية التي شجعت العرب على الإبحار إلى الشاطئ الشرقي الإفريقي

(1) دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص 276.

(2) دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص 276؛ مراجعة: قاسم، دولة بو سعيد في عمان وشرق إفريقية، ص 72؛ Zamani, A Survey of East African History, P. 105; Murphy, History of African Civilization, PP. 223, 227

للمتاجرة معه هي ظاهرة الرياح الموسمية التي تميزت بها منطقة المحيط الهندي منذ القديم وإلى الآن؛ ففي شهر تشرين الثاني من كل سنة تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الشمال والشمال الشرقي، وتستمر بالهبوب بثبات حتى نهاية شهر آذار، وفي نيسان من كل سنة أيضاً تنعكس العملية، حيث تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الجنوب والجنوب الغربي. وكان العرب من أول من اكتشف أهمية هذه الرياح، لذا بدؤوا بالانطلاق بسفنهم التجارية من جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي في الشتاء وهم واثقون تماماً بأن هذه الرياح ستساعدهم في إبحارهم هذا، حيث تدفعهم باتجاه الساحل الإفريقي مباشرة. وبعد أن ينهوا أعمالهم التجارية التي تستغرق بضعة أشهر، وفي موسم الربيع تقريباً، يستعدون لرحلة العودة إلى أوطانهم بمساعدة هذه الرياح(1). ويؤكد الجاحظ هذا الأمر بقوله: «إن بحر الزنج(2) حفرة واحدة عميقة واسعة، وأمواجها عظام، ولذلك البحر ريح تهب من عمان إلى جهة الزنج شهرين، وريح تهب من بلاد الزنج تريد جهة عمان شهرين؛ على مقدار واحد فيما بين الشدة واللين، إلا أنها إلى الشدة أقرب..»(3).

وقد وصلت السيادة العربية التجارية إلى معظم منطقة المحيط الهندي، حيث استطاع العرب بفضل معرفتهم بمواسم هبوب الرياح والفلك ومهاراتهم بالملاحة أن ينظموا رحلاتهم البحرية هذه، بل إنهم استطاعوا أن يوصلوا سيادتهم إلى جزء من الساحل الذي خضع لزعيم المعافر من حمير(4). وبمرور الوقت بدأت رحلاتهم البحرية تمتد لتشمل منطقة واسعة من الساحل الإفريقي، وصلت جنوباً إلى أقاصي بلاد الزنج التي هي سفالة.

ونستطيع القول إن العرب قاموا بدور الوسيط التجاري؛ فنقلوا منتجات وبضائع سكان الساحل الإفريقي الشرقي إلى الأسواق العالمية التي كانت تطلبها(5)، وبالعكس.

---

(1) قاسم، دولة بو سعيد في عمان وشرق إفريقية، ص12؛ Coupland, East Africa, PP. 15 -16; Trimingham, Islam in East Africa, P. 2; Zamani, A Survey of East African History, P. 105; Hollingswerth, A short History, P. 15.

(2) بحر الزنج، هو كما ذكرنا سابقاً الجانب الغربي من المحيط الهندي المجاور لبلاد الزنج، الجاحظ، الحيوان، ج3، ص262، هامش رقم (2)؛ المقريزي، الخطط، ج1، ص90.

(3) الحيوان، ج2، ص262.

(4) Posnansky, Prelude To East African History, P. 100.

(5) با فقيه، تاريخ اليمن القديم، ص192؛ حراز، إفريقية الشرقية، ص2.

وقد مكنهم من القيام بهذا الدور موقع بلادهم الجغرافي المهم المتحكم بطرق التجارة العالمية الحيوية التي كانت تمر بها، ابتداءً من الصين والهند وسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، حتى البحر المتوسط شمالاً، ومنها إلى موانئ أوربا[1]. فالبضائع القادمة من الشرق تنقل عادة إلى المنطقة العربية، حيث يأخذها التجار العرب لينقلوها بدورهم بواسطة قوافلهم التجارية البرية أو البحرية إلى أقطار البحر المتوسط، أو العكس. ومن هنا أصبحت المنطقة العربية المحصورة بين جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي منطقة اتصال تجاري مهمة جداً بين الشرق والغرب[2]، وبالنسبة إلى منطقة الساحل الإفريقي فقد استطاع عرب جنوب الجزيرة العربية أن «يربطوا مصادر الإنتاج في إفريقية ببلاد الشرق الأقصى»[3].

ومن المؤكد أن العرب لم يكتفوا بدور الوساطة التجارية هذه فقط، بل اهتموا باختيار مواقع على الساحل تصلح أن تكون مراكز أو محطات لتجميع المواد التي يحصلون عليها من الداخل. ومن المحتمل جداً أن هذه المراكز تطورت فيما بعد إلى أماكن استقرار دائمة، نمت وتوسعت متحولة تدريجياً إلى مدن كبيرة سكنها العرب مؤقتاً في بادئ الأمر لمتابعة أعمالهم التجارية، ثم استقروا فيها نهائياً، حيث قاموا بتطويرها إلى مدن قوية مزدهرة سياسياً واقتصادياً.

كانت أهم المواد التي اهتم العرب بجلبها إلى الساحل تلبية لرغبة الأهلين هي الرماح المصنوعة في جنوب الجزيرة العربية، وخاصة في مخا، والفؤوس القصيرة والخناجر والمثاقب (أو الإبر) وأنواع مختلفة من الزجاج، وفي بعض المناطق كانت تقدم للأهلين كميات من الحبوب لكسب مودتهم[4]. وكان للملح والتمر أهمية كبيرة عند سكان الساحل، لذا اهتم العرب بجلبهما إليهم[5]، وفي المقابل فقد حصل العرب على الذهب والحديد والنحاس والعاج

---

(1) حراز، إفريقية الشرقية، ص2؛ Hollingsworth, A Short History, P. 14

(2) Hollingsworth, A Short History, P. 15

(3) حراز، إفريقية الشرقية، ص3.

(4) Posnansky, Prelude To East African History, PP. 109.

(5) شهاب، أضواء على تاريخ اليمن، ص223.

والجلود[1] وغيرها من المواد التي وجدت في منطقة الساحل الإفريقي الشرقي.

وقد شهدت الحركة التجارية نشاطاً واسعاً على نطاق العالم القديم، وذلك منذ عصر الإمبراطورية الرومانية وتعتبر الفترة الواقعة بين 31 ق.م و96م العصر الذهبي للتجارة اليونانية - الرومانية مع الهند، إلا أن هذه التجارة بدأت بالاضمحلال نتيجة ضعف الإمبراطورية الرومانية، وهبوط قيمة نقدها[2]، فانهارت التجارة اليونانية والرومانية في المحيط الهندي. وقد استمر هذا الانهيار حتى القرن السابع الميلادي، حيث ظهر الإسلام كقوة فعالة ومؤثرة على مسرح الأحداث العالمية آنذاك، فاستطاع المسلمون القضاء على الإمبراطورية الساسانية، وتحرير الأراضي العربية من سيطرة الإمبراطورية البيزنطية، ثم اندفع المسلمون بحماسة دينيّة لنشر مبادئ الدين الجديد، مؤسسين بذلك دولتهم العربية الإسلامية، واستطاعوا تبعاً لذلك السيادة كلياً على طرق التجارة البرية والبحرية معاً، وبخاصة في المحيط الهندي.

(1) Posnansky, Prelude To East African History, P. 106.

(2) السامر، الأصول التاريخية، ص 10 - 11.

الفصل الثاني

انتشار الإسلام في شرقي إفريقية

أولاً ـ المدن العربية والإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي:

تمهيد ـ الساحل في ظل العرب والمسلمين:

كان لظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي الأثر المباشر والعميق على عرب الجزيرة العربية، حيث وحدهم وجعلهم أمة متماسكة قوية. وبمجيء فترة الخلفاء الراشدين بدأت مرحلة من حركات التحرير التي شملت مناطق واسعة من الأراضي العربية التي كانت تحت سيطرة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية[1].

ثم حدثت هجرة في زمن الخليفة الراشدي الثالث (رضي الله عنه) والخليفة الراشدي الرابع (رضي الله عنه) إلى الشاطئ الإفريقي الشرقي الذي طالما سمعوا عنه من التجار العرب[2]، واستمرت الهجرات العربية الإسلامية في العهد الأموي إلى الساحل[3]، ليس لغرض الهجرة المؤقتة فحسب، وإنما للإقامة، حيث شيدوا أوائل المدن العربية الإسلامية على الساحل.

ومما لاشك فيه أن هؤلاء الوافدين الجدد من العرب المسلمين استطاعوا بمساعدة من سبقهم من العرب أن يتأقلموا مع المحيط الجديد بسرعة، حيث تزوجوا من السكان المحليين، ونقلوا لشعب الساحل الدين الإسلامي الحنيف وأسس الحضارة العربية الإسلامية[4]. ولهذا يمكننا القول إن الساحل الإفريقي الشرقي كان دائماً مكاناً للهجرات العربية الإسلامية، وبخاصة في القرون الأولى من الإسلام[5].

والملاحظ أن طبيعة الوجود العربي في الساحل الإفريقي الشرقي مختلفة تماماً عما هي عليه

---

(1) البلادري، فتوح. وهذه المعلومات متناثرة في ثنايا الكتاب؛ الطبري، تاريخ، ج3، وهذه الأخبار متناثرة في صفحات هذا الجزء.
(2) March, and Kingsnorth; A History of East Africa, An Introductory survey, Cambridge – 1972, P. 21.
(3) حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص3.
(4) دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص277.
(5) با مخرمة، أبو محمد عبد الله، تاريخ ثغر عدن، ليدن ـ 1936، ص29؛ الحميري، أبو عبد الله محمد، الروض المعطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ـ 1975، ص244. The Gambridge History of Africa, Vol. 3, P. 382

في الساحل الشمالي للقارة؛ ذلك أن السمة الأساسية لهذا الوجود ظهرت في المدن والموانئ التجارية التي امتدت في سلسلة طويلة من ساحل بنادر في الصومال إلى ساحل موزمبيق، بل حتى مصب نهر الزامبيزي، إضافة إلى الجزر المواجهة للساحل، امتداداً من سقطرى شمالاً حتى مدغشقر جنوباً[1]. وهذه الحقيقة دفعت بأحد الرحالة الأجانب إلى الاعتراف بأن الشاطئ الإفريقي ازدهر في ظل العرب المسلمين، وسمى هذه الحقبة الزمنية التي شهدها الساحل باسم «الفترة الإسلامية[2]» التي كان العرب فيها يُشاهَدون في كل مكان على الساحل حتى مدينة رهابتا[3]، وربما أبعد منها. بل من المؤكد ـ كما سنرى فيما بعد ـ أن كثيراً من مدن الساحل كمقادشو وبراوا ومركة وغيرها أُسّست من قبل العرب المسلمين[4].

واستناداً إلى المصادر المحلية الخطية التي اعتمدت في الأساس على الروايات المتداولة بين سكان الساحل[5] يتأكد لنا أن الإسلام أخذ في الانتشار في الساحل منذ عهد الخليفة الراشدي

---

(1) عبد الرسول، كوثر، دراسات في الهجرات الحديثة إلى إفريقية، حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، القاهرة ـ 1973، م13، ص250.

(2) Guillian, M: Document Sur L' Histoire, La Geographie Et La commerce De L' Afrique Oriental. Deuxieme Partie, Tome Deuxieme, P. 277.

(3) حوراني، العرب والملاحة، ص84.

(4) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Tome Deuxieme, P. 184.

(5) ومن هذه المخطوطات (1) الباقري اللاموى، شيبو فرج بن حميد، خبر اللامو، ترجمها من اللغة السواحيلية ونشرها بالانكليزية: William Hichens, Bantu Studies, Vol, XII, 1938.

(2) Werner Editer, The History of Pata. Journal of African Society Vol. XIV, London – 1915.

ويبدو أنه كان هناك تاريخ رسمي لباتا هو (ملوك باتا) الذي دمر في أثناء قصف مدينة ويتو Witu في عام 1890 من قبل البرتغاليين، ولا توجد حتى الآن نسخة من هذا الكتاب الذي يعتقد أنه مكتوب باللغة العربية. وقد قامت Werner بترجمة المخطوطة إلى الإنكليزية ونشرتها، وهناك عدة نسخ متناقضة لهذه المخطوطة قامت werner بنشر ما تسمى بنسخة Hollis منها. وجميع معلومات هذه المخطوطة مأخوذة عن شخص واحد اسمه محمد بن فومو عمرى النبهاني، الذي عرف بلقب Bwana kitini الذي يذكر أنه أخذ بعضاً من معلوماته من جده محمد بن بوانا، ولا يذكر فيما إذا كان قد أخذها عنه شفهياً أو وجدها مدونة. وهناك نسخة أخرى من المخطوطة سميت بنسخة ستغاند Stigand وتعتبر الأفضل، وقد نشرها في كتابه: The Land of Zinj.

3 ـ الصوافي، عبد الله، مخطوطة السلوة في أخبار كلوة، وهذه المخطوطة هي نسخة ملخصةعن تاريخ عربي عنوانه (سنة الكلوية) والذي لا توجد منه أية نسخة الآن، ومن المحتمل أن تكون منه نسخة في الساحل الإفريقي. وقد استطاع السير جون كرك عندما كان مقيماً في زنجبار أن يحصل على ملخص الشيخ محيي الدين الزنزباري بعد وفاته، والذي كان بعنوان (السلوة في أخبار كلوة) وقبل أن يعيدها إلى سلطان زنجبار المسمى برغش بن سعيد قام بكتابة نسخة منها، هي التي قدمها إلى المتحف البريطاني. وعندما قدم البرتغاليون للساحل في بداية القرن 10هـ/ 16م حصل أحدهم على نسخة من كتاب السلوة هذا، وحملها معه إلى لشبونة، حيث ترجمت إلى البرتغالية، واستخدمها بعض المؤرخين منهم دي باروس De Barros في كتابه Da Asia الذي ظهر عام 1552م، وقد=

عمر بن الخطاب.

وقد اهتم الأمويون بتجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي، وعمدوا إلى تأسيس محطات تجارية على الساحل الإفريقي الشرقي لتأمين تجارتهم. وخير دليل على ذلك أن الخليفة عبد الملك بن مروان أرسل عام 75 هـ/ 694م مجموعة من أهل الشام للإقامة في الساحل[1] تحت قيادة أمير يدعى موسى بن زبير الجشعمي، وقد أسس هؤلاء مدينة لامو، إضافة إلى (35) مدينة ساحلية أخرى أسسوها بعد عام 77هـ/ 696م[2]؛ وذلك لحماية تجارة الشرق في المحيط الهندي، كما أنهم اتخذوا قاعدة لهم في جزيرة زنجبار، واهتموا بتعميرها، ومنها انطلق نشاطهم التجاري في المحيط الهندي[3].

وتستطرد المصادر المحلية فتقول إن الأخوين سعيد وسليمان ابني عباد الجلندي حاكمي عُمان اضطرا إلى الفرار إلى بلد من بلدان الزنج، حتى ماتا هناك، بعد فشل خروجهما على الخلافة الأموية، وهزيمة جيشهما أمام الجيش الأموي[4].

ومن الطريف أن هناك رواية سواحيلية مشهورة تحدثت عن إقامة إمارة ابن مروان على الساحل الشرقي بالقرب من لامو، وتسميها واشامي Wa Shami، وهي إشارة إلى أهل الشام الذين أسسوا إمارتهم بجوار لامو. والحق أن حملة عبد الملك بن مروان هذه أفلحت في إخضاع الساحل الإفريقي الشرقي لنفوذ الأمويين، فظل أهله موالين لهم حتى زوال حكمهم[5].

وبقيام الحكم العباسي، وانتقال مركز الدولة العربية الإسلامية إلى العراق، حرص

= عنون دي باروس الكتاب باسم (حوليات ملوك كلوا).

(1) الباقري اللاموى، خبر اللامو، ص9.

(2) Stigand, The Land of Zinj, P. 29; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. I, P. 102; Gray, History of Zanzibar. P. 12; Freeman - Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 33.

(3) القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة ـ1976، ص 26، هامش رقم (1).

(4) مؤلف مجهول، تاريخ عمان، مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني رقم Or. 6568 وص11. الازكوى، سعيد، كشف الغمة، مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد، رقم 200، ج2، ص327 – 328.

(5) القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، ص25 – 26، هامش رقم (6).

العباسيون على أن يجعلوا العراق مركز الأهمية السياسية والحضارية والاقتصادية، وكان من أهم إجراءاتهم في هذا الصدد أنهم عملوا على تحويل طرق التجارة العالمية من البحر الأحمر والبلاد المطلة عليه إلى الخليج العربي والعراق. وقد نجحوا في العصر العباسي الأول في تحقيق ذلك، ففقد البحر الأحمر نشاطه، وتحول النشاط التجاري إلى موانىء الخليج العربي - سيراف والبصرة والأبلة - التي أخذت تستقبل سفن الشرق الأقصى. والحق أن البحر الأحمر لم يسترجع أهميته التجارية إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة/ القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي، بسبب تعرض التجارة للخطر في الخليج العربي بتأثير الأحداث السياسية في العراق ومنطقة الخليج العربي[1].

إن هذه الحقائق تفسر لنا قلة المعلومات عن العلاقات العربية مع الساحل الإفريقي الشرقي في العصر العباسي، بحيث يمكن القول إن العباسيين لم يوجهوا كبير اهتمام إلى هذه المنطقة حتى أوائل القرن 4هـ/ 10م. لكن هناك بعض الإشارات في الروايات المحلية تتحدث عن العلاقة بين العباسيين والساحل، فتذكر أن مدن الساحل هذه نقضت ولاءها للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي أرسل حملة ضدها عام 149 - 150هـ/ 766 - 767م[2]. كما تؤكد أن الخليفة هارون الرشيد أرسل سكاناً للإقامة في الساحل، وأن حكامه كانوا يعينون من قبله[3]، وهناك إشارات أخرى تذكر أن هذا الخليفة وابنه الخليفة المأمون أرسلا حملات عسكرية إلى هذه المنطقة لإخماد حركات التمرد التي قامت ضد العباسيين[4].

ويمكننا الآن أن نرجح أن بعض المهاجرين العرب المسلمين للساحل أقاموا في مجموعات صغيرة في مناطق معينة في فترات أقدم، ثم تطورت هذه المناطق بعد القرن 4هـ/ 10م بفعل قدوم هجرات عربية إسلامية أكبر، وبشكل مستمر، استقرت في الأماكن نفسها، ناقلة إليها كل

---

(1) القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، ص46 - 56

(2) Stigand, The Land of Zinj, P. 29; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 102.

(3) Ibid, PP. 29 – 30; Ibid, Vol, I. P. 102; Gray, History of Zanzibar, P. 12.

(4) Chittick, kilwa and The Arab Settlement of The East African Coast, journal of African History, Vol. 17, NO. 2, Cambridge, 1963, P. 181.

معالم الحضارة العربية الإسلامية، مما أدى إلى ازدهار هذه المناطق المنتشرة على طول الساحل، بحيث أصبح لهذه المدن الأثر الفعال في حياة ومجتمع الساحل ككل.

انتشر الإسلام في الساحل الإفريقي الشرقي بفعل عاملين، هما:

1 ـ حركة الهجرة العربية الإسلامية إلى الساحل.

2 ـ حركة التجارة العربية الإسلامية[1] بين الساحل الشرقي وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي.

يصعب على الباحث في الواقع أن يفصل فصلاً كاملاً بين هذين العاملين المتشابكين وأثرهما في نشر الإسلام في الساحل، فهما مرتبطان معاً، ويكمل أحدهما الآخر. فبنتيجة الحركات المناوئة التي ظهرت أبان عهد الدولتين الأموية والعباسية، وبعد سقوط الخلافة العباسية على يد المغول عام 656هـ/ 1258م كان من المنطقي أن تتزايد حركة الهجرة هذه.

وربما يكون هؤلاء المهاجرون قد اختاروا الساحل الإفريقي الشرقي بالذات لما سمعوا عنه من التجار أولاً، وممن سبقهم في الهجرة إليه ثانياً. كما أن موقعه الجغرافي، وتمكن البحارة العرب من الملاحة البحرية ومعرفتهم بالطرق البحرية يجعل الوصول إليه سهلاً ومأمون العواقب. وبنتيجة تكاثف الوجود العربي الإسلامي هناك (الذي كان في البداية تجارياً صرفاً، ثم تحول تدريجياً إلى وجود فعلي منظم انعكس في قيام دول قوية مزدهرة على الساحل) بدأ الإسلام بالانتشار التدريجي بين سكان المنطقة بسبب تعاليمه السمحة العادلة ودعوته إلى المساواة بين المسلمين دون تمييز. فزاد الاختلاط بين المهاجرين الجدد وسكان الساحل، وتزاوجوا فيما بينهم، مما دفع بسكان الساحل إلى التشرب بمبادئ الدين الجديد، والحضارة الجديدة، والدخول في الإسلام تدريجياً. بل إن بعض الروايات تذكر إن إحدى قبائل الساحل اعتنقت الإسلام نتيجة اعتناق رئيسها له، وذلك في حدود القرن 4هـ/ 10م، والذي وصل إلى بغداد والبصرة، وتفقه

(1) Pearce,; Zanzibar, The Island Metropolis of East Africa, London – 1920, p. 38

بالدين، ثم ذهب إلى مكة للحج، ومنها عاد إلى وطنه مؤمناً مسلماً، حيث أرشد قومه إلى تعاليم الإسلام[1].

ويعتقد أن معظم المهاجرين الأوائل استقروا في ساحل بنادر، ثم «قام المتحدرون من هؤلاء المهاجرين الأصليين ـ أي ذريتهم ـ بالهجرة ثانية نحو الجنوب»[2]. ويبدو أنهم كانوا يبحرون متنقلين من مكان إلى آخر بحثاً عن مواطن ملائمة للاستقرار، ومن هنا استطاعوا الوصول إلى أبعد نقطة من الساحل المعروف آنذاك[3]. وقد امتدت الحضارة العربية الإسلامية نحو 600 ميل على طول الساحل خلال العصور الوسطى، مؤكدة وجود حضارة إسلامية قديمة في جزر الساحل المتناثرة[4]. وقد تركزت مناطق الإقامة على الساحل ابتداءً من مقادشو شمالاً، مروراً ببراوا، وسيو، وباتا، ولامو، وماليندي، وكليفي، وممباسا، وفومبا، وبمبا، وزنجبار، ومافيا، وكلوة، وموزمبيق، وسفالة، والملاحظ أن معظم هذه الأماكن كانت على جزر سواء بعدت أو قربت كثيراً من الساحل، يفصلها شريط ضيق من الماء؛ ككلوة وممباسا[5]، وبعضها الآخر أقيم على البر مباشرة.

بل إن صلات العرب امتدت لتصل إلى داخل إفريقية، فبلغت بلاد الكونغو والزولو وكفروريا (الكفرة). وما زالت آثارهم هناك تنبئ عن قدم وعمق وجودهم، متمثلة في قبر عربي قديم عثر عليه في شمال روديسيا، شمال الترنسفال، بالقرب من بلاد (الكفرة)، عليه كتابة بالحرف الحميري تذكر اسم المتوفي وهو: سلام، ويحمل تاريخ الوفاة وهو سنة 95هـ/714م[6]، وهو اسم عربي صريح كما نرى. كما اكتُشفت كتابات عربية قديمة في مدينة فوماكو

(1) الرامهرمزي، بزرك بن شهريار، عجائب الهند، ص 50 - 60؛ أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، ط2، القاهرة ـ 1957، ص 379.

(2) Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 41.

(3) الباقري اللاموى، خبر اللامو، ص 9.

(4) Mathew, Islamic Merchant Cities, P. 5.

(5) Couplande, East Africa, P. 25.

(6) نقولا ديمتري، الرحلات الإفريقية القديمة ـ مجلة الرواد، وهي الجزء الثاني من كتاب أعلام المقتطف، القاهرة ـ 1927، ص 94.

القديمة الواقعة داخل إفريقية الشرقية[1]، وليست هذه الآثار المنتشرة على طول مدن الساحل إلّا دليلاً ساطعاً على قدم الوجود العربي الإسلامي، ليس في منطقة الساحل فحسب، بل في المناطق الداخلية المتاخمة لها أيضاً.

والعامل الثاني العظيم الأهمية في انتشار الإسلام في شرق إفريقية هو التجارة[2]؛ فمنذ القديم أنشأ التجار العرب مراكز تجارية على طول الساحل لتزويد العالم المتمدن آنذاك بما يطلبه من العاج والذهب والعنبر وغيرها من المواد الثمينة[3]. وقد نمت هذه المراكز ـ كما ذكرنا سابقاً ـ نتيجة كثافة الوجود العربي في الساحل، بسبب الأحداث السياسية أو الدينية للدولة العربية الإسلامية، أو العوامل الاقتصادية، والتي حدت بهم إلى الهجرة. ومن هنا يمكننا القول إن هذه المراكز لم تكن ملاذاً لهذه المجموعات من المهاجرين فقط، لكنها كانت بالأصل مراكز تجارية قديمة ناجحة[4].

وبمجيء المهاجرين الجدد واستقرارهم في هذه الأماكن ارتبط وجودهم بالتجارة. إن المتاعب التي شهدتها الخلافة العربية الإسلامية منذ أواخر القرن الخامس الهجري، وتعرقل طريق التجارة الشرقية مع الهند وشرق إفريقية من خلال الخليج العربي دفعا التجار العرب وأصحاب السفن من أهل عمان وسيراف إلى البحث عن تسهيلات تجارية جديدة أفضل لإنعاش تجارتهم، ومن هنا أنشؤوا مراكز تجارية عديدة على سواحل البحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية والساحل الإفريقي الشرقي[5].

وبما أنهم كانوا مسلمين فقد أخذ الإسلام بالانتشار التدريجي بمحاذاة طرق التجارة ومراكزها[6]، جاذباً إليه أفراد القبائل الرحالة بالدرجة الأولى، ثم أفراد القبائل الزراعية

---

(1) نقولا، العرب والملاحة، ص94.

(2) Fitzgerald, Orita. Ibadan Journal of Religious Studies, No. VII. Nigeria, December – 1971, P. 94.

(3) Pearce, Zanzibar, P. 40.

(4) Ibid, P. 40.

(5) Yajima, The Arab Dhow Trade In The Indian Ocean, Tokyo – 1976, P. 54.

(6) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص33.

المستقرة شيئاً فشيئاً[1]. وقد امتلك العرب من الشجاعة والذكاء ما مكنهم من تطوير تجارتهم، فلم تعد تقتصر على الساحل فقط، بل أخذت قوافلهم التجارية بالتوجه تدريجياً نحو المناطق الداخلية المتاخمة للساحل، وربما أبعد منها أيضاً[2]. ويبدو أن هذه العملية كانت تدريجية، ولم تتسم بأي نوع من القوة، ذلك أن المهاجرين الجدد هؤلاء سرعان ما اختلطوا مع المواطنين الأصليين، واكتسبوا صداقتهم، وتزوجوا فيهم، وأثروا بهم، وخير دليل على هذا هو نشوء الشعب السواحيلي[3]. وعلى هذا الأساس تحولت المراكز التجارية العربية الصغيرة المنتشرة على طول الساحل من القرن الإفريقي حتى جنوب موزمبيق خلال الفترة من 391 – 906هـ/ 1000 – 1500م بفعل نشاط التجار الذين ربطوا هذا الساحل وجزره بشبكة التجارة العالمية آنذاك، إلى مدن كبيرة آهلة بالسكان[4]، وبخاصة بعد منتصف القرن 7هـ/ 13م بعد الأحداث المدمرة التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية باحتلال المغول بغداد عام 656هـ/ 1258م، مما أدى إلى كثافة الهجرات العربية الإسلامية إلى الشاطئ الإفريقي[5].

لقد نمت هذه المراكز، فتحولت إلى ما نستطيع أن نسميها دويلات مدن، ساد بعضها – مثل كلوة – على المناطق المجاورة لها وعلى الطرق التجارية أيضاً. ومن المؤكد أن كل هذه المدن استمدت قوتها وسيطرتها وثروتها من التجارة. ونستطيع التأكيد أن حضارة وازدهار مدن الساحل هذه بلغت أوجها فيما بين 491 – 906هـ/ 1200 – 1500م[6]، كما تدل على ذلك نتائج التنقيبات الأثريةالتي أجريت، وذلك بفعل المتاجرة بالمواد الثمينة التي تبادلها العالم المتمدن آنذاك مع منطقتي الشرق الأقصى والأوسط؛ فمثلاً عثر على الكثير من قطع الفخار

---

(1) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص33.

(2) Eliot, The East Africa Protectorate, London – 1950, P. 42.

(3) Coupland, The East Africa, P. 28.

(4) Davidson, The Growth of African Civilization, 1974, P. 95.

(5) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص14.

(6) سميت بدويلات المدن city – States تشبيهاً لها بدول المدن المعروفة في تاريخ اليونان القديم. حراز، إفريقية الشرقية، ص4.
Davidson, The Growth of African Civilization, P. 97 – 102.

المطلي في كلوة والتي جلبت من مصر وسوريا[1].

بل أصبحت هذه المدن بمثابة محطات تتجمع فيها منتجات الجهات الداخلية كالعاج والذهب والصمغ والبخور والأخشاب، حيث يقوم التجار العرب بتصديرها إلى الأسواق العالمية[2]. وكانت مدن مقادشو وباتا ولامو ومومباسا وماليندي وكلوة وبمبا وزنجبار وسفالة ممالك مستقلة زاهية عامرة، تمتع ملوكها بالقوة والثروة[3]، ولا حاجة إلى التأكيد إلى مدى الوجود العربي في هذه المناطق، فعلى سبيل المثال اكتشفت في مدينة غيدى[4] أطلال مساجد كثيرة صغيرة متباعدة، وبيوت عديدة تظهر مدى سعة الاستقرار العربي فيها[5]، كما أن من الخصائص البارزة لهذه المدن أنها كانت تُحكم من قبل ملوك عرب[6] منتخبون[7].

إن المنطقة الرئيسة التي جاء منها معظم هؤلاء المهاجرين الجدد هي منطقة الخليج العربي، التي ارتبطت بالشاطئ الإفريقي الشرقي منذ القدم، ولم تكن هذه الصلة تقوم على تبادل المصالح التجارية بين المنطقتين فحسب، بل كانت كذلك نموذجاً فريداً للاندماج الاجتماعي الكامل بينهما، وهذه «الحقيقة تؤكدها الوقائع التاريخية الماثلة على امتداد مراحلها المتعاقبة»[8]. فمن الخليج العربي أبحر الأخوة من عمان، ثم تبعهم الزيديون، وفيما بعد هاجر عرب من

---

(1) Mathew, The Islamic Merchant Cities, P. 5.

(2) حراز، إفريقية الشرقية، ص6.

(3) نقولا، الرحلات الإفريقية القديمة، ص93.

(4) غيدى: تقع على بعد 53 ميل شمال شرق مومباسا و8 أميال جنوب غرب ماليندي، وتبعد عن ساحل البحر حوالي 4 أميال.
KirkMan, The Arab City of Gedi, London – 1954, P. 31
ونستطيع أن نستخلص من تسمية هذا الكتاب قوة الوجود العربي في الساحل؛ إذ لم يستطع هذا الكاتب أن يتغافل عنه.

(5) KirkMan, The Arab City of Gedi, P. 13.

(6) حوراني، العرب والملاحة، 85؛ Freeman – Gerenville, The East African Coast, pp. 131 – 132.
وقد سموا أحياناً (بالشيخ) كما في مقادشو. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص196. وقد أطلق البرتغاليون لفظة (المغارية) على العرب.
Barbosa, The Book of Duarts Barbosa, Vol. 1, PP. 18, 20, 22, 29.

(7) الباقري اللاموى، خبر اللامو، ص13، 29؛ الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص8 – 10؛ الحموي، معجم، ج2، ص68؛ المهرى، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص577. شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص91؛
Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 23.

(8) الامبابي، عبد الواحد، إفريقية والخليج العربي، مجلة التجارة، غرفة تجارة الشارقة، العدد 22، السنة 7، 1978 ص4.

منطقة الإحساء قرب البحرين[1]. وتشكل الهجرة من عمان نسبة كبيرة من مجموع الهجرة العربية الإسلامية إلى الساحل؛ فقد كان لاهتمام سكانها بالملاحة والتجارة البحرية كوسيلة لعيشهم، ومهارتهم في صناعة السفن، دور كبير في تنمية التجارة العربية في المحيط الهندي. وبعد ظهور الإسلام وجه العمانيون نشاطهم إلى الشاطئ الإفريقي، حيث زادت صلتهم به توثقاً، مما مهد الطريق لأول هجرة عمانية بقيادة الأخوين سعيد وسليمان ابني الجلندي، إذ أخفقت حركتهم ضد الأمويين عام 76هـ/ 695م[2]. ومن الممكن أن نفترض حدوث هجرة من البصرة والكوفة، آخذين بالاعتبار ما قيل من أن أحد حكام قنبلو من أصل كوفي[3]، وأن أخرجاء من البصرة[4]. نستنتج مما سبق حدوث هجرات متقطعة من مناطق الخليج العربي، ابتدأت منذ منتصف القرن 2هـ/ 8م، وتطورت وتكثفت حتى بلغت أوجها في القرن 6هـ/ 12م[5].

واللافت للانتباه فيما يتعلق بالعرب الذين استوطنوا الساحل عدم اندماجهم في وحدة سياسية[6]، بل توزعوا على مدن الساحل بأجمعها. وكثيراً ما كان النزاع يدب بين مدينة وأخرى لأسباب سياسية أو تجارية[7]، وفي بعض الأحيان تقوم مدينة ما بفرض سيادتها – لفترات قد تقصر أو تطول – على ما يجاورها[8]، كما فعلت مقادشو التي اعتبرت أهم مدينة على الساحل حيث سادت على المدن المجاورة لها منذ القرن 6هـ/ 12م[9]، وكذلك باتا التي سادت على

---

(1) مراجعة: Chittick, The Peopling of The East African Coast, p. 41

(2) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص15 – 16.

(3) Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 42; Trimingham, The Arab Geographers, P. 135; الحموي، معجم، ج3، ص99.

(4) وهذا النص نقله المؤلف عن تاريخ مدينة تومباتو. Gray, History Of Zanzibar, pp. 16 – 17.

(5) The Cambridge History of Africa, Vol 3, p. 201.

(6) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص19؛ محمود، حسن أحمد الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، القاهرة ـ 1963، ج1، ص472.

(7) Coupland, East Africa, P. 26.

(8) عبد الرسول، دراسات في الهجرات الحديثة إلى إفريقية، ص 257؛ قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص 19.

(9) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 395؛
Oliver and Mathew, History of East Africa. P. 117; Coupland, East Africa. P. 36.

العديد من مدن الساحل حوالي عام 731هـ/ 1330م[1]، وكانت أهمها على الإطلاق مدينة كلوة التي وحدت معظم المراكز العربية الإسلامية في الساحل في دولة سميت بدولة الزنج[2].

والملاحظ في المدن العربية في الساحل أنها وبشكل عام أقيمت على الجزر، وفي حالة عدم حدوث هذا فإن المركز المفضل للمدينة هو لسان من الأرض محاط بالخلجان والمستنقعات الصغيرة. وقد قصد العرب والمسلمون بهذا الاختيار توفير الأمن والحماية لمدنهم من هجمات قبائل المناطق المجاورة أو الداخلية على حد سواء[3].

ولهذا لم ير العرب والمسلمون داعياً لإقامة الأسوار الدفاعية والتحصينات لمدنهم، باستثناء بعضها، وذلك في الفترات الأولى على الأقل[4]، والتي استمرت أحياناً حتى فترات متأخرة[5]، حيث بدؤوا بعدها بإقامة التحصينات لمدنهم ضد غارات القبائل، مثل قبيلة الغالا Galla والماساي[6] Masai، وخاصة في القسم الشمالي من الساحل، أما بالنسبة إلى المدن المقامة فوق الجزر فقد كان البحر خير مدافع عنها[7].

ويبدو أن سكان هذه المدن كانوا مسالمين جداً، فهم لم يحتفظوا بجيش نظامي دائم، أو أسطول قوي مثلاً، كما أن أسلحتهم كانت بسيطة اعتمدت على الأقواس والسهام والرماح[8]، إضافة إلى ذلك فالمصالح المشتركة دفعت السكان العرب المسلمين لإقامة علاقات ودية سلمية مع الأهالي[9].

---

(1) الباقري اللاموى، خبر اللامو، ص19؛
Chittick, Anew Look At The History of Pata, Journal of African History, Vol. IX, No. 3, 1969, P. 378.

(2) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 10؛ العقاد، زنجبار، ص 8. Coupland, East Africa, p. 26

(3) مراجعة: الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7 – 8؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P. 186; Zamani, Asurvey of East African History, P. 108.

(4) Zamani, Asurvey of East African History, P. 108.

(5) The Camberidge History of Africa, Vol, 3, P. 21.

(6) Ibid, Vol, 3, P. 210.

(7) كما في كلوة مثلًا، مراجعة: الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7.

(8) The Cambridge History of Africa, Vol, 3. P. 211.

(9) قاسم، دولة بو سعيد في عمان وشرق إفريقية، ص 16.

ومن المهم جداً، أن نتعرف إلى طبيعة العلاقة التي ربطت العرب المسلمين المهاجرين بسكان الساحل الأصليين، فقد شكل العرب المسلمون والأفارقة سكان المدن التي انتشرت على طول الساحل، وكانت أغلب هذه المدن ـ كما ذكرنا سابقاً ـ مستقلة تحكم من قبل عوائل عربية أو سواحيلية، حيث تشتهر إحدى العوائل بكونها عائلة شيوخ يولى منها الحكام[1]. وكان هناك ارتباط رائع بين العرب المهاجرين والسكان المحليين من الزنوج، فكل قبيلة زنجية ربطت نفسها مع قبيلة عربية[2]، وكان لكل عربي أو مجموعة من العرب نصير زنجي يعمل كصاحب لهم، وإذا ما حدث نزاع بين هذا الزنجي وزنجي آخر يسرع العربي مع جماعته لنصرته[3] عن طريق رد البضاعة أو دفع ثمنها، وإذا ما اختلف عربي مع زنجي فإن هذا العربي يكون في حماية نصيره الزنجي وقبيلة نصيره أيضاً. ومن جهة أخرى كان العرب المسلمون يحمون الزنوج في حالات الحرب ضد العدو المشترك[4]. كما مارس السكان على اختلاف طبقاتهم التجارة، حيث اهتم العرب مثلاً بجباية الرسوم الكمركية، واهتم غيرهم بالتجارة ذاتها[5]، كما عمل كثير منهم في السفن التجارية[6].

ونستطيع الآن أن نكوّن فكرة ولو موجزة عن طبقات السكان في مدن الساحل خلال القرنين 8 – 9هـ/ 14 – 15م، مستندين في ذلك على ما ذكره الجغرافيون، وعلى نتائج التنقيبات الآثرية التي أجريت.

فمما لاشك فيه أن عدد النساء العربيات المسلمات اللواتي صاحبن الهجرات الأولى كان

---

(1) ويبدو أن مثل هذه العوائل هي التي كانت تسيطر على الحكم، ولا يرضى الشعب حاكماً إلا منها، والأخبار من هذا النوع المنتشرة في ثنايا مخطوطة السلوة في أخبار كلوة للصوافي، خير دليل على ذلك. مراجعة: Posnansky, Prelude To East African History. P. 114 والجدير بالذكر أن مدن الساحل تمتعت باستقلالها الواحدة عن الأخرى منذ القرن الأول الميلادي وربما قبلها أيضاً، حيث كانت كل مدينة مستقلة بحاكمها عن المدينة الأخرى. مراجعة: Sohoff, The Periplus of The Erythraean Sea, P. 27.

(2) Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 42

(3) The Cambridge History of Africa, Vol 3, P. 210.

(4) Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 42.

(5) ويدنر، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ص 137.

(6) Zamani, Asurvey of East African History, P. 114.

قليلاً، مما دفع بالمهاجرين إلى الاختلاط والتزاوج بالسكان المحليين. ولم يمنع هذا الأمر العوائل البارزة من محاولة التزاوج فيما بينها قدر المستطاع كي تحتفظ بأكبر نسبة من الدم العربي فيها. إن ذوي الدم العربي الخالص سموا بـ (المانغا Manga)، وهم القادمون من عمان، و(الشحريين Shihirs) بالنسبة إلى القادمين من حضر موت، وقد شكل هؤلاء العرب الطبقة الحاكمة في الساحل[1]، وذلك في الفترات الأولى من هجرتهم.

أما الفئة الثانية، وهي الفئة التي حكمت فيما بعد، فهم الأفارقة المسلمون، وفيهم نسبة من الدم العربي، ويسمون الآن بالسواحيليين، وكانوا سمر البشرة، وعلى معرفة جيدة بالدين الإسلامي[2]، كما كانت هناك طبقة ملاك الأراضي والموظفين الدينيين والتجار والحرفيين[3]. وأخيراً كانت هناك طبقة الأفارقة الأصليين ذوي الدم النقي الذين كان تأثرهم بالحضارة العربية الإسلامية ضئيلاً، وكانوا يعملون في الحقول ومختلف الأعمال الدنيا[4].

وقد أمدنا ابن بطوطة بلمحة جميلة عن طبقات مجتمع مقادشو عندما زارها وحضر مجلس شيخها، فوجد أن لكل فئة مرتبتها وطريقة سلامها على شيخ مقادشو، وهذه الفئات هي: الفقهاء، والأشراف، والمشايخ، والحجاج، والوزراء، والأمراء، ووجوه الأجناد. وترتيب دخولهم وسلامهم على الشيخ تكون بأن يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه، ويسلم سائرهم وينصرفون، وإن كانوا ضيوفاً جلسوا عن يمينه. ثم يدخل المشايخ والحجاج، فيجلس كبراؤهم، ويسلم سائرهم

(1) Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 42 – 43.

(2) كما نجد فيما يتعلق بشيخ مقادشو مثلًا الذي كان من البرابرة، لكنه مسلم ورع يتكلم العربية. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص196 – 198.

Zamani, Asurvey of East African History, P. 114; Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 43; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 209.

(3) Zamani, Asurvey of East African History, 209, P. 114; The Cambridge History of Africa Vol. 3. P. 209.

(4) Zamani, Asurvey of East African History, P. 114; Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 43.

وينصرفون، ثم يدخل الوزراء، ثم الأمراء، ثم وجوه الأجناد، طائفة بعد طائفة أخرى، فيسلمون وينصرفون[1].

والواقع أنه كلما نمت هذه المدن وازدهرت وازدادت ثروتها توسع رخاؤها، وأصبح أهلها قادرين على العيش بترف واضح، سواء في مساكنهم أم ملبسهم أو مأكلهم. وبطبيعة الحال فإن هذا الترف اقتصر بالدرجة الأولى على الطبقة الحاكمة والتجار الأغنياء والموسرين وملاك الأراضي، أما بقية السكان فقد قاموا بمختلف الأعمال كالفلاحة وصيد الأسماك[2].

وبحلول القرن 9هـ/ 15م، وباشتداد المنازعات والحروب الأهلية بين مدن الساحل[3]، بدأ البرتغاليون بالظهور في هذه المنطقة[4]؛ فقد كان الهدف الأساسي للسياسة البرتغالية هو البحث عن الوسائل التي تمكنها من الوصول إلى الأسواق الشرقية والالتفاف حول الإسلام ومحاصرته. ويمكن تشبيه هذه السياسة بأنها شكل من أشكال الحروب الصليبية، حيث غلف غرضها الاقتصادي بغلاف ديني، ففي عام 904هـ/ 1498م بدأت أول رحلة استكشافية برتغالية بقيادة فاسكو دي غاما، أعلنت أن هدفها اكتشاف طريق بحري يوصلها إلى الهند، إضافة إلى محاولتها الحصول على ذهب سفالة[5]. وقد مهدت الخلافات التي كانت مستمرة آنذاك بين مدن الساحل العربية الإسلامية ـ ولاسيما بين ماليندي وممباسا ـ موطئ قدم للبرتغاليين في المنطقة[6]. ومع أن السكان أدركوا الهدف الأساسي لهؤلاء القادمين الجدد إلّا أنهم لم يتمكنوا من الوقوف بوجه عدوهم المشترك وقفة واحدة، نتيجة احتدام الخلافات فيما بينهم، مما مكّن البرتغاليين من إخضاع مدن الساحل الواحدة بعد الأخرى، ثم تخريبها وحرقها، وقد تم ذلك خلال الأعوام 908هـ/ 1502م إلى 911هـ/ 1505م، ولم تسلم منهم إلا

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص199.

(2) Davidson, The Growth of African Civilization, PP. 101 – 102.

(3) نقولا، الرحلات الإفريقية القديمة، ص35.

(4) أشار إلى ذلك ابن ماجد في أرجوزته الأولى، شهاب الدين أحمد، ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق: تيودورشوموفسكي، ترجمة: محمد منير مرسي، القاهرة ـ 1969، ص45.

(5) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol 1, P. 133.

(6) Barbaosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 23

مدينة مقادشو. وما إن حلّ العام 935هـ/ 1528م حتى كان معظم الساحل تحت سيطرتهم[1].

حقق البرتغاليون هدفهم الحقيقي من احتلال الساحل؛ فقد دمروه ونهبوا خيراته وسيطروا على طرق تجارته، كما سيطروا على إنتاج وتصدير الذهب من موزمبيق وسفالة التي اهتموا بتشييد القلاع فيها للأغراض الأمنية والعسكرية[2]، الأمر الذي أفقد كلوة خاصة[3] وممباسا وماليندي عصب حياتهم، كما استطاعوا السيطرة على طرق التجارة في المحيط الهندي ولاسيما الموصل إلى الهند. وقد ظنوا أنهم بذلك قضوا على الروح والحضارة العربية الإسلامية في الساحل، لكن جذور هذه الحياة بقيت قائمة وقوية، ففي العام 1110هـ/ 1698م استطاع حكام عمان أن يطردوا البرتغاليون، ويعيدوا الحياة العربية إلى الساحل[4].

كما أدت الإجازات التجارية التي فرضها البرتغاليون على التجار العرب في الساحل، إضافة إلى محاولات ابتزاز القباطنة البرتغاليون للتجار العرب، كلها أدت إلى اندحار مدن الساحل وضياع ثرواتها[5]؛ هذه المدن العامرة التي أدهشت هؤلاء المستعمرين، فأُعجبوا بحضارتها الزاهية المتمثلة ببيوتها المبنية بالصخور والأحجار، وجوامعها ذات المسحة الفنية العالية الجمال، وشوارعها العريضة المرصوفة بالحجر، وسكانها المترفين، ولباسهم الثمين المصنوع من الحرير والقطن، وتزينهم بمختلف أنواع الحلي والجواهر[6].

---

(1) حول هذا الموضوع يُنظر: Gray, Ahistory of Kilwa, part. 2, No. 32, P. 15, 18; March, Ahistory of East Africa, Cambridge University Press - 1972, P. 30; Posnansky, Prelude To East African History, P. 119; Werner, The History of Pata, P. 279; Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 28; الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 16 ـ ص 17؛ المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ح3، ص 578.

(2) Gray, A history of Kilwa, part. 2, P. 23

(3) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 135; Gray, Ahistory of Kilwa, part. 2, P. 23.

(4) وحول قدرة العمانيين في إعادة سيطرتهم على الساحل الإفريقي الشرقي، كمدن لامو وممباسا وكلوة وزنجبار، مراجعة: ابن رزيق، حميد بن محمد، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، تحقيق: عبد المنعم عامر، 1978، ص 271 وص 281.

(5) Posnansky, Prelude To East African History, P. 119.

(6) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 17, 22, 26; Freeman - Grenville, The East African Coast, P. 133; Pearce, Zanzibar, PP. 41 - 46.

ثانياً ـ الهجرات العربية الإسلامية إلى الساحل:

لا بد لنا الآن من أن نستعرض بإيجاز الهجرات العربية الإسلامية إلى الساحل وأماكن استقرارها، آخذين بعين الاعتبار ندرة المخطوطات المحلية التي تذكر وتؤيد هذه الهجرات؛ حيث إن معظمها ـ كما ذكرنا سابقاً ـ تلف في أثناء الغزو البرتغالي للساحل، أو ضاع، أو مازال مجهولاً إلى الآن، إضافة إلى اعتماد بعض المخطوطات المهمة على الروايات الشفوية المتناقلة التي دونت فيما تبقى من هذه المخطوطات، والتي نقل عنها معظم الكتّاب المُحدثين والآثاريين الذين كتبوا عن هذه المنطقة.

وسيكون منهجنا في تناول هذا الموضوع قائماً على بحث تاريخ كل هجرة، ثم أول منطقة استقرار لها، وبالتالي تطورها عبر القرون اللاحقة، والمراكز والمدن التي ارتبطت بها، محاولين بذلك الحفاظ على وحدة الموضوع وعدم تجزئته أو تشتيته.

1 ـ هجرة الأخوين سعيد وسليمان ابني الجلندي من عُمان، وتأسيس باتا ولامو:

من المعتقد أن أول هجرة عربية حدثت في القرن الأول الهجري/ السابع للميلاد، وتحديداً في العام 69هـ/ 688م؛ فبعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلّم) اندفع العرب لنشر الإسلام ومبادئه الإنسانية وتعاليمه السمحة، في حركة تحريرية شملت مناطق واسعة.

إلا أن المُلاحَظ هو عدم مشاركة أهل عُمان في هذه الحركة العظيمة[1]، بل توجهوا صوب الشاطئ الإفريقي نتيجة المنازعات السياسية والدينية التي شهدتها الدولة العربية الإسلامية آنذاك[2]. فبعد وقوع الفتنة ومقتل الخليفتين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وانتقال الحكم إلى معاوية بن أبي سفيان لم يكن لهذا الأخير أي سلطان على عُمان[3]، بل بقيت إدارتها مرتبطة بأمير العراق، كما أن الخلفاء الأمويين لم يعينوا ولاة عليها

(1) قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية، ص 14.
(2) قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية، ص 14.
(3) مؤلف مجهول، مخطوطة تاريخ عمان، مكتبة المتحف البريطاني، رقم Or. 1526، ص 11.

باستمرار، وحتى في حالة تعيين وال ما فإن نفوذه كان يقتصر على السواحل منها فقط دون المناطق الداخلية[1]. واستمر الوضع هكذا حتى آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان الذي ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق. وكان حكام عمان في هذا الوقت هما الأخوين سعيد وسليمان ابني عباد الجلندي[2]. وقتها قرر الحجاج إخضاع عمان لسلطة الخلافة، وذلك لموقعها التجاري البحري المهم الذي يربطها بإفريقية والهند ومناطق الشرق الأقصى، والذي مكنها من السيطرة على طرق التجارة هذه[3]. إضافة إلى ما كان يسببه استمرار وضعها بهذا الشكل من مشكلات سياسية للخلافة الأموية. لذا بدأ بتوجيه الجيوش إليها، واستمر الأمر سجالاً بين الطرفين، حتى كانت المعركة الأخيرة التي انكسرت فيها القوة العمانية، فقرر الأخوان عندها الفرار، «فحملا ذراريهما وسوادهما ومن خرج معهما من قومهما، ولحقا ببلد من بلدان الزنج حتى ماتا هناك»[4]، لم يذكر لنا النص السابق منطقة معينة في الشاطئ الإفريقي استقر فيها هؤلاء، إلا أن من المفترض ـ استناداً إلى بعض الروايات ـ أنهم نزلوا في باتا[5]، التي هي إحدى

---

(1) عمر، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني (الخليج العربي)، ص 32.

(2) وآل الجلندي من أزد عمان، ولما ظهر الإسلام أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة 8هـ عمرو بن العاص يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا، البلاذري، فتوح، ص 92.

(3) العاني، عبد الرحمن، عمان في العصور الإسلامية الأولى، بغداد ـ 1977، ص 88.

(4) مؤلف مجهول، مخطوطة تاريخ عمان، ص11؛ الأزكوي، سعيد بن سرحان، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، نسخة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد رقم 2005، ج2، ص 328. الباقري اللاموى، خبر اللامو، ص 9. مراجعة: ابن رزيق، الفتح المبين بسيرة السادة البو سعيديين، ص 213 - 216؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج1، ص 74؛ Zamani, A Survey of East African History, P. 106.

وقد شككت بعض المصادر بأصل وتاريخ هذه الهجرة مدعية أن هذه الرواية كتبت في بداية القرن 12هـ/ 18م. لكن هذه المصادر نفسها تعترف بورود ما يؤكد هذه الهجرة في كتاب (الزنوج) الذي كتب قبل القرن 12هـ حيث يذكر هذا الكتاب بأن جماعة الكلنديين kilindini في مومباسا هم أصلاً من قبيلة الجلندي .Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 35; The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P, 198

وعلى العموم فنحن لا نستطيع أن ننفي حدوث مثل هذه الهجرة، لمعرفتنا الأكيدة بالعلاقة القديمة الوثيقة التي ربطت عمان بالساحل الإفريقي الشرقي، حيث هاجر كثير من العمانيين خلال فترات مختلفة إلى الشاطئ الإفريقي، سواء للتجارة، أو للإقامة الدائمة، أو كليهما معاً.

(5) نقولا، الرحلات الإفريقية القديمة، ص93. زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص71، 77؛ ومن تسميات باتا: كتاوة، بتا. المهرى، Hollingsworth, A Short History, P. 36 العمدة المهرية، ص89. ويسميها Barbosa: باتي. The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 29. والروايات تؤكد أن اسم باتا مشتق من اسم القبيلة العربية الحضرمية الأصل: بتاوه. المهرى من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص575؛ Barbosa, The Book of Duarte Barbosa. Vol.1. P. 29 Stigand, The Land of Zinj, P. 161 ويقال أيضاً: إن كلمة باتا مشتقة من: pa - ate، بمعنى: غادر المكان، يُنظر: =

جزر أرخبيل لامو[1]، بل تذهب هذه الروايات إلى القول إن هذين الأخوين هما اللذان أسسا باتا في عام 69هـ/ 689م[2].

وتذكر مخطوطة (خبر اللامو) أن سكان لامو الأوائل هم من العرب الذين جاؤوا من مدينة دمشق في بلاد الشام، وأن الشخص الذي أرسلهم هو عبد الملك بن مروان، وبعد هؤلاء جاء عرب آخرون بعد أن وصلتهم أخبار المهاجرين العرب إلى الساحل السواحيلي، وإن زعيم هؤلاء العرب الذين جاؤوا هو الحاج سعيد[3].

والحقيقة أن هذا النص يتكون من شقين؛ الشق الأول يوضح بشكل تام هجرة عرب من أهل الشام إلى لامو واستقرارهم بها؛ والشق الثاني يتحدث عن هجرة قام بها عرب آخرون بقيادة شخص يدعى سعيد. ولعلنا نستطيع الاستنتاج أن سعيداً هذا هو سعيد نفسه ابن الجلندي حاكم عمان، الذي ربما استقر في باتا. هنا يجب أن لا تغرب عن أذهاننا حقيقة مهمة، وهي مدى الترابط التاريخي والجغرافي المتين بين لامو وباتا، حيث اعتبرتا أهم مدينتين في مجموعة جزر لامو، بل إن لامو اعتبرت العاصمة التجارية لباتا بسبب امتلاكها لميناء ومرسى للسفن ممتاز جداً، في حين كانت السلطة السياسية بيد باتا[4] التي سيطرت منذ البداية على مجموعة جزر لامو، ثم امتد سلطانها فيما بعد ليشمل معظم الساحل. وكما ذكرنا فإن من المحتمل قيام مجموعة من أفراد قبيلة البتاوة العربية الحضرمية بالهجرة إلى هذه المنطقة التي اشتق اسمها منها منذ القرن 2هـ/ 8م. والمعتقد أن هذه المنطقة ظلت تشهد هجرات متتابعة إليها، مما أدى إلى

Stigand, The Land of Zinj, P. 160. =

(1) يتكون هذا الأرخبيل من عدة جزر، أهمها: لامو، باتا، ماندا، يفصلها عن الساحل شريط مائي ضيق. المهرى، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص575؛ زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص83. وتبعد حوالي 10 كم شمال غرب لامو. يُنظر:

Chittick, Anew Look At The History of Pata, P. 375.

(2) بينما تجعل رواية أخرى تاريخ تأسيسها عام 80هـ/ 700م. زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص119. هامش رقم (3)؛ Werner, The History of Pata, P. 153.

(3) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص9. وتذهب المصادر السواحيلية إلى القول إن هؤلاء العرب السوريين هم الذين أسسوا مدن باتا، ولامو وممباسا، وماليندي، وكلوة، وزنجبار وغيرها من المدن. Stigand, The Land of Zinj, P. 29.

(4) Posnansky, Prelude To East African Coast, P. 116.

ازدياد قوتها وظهورها على الساحل كمدينة قوية، وخاصة منذ نهاية القرن 6هـ/ 12م، حينما ظهرت القبائل النبهانية في عمان التي فرضت سيطرتها عليها[1]. وكان أول من جاء منهم إلى باتا وتزوج ابنة حاكمها العربي البتاوي[2].هو سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني، برفقة شقيقيه علي وعثمان، وكان ذلك حوالي عام 600هـ/ 1203م[3]. ومعنى هذا أنه كانت هناك عائلة حاكمة في باتا سبقت النبهانيين، وهي عائلة البتاوي، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد فيما إذا كان حكمها يعود إلى الفترة المبكرة جداً من تاريخ باتا[4]. وقد عثر في باتا على شاهد قبر يحمل اسم سلطان لقب بالبتاوي، وهذا مما يزيد التأكيد على وجود سلالة بتاوية حكمت باتا قبل مجيء النبهانيين إليها[5].

ولابد لنا الآن من التطرق إلى هجرة النبهانيين إلى باتا وتأسيس سلالتهم فيها:

فكما أشرنا سابقاً فقد فرضت القبائل النبهانية سيطرتها على عمان في أواخر القرن 6هـ/ 12م بعد منازعات عديدة مع القوى المتصارعة آنذاك في عمان[6]. واستناداً إلى مخطوطة تاريخ باتا فإن

---

(1) عمر، مقدمة في دراسة التاريخ العماني، ص22.

(2) بعض الروايات تسميه إسحاق. Chittick, Anew look At The History of Pata, P. 376

(3) Werner, The History of Pata, P. 153.

(4) Chittick, Anew look At The Hstory of Pata p. 391.

(5) Ibid, p. 386; Stigand, The Land of Zinj, PP. 29 – 30.

والحقيقة أن آراء الباحثين تتضارب حول تاريخ قيام حكم السلالة البتاوية هذه. إن Chittick يرجع بداية الاستقرار في باتا إلى حدود سنة 700 هـ/ 1300م، وأن السلالة البتاوية حكمت باتا منذ أواخر القرن 8هـ/ 14م، وأنها استمرت تحكم لأربعة أجيال على الأقل، حتى أواخر القرن 10هـ/ 16م، حيث سيطر النبهانيون على باتا في حدود عام 906هـ/ 1500م.

Anew Look At The History of Pata, P. 368, 390. 391.

إن هذه الاعتراضات لا تنفي قدم الاستقرار العربي في باتا خاصة وفي مجموعة جزر لامو عموماً، كما نصت عليها مخطوطة خبر اللامو. وكما ذكرنا فإن من الممكن جداً أن بدايات هذا الاستيطان فيها يعود إلى فترات متقدمة، إلا أنها لم تنمُ وتزدهر في تلك الفترة، ربما لضعف ذلك الوجود أو لضعف تجارتها أو لهذين العاملين مجتمعين، وأنها بدأت بالنمو والازدهار بكثافة الوجود العربي فيها، حيث أخذت تحتل مركزاً مرموقاً على الساحل منذ عام 600هـ/ 1203م، حينما اتحدت أسرة البتاوي بالنبهانيين عن طريق التزاوج كما نصت عليها مخطوطة تاريخ باتا. Werner, The History of Pata, P. 153.

مراجعة: Chittick, Anew look At The History of Pata, P. 376.

(6) عمر، مقدمة في دراسة التاريخ العماني، ص22.

أول من وصل باتا من النبهانيين[1] هو سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني[2] الذي كان حاكمًا على عمان وطرد من قبل اليعاربة[3]، فوصل باتا، وتزوج من ابنة ملكها المسمى Al-Batawin[4] أي البتاوي كما يبدو. وبما أن من عادة سكان «باتا أن يقوم الشخص المتزوج بزيارة والد الفتاة بعد سبعة أيام من الزفاف، حيث يعطيه شيئاً، وهي عادة كل السواحيليين ولما جاء سليمان لزيارة والد زوجته حاكم باتا، وأعطاه هذا حكم المملكة، ومنذ ذلك الوقت، حكم سليمان بن سليمان باتا»[5].

إن هذه الرواية على بساطتها قد تعطينا بعض المؤشرات عن تاريخ تأسيس باتا من قبل أولى الهجرات العربية إليها، فمن المرجح أن العرب سكنوا باتا منذ عام 69هـ/ 688م عندما جاؤوا من عمان، وبقي وجودهم فيها ينمو بشكل بطيء ومتدرج، بحيث تأثر هؤلاء العرب المهاجرون ببعض العادات التي وجدوها سائدة عند الأهلين. وبمرور الوقت، ومع قدوم هجرات عربية أكبر من قبيلة البتاوة الحضرمية، واستقرارها في باتا أيضاً، بدأت باتا تحتل بعض الأهمية بين مدن الساحل. إن عادة تقديم هدية من قبل والد الفتاة إلى زوجها والتي نصت المخطوطة على القول«إنها عادة كل السواحيليين» ترينا مدى اختلاط هؤلاء العرب البتاويين وتزاوجهم مع السكان الأصليين، بحيث اكتسبوا بعض عاداتهم، وبالتالي قدم الحاكم البتاوي لزوج ابنته النبهاني حكم باتا هديةً زواجه من ابنته.

---

(1) وهم الذين حكموا عمان من سنة 549هـ - 809هـ/ 1154 - 1406م. يُنظر: هامش رقم (1) Werner, The History of Pata, P. 153.

(2) هناك رواية شفوية تقول إن اسم أول سلطان هو سيف أو سيفو باللغة السواحيلية، وأن سيف هذا هو الذي تزوج ابنة السلطان البتاوي. Chittick, Anew Look At The History of Pata. P. 365 ولا نعرف مصدر هذه الرواية.

(3) اليعاربة: هم حكام عمان الذين جهزوها بسلسلة من الأئمة ما بين 1034 - 1154هـ/ 1624 - 1741م عندما قُضي عليهم من قبل أسرة البو سعيد. ولما كانت أسماء أربعة من الملوك النبهانيين قد ذكرت فقط خلال الفترة الواقعة بين 549 - 809هـ/ 1154 - 1406م، فلا ريب في أن أسماء بعض الحكام قد أسقطت، كما أن أكثر من زعيم يعربي حكم بعد طرد سليمان وأخيه في حدود عام 601هـ/ 1204م. Werner, The History Of Pata, P. 15 هامش رقم (2). ومعنى هذا أن من الممكن جداً أن طرد سليمان النبهاني الذي وصل باتا تم من قبل الحكام اليعاربة الذي حكموا عمان بعد عام 600هـ.

(4) هناك نص آخر، يذكر أن اسمه إسحاق، كما ذكرنا. مراجعة: Chittick, Anew Look At The History of Pata, P. 376.

(5) Werner, The History of Pata, P. 153; Chittik, Anew Look At The History of Pata, p. 376; Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 39.

ومنذ عام 731هـ/ 1300م أخذت أهمية باتا بالازدياد التدريجي[1]؛ ففي البداية كانت باتا تضم كيتاكا kitaka، ثم ضمت شانغا shanga إليها، واستمر ملوكها في ضم مدن الساحل: فازا Faza، وماندا[2]، وسيو Siu، ولامو التي طلب أهلها الصلح، فأصبحت تحت سيطرة السلطان عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان (ت 749هـ/ 1348م) الذي يعتبر أقوى سلاطينها، حيث استمر في ضم مدن الساحل الأخرى، كمدينة أوزي Ozi، وماليندي، وكيتاوا Kitao، وكيوان Kiwayn، وغيرها، حتى وصل إلى جزيرة كرمبا kerimba[3]. ومن الجهة الأخرى فقد ضم إلى ممتلكاته شمالاً مدينة وارشيخ Warsheikh، ووصل إلى موانئ براوا، ومركة، ومقاديشو. وقد أصبحت ضمن مملكته جميع هذه الأراضي عدا زنجبار، التي لم تكن مهمة في تلك الفترة، على حد قول حوليات باتا[4]. ويفترض أنها أصبحت أقوى دولة على الساحل في القرن 8هـ/ 14م، حتى فاقت مقادشو وكلوة[5]. وتورد لنا حوليات باتا أيضاً سلسلة ملوك باتا ابتداءً من 600هـ/ 1203م بتولي سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني، واستمرارهم حتى القرن 11هـ/ 17م[6].

وقد اهتم السلطان عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان الذي ضم الساحل إلى سلطته بتعيين القضاة من أتباعه في كل مدينة[7]، كما عين في مقادشو حاكمًا لنشر العدل في جميع الموانئ

---

(1) Chittic, Anew Look At The History of Pata, P. 378.

(2) كان لماندا حاكمها الخاص، وكانت مستقلة عن سيطرة باتا في البداية، حتى أخضعت لها في عهد أقوى سلاطين باتا عمر بن محمد بن أحمد المذكور أعلاه. الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 15.

(3) جزيرة كرمبا: تقع في موزمبيق. The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 187.

(4) Werner, The History of Pata, PP.155 – 159.

(5) Chittick, Anew Look At The History of Pata, P. 375.

إلا أن البعض يشكك في إمكانية وصول باتا إلى هذه الدرجة من القوة وسيطرتها على معظم الساحل، مستندين في ذلك إلى أن باتا لم تصبح ذات أهمية قصوى إلا في نهاية القرن 8هـ/ 15م. The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 208

ويذهب البعض الآخر إلى الاعتقاد بأن سيطرتها على الساحل - التي لم تثبتها حوليات كلوة - ربما حدثت لفترة قصيرة فقط Posnansky, Prelude To East African History, P. 116.

(6) Werner, The History of Pata, PP. 148 – 281.

(7) Werner, The History of Pata, PP. 148, 281.

القريبة منها[1]. وقد اهتم هذا السلطان أيضاً بالتجارة إلى حد كبير وجمع المال[2]، كما تاجر سكان باتا مع أهل المناطق الداخلية[3].

وكما ذكرنا سابقاً فمن الصعب الفصل بين باتا ولامو اللتين كانتا أشبه ما تكونان بعاصمتين لدولة واحدة، فالأولى كانت العاصمة السياسية، في حين كانت الثانية العاصمة التجارية[4]، إذا صح التعبير.

ووجود العرب في لامو قديم[5]، يعود إلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي أرسل جماعة من العرب الشاميين إليها ليجلبوا له قوارير العطور النحاسية[6]، فاستوطنوا بها، بل إن ستغاند Stigand يعتبرها من المدن الأصلية التي أسسها الخليفة عبد الملك[7]. واستمر العرب بالقدوم إلى هذه المنطقة، وازدادت أعدادهم، وبلغوا درجة كبيرة من القوة مكنتهم من أن يبنوا في موقع مدينة لامو مدينة سميت هيدابو hedabu[8]، كما قرروا فتح منطقة شعب ويوني Weyuni[9] القريب منهم، وفعلًا فتحوها طالبين منهم أن يغسلوا أجساد موتاهم ويدفنوهم[10]، وهذه العملية كما نرى عادة إسلامية صرفة؛ ذلك أن عرب هيدابو كانوا

---

(1) Werner, The History of Pata, P. 159.

(2) Werner, The History of Pata, P. 161.

(3) شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص3؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol, 1. P. 29

(4) Posnansky, The Prelude of East African History, P. 116; Stiganand, The Land of Zinj, P. 148.

(5) وتقع لامو على ساحل مفتوح، ويسميها سكانها المحليون باسم آمو Amu. وبحسب التسمية البرتغالية فهي ليمون، وتقع إلى الغرب من مقادشو. Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1. P. 29; Devic, I. M; Le Pays Des Zendjs. Paris, 1883, P. 74 ويقال إن اسم لامو مشتق من اسم القبيلة العربية (بنو لام) التي كانت مستقرة في الخليج العربي، ثم استوطنت مجموعة منهم هذه الجزيرة منذ عهد بعيد. Stigand, The Land of Zinj, P. 151.

(6) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 9. Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanga Nyika, P. 33.

وهذه الإشارة إلى المعدات النحاسية بحد ذاتها مهمة جداً، فقد ورد في المصادر القديمة أنه على الرغم من كثرة الذهب في الساحل، إلا أن السكان يفضلون النحاس للزينة. الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 9، هامش رقم (2)، كما سيأتي تبيانه في الفصل الثالث.

(7) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 131.

(8) ويشير موقعها حالياً إلى مجموعة التلال الرملية الواقعة بين لا موو شيلا. الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص9، هامش رقم (4).

(9) تقع في النهاية الشرقية لمدينة لامو الحالية. الباقري اللاموي، خبر اللامو، هامش رقم (4).

(10) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 11.

مسلمين بصفتهم رعايا الخليفة عبد الملك بن مروان.

وبعد هذا الانتصار قرر عرب لامو عقد مجلس لتعيين رئيس لهم وإدارة شؤونهم، فقرروا اختيار أول المهاجرين إلى لامو رئيساً لهم، إلا أن هذا الرجل نصحهم بانتخاب رجل منهم كل عام ينصبونه عليهم، على أن يكون تقرير الأمور بيده، وقد وافق الجميع على ذلك، وأطلقوا عليه اسم: MngwanaWa yumbe ومعنى: Yumbe[1] بيت الحاكم، أما Mgnwana فتعني الشخص الذي يمتلك السلطة[2].

ويبدو أن العلاقة بين لامو وباتا تراوحت بين السلم والاتحاد الذي تحقق بزواج سلطان باتا المدعو: بوانا بكرى وابوانامكو Bwana Bakari Wabwana mkuu بأميرة من لامو، حيث أوصى هذا أن يكون حفيده منها سلطاناً من بعده[3]. أما علاقتها بمومباسا فكانت سيئة، مما دفعها للاستعانة بجهود السيد سعيد بن سلطان، فبعثت إلى الجزيرة العربية تستدعيه للتوسط في إحلال السلام بينهما[4].

إن هذا يعطينا إشارة قوية على عمق وقدم الصلة التي ربطت المهاجرين العرب إلى الساحل الإفريقي الشرقي بوطنهم الأم؛ فلامو مدينة عربية الطابع، هاجر معظم سكانها العرب من عمان وحضرموت، وما زالت أسماء عوائلهم العربية قائمة فيها، مثل: المعاوي والعلوي والخطيب والجهاضمي[5].

---

(1) Yumbe: كلمة سواحيلية ترد كثيراً في التاريخ السواحيلي وفي شعره وغنائه. الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 13. هامش رقم (1).

(2) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 13.

(3) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 19.

(4) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 27 ـ ص 29.

(5) غيدان، عصام، العرب في بلد السواحل الإفريقية، مجلة العربي، الكويت، ص 170.

2 ـ الهجرة الزيدية:

حدثت الموجة الثانية من الهجرة العربية الإسلامية إلى الساحل الإفريقي الشرقي بعد خروج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم)[1] على الحكم الأموي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عام 121هـ/ 738م. إلا أن حركته فشلت، حيث قتل عام 122هـ/ 739، وتفرق أصحابه[2] في أماكن شتى، فتوجهت مجموعة منهم إلى الشاطىء الإفريقي. والواقع أن تاريخ هذه الهجرة ما زال غير محدد تماماً، فقد يكون هؤلاء الأتباع قد هاجروا إلى إفريقية الشرقية بعد عام 122هـ/ 739م بفترة قد تقصر أو تطول. وربما تكون قد حدثت بعد قيام الدولة العباسية في عام 132هـ/ 749م. وإن كان ستغاند Stigand يحددها بعام 122هـ/ 739م[3]. ومن المحتمل أنها حدثت في الفترة ما بين انقضاء الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية. واستناداً إلى ما تذكره بعض الكتب المحلية المكتوبة باللغة العربية التي وجدها البرتغاليون في أثناء غزوهم للساحل فقد حدثت هجرة عربية إلى الساحل سميت بهجرة الإيموزيدج[4] Emozaydij، ومن الواضح أنهم من أتباع زيد بن علي (رضي الله عنه)[5] الذين استقروا في ساحل بنادر[6]، وعلى الأخص قرب شنغوايا Shungwaya، وهي ميناء

---

(1) الشهرستاني، أبو الفتح محمد، الملل والنِّحل، تحقيق: عبد العزيز الوكيل، القاهرة ـ 1968. ج1، ص154 – 156؛ المحلي، أبو محمد، عبد الله حميد بن أحمد، الحدائق الوردية في مناقب الزيدية، مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني رقم or 3812. ص 122 – 128.

(2) البلاذري، مخطوطة أنساب الأشراف، الفلم الأول، ص 260، 502، 512؛ المحلي، الحدائق الوردية في مناقب الزيدية، ص 129 – 130؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، القاهرة ـ 1920، ج5، ص 90 – 96. مراجعة: أبو زهرة، محمد، الإمام زيد، القاهرة ـ 1959، ص 51 – 67.

(3) Stigand, The Land of Zinj, P. 6.

(4) الإيموزيدج: هي تحريف سواحيلي لكلمة الزيدية. العقاد، زنجبار، ص 5.

(5) أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ط2، القاهرة ـ 1957، ص377 – 378؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3. p. 199; Hollingsworth,A short History, P.36; Stigand, The Land of Zinj, P. 6; coupland, East Africa, P. 22; Ingrams, Zanzibar, P. 75; Zamani, A survey of East African History, P. 106; Vincent, The Periplus. P. 223; Guillian, Documents Sar L, Histoire. P. 160 – 176; Trimingham, Islam In East Africa, P. 2; Chittic, The peopling of The East African Coast, PP. 35 – 36; Freeman - Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 31.

(6) Stigand, The Land of Zinj, P. 6; Hollingsworth. Ashort History, P. 36. وساحل بنادر هو الآن في الصومال، بالقرب من مقادشو. زكي، الإسلام والمسلمون، ج1، ص 71، 77.

درنفورد حالياً Durnford[1].

وبما أنهم كانوا من المهاجرين الأوائل إلى الساحل فإنهم لم يجدوا مدناً مشهورة هناك، لذلك استقروا في أماكن اعتبروها تقع في مأمن من غارات السكان الوثنيين[2]، ولم يحاولوا إنشاء مراكز ذات أهمية، وإنما اكتفوا بالتجمع في مناطق عاشوا فيها بأمان[3] مدة قاربت القرنين من الزمن[4]. إلا أنهم لم يستمروا هكذا؛ إذ وصلت مجموعة عربية جديدة مهاجرة من منطقة الإحساء القريبة من البحرين[5]. وبما أن الزيديين لم يرغبوا بالخضوع لهم أو الاصطدام بهم فقد آثروا الانسحاب نحو الداخل، فاختلطوا بالسكان هناك، وتزوجوا فيهم[6]، أولئك السكان الذين كانوا يسمونهم بـ الكفار[7].

ومذاك عُرف هؤلاء الزيديون باسم Baduys[8]، وهي تحريف ـ كما يبدو ـ للكلمة العربية (بدوي). ولا يُعرف سبب إطلاق هذه التسمية عليهم، وقد يكون مطلقوها هم سكان المدن ذات الحياة الحضارية، حيث اعتبروهم بدواً مقارنة بهم. وقد بقوا على ديانتهم الإسلامية، وأبقوا على صلاتهم مع البانتويين القاطنين جنوب مقادشو[9].

3 ـ الهجرة من الإحساء ـ تأسيس مقادشو وبراوة ومركة:

بعد أن استقر الزيديون فترة من الزمن في ساحل بنادر اضطروا إلى الانسحاب نحو الداخل

(1) محمود، الإسلام والثقافة العربية، ج1، ص 436؛ Coupland, East Africa, p. 22; Ingrams Zanzibar, P. 75.

(2) The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P. 199; Vincent, The Preiplus, P. 223.

(3) Freeman - Grenvill, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 31.

(4) Hollingsworth, A short History, p. 36.

(5) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 220.

ويرى هذا المصدر أن الإحساء كانت حتى نهاية القرن 4هـ/ 10م مركزاً للقرامطة، حيث كان لميناء البحرين دور مهم في تجارة الخليج العربي، فلما كانت هذه الهجرة قد حدثت في وقت مبكر فقد يكون هؤلاء المهاجرون قرامطة، لكننا لا نلاحظ أي تأثير قرمطي على الساحل. يُنظر: The Cambridge History of Africa, Vol, 3, P. 200.

(6) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 190; chittick. The Peopling of The East African Coast, P. 35.

(7) Freeman - Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 31.

(8) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 199.

(9) Ibid, Vol. 3, P. 199.

بسبب قدوم هجرة عربية إسلامية جديدة من الإحساء القريبة من البحرين بقيادة سبعة أخوة، هرباً من اضطهاد سلطان الإحساء لهم[1]، وكان ذلك حوالي نهاية القرن 3هـ/ 9م[2]. وباستقرار هؤلاء المهاجرين في الساحل عقدوا حلفاً مع أهل البلاد الأصليين[3]، ثم أسسوا مقادشو[4]، وبراوا[5] عام 295هـ/ 907م[6]. ويبدو أن هؤلاء المهاجرين كانوا ينتسبون إلى قبيلة الحارث العربية التي سكنت الخليج العربي على مقربة من البحرين[7].

---

(1) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 199; Ingrams, Zanzibar, P. 75.

(2) وقد حاول البعض من الكتاب أن يشبه هذه الهجرة بالهجرة الإسلامية التي توجهت في حوالي القرن 4هـ/ 10م إلى كلوة؛ لتشابه المعلومات المتعلقة بقادة كلا الهجرتين، واعتبروها وجهين لهجرة واحدة جاءت من الخليج العربي وامتدت لفترة من الزمن. مراجعة: Chittick, The Peopling of The East African Coast, p. 36; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 199

إلا أن الذي يرد به على هذه الآراء إن ظروف كلا الهجرتين والفارق الزمني بينهما، إضافة إلى أماكن استقرارها، والمدن التي أنشأتها يجعل من اعتبار الهجرتين هجرة واحدة امتدت فترة من الزمن أمراً غير وارد.

(3) الامبابي، إفريقية والخليج العربي، ص 5.

(4) هي مقادشو كما يسميها المهري. العمدة المهرية، ص 89. ويسميها Barbosa مكادوكسو. The Book of Durate Barbosa. Vol. Ip. 3I وتقع في الصومال على ساحل البحر، وتعتبر أول بلاد الزنج، وهي أجلّ مدنهم، سكانها عرب مسلمون. الحموي، معجم، ج2، ص 68، ج8، ص 121؛ القزويني، آثار البلاد، ص 62؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 161؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 336؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ج6، ص 92؛ الباكوي، عبد الرشيد صالح، تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، ترجمة: ضياء الدين بونيا توف، موسكو ـ 1971، ص 29؛ حسن، انتشار الإسلام والعروبة، ص 12. والمعتقد أن الصوماليين الذين سكنوا مقاديشو هم من أصل عربي أيضاً، وهم مسلمون ورعون. Guillian, Documents sur L' Histoier, Deuxieme Parite, Tome Premier, P. 520. 521 ويصفها ابن بطوطة بأنها مدينة متناهية في الكبر، الرحلة، ج1، ص 195. وتذكر رواية محلية أنه بعد وفاة أحد الشيوخ الصالحين بنى له الناس ضريحاً أصبح يُزار باستمرار، ثم بُنِيَ في المكان نفسه مسجد سُمي: (مقعد الشاة)، ولاحقاً أُطلقت هذه التسمية على المدينة كلها، ثم حُرفت التسمية لتصبح: مقادشو. ومن المعتقد أن المدينة الأصلية التي أسسها العرب قد خربت ثم أعيد بناؤها في فترات تالية.

Guillian, Documents sur L' Histoire, Deuxieme parite, Tome Premier, P. 519 – 520.

وهناك رواية غريبة تذكر أن أكبر هجرة وصلت إلى مقاديشو هي من حضرموت عام 149هـ/ 766م، وكانت تشمل 31 قبيلة. شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 655.

(5) The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P. 199; Gray, History of Zanzebar, P. 22; Ingrams, Zanzibar, P. 75; Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 32;

شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 655.

(6) Stigand, The Land of Zinj, P. 8; Guillian, Documents sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tome Premier, PP. 184, 524.

أما Ingrams فيجعل تأسيسها عام 296هـ/ 908م Zanzibar, P. 75؛ متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط 3، ج2، ص430؛ أما Gray فيؤخر تأسيسها إلى 314هـ/ 924م. History of Zanzibar, P. 22. وفي رواية أخرى أنها تأسست عام 310هـ/ 920م. محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص 377.

(7) العقاد، زنجبار، ص 6؛ قاسم، دولة بو سعيد في عمان وشرق إفريقية، ص 15؛ Ingrams, Zanzebar. P. 75; Gray,

وبسبب نمو التجارة التي كانت قائمة على تصدير العاج والذهب من الساحل الإفريقي إلى الشرق الأقصى فقد تطلب هذا الأمر مراكز تجارية مضمونة تمتاز نظمها التجارية بالمرونة، وتمنح التسهيلات للتجارة المارة بها. وتدريجياً بدأت مقاديشو تحتل هذه المكانة عام 554هـ/ 1159م، وخاصة بعد هجرة بني مجيد من منطقة المنذرية في اليمن واستقرارهم فيها[1].

وقد شهدت مقادشو سيطرة قبيلة الأبجل الصومالية عليها في القرن 7هـ/ 13م، وأول من حكم منها هو الشيخ عمر جلولة[2]، ثم تبعه ابنه أبو بكر الذي وصفه ابن بطوطة عند زيارته لمقادشو بأنه من البرابرة، وكلامه بالمقدشي، ولكنه يحسن العربية، ويسمى بالشيخ[3].

وفي القرن 7هـ/ 13م احتلت مقادشو مكانة عظيمة بين مدن الساحل[4]، بل سيطرت على معظم عرب الساحل[5]، وكان سكانها عرباً أقحاحاً[6]. بل إن ابن سعيد يصفها بأنها «مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع، المترددة الذكر على ألسن المسافرين»[7]، يتوارد الحجاج إلى جامعها الكبير في مواسم معينة بأعداد كبيرة من المدن المجاورة[8] لأداء المراسم الدينية فيه، كما تميزت بمساجدها العديدة ذات المنائر الجميلة[9].

History of Zanzibar, P. 22.

(1) ابن المجاور، يوسف بن يعقوب، صفة بلاد اليمن المسمى تاريخ المستبصر، تصحيح: أوسكار لفغرين، ليدن ـ 1951، ص 98ـ99.
Trimingham, The Arab Geographers, P. 124; Th Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 196.

(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص396. وقد استمر حكم إمارة الأبجل لمقادشو حتى احتلال البرتغاليين لها عام 1507م، وكانت لا تزال محتفظة بعظمتها ورخائها تحت حكمهم. ابن سعيد، الجغرافيا، ص213. أما حراز فيذكر أنه في منتصف القرن 7هـ/ 13م أسس أبو بكر بن فخر الدين حكماً وراثياً في مقادشو بمساعدة عشائر المقري التي تعتبر من أقوى القبائل العربية في الصومال، والتي يرجع نسبها إلى قحطان، إفريقية الشرقية، ص5.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 196. يُنظر أيضاً: الحموي، معجم، ج2، ص 68.

(4) الحموي، معجم، ج2، ص68.

(5) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص 378؛ Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 32.

(6) الحموي، معجم، ج2، ص 68. ج8، ص 121؛ Robinson, Some Historical Notes on East Africa, P. 38.

(7) عجائب الأقاليم السبعة، مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني، رقم or. 1524 ص 4؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص 82؛ ابن سعيد، بسط الأرض في الطول والعرض، ص 14.

(8) Coupland, East Africa, P. 37.

(9) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tom Premier, P. 526.

وقد وصفت بأنها مدينة كبيرة، مبانيها مؤلفة من عدة طوابق، وفي وسطها تنتشر القصور الفخمة، وهي مسوّرة، وسورها له أربعة أبراج[1]، وقد وصلت أوج ازدهارها في القرنين 7 – 8هـ/ 13 – 14م. ويبدو أن إدارة العرب المسلمين لمدنهم في هذه المنطقة كانت قائمة على الشورى، فقد أقام العرب حكماً شورياً في مقاديشو[2] وبراوا استمر حوالي 300 سنة[3]، وكان تحالف مقادشو ومركة[4] وثيقاً جداً[5].

فقد كانت السلطة في كل من مقاديشو وبراوا بيد 12 شخصاً من رؤساء الأسر الكبيرة، وإن كان لكل منهما حاكمها المستقل[6]. فبراوا مثلًا ليس لها ملك، بل يحكمها المسنون من التجار[7] وكبار السن وقدامى الساكنين فيها، وهم الأشخاص ذوو الاعتبار العظيم، ولهم التعامل الرئيس في مختلف أنواع التجارات[8]، فلم يكن لها حاكم يحكمها بالوراثة كما في كلوة مثلاً، بل كانت تدار من قبل هؤلاء الأشخاص، أو هذا المجلس[9]، إن صح التعبير.

أما مقادشو ـ وهي أهم مدينة تعنينا في هذه المنطقة ـ فقد كان يحكمها الشيخ[10]، وتدار

---

(1) المهري،من سلسلة العلوم البحرية عند العرب ، ج3، ص 574.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 199.

(3) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 655.

(4) مركة: عاصمة الهاوية Houiya التي تضم أكثر من 50 قرية، تقع في شرق حافوني على شاطئ نهر. أهلها مسلمون، وفي شرقها تقع مقاديشو، وكانت مدينة حصينة، وهي ميناء في الصومال الآن. ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 4؛ ابن سعيد، بسط الأرض، ص 14؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 163؛ المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 574؛ Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tome Deuxieme, P. 139. وتقول الروايات المحلية إن مركة بنيت بعد مقاديشو، وقد سكنها أحد بطون قبيلة الأجوربين التي هي إحدى فروع قبيلة الهاوية الصومالية المشهورة، والتي ما زالت موجودة إلى الآن في الصومال، ويبدو أن هذه القبيلة كانت تنتشر نحو الجنوب حتى منتصف القرن 7هـ/ 13م. ابن سعيد، الجغرافيا، ص 82، 212 – 213.

(5) Posnansky, Prelude To East African History, P. 116.

(6) Vincent, The Periplus of The Erythraean sea, P. 224.

(7) المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 575.

(8) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. I. P. 30.

(9) Posnansky, Prelude To East African History, P. 116.

(10) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 196؛ الحموي، معجم، ج2، ص 68.

من قبل «المتقدمين على اصطلاح لهم»[1]. وربما يكون هذا على شكل مجلس شيوخ[2] يسمى Mkadden، ولعلها تحريف لكلمة (مقدّم) العربية، ويعني شيوخ القوم[3]. ولنترك ابن بطوطة يصف لنا كيف تدُار دفة الحكم في مقادشو، ففي كل يوم سبت «يأتي الناس إلى باب الشيخ، فيقعدون في سقائف خارج الدار، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني، فيقعدون على دكاكين خشبية معدة لذلك، ويكون القاضي على دكة لوحده، وكل صنف على دكان لا يشاركهم فيه سواهم. ثم يدخل الفقهاء، فيقعد كبراؤهم بين يديه... ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه... ثم يدخل المشايخ والحجاج، ويجلس كبراؤهم... ثم يدخل الوزراء، ثم الأمراء، ثم وجوه الأجناد.. ثم يدخل الشيخ إلى داره، ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات، فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي؛ وما كان سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى؛ وهم الوزراء والأمراء؛ وما كان مفتقراً إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره، وتلك عادتهم دائماً»[4].

إن هذا النص طريف ومهم جداً، فهو يعطينا دليلاً قوياً على مدى تأثر أهالي الساحل الإفريقي الشرقي بما جاء به العرب المسلمون من أنظمة في الحكم والإدارة سادت عندهم بفعل ما جاءت به الشريعة الإسلامية العادلة، والتي طبقوها في مجتمعاتهم التي هاجروا إليها. ويبدو أن نظام الشورى هذا كان أسلوب الحكم في هذه المنطقة من الساحل وحدها؛ لأننا لا نجده في غيرها. وقد بقي سائداً حتى بعد أن امتزج العنصر العربي بالإفريقي عن طريق التزاوج كما دلنا على هذا ابن بطوطة نفسه، حينما ذكر لنا أن شيخ مقادشو كان من البرابرة، ولسانه مقدشي، إلا أنهم بقوا يحتفظون باللغة العربية كلغة تخاطب وتعامل رسمية، كما بقيت النظم والعادات الإسلامية هي السائدة.

---

(1) الحموي، معجم، ج8، ص 121.

(2) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 31; Zamani, ASurvey Of East African History, P. 110.

(3) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Tome Premier, P. 234.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 199.

ومن التأثيرات العربية الطريفة التي نقلها العرب المسلمون إلى مواطنهم الجديدة طرق السلام؛ فعندما كان الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد يسلمون على شيخ مقادشو كانوا يتبعون عادة أهل اليمن في السلام، بأن يضعوا سبابتهم في الأرض، ثم يجعلوه على رؤوسهم قائلين: «أدام الله عزك»[1].

وقد اعتبرت مقادشو المدينة الأكثر تقدماً من الناحية الثقافية من أي مدينة عربية إسلامية أخرى في الساحل، وبخاصة خلال الفترة الواقعة بين أواخر القرن 6هـ/ 12م ومنتصف القرن 8هـ/ 14م[2].

كما لعبت التجارة دوراً أساسياً في ازدهار مقادشو، بل ربما كانت أول مركز مهم أقامه التجار العرب عندما بدؤوا بالتوغل جنوباً على طول الساحل الإفريقي الشرقي[3]، ناقلين بذلك أسس حضارتهم المزدهرة إلى مجتمعات إفريقية التقليدية. ويصف ابن بطوطة أهلها «بأنهم تجار أقوياء»[4]، فقد كانت أهم ميناء تبحر إليه سفن الضوء في المحيط الهندي وموانىء الساحل الإفريقي[5]. كما ارتبطت بها موانىء مدن براوا ومركة ارتباطاً رئيساً[6]، وكانت تجارتها متنوعة؛ شملت الأقمشة والتوابل المجلوبة إليها من عدن والهند، وتحمل السفن منها عند عودتها كثيراً من الذهب والعاج والشمع[7]، وغيرها من المواد الثمينة.

ويبدو أن الامتداد العربي الإسلامي نحو الجنوب من مقاديشو تدريجياً حرمها من أهميتها كمركز تجاري فائق الأهمية. ومما يلاحظ عليها أيضاً غلبة اللون الأسود على سكانها، إضافة إلى استعمالهم للسهام المسمومة، وهي دلائل تشير إلى الاندماج التدريجي للعنصر العربي

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198.

(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 117.

(3) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 31.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 195.

(5) Yajima, The Arab Dnow Trade, P. 52.

(6) The Cambridge History of Africa, Vol, 3, P. 205.

(7) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 31.

بالإفريقي[1].

4 ـ الهجرة العربية الإسلامية إلى كلوة:

أ ـ تأسيس دولة الزنج ونهضة كلوة:

وصلت إلى الساحل هجرة جديدة استقرت في منطقة منه، أصبحت فيها بعد من أهم مناطقه على الإطلاق، حيث استطاع هؤلاء المهاجرون أن يضموا معظم الساحل إلى سيادتهم، ويؤسسوا ما عرف بدولة أو إمبراطورية الزنج. كان هؤلاء المهاجرون قد استقروا أول الأمر في جزيرة كلوة، وهي إحدى مدن بلاد الزنج في الساحل الإفريقي الشرقي[2]، وكانت مدينة عظيمة «من أحسن المدن وأتقنها عمارة»[3]، ويعتبرها Barbosa مدينة عربية يحكمها سلطان عربي[4]، وكانت تتألف من ثلاث مدن رئيسة، هي: كلوة، وكانك (أوكسانكا أو شاغ) ومااندا (أو ماغوما) الواقعة في القسم الجنوبي الغربي من الجزيرة[5].

ويتفق معظم المؤرخين على تحديد تاريخ الهجرة بأنها حدثت بعد سبعين سنة من تأسيس مقادشو[6]، وبما أن مقادشو تأسست باتفاق الآراء عام 295هـ/ 907م، فإن تاريخ تأسيس كلوة هو عام 365هـ/ 975م[7]. وقد استمرت هذه الدولة قائمة مزدهرة وثرية حتى مجيء

---

(1) Ibid, Vol. 1, P. 31.

(2) الحموي، معجم، ج7، ص277؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200؛ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ومعلوماته حول كلوة متناثرة في ثنايا أرجوزته الأولى؛ Guillian, Documents Sur L' Histoire. P. 235. وهي تقع في القسم الجنوبي من الساحل مقابل تنزانيا حالياً. العقاد، زنجبار، ص 6.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

(4) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 17.

والملاحظ أن البرتغاليين أطلقوا لفظة المغاربة (Moorish) على العرب المسلمين.

(5) ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 24؛ Mathew, Songo Mnara, P. 160

(6) Dorman, The kilwa Civilization and The kilwa Ruins. P. 61.

(7) Stigand, The Land of Zinj, P. 8; Gray,A History of kilwa, Part, I, P. 7; Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Partie, P. 184; Ingrams, Zanzibar, P. 132; Oliver and Fage, Ashort History of Africa, P. 99.

أما الصوافي، فيرجع تاريخ حكم أول سلطان من سلاطين كلوة إلى أواسط القرن 3هـ/ 9م، السلوة في أخبارك كلوة، ص8. إلا أن مؤرخين آخرين يرجعون تاريخ تأسيسها إلى نهاية القرن 6هـ/ 12م. يُنظر:

البرتغاليين عام 904هـ/ 1498م[1].

وتحدثنا مخطوطة «السلوة في أخبار كلوة» عن هذه الهجرة، فتذكر وصول أخوة ستة مع والدهم في سبع سفن من الخليج العربي[2]، حيث توزعت هذه السفن على عدة أماكن من الساحل[3]. هؤلاء الإخوة كانوا بقيادة والدهم الحسن بن علي[4]، وأما سبب هجرتهم فهو غير معروف[5].

وقد وجد أصحاب السفينة التي نزلت كلوة جماعة من المسلمين فيها، على رأسهم شخص يدعي: مررويو ـ كما تقول المخطوطة ـ وكذلك مسجداً يدعى مسجد كبل[6].

وهذا النص مهم جداً، فهو يدل على وجود جماعة من المسلمين استقرت في كلوة قبل حدوث هذه الهجرة. وهناك من الكتاب من يعتقد بأن أصول هذه المجموعات المسلمة التي سبقت في استقرارها بكلوة، هم بعض المجموعات العمانية أو اليمنية التي هاجرت منذ القرن

Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 38; Chuttick, The Shirazi Coloization of East Africa, Vol. 3, P. 177; Holt, The Cambridge History of Islam, Vol. 2, P. 382.

(1) Stigand, The Land of Zinj, P. 8; Ingrams, Zanzibar. P. 132.

(2) بعض العوائل في تنزانيا ما زالت تدعي النسب العربي. يُراجع:

Prins, The Swahili Speaking People of Zanzibar and The East African coast, 1961, P. 14.

(3) وهذه الأماكن كما يعددها الصوافي، ص7، بالتسلسل: مندخة، شوغ، ينبع، منفسة، الجزيرة الخضراء، كلوة أما المركب السابع الذي كان بقيادة والدهم فقد دخل هنزوان. ويفترض Ingrams أن تكون مندخة وشوغ هي مقادشو وكسمايو، أما ينبع فهي جزيرة يامبي Yambe على أكثر احتمال، أما الرابعة فتلفظها يشبه مافيا mafia، وإن كان آخرون يفترضون أنها ومباسا، والجزيرة الخضراء هي بمبا، أما هنزوان (أو أنجوان) فهي إحدى مجموعة جزر القمر .Zanzibar, P. 132 لكن البعض الآخر يفترض أن ماندخة هي ماندا التي تدل أخبارها على حدوث هجرة مباشرة إليها من الخليج العربي، أما شوغ فربما هي شانغا shanga، مراجعة:

The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 202.

بينما يعتقد Gray أن شوغ قد تكون سونغو منارا. History of Kilw, Part. l, PP. 7 - 8

وربما كان هذا هو الأصح.

(4) تسميه مخطوطة الصوافي، مرة الحسن وأخرى الحسين، السلوة في أخبار كلوة، ص 7 ـ ص 8.

(5) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7. يُنظر:

Strong, The History of Kilwa, Journal of The Royal Asiatic Soceity, Part, 11, 1985, PP. 411 – 412; Baker, Notes on The Shirazi of East Africa, Tanganyika Notes and Records, No. 11, Dar Essalam – 1944, P. 1.

(6) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7 – 8؛ Strong, The History of Kilwa, p. 413.

الأول الهجري إلى الساحل، حيث استقرت في سونغو منارا[1]، أو سانجي ياكاتي في كلوة[2]. وأول من حكم منهم هو السلطان علي بن الحسين (أو الحسن) بن علي الملقب: أغوميج[3].

ومن المؤكد أن مافيا خضعت لسلاطين كلوة منذ البداية؛ فقد ولاّها السلطان علي بن الحسين ولده محمد بن علي المُلقب: مكم وات[4]، ومن بعده إخوته أو أولادهم، ومنذ ذلك الوقت ارتبطت مافيا بكلوة سياسياً مدة ثمانية قرون، باستثناء بعض الفترات القصيرة[5].

شهدت كلوة صراعاً سياسياً على السلطة بين القوى المتنافرة، وأولها مِن قبل جماعة المتمندلين[6] سكان سونغو منارا عند مجيء الإخوة ووالدهم، الذين رفضوا حاكمًا عليهم من قبل القادمين الجدد، ونصبوا عليهم محمد بن الحسين المنذري الذي حكم كلوة 12 سنة، انتهت بطرده من قبل أهل كلوة وتولية حاكمهم السابق[7].

ويبدو واضحاً أن أصول المتمندلين[8] الأولى هي عربية من منطقة المنذرية في اليمن، ويدل على ذلك الحاكم الذي نصبه أولئك المتمندلون عندما انتصروا على أهل كلوة، ويبدو أيضاً أن بعض المهاجرين الأوائل كانوا من بني مجيد القادمين أيضاً من منطقة المنذرية باليمن واستقروا بداية في مقادشو، ثم انحدروا جنوباً إلى كلوة واستقروا فيها قبل وصول هجرة الأخوة

---

(1) سونغومنارا: يقال إن تسميتها هذه جاءت من وجود منارة فيها تقع في الجزء الشمالي منها. يُنظر: Gray, History of Kilwa, Part. 1, P. 5.

(2) Ibid, Part, 1, PP. 4 - 5, 8; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 203.

(3) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 8؛ Strong, The History of Kilwa, P. 413.

(4) نلاحظ أن هذه التسمية والتسمية التي سبقتها وهي: أغوميج، قد تكون تسميات محلية استخدمها المهاجرون الجدد متأثرين بالأسماء المحلية، ومن المحتمل أن السكان المحليين هم الذين أطلقوها على أولئك الحكام.

(5) Gray, Ahistory of Kilwa, Part. 1, P. 7.

(6) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 8 ـ 9؛ Chittick, The Shirazi Colonization of East Africa, P. 276; Strong, The History of Kilwa, PP. 414 – 415.

(7) يُنظر: الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 8 ـ 9؛ Strong, The History of Kilwa, PP. 414 – 415.

(8) هناك من يرى أن كلمة: (متمندلين) مُشتقة من: (مندل) المدينة المشهورة وسط الهند، والتي عُرفت بالعود المندلي الذي كان التجار العرب والمسلمون يقتنون للمتاجرة به. مراجعة: السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية، ص 17. ولما كانت العلاقات التجارية نشطة جداً بين الهند والساحل الإفريقي الشرقي، وروادها هم التجار العرب والمسلمون، لذا فمن المحتمل جداً أن هذه التسمية ـ أي المتمندلون أطلقت عليهم، وبها عُرفوا.

ووالدهم، بدليل ما ذكرته مخطوطة الصوافي من أن هؤلاء المهاجرين الجدد وجدوا في كلوة عندما وصلوها بعد منتصف القرن 4هـ/ 10م جماعات مسلمة ومسجداً[1].

وقد حدث تغيير آخر في الأسرة الحاكمة في كلوة أواخر القرن 7هـ/ 13م؛ حيث انتقلت السلطة إلى عائلة جديدة هي عائلة المهادلة الحضرمية الأصل، وهم كما يبدو فرع من السادة الذين عاشوا جنوب غرب اليمن، كما عرفت هذه العائلة باسم أسرة أبي المواهب، الذي هو لقب لثالث وأشهر حكامها المدعو الحسن بن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت المعروف بأبي المواهب، والتي يبدو أنها كانت مستقرة في كلوة قبل استيلائها على الحكم[2]. وقد استطاع أول سلطان من هذه العائلة المدعو الحسن بن طالوت «أخذ الملك بالغلبة مع وجود أهله، ولكنهم ضعفوا عن الأمر، فاستبد بنفسه، وكان مشهوراً بالرأي والشجاعة»[3].

ثم أعقبه ابنه سليمان، وعُرف بالمطعون، حيث تآمرت مافيا على قتله، لكن ابنه أبا المواهب الحسن بن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت الذي أعقبه في حكم كلوة استطاع أن يأخذ بثأره من أهل مافيا[4]. ويعتبر هذا السلطان أشهر سلاطين كلوة على الإطلاق، حيث وصلت كلوة في عهده إلى قمة ازدهارها. واستمر سلاطين كلوة بالتتابع على الحكم، والذين عرف منهم السلطان «الملك العادل محمد بن سليمان بن الحسين، الملقب بالمطر الجديد... الذي أقبلت إليه الدنيا، وانقادت له عظماء الدولة»[5]. واستمر تتابع هؤلاء السلاطين، حتى عهد السلطان

---

(1) مراجعة: الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7ـ8؛ Strong, The History of Kilwa, P. 413.

(2) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص9؛ Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 11; Zamani, A survey of East African History, P. 112; The Cambridge History of Africa Vol .3. p. 205; Strong, The History of Kilwa, P. 415; Oliver and Mathew, History of East Africa Vol. 1, P. 123; Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 39. وقد أُختلف في تحديد سنة حكم أول سلطان من عائلة أبي المواهب، فقيل إنها حدثت عام 684هـ/ 1285م. يُنظر: Gray, A Ahistory of kilwa, Part 1, P. 118. بينما يرى آخرون أنها حدثت عام 676هـ/ 1277م، واستمر يحكم إلى عام 694هـ/ 1294م. يُنظر: Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 118.

(3) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9.

(4) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9. وهو الذي زاره ابن بطوطة عام 732هـ/ 1231م. الرحلة، ص 201.

(5) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9.

الفضيل بن سليمان، الذي جاء البرتغاليون في عهده أواخر القرن 9هـ/ 15م[1].

وترجع أهمية كلوة الفائقة في الساحل الإفريقي الشرقي إلى قدرتها على توحيد معظم المراكز العربية الإسلامية في الساحل، عدا مقادشو[2]. فقامت بذلك ما سمي بدولة الزنج، التي ضمت تقريباً كل الساحل والجزر، مثل زنجبار وبمبا[3] ومافيا وفومبا وتومبا وجزر القمر، بل إن كلوة وصلت إلى ذروة قوتها في القرون الأربعة التي سبقت مجيء البرتغاليين، حيث امتد حكمهم من شمال مومباسا حتى سفالة[4]. وكان حكام المدن والإمارات والسلطنات العربية التي امتدت على طول الشاطئ الإفريقي من مقادشو شمالاً إلى سفالة جنوباً يعترفون بسلطان كلوة على أنه أعظمهم مقاماً ورفعة[5]. وتشير خرائب كلوة وسونغو منارا إلى أن حكمًا قوياً وحضارةً مزدهرةً سادا هذه المنطقة منذ القرن 4هـ/ 10م حتى القرن 9هـ/ 15م[6]. ومع أن كلوة أو دولة الزنج فقدت في القرن 9هـ/ 15م بعضاً من سيطرتها على ممتلكاتها بسبب الصراع الذي احتدم بين السلطة المركزية في كلوة وبين حكام المدن والجزر الذين حاولوا توطيد سيطرتهم المحلية، إضافة إلى الصراعات التي شهدتها كلوة بين أهلها أنفسهم، إلا أن سلاطين كلوة بقوا حتى هذا التاريخ يحكمون القسم الجنوبي من الساحل، بما في ذلك سفالة وموزمبيق[7]، وبمجيء البرتغاليين في أواخر القرن 9هـ/ 15م حطموا هذه الحضارة الزاهرة[8].

ويلاحظ Barbosa هذه الحقيقة، مؤكداً «أن الساحل بطوله مأهول بقرى وبيوت للمغاربة، وقبل أن يرسل سيدنا الملك بعثته لاكتشاف الهند كان مغاربة سفالة وغواما[9] وأنغويا[10]

---

(1) مراجعة: الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9 – 10.

(2) العقاد، زنجبار، ص 8؛ قاسم، دولة بو سعيد، ص 20؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 404.

(3) ن. م، ص 8؛ ن. م، ص 20؛ ن. م، ج6، ص 404؛ حراز، إفريقية الشرقية، ص 4.

(4) Piggott; History of Mafia. P. 36; Ingrams, Zanzibar, P. 132.

(5) حراز، إفريقية الشرقية، ص 4.

(6) مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 423.

(7) حراز، إفريقية الشرقية، ص 4.

(8) مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 423. ينظر: Gray, Ahistory of kilwa, Part 2, PP. 11 - 12

(9) وتبعد عن سفالة حوالي 240كم باتجاه موزمبيق. Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 13.

(10) تقع على الساحل، وتبعد عن غواما حوالي 840 كم، وهي مدينة كبيرة. Ibid, Vol. 1, P. 13.

وموزمبيق جميعهم رعايا لملك كلوة، الذي كان عظيماً جداً بينهم»[1]. والملاحظ على المدن التي ضمتها دولة الزنج هذه أنها ـ ولطوال هذه الفترة ـ كانت تتمتع بقدر كبيرٍ أو قليل من الاستقلال، إلا أن من المؤكد أنها كانت مرتبطة فيما بينها بنوع من التحالف[2].

اهتم سلاطين كلوة وأهلها بالجهاد، ونشر الإسلام بين كفار الزنوج الذين سكنوا المناطق الداخلية المتاخمة لهم، حيث كانوا يشنون الجهاد ضد كفار الليميين الساكنين على مقربة من كلوة[3]، بل إن بعض السلاطين استشهد في قتاله ضد كفرة الملل[4]. ويؤكد ابن بطوطة حين زار كلوة أن سلطانها المظفر حسن «كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج، يغير عليهم، ويأخذ الغنائم، فيخرج خمسها، ويصرفه في مصارفه المعيّنة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم. وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة»[5].

وقد عاشت كلوة ثراءً وترفاً لا مثيل لهما، فقد كانت بيوتها كبيرة وجميلة مبنية من الحجر والجص، وشوارعها منتظمة[6]. وكانت ملابس أهلها ثمينة مصنوعة من الحرير والقطن، ويتحلون بالذهب والفضة والأحجار الكريمة[7]. ويصفهم ابن بطوطة بأنهم كانوا مستحكمي السواد، ولهم شرطات في وجوههم تشبه وجوه الليميين[8]، وإن كان بعضهم الآخر ذا لون فاتح[9]. وقد احترف معظم السكان مهنة التجارة، كما أنهم مارسوا صيد الأسماك الذي كان

---

(1) Ibid, Vol. 1. P. 18.

(2) Ingrams, Zanzibar, P. 132.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

(4) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9

(5) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200 – 201.

(6) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 192.

(7) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol, 1, P. 18.

(8) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

(9) Barbosa, The Book of Durate Barbosa. Vol. 1, P. 18; Devic, Le Pays Des Zendjs. P. 81. وهناك رواية طريفة ترجع سبب سواد بشرة سلاطين كلوة إلى سواد بشرة والدة مؤسس السلالة؛ لأنها كانت حبشية الأصل. يُنظر: Chittick, The Peopiling of The East African Coast, P. 39.

لكننا نستطيع الاستنتاج أن هذا السواد يرجع عموماً إلى اختلاط وتزاوج هؤلاء السلاطين بأهل كلوة والساحل عموماً.

من الحرف الرئيسة في كلوة، ذلك أن شواطئها كانت غنية بمختلف أنواع الأسماك والمحار[1].

ويمكن تعليل الازدهار المادي الذي شهدته كلوة بعاملين؛ أولهما: اهتمام العرب المسلمين الذين هاجروا إلى الساحل بالقيام بدور الوسيط التجاري بين بلدان سواحل المحيط الهندي. وقد شكل العاج والتوابل والذهب والعنبر أهم مواد هذه التجارة، ويبدو أن العرب المسلمين كانوا يحصلون على هذه المواد من الأهلين مقابل المنسوجات وبقية المواد التي كانوا يجلبونها من بلدانهم، والتي كان الأفارقة يطلبونها بكثرة[2]؛ وثانيهما: استغلال مناجم الذهب التي كانت وما تزال موجودة في روديسيا الحالية، حيث سيطر العرب المسلمون تقريباً على هذه التجارة، وكان الذهب يصل بكميات هائلة إلى سفالة[3]. إن أرباح كلوة من تجارتها من الذهب مكنتها من بناء حضارتها المادية بشكل كبير[4]. وقد اهتم سلاطين كلوة أنفسهم بالتجارة كثيراً، بل إنهم كانوا يحتكرون أثمن مواد التجارة الخارجية[5]. كما اهتمت كلوة بتنشيط تجارتها مع جنوب الجزيرة العربية[6]؛ لتجعلها توازي في أهميتها تجارتها مع سفالة. وقد اشتملت قائمة صادراتها مواد مختلفة كالجرار والعطور والزجاجيات بجميع أنواعها، والقطن والبخور والذهب والفضة واللآلئ.. ومن بين جميع هذه المواد كان القطن هو المادة الوحيدة التي هي من منتجات كلوة الفعلية، أما البقية فكانت تستوردها ثم تعيد تصديرها[7]. وقائمة المواد هذه تفيدنا في التعرف إلى علاقات كلوة التجارية الخارجية الواسعة التي مكنتها من استيراد هذه المواد الكثيرة.

وبعد هذه النهضة والازدهار أخذت كلوة تشهد نوعاً من الانحلال خلال القسم الأخير من القرن 8هـ/ 14م، استناداً إلى التناقص الحاصل في المعلومات عن سلاطينها في مخطوطة تاريخ

(1) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 196.

(2) العقاد، زنجبار، ص 9.

(3) العقاد، زنجبار، ص 9.

(4) Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 131; Zamani, A Survey of East African History, P. 112.

(5) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 214.

(6) Chittick, The Peopling of The East African Coast, P. 39.

(7) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 198.

كلوة، كما فقد السلطان سيطرته على موظفيه الكبار[1]. فقد شهدت الفترة من 846 – 904هـ/ 1442 – 1498م ثلاثة عشر سلطاناً تولوا الحكم في كلوة[2]، إضافة إلى ما لعبته المؤامرات والمنازعات بين الأمراء والوزراء من إضعاف سيادة كلوة على ممتلكاتها الجنوبية وعلى تجارتها الحيوية، وقد انعكس هذا في إعلان بعض حكام المناطق التي كانت خاضعة لكلوة، كسفالة مثلاً، استقلالهم[3].

وربما يعود أحد أسباب اضمحلال قوة كلوة السياسية إلى ازدياد قوة حكام باتا، فحتى سنة 740هـ/ 1339م كانت باتا ما تزال إحدى المدن المهمة بين مقادشو وكلوة، إلا أنها بدأت بفرض سيطرتها على الساحل منذ 795هـ/ 1392م، حتى وصلت حدود باتا الجنوبية إلى جزر كرمبا[4] kerimba.

وقد استمر اضمحلال كلوة خاصة بعد مقدم البرتغاليين الذين سيطروا عليها بسهولة. ونلاحظ أن السلطة والثروة التي انتقلت سابقاً من بنادر جنوباً إلى كلوة قد أصبحت الآن تتحرك إلى الوراء ثانية نحو القسم الشمالي من الساحل. وقد ازدادت هذه العملية سرعة بعد فرض البرتغاليين سيطرتهم على الساحل أواخر القرن 9هـ/ 15م[5]، حيث وصلت سفنهم إلى الساحل للتعرف إلى أوضاعه أولاً، ثم تعددت رحلاتهم إليه. وأخيراً بدؤوا بالسيطرة الفعلية على مدنه بتخريبها وتهديمها جراء المقاومة التي أبدتها ضدهم، وقد لاقت كلوة المصير نفسه على أيديهم[6].

---

(1) The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P. 383.

(2) مراجعة: الصوافي السلوة في أخبار كلوة، بعد ص 10. Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol, 1, P. 124.

(3) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 207; Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, PP. 10 – 15; Zamani, A survey of East African History. P. 113.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 119; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 187.

(5) Zamani, A Survey of East African History, P. 113.

(6) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 16 – 17؛ Gray, Ahistory of kilwa, Part. 2, PP. 11 – 32; Strong, The History of Kilwa, P. 427 – 429.

ب ـ قائمة سلاطين كلوة:

لا بد لنا من وقفة نناقش فيها قائمة سلاطين كلوة، حيث تجدر الإشارة إلى وجود ثلاث قوائم لسلاطين كلوة وردت في:

1 – Chittick, The shirazi Colonization of East Africa, journal of African History, Vol. 3, P. 279.

2 – Walker, The History and Coinage of The Sultans of kilwa, Numi smatic Chronicle, Vol. XVI.

3 – Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, PP. 62 – 73.

والجدير بالذكر أن القائمة الأخيرة اعتمدت في تثبيت أسماء وسنوات حكم سلاطين كلوة على مقارنة النص العربي لتاريخ كلوة، والذي تنتشر أسماء السلاطين في جميع صفحاته، وعلى كتاب المؤرخ البرتغالي دي باروس De Barros الموسوم Da Asia الذي أورد فيه نصاً لقائمة ملوك كلوة. ويبدو أن القائمة الأخيرة أدق القوائم الثلاث، وهي التي سأناقشها هنا[1]، مع العلم أن زامباور قد أورد ذكراً لبعض سلاطين كلوة المشهورين[2]. ومما يلاحظه الباحث على هذه القوائم أنها تختلف فيما بينها في ذكر أسماء السلاطين أو سنوات حكمهم.

يلاحظ على القائمة التي أوردها Freeman – Grenville لسلاطين كلوة:

1 ـ أن المؤلف اعتمد في إيراد قائمة السلاطين على النص العربي لمخطوطة تاريخ كلوة، وبما أن هذا النص يعاني من نواقص في كثير من الجوانب، وبخاصة في ذكر أسماء بعض السلاطين ومدد حكمهم، حيث لا يرد لها ذكر في النص العربي، فإن المؤلف اعتمد هنا على النص البرتغالي الذي أورده دي باروس في كتابه المذكور لسد النواقص في النص العربي.

(1) سأورد تفاصيل الأسماء وتسلسل تواريخ الحكم في ملحق خاص بها.
(2) معجم الأنساب والأسر الحاكمة، ترجمة: زكي محمد حسن، القاهرة، 1951، ج1، ص 138.

2 ـ أن المؤلف كان يصحح بعض المعلومات التي وردت سواء في النص العربي أم البرتغالي؛ كأن يذكر النص العربي، ويؤيده البرتغالي، مثلاً: إن السلطان الحسن بن داود بن علي تولى العرش عام 500 ـ 524هـ/ 1106 ـ 1129م، وكان في السبعين من عمره، وبقي سبعين سنة في الحكم[1]. وهذا غير معقول، ويتناقض مع تسلسل الأحداث والتواريخ التي جاءت في النص العربي نفسه. هنا يضع المؤلف كلمة (خطأ) بين قوسين كي يبين عدم صحة هذا الكلام، وقد تكرر ورود مثل هذا النوع من التصحيح عندما يذكر النص العربي تاريخ حكم سلطان ما، ثم يناقضه في ذكر بعض المعلومات التي تنقض ما ورد في تثبيت تاريخ الحكم.

3 ـ يذكر النص العربي أحياناً تاريخ حكم سلطان ما، لكنه يهمل ذكر اسمه، ولهذا اعتمد المؤلف على النص البرتغالي في ذكر اسم السلطان.

4 ـ توضح لنا القائمة تاريخ حكم المتمندلين في كلوة، حيث عينوا خالد بن بكر سلطاناً عام 394 ـ 396هـ/ 1003 ـ 1005م وذلك بمساعدة أهل سونغومنارا أو شوغ.

5 ـ توضح القائمة لنا تاريخ انتقال الحكم إلى عائلة أبي المواهب عام 676 ـ 694هـ/ 1277 ـ 1294م حينما حكم الحسن بن طالوت، وكان الأول من أسرة أبي المواهب.

6 ـ نلاحظ من القائمة أن النصين العربي والبرتغالي يتسمان أحياناً بالغموض فيما يتعلق بتحديد اسم سلطان ما أو تاريخ حكمه، ولجلاء هذا الغموض استعين بالنقود التي وجدت في المنطقة، حيث أمكن بواسطتها تحديد اسم هذا السلطان، أو تاريخ حكمه، كما حدث مثلاً للسلطان الذي حكم من 766 ـ 768هـ/ 1364 ـ 1366، فاسمه محذوف من النصين، إلا أن هناك نقوداً تسميه (سليمان بن الحسن).

7 ـ أن بعض سلاطين كلوة استعاروا ألقاب ملوك المشرق، فلقبوا أنفسهم بها؛ كما حدث

---

(1) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9.

للسلطان محمد بن سليمان بن الحسين الذي حكم من 815 ـ 824هـ/ 1412 ـ 1421م، الذي لقب نفسه بالملك العادل.

8 ـ تمدنا القائمة بمعلومات عن ظهور مناصب جديدة في كلوة، كمنصبي الأمير والوزير، حيث ظهرا لأول مرة بين 815 ـ 824هـ/ 1412 ـ 1421م في عهد السلطان محمد بن سليمان بن الحسين الملقب بالملك العادل.

9 ـ ازدياد سلطة الأمراء على حساب سلطة السلاطين، ويبدو أن هذا حدث في الفترة المتأخرة من تاريخ كلوة، حين بدأ الأمير بالاستيلاء على السلطة، كما فعل الأمير محمد بن سليمان الذي حكم سنة كاملة كسلطان عام 859 ـ 860هـ/ 1454 ـ 1455م، وكان السلطان رقم (32) في تسلسل سلاطين كلوة. وكما حدث عام 901هـ/ 1495م حينما خلع الأمير محمد كواب السلطان إبراهيم، وتسلم السلطة مدة ثلاثة أسابيع فقط، ثم خلع نفسه منها وسلمها للسلطان الفضيل بن سليمان بن الملك العادل. وهذه الحقائق توضح لنا مدى ازدياد سلطة الأمراء على حساب السلاطين، حيث أصبحوا يولّون ويعزلون كيفما يشاؤون، بل ينصبون أنفسهم مكان السلاطين أحياناً. كما يبدو أن بعض الأمراء الذين تولوا منصب الأمير لبعض السلاطين أصبحوا بعد فترة ما سلاطين؛ لأنهم إما أبناء الملك السابق أو من العائلة المالكة. وفي مثل هذه الحالة يُفضل توليته، وخاصة في حالة عدم وجود ولي للعهد من السلطان الذي توفي قبله مباشرة، كما حدث مثلاً للأمير سليمان بن محمد الذي كان أميراً للسلطان أحمد بن سليمان الذي حكم كلوة من 860 ـ 861هـ/ 1455 ـ 1456م، فأصبح سليمان سلطاناً لكلوة سنة 882هـ/ 1477م، وكان تسلسله (37) في سلاطين كلوة.

10 ـ استيلاء الوزراء فيما بعد على السلطة؛ ففي عام 860 ـ 861هـ/ 1455 ـ 1456م في عهد السلطان أحمد بن سليمان كان وزيره يدعى سعيد، وأصبح سلطاناً لكلوة من سنة 871 ـ 881هـ/ 1466 ـ 1476م، حينما زاره ملك عدن المخلوع، وأصبح السلطان رقم (36) في تسلسل ملوك كلوة. وكذلك الوزير الحسن بن سليمان بن الوزير بارك، الذي أصبح السلطان

رقم (40) في تسلسل ملوك كلوة، وقد حكم من سنة 884 ـ 890هـ/ 1479 ـ 1485م.

11ـ تبين لنا القائمة تاريخ وصول البرتغاليين إلى كلوة، ففي عام 901ـ905هـ/ 1495ـ1499م، وفي عهد السلطان الفضيل بن سليمان بن الملك العادل، مر فاسكو دي غاما، لكنه لم يزر كلوة. وفي عام 905 ـ 912هـ/ 1499 ـ 1506م فاوض البرتغاليون الأمير إبراهيم بن سليمان الذي يصفه دي باروس بالحاكم الفعلي لكلوة، وفي عام 906هـ/ 1500م وصل بيدرو الفاريز كابرال مع عدد من السفن، وفي 907هـ/ 1501م جاء جوآودي نوفا في سفينة منفردة، وفي سنة 908هـ/ 1502م عاد فاسكو دي غاما. ونكتشف من القائمة إحساس سكان كلوة بالدافع الأساسي الكامن وراء زيارتهم وحذرهم منهم.

12 ـ يتوقف النص العربي لتاريخ كلوة عند السلطان محمد بن ركن الدين الدابولي الذي يصفه النص العربي بأنه جعل سلطاناً من قبل فاسكو دي غاما عام 912هـ/ 1506م، وحكم سنة واحدة، وكان السلطان رقم (46) في تسلسل السلاطين. أما بقية السلاطين: (47) و(48) و(49) و(50) و(51) فيبدو أن المؤلف استند في ذكرهم على النص البرتغالي.

13 ـ نستنتج من القائمة قوة الشعور الديني لسلاطين كلوة، حيث كان كثير منهم يذهب إلى مكة للحج والتفقه بأمور الدين، فينيبون عنهم في حكم البلاد نواباً يعينونهم، كما حدث مثلاً عندما ذهب السلطان الحسن بن سليمان المطعون المسمى بأبي المواهب إلى مكة وعدن، فجعل أخاه داود بن سليمان وصياً على العرش طوال مدة غيابه التي استمرت سنتين، فلما عاد سلمه مقاليد الحكم.

ب ـ نظم الحكم والإدارة:

ولنحاول الآن أن نتعرف إلى نظم الحكم والنواحي الإدارية التي استندت إليها كلوة في تنظيم حياتها ومجتمعها:

يبدو أن منصبي الأمير والوزير ظهرا كما عرفنا لأول مرة في كلوة في عهد السلطان محمد بن

سليمان بن الحسين الملقب بالملك العادل[1]، الذي حكم كلوة من 815-824هـ/ 1412-1421م، حيث نجد لأول مرة إشارة رسمية إلى تعيين أمير ووزير؛ فالأمير هو محمد بن سليمان، والوزير يدعى سليمان[2]. ويبدو أن مركز السلطان الأصلي قبل تولي السلطنة - أي حين كان أميراً - ظهر خلال هذه الفترة، وأثر بشكل عميق في تاريخ كلوة. فمنذ هذا الوقت أصبح سلاطين كلوة يمنحون جزءاً من صلاحياتهم للأمير الذي أصبح بمرور الزمن وخاصة في القرن 9هـ/ 15م على درجة من القوة مكنته من التدخل في عزل وتنصيب السلاطين، بل تسنمه السلطة بنفسه، ويبدو أن هذا المنصب انحصر في عائلة واحدة[3].

والمعتقد أيضاً أن منصب الوزير انحصر في عائلة معينة أيضاً[4]. وفي بعض الأحيان كان الوزير يطمح إلى أن يحتل منصب السلطان، إلا أن العادة التي كانت السائدة في كلوة أول الأمر كانت تمنع تولي منصب السلطنة إلا من قبل أحد أولاد الملوك[5]، غير أن الأمر لم يستمر هكذا، ففي عام 887 - 893هـ/ 1482 - 1487م «انتقل الأمر إلى بطن الوزراء، فتولى الوزير الحسن بن الوزير سليمان بن الوزير يارك، ولاه الأمير محمد كواب المذكور لغرض كان له، وهي مضادة أهل السلطنة، فمكث الحسن ست سنوات»[6].

وكان الأمير يرفع أحياناً إلى منصب السلطان برغبة علية القوم وعامتهم، كما حدث عام 826هـ/ 1422م عندما أصبح محمد بن سليمان بن الحسين سلطاناً، ولقب بالملك العادل، ودان له الجميع بالطاعة[7].

---

(1) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9 - 10.

(2) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 10؛ Freeman - Grenville, The Medievall History of The Coast of Tanganyika, P. 70; Gray, A History of kilwa, Part. 1, P. 13.

(3) ومثل هذه الأخبار تتناثر في مخطوطة الصوافي بعد ص 10؛ Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 123; Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 13.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 123; Strong The History of Kilwa, PP. 423 – 424.

(5) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 13.

(6) Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 16; Strong, The History of Kilwa. P. 423.

(7) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9.

وكثيراً ما كان الوزير والأمير يتناقشان مع أهل الحل والعقد في اختيار السطان الجديد[1]. وأحياناً أخرى كانا يتداولان حول أي منهما يصلح لمنصب السلطان حينما يشغر هذا المنصب مع عدم وجود ولي للعهد؛ ففي عام 871هـ/ 1466م توفي السلطان إسماعيل بن الحسين، وبسبب عدم وجود خلف له يصلح لتولي الحكم تداول الأمير محمد بن سليمان والوزير سليمان في اختيار خلف له، ثم اتفقا على أن يكون العرش لأحدهما لعدم وجود من يصلح له غيرهما، وعندما وجد الوزير سليمان أن مشاعر السكان مع الأمير سحب نفسه من الترشيح، وأصبح الأمير محمد سلطاناً[2].

ومعنى هذا أنه كان للشعب دور وتأثير في اختيار السلطان، وإن كانت هذه المشاركة كما يبدو على نطاق ضيق.

ونلاحظ في كلوة وجود منصب المحتسب[3]، الذي قد يعود تاريخ ظهوره إلى ما قبل عام 887هـ/ 1482م. ولا نعرف فيما إذا كان تعيين المحتسب يتم من قبل الدولة أم من قبل تنظيمات وأصناف النقابات والصناع. نجد كذلك منصبي الخطيب والمقدّم[4]، إلا أننا لا ندري كيف كانت تتم عملية تعيينهما كذلك، وعلى أية أسس يتم اختيارهما، وما هي الواجبات المناطة بكل منهما؟ وربما كان المقدم هو رئيس مجلس الشيوخ أو الشورى الذي وجدناه في مقادشو. وقد يكون الخطيب هو خطيب جامع كلوة المشهور، بحيث كانت الدولة تتولى تعيين خطيبه لأهميته الدينية والثقافية.

وجد هناك كذلك منصب خازن المال الذي نسمع به لأول مرة حوالي نهاية القرن 9هـ/ 15م، ولا نعرف فيما إذا كان هذا المنصب موجوداً قبل هذا التاريخ أم لا، وإن كانت القرائن تؤكد وجوده، باعتبار أن كلوة كانت أغنى منطقة في الساحل الشرقي، ووصلت في

(1) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص11؛ Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 13.
(2) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 12.
(3) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 14.
(4) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 13.

ازدهارها وقوتها حداً لم تصل إليه أي مدينة، وكانت تجارتها منظمة وقوية ومسيطرة على معظم الطرق والمواد التجارية، وخاصة ذهب سفالة. ومن هنا فلابد من وجود مثل هذا المنصب قبل التاريخ المذكور بكثير، لغرض الإشراف على أموال الدولة ومدخولاتها، وتنظيم أوجه صرفها، وتحديد الرسوم والضرائب المفروضة على أنواع التجارات المارة فيها.

ونستدل من الأخبار على وجود منصب القاضي، الذي كان يولّيه السلطان بنفسه، ففي عهد السلطان محمد بن سليمان 815 - 825هـ/ 1412 - 1421م ولي هذا المنصب رجالٌ من ماليندي لثقة السلطان بهم[1].

5ـ زنجبار وبمبا ومافيا:

رأينا فيما سبق أن كلوة سيطرت على معظم مدن الساحل الإفريقي الشرقي، وعلى الأخص جزر زنجبار وبمبا ومافيا، هذه الجزر الثلاث التي لا تبعد عن الساحل كثيراً، والتي ساد فيها وسكنها العرب المسلمون[2].

مد سلاطين كلوة نفوذهم إلى هذه الجزر، وكانوا يتخذون منها ملجأ يهربون إليه، ويطلبون مساعدة حاكمها إذا ما أصابتهم ملمة ما[3]. ومن الممكن جداً أن هذه المراكز تمتعت باستقلال ذاتي، كان يشتد ويضعف بحسب قوة سلاطين كلوة، وكذلك ازدهارها أو تدهورها بشكل عام. وإن كنا نلاحظ في أحيان أخرى أنها كانت تناصب كلوة العداء[4]، إلا أن من المؤكد أنه كان هناك نوع من التحالف بين هذه المدن وكلوة.

تعد زنجبار أكبر جزيرة مرجانية على ساحل إفريقية الشرقي[5]، وتتألف من جزيرتين

---

(1) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 123; Posnansky, Prelude To East African History, P. 118.

(2) ابن ماجد، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق: إبراهيم خوري، دمشق ـ 1971، ص 299؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, PP. 26 – 27; Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 80.

(3) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9، 11.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 124 - 132.

(5) زكي، المسلمون في العالم اليوم، ج2، ص 58. وتبلغ مساحتها 640 ميل مربع. E. B, 1974. Vol. 17, P. 1025.

رئيسيتين هما: زنجبار وبمبا[1]، التي تقع إلى شمالها الشرقي. وقد اعتبرت قديمًا مقر ملوك الزنج[2]، واسم زنجبار القديم: لنجوية[3]، أو أنكوجا Unguja[4]، كما عرفت باسم قنبلو[5].

وقد حكم هذه الجزر أمراء عرب مسلمون[6] منذ القرن 4هـ/ 10م، حيث وجدت نقوش عربية في مسجد كيزمكازى kismkazi على الجهة الشرقية من جزيرة زنجبار، كما أن كثيراً من سكانها كانوا عرباً، وكذلك تجارتها التي كانت بيد العمانيين والسيرافيين[7]. ومع هذا فقد وجدت فيها مجموعة من الزنوج الوثنيين الذين عاشوا بين العرب المسلمين المستقرين فيها[8].

ويخبرنا المسعودي أن أول استقرار للعرب المسلمين في قنبلو كان «في مبدأ الدولة العباسية وتقضّي الأموية»[9]، حيث استقروا فيها، وبسطوا سيطرتهم عليها، وربما يكون هذا قد حدث

---

(1) مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 427. والمعتقد أنها سميت بالجزيرة الخضراء. الحموي، معجم، ج3، ص 99؛ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 158.

(2) الحموي، معجم، ج7، ص 339. أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 371.

(3) الحموي، معجم، ج7، ص 339.

(4) القزويني، آثار البلاد، ص 59.

(5) الجاحظ، رسائل، رسالة فخر السودان، ج1، ص 211؛ المسعودي مروج الذهب، ج1، ص 107، ج2، ص 17؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 51؛ ابن سعيد، عجائب الأقاليم السبعة، ص 19. وقد عرفت باسم الزِنك والزّنك والزنكبار. Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 26. (2) وبمقدم العرب المسلمين المهاجرين إلى الساحل واستقرار بعضهم في زنجبار أدخلوا على اسمها حرف الجيم العربي، فأصبحت تعرف باسم الزِنج والزّنج والزنجبار. حاشية رقم (2) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 26.؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص 215. وقد سادت تدريجياً لفظة زنجبار للدلالة على هذه المنطقة التي عنى بها العرب: أرض الزنج، أو بر الزنج، أو ساحل الزنج. Davidson, The Growth of African Civilization, P. 100; Davic, Le Pays Des Zendjs, P. 78. وهي المنطقة الوحيدة على الساحل الإفريقي التي احتفظت حتى اليوم بذكرى اسم الزنوج، وهي تسمية عربية قديمة مقابلة لتسمية (بر العرب) الذي هو جنوب الجزيرة العربية، التي سماها السواحيليون: باأرابو، أي بلاد العرب، التي كانت علاقتها قديمة جداً بزنجبار. مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 427. وقد ذهبت بعض الدراسات إلى الاعتقاد بأن قنبلو هي مدغشقر، إلا أن من المعتقد أن قنبلو هي زنجبار كما أثبتناها أعلاه. حول هذا الموضوع، مراجعة: ابن سعيد، الجغرافيا ص 36، 63، 66.

(6) المسعودي، مروج، ج2، ص 17؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 51؛ ابن ماجد، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، ص 299؛ الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، والمعلومات حول هذه النقطة تتناثر على جميع صفحات المخطوطة. Zamani, A survey of East African History, P. 107.

(7) المسعودي، مروج، ج1، ص 108.

(8) مراجعة المسعودي، مروج، ج1، ص 98; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, PP. 106 – I07; Zamani, A survey of East African History, P. 1. 7.

(9) مروج، ج1، ص 98.

بين 130 – 133هـ/ 747 – 750م. وهذا هو دليلنا الوحيد على حدوث هجرة إسلامية إلى زنجبار في وقت مبكر[1]. إن هذا التاريخ يدفعنا إلى التساؤل فيما إذا كان لهذه الهجرة علاقة بالهجرة الزيدية إلى الساحل، والتي رجحنا احتمال حدوثها في الفترة المحصورة بين انقضاء الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، وقد تكون إحدى مجموعات هذه الهجرة قد توجهت إلى زنجبار واستقرت فيها.

ويبدو أن معظم هذه الهجرات جاءت إلى الساحل الإفريقي الشرقي من الخليج العربي، ومن ضمنها هجرات من البصرة والكوفة. فالحموي[2] يؤكد أن سلطان المنطقة كان عربياً من ناقلة الكوفة، كما ذكر له ذلك الشيخ الصالح عبد الملك الحلاوي البصري، الذي هو رجل ثقة شاهد المكان وله معرفة بالسلطان. وفي عام 600هـ/ 1204م، وصل تومباتو بزنجبار السلطان يوسف بن علوي العبدلي، الذي قيل إنه جاء من أحد أعمال البصرة، حيث شيد مدينة ماكوتاني Makutani[3].

وقد ألمحت المصادر الصينية المبكرة إلى الوجود العربي الإسلامي في شرق إفريقية وزنجبار بالذات، وخاصة في القرنين 6 – 7هـ/ 12 – 13م؛ فهي تتحدث عن وجود «التاشي/ Ta' shi (العرب) أهل تسونغ – با (زنجبار) الذين يتبعون دين التاشي»[4]، والذين تاجروا بالذهب والعاج وخشب الصندل[5]، وحيث ترسوا السفن فيها من كل البلاد، وتصنع بها أجمل الأنسجة القطنية والحريرية والحبال من ألياف شجر جوز الهند[6].

ومجتمع زنجبار خليط من الأجناس، إلا أن العرب فيه يحتلون مركزاً مرموقاً، ولاسيما أن أعداداً كبيرة من العرب المسلمين هاجروا إليها قديماً واستقروا فيها. وهناك الآسيويون من

---

(1) The Cambridge History of Africa, Vol, 3, P. 192; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 106.

(2) معجم، ج3، ص99. ينظر أيضاً: Trimingham, The Arab Geographers, P. 135.

(3) Gray, History of Zanzibar, P. 16 – 17.

(4) Coupland, East Africa, P. 19.

(5) Ibid, P. 19

(6) Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 80.

غير العرب الذين يمارسون التجارة في الجزر الثلاث[1]، إضافة إلى سكان المنطقة الأصليين من الزنوج، وقد تصاهر العرب معهم على نطاق واسع خلال قرون طويلة، حتى إنه يندر وجود أفارقة الآن ـ عدا القادمين من توهم ـ لا تجري في عروقهم دماء عربية[2].

أما بمبا فشهدت أيضاً هجرات عربية إسلامية من عمان والخليج العربي منذ عام 84هـ/ 703م[3]. وقد تمتعت أحياناً باستقلال داخلي[4]، وكان لها خمسة حكام على الأقل، وقد قسمت منذ استقرار بعض المجموعات العربية الإسلامية المهاجرة إليها إلى خمس مناطق، كان لكل واحدة منها حاكم معين، وهذه المناطق هي: Chwaka والتي سُميت لاحقاً باسم تواكا Twaka، ومكومبون Mkumbun، وأتينزي Utenzi، ونغواني Ngwane، وبوكومي Pokome[5].

إن هذا التقسيم يوحي لنا بأن المنطقة قسمت إلى محلات معينة، سكنت في كل واحدة منها مجموعة تنتمي إلى عشيرة أو قبيلة معينة، كما هو الحال تماماً عندما كانت تشيد المدن العربية في المشرق أو المغرب، حيث تقسم إلى خطط، تسكن كل خطة قبيلة أو عشيرة معينة.

وقد اعتبرت بمبا محطة للتجارة بين الخليج العربي وساحل إفريقية الشرقي[6]، وخاصة بين العراق وبمبا في القرن 5هـ/ 11م، وقد استنتج هذا من طبيعة الحلى التي عثر عليها فيها، والتي دلت على وجود صلات تجارية بين العراق وبمبا في هذه الفترة[7].

وكما عرفنا سابقاً فإن كلوة فرضت سيطرتها على مافيا منذ البداية؛ فقد أخبرتنا مخطوطة الصوافي[8] بأن إحدى المراكب القادمة نزلت في منفسة، التي هي مافيا على الأرجح، وقد ارتبطت مافيا بكلوة منذ البداية برباط سياسي وثيق، حيث اهتم بها سلاطين كلوة، وأصبحت

---

(1) Ayany, Ahistory of Zanzibar, London – 1970, P. 4.

(2) جنتر، جون، داخل إفريقية، ترجمة: حسين جلال، القاهرة، ج2، ص 270.

(3) وتبلغ مساحتها 380 ميل مربع. Omanncy, Lsle of Cloves, P. 49. E. B. Vol. 17, P. 1025.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 132.

(5) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص 82.

(6) Trimingham, The Arab Geographers, P. 122.

(7) Freeman – Grenville, The History of The Coast of Tang anyika, P. 189.

(8) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7.

ضمن منطقة حكمهم[1].

تمتع حكام وسكان هذه الجزر الثلاث بحياة مترفة ثرية، فلبسوا الحرير والقطن، ونعموا بذهب سفالة الجيد[2]، وإضافة إلى ازدهار تجارتهم الخارجية فقد تاجروا مع البر الرئيس باللحوم والفواكه التي كانوا ينقلونها في مراكب صغيرة[3].

والملاحظ على هذه المنطقة كثرة وجود المساجد فيها[4]، وهذا يعطينا دليلًا على قوة الوجود العربي الإسلامي فيها، وأثرها في نشر الإسلام بين السكان الأصليين. وربما كانت هذه المساجد قد اتخذت - إضافة إلى وظيفتها الأصلية - كمراكز لنشر الوعي الديني والثقافي بين الأهالي، ولابد من أن القرآن الكريم كان يقرأ فيها، حيث يعظمه الأهالي أشد التعظيم[5].

وبمجيء البرتغاليين إلى الساحل، وسيطرتهم على معظم المدن العربية الإسلامية فيه، بما في ذلك هذه الجزر الثلاث (زنجبار، وبمبا، ومافيا) انتهى الحكم العربي الإسلامي فيها مؤقتاً حتى عام 1110هـ/ 1698م، حيث ساد حكام عمان ثانية عليها، منهين بذلك حكم المستعمرين البرتغاليين للساحل[6].

---

(1) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7 - 8. وتقع مافيا إلى الجنوب من بمبا، وتبلغ مساحتها 200 ميل مربع. E. B, Vol. 10. P. 1025.

(2) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 26.

(3) Ibid, Vol. 1, P. 26.

(4) شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص 93.

(5) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1. P. 26.

(6) حاشية رقم (1)، Ibid, Vol. 1, P. 26.

6 ـ مومباسا:

مومباسا[1] ـ التي يسميها الكتاب العرب: منبسة[2] ـ هي إحدى المدن التي أسسها العرب المسلمون في الساحل[3]، بل تعتبر واحدة من أهم وأقدم هذه المدن في الشاطئ الإفريقي[4]، وقد احتلت أهمية كبيرة منذ نهاية القرن 6هـ/ 12م[5].

تقع على ضفة خور كبير تدخله المراكب[6]، وتوصف بأنها جزيرة قريبة جداً من البر[7]، ويفترض أن ملك الزنج كان يعيش بها[8]، رغم أننا لا نعرف اسم هذا الملك[9]. وحكامها عرب مسلمون، وكذلك سكانها الذين تتراوح ألوانهم بين السواد والسمرة واللون الفاتح[10]، وهذه إشارة جديدة تؤكد عمق الاختلاط والتزاوج والتأثير المتبادل بين المهاجرين والسكان

---

(1) يقال إن اسم مومباسا مشتق من اللفظة العربية: نبس التي تعني أقل الكلام. ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص225. مادة نبس، ومعناها الضمني: محل الاجتماع أو عقد المؤتمرات لشؤون التجارة وغيرها، وقيل إنها أرض البونت Punt لدى المصريين القدماء أو إنها رهابتا Rhapta، إلا أنه ليس هناك ما يؤيد هذه الآراء. مراجعة: Kirkman, Man and Monuments on The East African Coast, P. 118 - 119. ويقال أنها استمدت اسمها من اسم مدينة في عمان. زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص121. وهي تقع على البحر. ابن سعيد، الجغرافيا، ص 83. وتبعد عن شمال شرق زنجبار بحوالي 140 ميل. يُنظر: Guillian, Documents sur L' Histoire, Tome Deuxiem. P. 229.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 5؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص 15؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق، ص 14؛ الحموي، معجم، ج8، ص 171؛ ابن بطوطة الرحلة، ج1، ص200؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 152، الحميري، الروض المعطار، ص 552؛ ويسميها ابن سعيد في جغرافيته: ممبصة، ص 83.

(3) Guillian, Documents sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tome Deuxieme, P. 247.

(4) حاشية رقم (2). Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1. P. 19.

(5) Kirkman, Man and Monuments, P. 119.

(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق، ص 14؛ ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 5؛ المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 577؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 152؛ الحميري، الروض المعطار، ص 552. وقد وصف ميناؤها بأنه من أجمل موانئ الساحل الإفريقي الشرقي Guillian, DocumentSur L' Histoire, Tome Deuxieme, P. 23.

(7) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200؛ شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص 91؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1. P. 19.

(8) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق، ص 14؛ ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 5؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص 83؛ الحميري، الروض المعطار، ص 552.

(9) kirkman, Man and Mouments, P. 119.

(10) المهري، من سلسلة العلوم البحرية، ج3، ص 577. شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص 91؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 19.

الأصليين.

وقد بلغت مومباسا أوج ازدهارها في القرن 6هـ/ 12م، ولكنها شهدت تدهوراً تدريجياً منذ القرن 8هـ/ 14م، وكان لعلاقتها السيئة بجارتها ماليندي أثر في تدهور مكانتها[1]. وقد استطاع أئمة عمان أن يمدوا سيطرتهم عليها، ولكن لفترات متقطعة منذ القرن 8هـ/ 14م[2].

ومن المحتمل أن أول من أسس مومباسا هم إحدى المجموعات التي جاءت مع الحسن بن علي مهاجرة، والتي سبقت الإشارة إليها، واستقرت كما علمنا في عدة أماكن من الساحل[3]، كان من أبرزها كلوة، وذلك بعد منتصف القرن 4هـ/ 10م. والمعتقد أن شيخ مومباسا كان أحد أفراد العائلة الحاكمة في كلوة، وربما كانت هناك عائلة شيوخ قديمة في مومباسا ذات علاقة بالأسرة الحاكمة في كلوة[4]، وقد تكون هي نفسها سليلة نفس الأسرة في كلوة[5]. ونحن لا نعرف الكثير عن سلاطين مومباسا، إلا أننا نعرف أن آخرهم الذي جاء البرتغاليون في عهده كان يدعي شحاته بن معشم الشيرازي[6].

ويبدو أن مومباسا احتلت مركزاً مهماً بين عموم مدن الساحل مكنها من التوسط في حل الخلافات التي كانت تنشب بين هذه المدن؛ فعندما اشتدت الحرب بين لامو وباتا قرر سكان باتا التوجه إلى مومباسا، طالبين إلى شيخها حميد بن محمد المزروعي - والمعتقد أنه كان يمني الأصل - التوسط بينهم من أجل التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين[7].

---

(1) هامش رقم (2) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 19.

(2) ثابت، محمد رجولة، في ربوع العالم الإسلامي، القاهرة، ص 256.

(3) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص 82، 121. وحول استقرار هذه الهجرة في عدة أماكن من الساحل مراجعة: الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 7.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 132; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 209; Posnansky, Prelude To East African History, P. 117.

(5) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 123; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 209.

(6) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص 82.

(7) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 19.

وفي القرن 8هـ/ 14م احتلت مومباسا المرتبة الثالثة في الأهمية بعد كلوة ومقادشو، لكن أهميتها أخذت بالازدياد منذ أواخر القرن 9هـ/ 15م. وبازدياد مرور تجارة الساحل بها بدأت مومباسا تلعب دوراً بارزاً في المنطقة في الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين[1]، على الرغم من تدمير البرتغاليين لها عدة مرات. وقد تميزت تجارتها بالنشاط؛ فقد كانت لها علاقات تجارية واسعة مع العرب والهنود[2]، كما وردتها السفن التجارية المحملة بالبضائع من الهند وسفالة وماليندي وزنجبار[3]. وغالباً ما كان أهل مومباسا يشنون الحروب على سكان الداخل، إلا أنهم في حالات السلام[4] كانوا يتاجرون معهم، جالبين منهم العسل والشمع والعاج[5].

تبدو الحياة العربية في مومباسا واضحة في أحيائها، وخاصة في شوارعها وطراز بنائها العربي[6] الذي يشبه نمط بناء البيوت في الأندلس[7]، وإن كنا لا نعرف السبب، فقد كانت مبانيها عالية مبنية بالحجر والجص، وشوارعها جميلة التخطيط كشوارع كلوة[8]. وقد قدر سكانها بحوالي 10,000 نسمة[9]، اعتمدوا في طعامهم على السمك والموز[10].

ومن الطريف أن نذكر أن شيخ مومباسا أثار عليه غضب زملائه شيوخ المدن والجزر الأخرى في الساحل، وذلك عندما اتخذ لقب سلطان. والمعتقد أن من المتعارف عليه آنذاك

---

(1) The Cambridge History of East Africa, Vol. 3, P. 209.

(2) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Tome Deuxieme, P. 238.

(3) المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 578؛ شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص 91. مراجعة: الحموي، معجم، ج8، ص 171؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol . 1, P. 20; Davidson. The Growth of African Civilization, P. 109 – 110; Freeman Grenville, The East African Coast, P. 131.

(4) شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص 91.

(5) Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 132.

(6) سعد، كمال، مدن عربية في إفريقية، مجلة آفاق عربية، العدد 12، 1976، ص 59.

(7) حراز، إفريقية الشرقية، ص 9.

(8) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 109.

(9) Oliver and Mathew, History of East Africa Vol, 1. P. 132. ومن المحتمل أن عدد السكان أخذ بالتناقص نتيجة تعرض المدينة لهجمات القبائل المتوحشة من الداخل، إضافة إلى التخريب الذي أحدثه البرتغاليون، فيقدرهم Guillian بحوالي 3000 نسمة. وقد ضم مجتمع مومباسا عدداً كبيراً من الأسر العربية، إضافة إلى السواحليين والعبيد وبعض الهنود الذين يفدون إليها بفعل التجارة. Guillian, Documents Sur L' Histoire, Tome Deuxieme, P. 237.

(10) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

أن هذا اللقب كان حكراً على حكام كلوة وزنجبار فقط، وقد حدث هذا في أواخر القرن 8هـ/ 14م[1]، وربما اتخذ شيخ موممباسا هذا اللقب لأنه كان يعتبر نفسه سليل العائلة المالكة في كلوة.

وبمجيء البرتغاليين إلى الساحل اتسمت سياسة موممباسا إزاءهم بالعداء، مما جعلهم يهاجمونها أربع مرات، ثم تركوها مهدمة محترقة ومنهوبة[2]. ولقيت مدينة كليفي، التي ارتبطت سياسياً بموممباسا، وحكمها شقيق شيخ موممباسا، المصير نفسه من البرتغاليين حيث دمروها وأحرقوها[3].

7 ـ ماليندي:

ماليندي مدينة عربية إسلامية مهمة. فإذا ما تركنا موممباسا وسرنا على طول الساحل الإفريقي باتجاه الجنوب، نجد ماليندي[4]، التي كان يحكمها سلطان عربي مسلم، وسكانها من العرب المسلمين[5]. تقع على البحر، وتعتبر من مدن الزنج المعروفة[6]، وقد امتهن أهلها الصيد براً وبحراً[7].

والمعتقد أن إحدى المجموعات التي رافقت الحسن بن علي السابق الذكر، والذين استقروا في مناطق متعددة من الساحل، توجهوا نحو هذه المنطقة، حيث هدموا البلدة القديمة، وشيدوا

---

(1) Kirkman, Man and Monuments, P. 119.

(2) Barbosa,The Book of Durate Barbosa, Vol, 1, P. 19; Posnansky, Prelude To East African History, P. 117; Kirkman, Man and Monuments, PP. 199 – 120.

(3) Kirkman, Mnarani of Kilifi, Ars Orientalis, Vol. 3, P. 95.

(4) وقد سماها ابن سعيد: ملندة، الجغرافية، ص 82؛ ابن سعيد، بسط الأرض، ص 14. تقع الآن في كينيا. يُنظر: Ki – Zerbo, Histoire De L' Africa Noire, paris – 1978, P. 191.

(5) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 22.

(6) ابن سعيد، الجغرافيا، ص 82؛ ابن سعيد، بسط الأرض، ص 14.

(7) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 5؛ مؤلف مجهول، مختصر نزهة المشتاق، ص 14؛ المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 576؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 152؛ الحميري، الروض المعطار، ص 544.

بالقرب منها مدينة ماليندي الجديدة، وذلك في أواخر القرن 4هـ/ 10م[1]. حيث حُكمت منذ ذلك الوقت من قبل سلالة ترتبط بالعائلة الأم التي حكمت كلوة[2] وومباسا وجزر زنجبار وبميا ومافيا، كما أسلفنا القول.

ويبدو أن قسماً من أهالي ماليندي ـ وربما كانوا من أفراد العائلة الحاكمة ـ هاجروا إلى كلوة، واستقروا فيها، وذلك في حدود القرن 9هـ/ 15م. وقد تمتعوا بسمعة حسنة، بحيث أسندت لهم مناصب مهمة، كمنصبي الأمير والقاضي[3].

والمعتقد أن ماليندي بقيت مدينة صغيرة منذ تشييدها، ولم تحظ بالاهتمام الكافي حتى القرن 6هـ/ 12م، حيث ذكرها الإدريسي لأول مرة على أنها كانت آنذاك مدينة من مدن الزنوج المهمة[4]. وقد أخذت أهميتها بالازدياد منذ هذه الفترة، حتى بلغت في القرن 9هـ/ 15م مركزاً مرموقاً، بحيث وصفها البرتغاليون بأنها «مدينة جميلة، تعود إلى المغاربة، ويحكمها ملك مغربي»[5]. ويقال إن تعداد نفوسها بلغ آنذاك حوالي 6000 نسمة، معظمهم من العرب المسلمين[6].

وقد وصفت ماليندي، بأنها من أكثر المناطق التي يتردد عليها التجار[7]، بل إن أهل ماليندي أنفسهم تجار كبار يستخدمون نظام المقايضة في تبادل البضائع[8]، حيث كانوا يتاجرون بالذهب والأقمشة والعاج مع سكان الداخل الوثنيين، ومع غيرهم من العرب، كما كانت لهم صلات

---

(1) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص121.

(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 132.

(3) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 122; Posnansky, The Prelude of East African History, P. 118.

(4) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص31. يُنظر: Devic, Le Pays Des Zindje, P. 70; Barbosa, The Book of Durate Barbosa. Vol. 1, P. 22. (2) حاشية رقم

(5) المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 577؛ سعد، ن. م، ص 62؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 22.

(6) سعد، مدن عربية في إفريقية، ص 62.

(7) Brady, Commerce And Conquest In East Africa, 1950, P. 25.

(8) يُنظر: شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص 91؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 22.

تجارية وثيقة مع الهند[1].

8 ـ توغل العرب إلى سفالة:

سفالة[2] منطقة في الساحل الشرقي، تقع في الجزء الجنوبي لما يسمى بموزمبيق حالياً[3]. وأول من استعمل هذه اللفظة هم البحارة العرب كمصطلح عام لأية أماكن قصية كانوا يصلون إليها على الشاطئ الإفريقي الشرقي[4]، وهذا ما أكده المسعودي حينما ذكر أن مساكن الزنج امتدت إلى أقاصي بلاد الزنج، وهي سفالة التي سكنها المسلمون[5]، وأن مراكب العمانيين من الأزد والسيرافيين من الخليج العربي كانت تصل «إلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج، والأسافل من بحرهم»[6]. وهو بذلك يرى أن سفالة هي أقاصي بلاد الزنج التي عرفها ووصلها العرب[7]، حيث انتهت إليها السفن العربية المتاجرة في بحر الزنج[8] الذي كان من أشد البحار هولاً[9]، إلا أن الملاحين العرب كانوا يقطعونه بسلام.

وسفالة على رأي الحموي هي آخر مدينة بأرض الزنج[10]، والبعض يعتبرها قاعدة بلاد

---

(1) المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب،ج3،ص 77.
Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 22; Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 123.

(2) السفل: نقيض العلو. ابن منظور، لسان العرب،ج11، ص 337. مادة (سَفَل). وهي تعني هنا المناطق السفلى القصية،كما تبين ذلك من: البيروني، في تحقيق ما للهند،ص 163 - 169، 250، 431؛ البيروني، تحديد نهايات الأماكن، ص 138، 143؛ المسعودي. مروج، ج1، ص 108؛ الحموي، معجم،ج5 ، ص 88.

(3) فران، غابرييل، مادة: سفالة، دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص 441؛ زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص 84.

(4) Guillian; (3) حاشية رقم Barbosa,The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 6.
Documents Sur L' Histoire,Tome Premier, P. 166.

(5) مروج، ج1، ص 108، ج2، ص 8. يُنظر أيضاً: المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 51؛ البيروني، القانون المسعودي، حيدر أباد الهند ـ 1955، ج2، ص 547؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 337.

(6) المسعودي، مروج، ج1، ص 108، ج2، ص 8؛ البيروني، القانون المسعودي، ج2، ص 538.

(7) المسعودي، مروج، ج1، ص 108.

(8) المسعودي، مروج، ج1، ص 108. مراجعة: طرخان، إبراهيم علي، الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مجلة المنهل، السنة 37، م 32، جدة ـ 1972، ج12، ص 1261.

(9) المسعودي، مروج، ج1، ص 107 - 108.

(10) الحموي، معجم، ج5، ص 88، وهي تقع الآن قرب بيرا Beira الحالية. يُنظر أيضاً: Johnston, The Opening up of Africa, London – 1921, P. 146

الزنج[1]، وهي تبعد عن كلوة مسيرة نصف شهر، وبينها وبين يوفي من بلاد الليميين التي يؤتى بالذهب منها مسيرة حوالي الشهر[2]، وتقع على خليج كبير[3]. وقد سكنها العرب المسلمون منذ زمن طويل بسبب التجارة النشطة التي كانوا يتبادلونها مع الأرض الأم، ونتيجة استقرار العرب المسلمين في هذه المنطقة واختلاطهم بسكانها الأصليين فقد نقلوا إليها معالم حضارتهم، وكان منها شيوع استخدام اللغة العربية فيها[4].

ويبدو أن ازدهار التجارة العربية الإسلامية مع سفالة يعود إلى أوائل القرن 4هـ/ 10م، وكان غرض التجار العرب الأول الحصول على الذهب، ومن ثم المتاجرة به. وكان السكان الوطنيون يستقبلون التجار العرب المسلمين القادمين إليهم مرحبين بهم قائلين: «مرحباً بأبناء اليمن»[5]، وهذا النص يدلنا على أن هذه التجارة كانت قائمة منذ وقت طويل، وأنها لم تتوقف أبداً، وأن عرب جنوب الجزيرة العربية ـ وخاصة اليمن ـ مارسوها، بحيث ترك وجودهم المستمر هذا انطباعاً قوياً وحسناً لدى سكان هذه المنطقة، بحيث أطلقوا هذه التسمية على كل القادمين الجدد من العرب والمسلمين.

سكنت سفالة مجموعة من المسلمين الذين هاجروا في أواخر القرن4هـ/ 10م، ويمكن اعتبار الفترة ما بين 510 - 520هـ/ 1116 - 1126م هي بداية تأسيس الحكم العربي الإسلامي في سفالة[6]. وقد شهدت المنطقة أوج ازدهارها في أثناء القرنين 7 - 8هـ/ 13 - 14 م، حيث اعتبرت «مركز الدفاع الأمامي لمدينة كلوة»[7]. وكان للعرب في سفالة رئيس يحكمهم، ولهم

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 337 . أما القرماني فيعتبرها واحدة من مدن الزنج، أبو العباس أحمد، أخبار الدول وآثار الأول، على هامش كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، القاهرة ـ 1290، ص 209. إلا أن البعض الآخر يفصلها عن بلاد الزنج تماماً، وآخرون يجعلونها مجرد ملحق لها. Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 22.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

(3) Barbosa,The Book of Durate Barbosa,Vol. 1, P. 6; Guillian, Documents Sur L' Histoire, P. 228.

(4) Barbosa, The Book of Durate Barbosa,Vol. 1, P. 6.

(5) الحميري، الروض المعطار، ص 74؛ Posnansky, Prelude To East African History, P. 111.

(6) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Tome Premier, P. 184.

(7) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص 84.

نفس العادات التي استخدمها بقية سكان الساحل وخاصة في مجموعة جزر زنجبار، كما تكلموا اللغة نفسها، وهي العربية[1].

وكما عرفنا فقد مدت كلوة سيطرتها على معظم مدن الساحل، ومن ضمنها سفالة التي كانت بالنسبة إليها عصب الحياة؛ حيث اعتمدت جل تجارتها على ذهب سفالة، والتي أغنت كلوة إلى حد بعيد، وجعلتها أثرى وأقوى مدينة عربية إسلامية في الشاطئ الإفريقي. بل إن كثيراً من سلاطنة كلوة احتكروا تجارة ذهب سفالة لأنفسهم[2]، حيث عقدوا اتفاقيات تجارية مع سفالة تمكنهم من احتكار تجارتها، ومن ضمنها الذهب، مقابل عدد من الشباب العربي المسلم الذين يذهبون للاستقرار هناك، حيث يقومون بإنشاء وكالات تجارية رسمية للعمل فيها[3]، وبذلك أُلغيت الاتفاقية التي كان يُعمل بها بين مقادشو وسفالة، وبهذه الوسيلة سيطرت كلوة على هذه التجارة المهمة. ومع مرور الوقت أصبح ملوك كلوة يرسلون نواباً عنهم إلى سفالة للعمل في الوكالات التجارية التي أنشؤوها هناك[4].

ويعتقد أن تاريخ خضوع سفالة لكلوة كان منذ بداية القرن 6هـ/ 12م[5]؛ ففي عام 535هـ/ 1140م كان ممثل سلطان كلوة في سفالة داود بن السلطان سليمان، والذي استدعي إلى كلوة، حيث نصب سلطاناً خلفاً لوالده. وبتولي محمد كواب منصب الإمارة في كلوة في منتصف القرن 9هـ/ 15م عين أحد أبناء أخيه المدعو يوسف حاكماً على سفالة، إلا أن هذا نصب نفسه سلطاناً عليها،مستغلاً الصراع القوي الذي شهدته كلوة في هذه الفترة، ورافضاً بذلك الخضوع لسيطرة عمِهِ سلطان كلوة[6].

ويبدو أن استقلال سفالة عن كلوة لم يكن استقلالاً كلياً، وإنما كان استقلالاً ذاتياً فقط،

---

(1) Freeman- Grenville, The East African Coast, P. 130.
(2) Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 10.
(3) Ibid, Part. 1, P. 9.
(4) Gray, Ahistory of Kilwa, Part. 1, P. 9.
(5) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 134.
(6) Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, PP. 10 – 15.

بدليل أن البرتغاليين عندما وصلوا إلى الساحل في أواخر القرن 9هـ/ 15م كانت سفالة لا تزال تحت حكم سلطان كلوة، وعندما وصل القائد بيرودي أنهايا Pero De Anhaya إلى الساحل أواخر هذا القرن كان حاكم سفالة هو يوسف المذكور سابقاً[1].

عاش العرب المسلمون ـ كما عرفنا ـ في وسط المجتمع الزنجي هذا، ناقلين إليه دينهم ولغتهم وحضارتهم، وأبقوا في الوقت نفسه على بعض العادات والتقاليد الزنجية التي كانت سائدة، والتي لم تتعارض مع مبادئ الإسلام. فقد كان للزنوج في سفالة على الأقل مجتمع منظم، ربما انتقلت تأثيراته شمالاً أيضاً. فقد كانوا يقومون باختيار ملوكهم[2]، على اعتبار وصف سفالة بأنها عرش ملك الزنج[3]، وذلك لأن الزنوج اتخذوها «دار مملكة، وملّكوا عليهم ملكاً سَمّوه (وقليمي)، وهي سمة لسائر ملوكهم في الأمصار»[4]. وقد تميز مجتمعهم بنزعة دينية محافظة[5]، حيث كان لهم خطباء زهاد يخطبون فيهم، ويذكرونهم بخالقهم، ويحثونهم على طاعته، ويرهبونهم من عقابه وعذابه[6]. وكانت لهم جيوشهم المدربة، حيث يقاتلون على البقر؛ لأن الخيول لا تعيش عندهم[7]، وكانوا يلبسون جلود النمور[8]؛ بسبب كثرة وجود الحيوانات الوحشية عندهم، وكذلك المعادن الثمينة كالذهب والحديد[9]. وبمجيء البرتغاليين كان مجتمع سفالة مسلماً، يتكلم اللغة العربية، وكذلك حاكمها[10].

---

(1) Ibid, Part. 1, P. 15.

(2) المسعودي، مروج، ج2، ص 6؛ Zamani, Asurvey of East African History, P. 107

(3) المسعودي، مروج، ح2، ص 6؛ Brady, Commerce And Conquest In East Africa, P. 25

(4) المسعودي، مروج، ح2، ص 6. ووقليمي: تعني ابن الرب الكبير الذي اختاره كي يحكم بين الناس بالعدل، فإذا جار وظلم قتلوه، وحرموا أولاده ونسله المُلك، على اعتبار أنه لم يعد ابن الرب ملك السموات والأرض. المسعودي، مروج، ج2، ص 16 ـ 17.

(5) المسعودي، مروج، ح2، ص 17؛ Zamani, Asurvey of East African History, P. 107.

(6) المسعودي، مروج، ح2، ص 17.

(7) المسعودي، مروج، ح2، ص 6، ص 15؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 157.

(8) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 157.

(9) المسعودي، مروج، ج2، ص 6؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 157؛ Brady, Commerce And Conquest In East Africa, P. 25.

(10) المهري، من سلسلة العلوم البحرية، مصنفات سليمان المهري، ج3، ص 582.

وتعتبر مدينة البايس آخر مدن الزنج التي تتصل بها أرض سفالة[1]، فمنها تبتدئ مدن وقرى سفالة. وأولها: خطمه أو جنطمة؛ دندمه[2]؛ بتهنة أو بتينة[3]؛ صيونة التي تُعتبر قاعدة سفالة[4]؛ بوخة؛ ليرانة؛ جسطة[5]؛ وتعتبر مدينة دغوطة أخر مدن سفالة[6]. ويُستنتج من كلام المهري أن آخر مركز مسلم في البر الإفريقي هي جزيرة وازة[7]، وأن أقصى مكان وصل إليه العرب هو رأس كرنت[8] الذي يشتهر بأمواجه وعواصفه الخطرة[9].

وتتصل بأرض سفالة أرض الواق واق[10]، وتصورات الجغرافيين العرب والمسلمين عنها غير واضحة، ويعتقدون أنها تضم عدة مدن[11]، وأهلها سودان، ولا تخرج منهم أيّ مواد تجارية[12]، ولا «يُعرف ما بعدها»[13]. وعلى العموم فالجغرافيون العرب يُسمون سفالة عادة بسفالة الزنج، أو سفالة الذهب، أو سفالة التبر[14]، لتمييزها عن سفالة الهند، وهي ميناء سورباركا القديم القريب من مدينة بومباي الهندية[15].

وفي نصٍ جميل يروي الرامهرمزي أن أحد ملوك الزنج ـ لم يحدده ـ توجه إلى بغداد والبصرة للدراسة على يد علمائها والتفقه بأمور الدين، ثم توجه بعدها للحج، وعاد أخيراً إلى موطنه

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ الحميري، الروض المعطار، ص 74. وتُلفظ أحياناً باسم البانس.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق ص 34؛ Devic, Le Pays Des Zendjs, PP. 82 – 83

(3) الإدريسي، نزهة المشتاق ص 34؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص 83؛ ابن سعيد، بسط الأرض، ص 15.

(4) الإدريسي، نزهة المشتاق ص 34؛ Devic, Le Pays Des Zendjs, PP. 83 – 84

(5) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 152؛ Ibid, PP. 83 – 84

(6) ابن سعيد، عجائب الأقاليم السبعة، ص 7؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 152؛ الحميري، الروض المعطار، ص 244؛ فران، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سفالة، ص 443. بينما يذكر المهري أن مدينة سرتوة هي آخر سفالة. العمدة المهرية، ص 37. يُراجع Devic, Le Pays Des Zendjs, PP. 83 - 84.

(7) العمدة المهرية، ص 37؛ المهري، المنهاج الفاخر، ص 58.

(8) رأس كرنت: يقع حالياً جنوب رأس سباستيان على طريق الهند. المهري، المنهاج الفاخر، ص 58.

(9) المهري، المنهاج الفاخر، ص 12 ـ 13.

(10) المسعودي، مروج، ج2، ص 6.

(11) يُنظر: الحموي، معجم، ص 602.

(12) الحميري، الروض المعطار، ص 602.

(13) الحميري، الروض المعطار، ص 602.

(14) Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 87.

(15) فران، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سفالة، ص 441.

جاعلاً مهمته هداية قومه للدين الحق[1].

نلاحظ من ناحية أخرى قيام صلات صداقة بين بعض سلاطين الساحل وبعض حكام عدن، كتلك التي قامت بين الملك مسعود بن الملك مؤيد الغساني سلطان عدن، وبين سلطان كلوة ـ المشار إليه سابقاً ـ سعيد مع أبيه بالحج، ثم توجها إلى عدن لفترة من الوقت. وعندما خُلع السلطان مسعود من عرش عدن توجه إلى كلوة، حيث استقبله السلطان سعيد أحسن استقبال، وأكرمه غاية الإكرام[2].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن العديد من شرفاء الحجاز والعراق توجهوا إلى مدن الساحل الإفريقي الشرقي، ولاسيما إلى كلوة ومقادشو ـ لزيارة حكامها ـ الذين اهتموا بالجهود ضد كفار الزنوج، حيث كانوا يستحصلون خمس الغنائم ليصرفوها في أوجهها التي حددها الله تعالى في كتابه الكريم، جاعلين نصيب ذي القربى على حدة، فإذا جاءهم الشرفاء دفعوه إليهم[3].

وباتجاه الداخل وراء سفالة تقع مملكة بيناميتابا Benametapa العظيمة الوثنية التي سماها العرب بلاد الكفرة[4]، إضافة إلى ممالك لوبا Luba، وموينى موتابا Mwene Mutapa، وجانغاماير Changamire التي شكلت سفالة المدخل التجاري الحيوي منها وإليها، حيث زودتها ـ عن طريق التجار العرب المسلمين ـ بالبضائع التي تطلبها مقابل الحصول على المعادن الثمينة، كالذهب والنحاس إضافة إلى العاج[5]، لتوافر مناجم الذهب بها[6]. وبوصول البرتغاليين إلى الساحل أخضعوها لسيطرتهم، كما فعلوا مع بقية المدن[7].

---

(1) عجائب الهند، ص 50 ـ 60.

(2) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 12؛ Strong, The History of Kilwa, PP. 420 - 421

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 199 ـ 200.

(4) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200؛ Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, PP. 9 – 10.

(5) Murphy, History of African Civilization, PP. 227 – 228.

(6) Guillian, Documents Sur L' Histoire, PP. 116, 228.

(7) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 6.

9ـ العلاقات المدنية بين مدن الساحل والدولة العربية الإسلامية:

مع أن مصادرنا لم تسعفنا إلا بالنادر جداً من المعلومات حول هذا الموضوع، إلا أن دراستها وتحليلها تشير إلى أن سلاطين وشيوخ الساحل اهتموا بإقامة علاقات ودية وإدامتها مع عموم شبه الجزيرة العربية، وتحديداً بلاد الحجاز؛ مكة والمدينة، إضافة إلى اليمن وعمان والعراق ومصر.

فالعديد من سلاطين كلوة ـ مثلاً ـ قصدوا بلاد الحجاز للحج أو للتفقه في أمور الدين الحنيف، أو لكلا الأمرين معاً؛ فقد توجه الأمير أبو المواهب الحسن بن السلطان سليمان حاكم كلوة إلى عدن أولاً للتتلمذ على يد علمائها في العلوم الدينية، ثم توجه إلى مكة والمدينة للحج، وقد وُصف بأنه كان عالماً فاضلاً[1]، أما شقيقه الحسن فقد حج واعتمر أكثر من مرة[2].

(1) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9.

(2) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9؛ Gray, A history of Kilwa, P. 1, P. 13

الفصل الثالث

التبادل التجاري بين العرب وساحل إفريقية الشرقي

أولاً ـ الصلات التجارية

1 ـ الصلات التجارية قبل الإسلام:

عرفت السواحل الإفريقية الشرقية حركة تجارية قديمة ونشطة جداً، كان روادها العرب عموماً، ولاسيما من الجزيرة العربية. فقد تمكنوا من الإبحار بأمان في رحلتي الذهاب والإياب حاملين معهم مواد تجارية رغب بها أهالي الساحل مقابل مواد ثمينة عدة متوافرة هناك، كالذهب والعاج والحديد وغيرها.

وقد ساعدهم في رحلاتهم هذه عدة أمور، أولها: قرب الساحل الإفريقي منهم، على اعتبار أن المسافة المائية الضيقة نسبياً التي تفصل شواطئ جنوب الجزيرة العربية عن الساحل الإفريقي شجعتهم على الإبحار. ثانياً: معرفتهم الممتازة بمنطقة الشرق الإفريقي والمتأتية من كونهم أقدم الأقوام التي وفدت إلى الساحل للتجارة حيناً أو الاستقرار حيناً آخر، أو لكلا الأمرين، إضافة إلى العلاقة الودية المتينة التي ربطتهم مع الأهالي[1]. ثالثاً: معلوماتهم الجيدة بالفلك والأنواء التي مكنتهم من قيادة سفنهم بأمان في رحلاتهم. رابعاً: معرفة العرب بظاهرة الرياح الموسمية التي تتميز بها منطقة المحيط الهندي حيث جعلتهم ينظمون رحلاتهم البحرية وفق مواسم هبوبها؛ فسنوياً تبدأ هذه الرياح بالهبوب من الشمال والشمال الشرقي من شهر تشرين الثاني حتى نهاية شهر آذار، لينعكس اتجاه هبوبها مع مطلع شهر نيسان؛ إذ تهب من الجنوب والجنوب الغربي.

ووفق هذا السياق أخذ العرب ينطلقون بسفنهم التجارية من جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي شتاءً، حيث تدفعهم هذه الرياح باتجاه الساحل الإفريقي مباشرة. وفي موسم

---

(1) يُنظر: قاسم، دولة بوسعيد في عمان، ص 12؛ دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص 276؛ Zamani, Asurvey of East African History, P. 105; Murphy, History of African Civilization, PP. 223 – 227.

الربيع وبعد أن ينهوا أعمالهم التجارية يستعدون لرحلة العودة إلى أوطانهم بمساعدتها أيضاً[1].
ويؤكد الجاحظ هذا الأمر بقوله إن «بحر الزنج[2] حفرة واحدة عميقة واسعة، وأمواجها عظام، ولذلك البحر ريح تهب من عمان إلى جهة الزنج شهرين، وريح تهب من بلاد الزنج تريد جهة عمان شهرين، على مقدار واحد فيما بين الشدة واللين، إلا أنها إلى الشدة أقرب»[3].

ووفق هذه الأسباب مجتمعة امتلك العرب ناصية هذه التجارة منذ القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، بل استطاعوا فرض سلطانهم السياسي على جزء من الساحل الذي خضع لزعيم المعافر من حمير[4]. وبمرور الوقت استطاعوا أن يمدوا نفوذهم التجاري إلى أقصى الساحل؛ أي إلى سفالة، ومن ثم إلى معظم مناطق المحيط الهندي.

إن هذا النفوذ التجاري العربي في المحيط الهندي جعلهم الوسيط التجاري في نقل منتجات الساحل والشرق عموماً إلى الأسواق العالمية التي كانت تطلبها وبالعكس[5]. وقد مكنهم من القيام بهذا الدور موقع بلادهم الجغرافي المهم المتحكم بطرق التجارة العالمية الحيوية، البحرية والبرية على حد سواء، التي كانت تمر بها، ابتداءً من الصين والهند وسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، حتى تصل شمالاً إلى البحر المتوسط، ومنها إلى الموانئ الأوروبية[6]. كما أنهم استطاعوا ربط مصادر الإنتاج والمواد الأولية وتجارتها في شرق إفريقية بالشرق الأقصى[7].

وأخيراً لا بد من التنويه بأهم المواد التي رغب بها الأهالي ووفرها لهم العرب كالزجاج

---

(1) قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية، ص 12؛ Zamani, Asurvey of East African History, P. 15 – 16, Coupland, East Africa, P. 12; Hollingsworth, A short History, P. 15; Trimingham, Islam In East Africa, P. 2.

(2) بحر الزنج: هو كما أشرنا الجانب الغربي من المحيط الهندي المجاور لبلاد الزنج، مراجعة: الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 262، هامش رقم (2)؛ المقريزي، الخطط، ج1، ص 90.

(3) الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 262.

(4) Posnansky, Prelude to East African History, P. 100.

(5) با فقيه، تاريخ اليمن القديم، ص 122؛ حراز، إفريقية الشرقية، ص 2.

(6) حراز، إفريقية الشرقية، ص 2؛ Hollingsworth, A short History, P. 14

(7) حراز، إفريقية الشرقية، ص 3.

والفؤوس القصيرة والخناجر والمثاقب وأنواع مختلفة من الزجاج[1]، وأهمها عندهم الملح والتمر[2].

2 ـ الصلات التجارية في العصور الإسلامية:

ظهر الإسلام كما نعلم في مجتمع مكة التي اهتم أهلها بالتجارة إلى حد كبير، حيث شكلت عصب الحياة عندهم، فقد مارسها الرسول الكريم نفسه الذي كان يخرج إلى الشام للتجارة[3]، كما كان لنسائهم نصيب فيها، إذ كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها[4]. بل إنهم نظموا رحلاتهم التجارية هذه في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، في قوافل منظمة، لها طرقها ومنازلها المعلومة.

وبسبب ظهور الإسلام في مجتمع حضاري تجاري عرف أهله مختلف أنواع المواد الحضارية واستخدموها، فقد شجع التجارة، وشرع لها فقهه الكثير من القوانين التي تنظمها. ومن هنا اندفع التجار العرب المسلمون في عملهم، وزادوا فيه، فوسعوا من نطاق اتصالاتهم التجارية مع مختلف المناطق، وعرفوا مواد جديدة ساهمت في زيادة ترفهم ورخائهم. وقد ازداد اهتمامهم بمواطن المواد التي يتعاملون بها، وخاصة منطقة الساحل الإفريقي الشرقي، حيث اهتموا بتنشيط مراكزهم التجارية على طول الساحل، وبخاصة بعد النشاط الذي شهدته الحركة التجارية في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية إثر قيام الخلافة العباسية في 132هـ/ 749م.

وبنتيجة نشاط التعامل التجاري مع الساحل الإفريقي الشرقي، فقد ازدهرت المراكز العربية المنتشرة على طول الشاطئ الإفريقي، ككلوة وومومباسا ولامو وزنجبار وموزمبيق، بل إن سيادة العرب وصلت في حوالي القرن 7هـ/ 13م إلى حدود نهر الزامبيزي Zambizi

---

(1) Posnansky, Prelude To East African History, P. 109 – 110.

(2) Ibid, P. 106.

(3) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، سيرة النبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ـ 1937، ج1، ص 194.

(4) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، سيرة النبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ـ 1937، ج1، ص203؛ الطبري تاريخ، ج2، ص 34.

ومدنه التي استقر فيها عدد كبير من العرب المسلمين، وخاصة في سينا sena، وتيتي Tete[1] حيث مكنتهم من إقامة صلات تجارية جيدة مع مملكة مونوموتابا في الداخل[2]. وباستثناء هذا الوجود العربي الإسلامي في منطقة نهر الزامبيري لم يكن هناك تغلغل إسلامي كبير ومهم نحو الداخل، ولابد من أن التجارة في الأماكن الأخرى كانت تتم مع السكان الذين تأتيهم المواد من الداخل عبر القرى العديدة[3].

3 ـ التنظيم التجاري:

من البديهي أن يعمد العرب والمسلمون إلى تنظيم عملهم التجاري في الساحل، ولاسيما أن العديد من المواد الأولية الثمينة كانت تجلب من المناطق الداخلية، ثم تُنقل إلى مدن الساحل حيث تتم مقايضتها بالمواد التجارية التي رغب بها الأهلون، كالسكاكين والخناجر والرماح والفؤوس والأقمشة والخرز الملون[4]. إلا أن الفخار اعتبر المادة الأكثر أهمية في قائمة المواد المطلوبة من قبل الأهلين، حيث كان يجلب من زبيد باليمن والعراق وسيراف[5]، ليستخدم في تبريد الماء[6]. يليه في الأهمية الأواني الزجاجية المصنّعة بمصر[7] وسامراء واليمن وبلاد الشام[8]، إضافة إلى الخزف الصيني[9].

أما عن النظم التجارية التي عُرفت في الساحل فيأتي في مقدمتها نظام المقايضة الذي كان

(1) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 208.

(2) ومونوموتابا هي روديسيا الحالية. السامر، ثورة الزنج، ص22؛ Jehnston, Opening Up of Africa, P. 146.

(3) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 214.

(4) Schoff, The Periplus of The Erythrean sea, P. 28; Zamani, Asurvey of East African History, P. 106, 109; Posnansky, Prelude To East African History, P. 107; Brady, Commerce And Conquest, P. 24.
يُنظر أيضاً: الحميري، الروض المعطار، ص 74.

(5) يُنظر: The Cambridge History of Africa, Vol. 1, P. 3; Kirkman, The Arab City of Gedi, P. 35 – 96.

(6) Chittick, The shirazi Colonization, P. 284.

(7) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 199; Kirkman, The Arab City of Gede, P. 151.

(8) Kirkman, The Arab City of Gede, P. 151.

(9) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 121.

شائع الاستخدام في مختلف مناطق الساحل[1]، والذي كان محدداً بنظم متعارف عليها بين العرب والمسلمين وبين الأهلين[2]. كما عُرفت الأنظمة الضريبية في مختلف مدنه، والتي تفيد في تنظيم تجارته، وترفد خزائن مدنه بمورد مالي كبير تصرفه في النواحي العسكرية والإدارية والعمرانية ودفع رواتب الموظفين لديها[3].

هذه الضرائب فُرضت على كل أنواع البضائع المصدرة والمستوردة، واتسمت بكونها باهضة، ولاسيما في بعض المدن التي فرضت سيطرتها على معظم مناطق الساحل، ككلوة مثلاً[4]. يأتي في مقدمتها تلك المفروضة على الذهب المنقول من سفالة، والتي قد تصل إلى 10% منه[5].

أما العاج فكانت ضريبته تصل أحياناً إلى 14% من قيمته[6]، وكانت ضريبة الأقمشة المستوردة للساحل عالية جداً، إذ يتوجب على التاجر دفع 60% من قيمتها، كما أن عليه دفع 3% كرسم استيراد، إضافة إلى استحصال ضريبة المكوس عند دخول أي بضاعة[7].

ومن الطبيعي أن هذه الموارد ساهمت إلى حد كبير في إغناء مدن الساحل، فظهر واضحاً في حالة الترف والبذخ التي عاشتها، والتي شهدها البرتغاليون عندما وصلوا إلى الساحل أواخر القرن 9هـ/ 15م، ولاسيما في كلوة ومقادشو. والحال نفسه انعكس على بعض مدن جنوب الجزيرة والخليج العربي، كعدن[8] وعمان[9] اللتين تفردتا بمثل هذه الخصوصية التجارية،

---

(1) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 214; Zamani, Asurvey of East African History, P. 109.

(2) البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص 239. مراجعة: الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 149.

(3) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 112.

(4) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 214.

(5) Ibid, Vol. 3, P. 214; Coupland, East Africa, P. 27.

(6) Coupland, East Africa, P. 27.

(7) Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(8) لمزيد من التفاصيل عن حالة عدن المزدهرة آنذاك يُنظر: المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم، ص 35، 58؛ ابن خرداذبه، المسالك، ص 61؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 53؛ القزويني، آثار البلاد، ص 101؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 194؛ الإصطخري، الأقاليم، ص 14؛ ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 20؛ المهري، من سلسلة العلوم البحرية، ج3، ص 55؛ شيخ الربوة، عجايب البر، ص 216؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 11.

(9) لمزيد من التفاصيل عن أوضاع عمان المزدهرة مراجعة: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 44؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 99؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 55؛ ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 78؛ العاني، عمان، =

إضافة إلى كل من سيراف[1]، وجدة[2]، وبغداد[3].

ومن الطريف هنا الإشارة إلى وصف السفن العربية التي كانت تمخر عباب مياه المحيط الهندي مابين الصين والهند وجزر جنوب شرق آسيا وساحل إفريقية الشرقي وجنوب الجزيرة والخليج العربي[4]، والمسماة الضوء[5]، والتي من أبرز سماتها هي طريقة بناء ألواحها الخشبية؛ ذلك أن طريقة بناء العرب لسفن المحيط الهندي مختلفة عن طريقة صنع سفن البحر المتوسط[6]؛ ففي المحيط الهندي استعملوا ـ ومنذ القديم ـ السفن المخيطة[7]، حيث يصنعون الحبال من ليف جوز النارجيل لاستخدامها في خياطة ألواح السفينة. ومرد ذلك يعود إلى كثرة الصخور والشعاب المرجانية في المحيط الهندي، فإذا كانت السفينة مسمرة واصطدمت بهما فإنها تنكسر، أما إذا كانت مخيطة فتتسم بالليونة التي تحول دون انكسارها في حالة الاصطدام[8]. ويعزو المسعودي سبب الخياطة هذا إلى أن الحديد لا يثبت بالمركب؛ لأن ماء البحر يذيبه، فتضعف مسامير الحديد وترق، لذا عمدوا إلى خياطة ألواحها بالليف، ثم يطلونها بالشحوم والنورة[9]. ويعتبر الزيت المستخرج من سمكة القرش هو الأفضل، والهدف من ذلك أن يلين الخشب ويرطب[10].

وأخيراً لا بد من التطرق إلى طبيعة الطريق البحري الموصل إلى الساحل الإفريقي الشرقي،

= ص 147؛ السالمي، عمان، ص 69؛ زلوم، عمان، ص 76؛ Posnansky, Prelude To East African History, P. 112.

(1) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 327؛ حوراني، العرب والملاحة، ص 207.

(2) هارتمان، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: جدة، ج6، ص 309.

(3) شيخ الربوة، عجايب البر، ص 93.

(4) Ommanncy, Lsle of Cloves, PP. 47 – 49.

(5) الضوء Dhow: هو المركب ذو الشراع الواحد المثلث الشكل الذي يعمل في المحيط الهندي. حراز، إفريقية الشرقية، ص 1. إن لفظتي: ضوء Dhow وSaw هما مصطلحان عربيان يطلقان على السفن إلى ما قبل مجيء البرتغاليين. يُنظر: Yajima, The Arab Dhow Trade, P. 11. لكن ابن بطوطة يرى أن الكلمة مشتقة من الصينية. الرحلة، ج2، ص 187. أما باللغة السواحلية فهي: دُو Daw، حوراني، العرب والملاحة، ص 243؛ Ommanncy, Lsle of Cloves, P. 47

(6) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 143.

(7) يُنظر: البيروني، تحديد نهايات الأماكن، ص 144؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 47، ابن بطوطة، الرحلة، ج2، ص 199؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 217; Schoff, The Periplus of The Erythrean Sea, P. 28.

(8) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 47؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج2، ص 199؛ الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 15؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 217.

(9) مروج الذهب، ج1، ص 163.

(10) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 47. يُنظر: أيضاً: ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص 117؛ Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 196; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 217.

حيث تميز العرب بمعرفة دقيقة لكل أقسامه، فقد وصفوا مياه المحيط الهندي المحاذية للساحل الإفريقي الشرقي بأن موجَه «عظيم كالجبال الشواهق، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، لا ينكسر موجه، ويزعمون أنه موج مجنون»[1]. وأن ليس في البحار أكثر هولاً من بحر الزنج[2]، لذا كانت لهم فيه مسالك محددة لا يتجاوزونها طلباً للسلامة؛ فالخارج من عدن إلى بلاد الزنج لا بد له من المرور بعمان ثم جزيرة سقطرى[3]، التي تماشيه «عن يمينه حتى تنقطع، ثم التوى بها من ناحية الزنج»[4]. ولمزيد من الحذر وتوخي السلامة كانوا ينظمون رحلاتهم على شكل قوافل قد يصل عددها إلى ست عشرة سفينة[5]، لذا تطلبت هذه الرحلات ربابنة وبحارة مهرة اشتهر منهم ازدعمان[6]، والسيرافيين[7]. إضافة للطرق البحرية التي ربطت الساحل الإفريقي الشرقي بمختلف مناطق المحيط الهندي فقد كانت هناك طرق برية ربطته بالمناطق الداخلية ذات المواد الثمينة، كالطريق الذي ربط كلوة بشعب زيوا ziwa الذين سكنوا المنطقة الواقعة شرق دولة جنوب إفريقية الحالية، ويبدو أن هذا الطريق كان يخترق نهر الزامبيزي Zambizi في تيتي Tete، ويستمر حتى مناطق إنتاج الذهب في بنهالونجا Penhalonga. والطريق البري الذي يربط كلوة أيضاً ببحيرة نياسا Nyasa في الداخل[8]، إضافة إلى الطريق الذي ربط مقادشو وساحل بنادر عموماً مع شعب الغالا Gala الوثني الذين سكنوا المناطق الواقعة جنوب كلوة[9]. والملاحَظ أن كلوة عُدت أكبر سوق تجاري في كل الساحل، إضافة إلى كونها تقع في نهاية طريق القوافل من الداخل وإلى الساحل[10].

---

(1) المسعودي، مروج، ج1، ص 107.

(2) المسعودي، مروج، ج1، ص 107. مراجعة: الرامهرمزي، عجايب الهند، ص 113 ـ 114؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 5.

(3) سقطرى: جزيرة كبيرة، تناوح عدن، وهي أقرب إلى بر العرب منها إلى بر الهند، ولا بد للمتوجه إلى بلاد الزنج من المرور بها، يجلب منها الصبر السقطري. ياقوت الحموي، معجم، ج5، ص 93.

(4) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 52.

(5) الرامهرمزي، عجايب الهند، ص 60؛ العاني، عمان، ص 134.

(6) الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 313.

(7) المسعودي، مروج، ج1، ص 107 ـ 108.

(8) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 117.

(9) Oliver and Fage, A short History of Africa, P. 101; Zamani, Asurvey of East African History, P. 112.

(10) دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص 302.

ثانياً ـ مواد التجارة:

عُرف الساحل الإفريقي الشرقي بتوافر العديد من المواد الأولية الثمينة التي طلبها العالم المتمدن منذ ذلك الوقت عن طريق التجار العرب المسلمين الذين نقلوها من الساحل ثم أعادوا تصديرها، يأتي في مقدمتها:

1 ـ الذهب:

وجد الذهب بكثرة في الشرق الإفريقي[1]، حيث سميت بلاد الزنج بـ «أرض الذهب»[2]، وخاصة في سفالة[3]، التي يعتبر ذهبها المحمر اللون[4] من أجود أنواع الذهب[5]. ولا يُحتاج في تنقيته إلى إضافة أية مادة، إذ يكفي تسبيكه على نار هادئة حتى يصبح مسبوكاً نقياً[6]، وهو لذلك معروف عند التجار[7] العرب والمسلمين، لا يبدلونه بسواه[8].

ومع أن الروايات تؤكد وجود مناجم الذهب في سفالة[9] إلا أن ابن بطوطة يشير إلى أن هذه المناجم تقع في منطقة «يوفي من بلاد الليميين التي تبعد عن سفالة مسيرة شهر»[10]. وسواء

---

(1) نقولا، الجغرافية، ص 89.

(2) البيروني، في تحقيق ما للهند، ص 432؛ الأدريسي، نزهة المشتاق، ص 34؛ ابن سعيد، عجائب الأقاليم، ص 6؛ الرامهرمزي، عجايب الهند، ص 65؛ القزويني، آثار البلاد، ص 23؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 49؛ الباكوي، تلخيص الآثار، ص 20؛ ابن ماجد، الفوائد، ص 273.

(3) البيروني، في تحقيق ما للهند، ص 432. مراجعة: القزويني، آثار البلاد، ص 44؛ الحميري، الروض المعطار، ص 243؛ Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 85.

(4) البيروني، الجماهر، ص 232 وص 239. مراجعة: ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 50.

(5) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 34؛ الحميري، الروض المعطار، ص 243؛ القزويني، آثار البلاد، ص 44.

(6) الحميري، الروض المعطار، ص 243.

(7) الباكوي، تلخيص الآثار، ص 25.

(8) الباكوي، تلخيص الآثار، ص 25.

(9) مراجعة: البيروني، في تحقيق ما للهند؛ القزويني، آثار البلاد؛ الحميري، الروض المعطار؛ البيروني، الجماهر؛ ابن الوردي، خريدة العجائب؛ الإدريسي، نزهة المشتاق؛ Devic, Le Pays Des Zendjs.

(10) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200. وفي رواية أخرى أن هذه المناجم تقع في منكّة الواقعة غرب سفالة، وأخرى تقع بمنطقة تورا ومملكة بقوا. فران، مادة سفالة، دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص 446. لكن Barbosa يذكر أن مناجمه توجد في مملكة بيناميتابا Benametapa الواقعة وراء سفالة مباشرة باتجاه الداخل The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 10 – 11 دافدسن، إفريقية، ص 319 ـ 320.

أكانت هذه المناجم تقع هنا أو هناك، إلا أن الثابت أن سفالة هي المنطقة التي يتم تجميع الذهب بها، وإليها يقصد التجار لمقايضته بمواد أخرى[1]. وقد قُدر الذهب المصدر من سفالة سنوياً في الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين بخمسة آلاف كيلو غرام من الذهب[2].

إن سيطرة العرب المسلمين على تجارة ذهب الساحل كانت لها نتائجها الإيجابية المتماشية مع سياسة الدولة العربية الإسلامية في شتى عصورها التي سيطرت على مناجم الذهب في قارة آسيا؛ في القوقاز وآرمينيا وآسيا الوسطى والهند التي يصل إليها ذهب هضبة الدكن وجبال التبت، وعلى مناجم الذهب في إفريقية الشرقية أيضاً، وعلى ذهب النوبة جنوب مصر وشمال السودان. وخلال الفترة من القرن 2 ـ 5هـ/ 8 ـ 11م فرضت الدولة العربية الإسلامية سيطرتها الاقتصادية شرقاً وغرباً، «وترجع هذه السيادة على وجه الخصوص إلى امتلاك الذهب، وإلى قيمة النقود الإسلامية التي اعترف بها العالم أجمع»[3].

2 ـ الحديد:

وهو من المعادن المطلوبة التي اشتهرت به المنطقة الشرقية من إفريقية، حيث وُجد في جميع بلاد الزنج[4]، ولاسيما في سفالة التي وجد في جبالها بكثرة. وهو مطلب الهنود على الرغم من وجوده عندهم؛ لأن حديد سفالة أجود[5]، فيصنعونه فولاذاً قاطعاً[6]. وفي العصور الوسطى جلب إلى دمشق، وصُنعت منه السيوف القاطعة التي استُعملت في مقاومة الصليبيين عند غزوهم لدمشق. والمعتقد «أن خير أسلحة المقاتلين المسلمين على ذلك العهد وأقوى دروعهم كانت مما عدّن العمال من حديد في الجنوب الشرقي من إفريقية، وصنع الصناع في الجنوب

(1) Trimingham, The Arab Geographers, P. 120.

(2) وفي تقديرات أخرى يُنظر: The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 215; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 113, 135.

(3) إسكندر، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص 51 ـ ص 61.

(4) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ الحميري، الروض المعطار، ص 74.

(5) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 34؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 49 ـ ص 50؛ الحميري، الروض المعطار، ص 243.

(6) ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 50.

الغربي من الهند»[1].

إضافة إلى سفالة فقد شكل الحديد عماد تجارة ماليندي، ومنه جلّ مكسبهم[2]، واشتهر أهل مومباسا بحذقهم في استخراجه[3]، وكذلك ماندا القريبة من كلوة[4]. وتدريجياً أصبحت صناعة تعدين الحديد من الصناعات المهمة في الساحل، وتحديداً في كلوة وماندا[5] وماليندي[6]. وقد سيطر التجار العرب والمسلمون على تجارة الحديد ـ سواء كان مادة خاماً أو مصّنعاً ـ وباعوه بأسعار عالية، محققين هامش ربح كبير انعكست آثاره على الطرفين[7].

3 ـ النحاس:

وكما وُجد الذهب والحديد في الشرق الإفريقي، كذلك كان هناك النحاس الذي وُصف بأنه في غاية الجودة[8]، واشتهر أهل الساحل بصناعة القوارير النحاسية الجميلة التي استُخدمت لحفظ العطور[9]. وقد سيطر العرب والمسلمون على تجارته، ثم أعادوا تصديره، حيث تهافت الفرنج والبرتغاليون فيما بعد للحصول عليه[10].

اشتهرت سفالة بوجود النحاس، وكانت تصدر منه كميات كبيرة سنوياً[11] قدرت حوالي نهاية القرن 9هـ/ 15م بـ 2000 باون من النحاس[12]. كما وجدت مناجم النحاس في

(1) دافدسن، إفريقية، ص 232 ـ ص 233؛ Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 82
(2) الحميري، الروض المعطار، ص 544؛ Ibid, P. 82.
(3) الحميري، الروض المعطار، ص 552؛ دافدسن، إفريقية، ص 231.
(4) The Cambridge History of East Africa, Vol. 3, P. 215.
(5) Zamani, Asurvey of East African History, P. 109.
(6) الحميري، الروض المعطار، ص 544؛ دافدسن، إفريقية، ص 231.
(7) يُنظر: Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 82.
(8) البيروني، الجماهر، ص 264؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 34؛ ابن ماجد، ثلاث ازهار، ص 118.
(9) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 9.
(10) ابن ماجد، ثلاث ازهار، ص 118.
(11) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 215.
(12) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 113.

كتانغا Katanga[1]، وبواسطة الطريق البري الذي يربطها بكلوة[2] صدّرت نحاسها إليها، ومن كلوة كان التجار العرب يعيدون تصديره إلى الخارج[3].

4ـ العاج:

اعتُبرت إفريقية الشرقية المصدر الرئيس للعاج الذي كان الطلب عليه كبيراً من قبل العديد من الدول المتمدنة آنذاك، حيث أُستخدم، ولاسيما في البيوت الثرية لتزيين المناضد والكراسي وهياكل الأسّرة والأمشاط والتوابيت[4]. كان متوافراً فيها بكثرة[5] لأن الفيلة في الساحل كانت كثيرة جداً، والزنوج لا يستخدمونها في الحروب، أو للاستعمالات المحلية، أو للقيام بمختلف الأعمال النافعة كما في آسيا[6]، بل يقتلونها للحصول على أنيابها، ويعدوها للتصدير[7]، ويعتبر العاج المحمر اللون هو الأفضل[8].

كان معظم العاج يصدر إلى عمان[9]، ومنها يُعاد تصديره إلى الهند والصين، فيصنعون منه الأعمدة[10] وقوائم السيوف وأدوات الشطرنج والنرد[11]. وعلى الرغم من وجود الفيلة في الهند إلا أن أنيابها لا تنمو بشكل جيد كما في بلاد الزنج[12]، إضافة إلى رخاوته، وكبر حجمه، مما يجعله لا يصلح للأغراض الصناعية، لذلك طلبهُ الهنود[13].

(1) Oliver and Mathew, History Of East Africa, Vol. 1, P. 117; Oliver and Fage, Ashort History of Africa, P. 110.

(2) Oliver and Fage, A short History of Africa, P. 101.

(3) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 117.

(4) Hollingsworth, Ashort History of East Coast of Africa, P. 8.

(5) Ibid, P. 8; Coupland, East Africa, P. 20; March, A history of East Africa, P. 18.

(6) Hollingsworth, Ashort History, P. 8.

(7) المسعودي، مروج، ج2، ص 6؛ المسعودي، أخبار الزمان (منسوب)، ص 67؛ البكري، المسالك، ج2، ص 188؛ ابن وصيف، عجايب الدنيا، ج1، ص 43ـ44.

(8) متز، الحضارة الإسلامية، ج2، ص 326.

(9) المسعودي، مروج، ج2، ص 7؛ البكري، المسالك، ج2، ص 188.

(10) المسعودي، مروج، ج2، ص 7؛ البكري، المسالك، ج2، ص 188.

(11) المسعودي، مروج، ج2، ص 7.

(12) المسعودي، مروج، ج2، ص 11.

(13) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 199.

اشتهرت عدة مناطق في الساحل بتجميع العاج وتصديره، كمقادشو[1]، وماليندي[2]، وباتا الذي شكل العاج أحد المواد الرئيسية في تجارتها[3]، أما كلوة فكان يتجمع فيها كميات كبيرة من العاج الوارد إليها من عدة مناطق من الداخل[4]، إضافة إلى منطقة البحيرات العظمى[5]. وعُرفت مصر بأنها كانت أكبر مستورد لعاج زنجبار[6]، ووجدت في خزائنها أنياب فيلة[7] يزيد وزنها على 200 مَنّ[8]. ونستطيع أن نتصور كمية العاج الهائلة المتوافرة في سفالة سنوياً؛ إذ يُقتل بها ما بين 4 ـ 5 آلاف فيل[9]. لذا استطاع التجار العرب والمسلمون أن يجمعوا خزيناً كبيراً من العاج هناك معداً للتصدير إلى الخارج، ولاسيما إلى الهند[10].

5 ـ الرقيق:

بداية لا بد من التنويه هنا إلى أن الرق كان معروفاً عند الأفارقة، حيث كانوا يسترقون بعضهم منذ وقت مبكر من فجر التاريخ[11]، ففي حالة حدوث حرب يسترق المنتصر أسرى المهزوم، حيث ينقلونهم إلى الساحل لبيعهم إلى عملائهم من التجار[12]. إضافة إلى وسائل أخرى عديدة انتهجها التجار للحصول على الرقيق[13]، ثم بيعهم في أسواق الرقيق، والتي

(1) الباكوي، تلخيص الآثار، ص 29.

(2) المهري، من سلسلة العلوم البحرية، ج3، ص 576 ـ 577؛ Barabosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 22; Kirkman, The Arab city of Gedi, P. 95.

(3) Chittick, Anew Look At The History of Pata, P. 383.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 117.

(5) Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(6) Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 80.

(7) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 103.

(8) المَنّ: يساوي 406,25 غم. هنتس، المكاييل والأوزان، ص 46.

(9) فران، مادة: سفالة، دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص 446.

(10) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 8; Freeman-Grenville, The East African Coast, P. 127.

(11) بولم، الثقافة الإفريقية، ص 56؛ Coupland, East Africa, P. 34
وهذا الأمر أصبح مؤكداً بفعل نتائج الدراسات التي أُجريت في جامعات نيروبي ودار السلام ومكريري. يُنظر: غيدان، العرب في بلد السواحل الإفريقية، ص 66.

(12) بولم، الثقافة الإفريقية، ص 56؛ Lin - Hart, The Medicine Man, P. 8.

(13) ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ المسعودي، أخبار الزمان (منسوب)، ص 41؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 49؛ الحميري، الروض المعطار، ص 74؛ التطيلي، رحلة بنيامين، ص 170؛ الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص 26؛ =

ينشط العمل بها في فترة هبوب الرياح الموسمية، حيث يزداد إقبال التجار على الساحل. وأهم هذه الأسواق كانت في كلوة، التي اعتبرت الميناء الرئيسي لتصدير الرقيق الأسود، وزنجبار التي كانت تصل إليها أعداد كبيرة وبصورة مستمرة من الرقيق من المناطق الداخلية[1]. وفي القرن 8هـ/ 14م عُرفت مومباسا بأنها أكبر سوق للرقيق في الساحل[2]، إضافة إلى باتا ولامو وماندا[3].

ولم يكن جميعهم يُصدرون، بل إن نسبة كبيرة منهم كانت تُستبقى في الساحل لأغراض الخدمة المختلفة في مدنه، كما استُخدموا في الأعمال الزراعية، وآخرين في القوات المحلية لبعض مدن الساحل[4].

شهدت تجارة الرقيق نشاطاً كبيراً في العصور الإسلامية الوسيطة[5]، ساعد في ذلك الازدهار الاقتصادي الذي عرفته الدولة العربية الإسلامية آنذاك، وحاجتها المتزايدة إلى الأيدي العاملة الرخيصة، لذا كثر الطلب عليهم «لصبرهم على الخدمة وجَلَدِهم»[6]، ولاسيما في مصر وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي وشمال إفريقية[7]. كما شهدت حاضرة الخلافة العباسية بغداد طلباً عليهم، وعُرفت أسواق ودور خاصة بهم فيها[8]، ومحلة حملت اسم دار الرقيق[9] تقع على نهر دجلة[10].

= السامر، ثورة الزنج، ص 23.

(1) قاسم، دولة بوسعيد، ص245؛ مراجعة: ويدنر، تاريخ إفريقية، ص139؛ .Trimingham, The Arab Geographers, P. 131

(2) ثابت، جولة في ربوع العالم الإسلامي، ص 256؛ ويدنر، تاريخ إفريقية، ص 139.

(3) المهري، من سلسلة العلوم البحرية، ج3، ص 576؛ مراجعة: الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 25.

(4) Coupland, East Africa, P. 31.

(5) ابن ماجد، ثلاث ازهار، ص 101.

(6) الرامهرمزي، عجايب الهند، ص 175.

(7) السامر، ثورة الزنج، ص 23.

(8) اليعقوبي، البلدان، ص 248؛ الطبري، تاريخ، ح7، ص 51؛ الحموي، معجم، ح4، ص 223.

(9) اليعقوبي، البلدان، ص 245.

(10) الحموي، معجم، ح4، ص 274، ح5، ص 211. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يُنظر: اليعقوبي، البلدان، ص 360؛ ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص 44؛ متز، الحضارة الإسلامية، ح1، ص 284.

كانت استخداماتهم في المجتمع العربي الإسلامي عديدة؛ فمنهم من اشتغل في البيوت بمختلف الأعمال المنزلية، وقسم آخر برع في النواحي الأدبية والفنية كالغناء والموسيقى وإلقاء الشعر، وتوجّه آخرون لدراسة الحديث وروايته، كما أُستخدمت أعداد كبيرة منهم في الجيش، إضافة إلى العمل في الحقول والمزارع(1).

وسنمر الآن سريعاً على مواد آخرى وُجدت في الساحل الإفريقي الشرقي، وعُرفت بقيمتها العالية، وكان الطلب الخارجي عليها كبيراً، ووفرها لهم التجار العرب المسلمون، يأتي في مقدمتها:

6 ـ اللؤلؤ:

مع أن معلومات مصادرنا عنه قليلة، لكنها تشير إلى وجود مغاص(2) للؤلؤ الجيد(3) في سفالة، ويُعتبر من المغاصات المشهورة(4)، وآخر في جزيرة وازة في سفالة أيضاً(5)، إضافة إلى مغاصات آخرى للؤلؤ الجيد في بعض جزائر بحر الزنج(6). ويبدو أن اللؤلؤ المُستخرج من كل هذه المغاصات كان يُجمع في كلوة، فيشتريه التجار ويصدرونه(7). وعادة ما يبدأ موسم الغوص في شهري نيسان وآيار من كل سنة(8).

7 ـ الأخشاب:

أما الأخشاب فقد شكل الساحل الإفريقي الشرقي مورداً مهماً للعديد من أنواع الأخشاب المرغوبة خارجياً، بسبب كثرة غاباته التي اتسمت بجودة أخشابها، كالأبنوس والساج

(1) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 65 ـ 66؛ العلي، التنظيمات الاجتماعية، ص 71.

(2) المغاص، ويسمى أيضاً الجهاز، وهو مكان تجمع صدف اللؤلؤ به. ابن ماسويه، كتاب الجواهر، ص 33؛ البيروني، الجماهر، ص 7.

(3) البيروني، الجماهر، ص 7؛ البيروني، في تحقيق ما للهند، ص 169.

(4) ابن الأكفاني، نخب الذخائر، ص 32.

(5) المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ح3، ص 584؛ Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 4 - 5.

(6) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 162 ـ 163.

(7) Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(8) ابن بطوطة، الرحلة، ح1، ص 220؛ يُنظر: المسعودي، مروج الذهب، ح1، ص 148.

والصندل والمانغروف[1]. فمن مقادشو[2] وزنجبار[3] صُدرت أخشاب الأبنوس والساج إلى مختلف الأقطار[4]، ولاسيما إلى الخليج العربي[5]، حيث أُستخدما في بناء البيوت[6]، وصناعة السفن والأثاث والأبواب وقطع الشطرنج وأحجار النرد المصنعة خصيصاً للخلفاء وعِلية القوم[7]. وفي مومباسا كثُرت غابات أشجار المانغروف الثمينة التي حملتها سفن الضوء العربية إلى الجزيرة العربية والخليج العربي[8]، إضافة إلى خشب الصندل[9]، حيث استخدما في شتى الصناعات.

8 ـ الحيوانات:

عرف عن إفريقية أنها كانت المورّد الكبير لكثير من الحيوانات التي طُلبت خارجياً لاستخدامها في شتى الأغراض، كالفيلة والنمور والأسود والزّرافيّ والكركدن وغيرها[10]. وكان الطلب عليها قوياً، سواء على الحيوانات ذاتها، أم على جلودها التي كان لها أهمية صناعية كبيرة، بحيث قيل «ولا جمعت الملوك بين الصفائح العمانية والقضب الهندية.. والجلود الزنجية»[11].

---

(1) البيروني، في تحقيق ما للهند، ص 169؛ القزويني، آثار البلاد، ص 62؛ القزويني، عجايب المخلوقات، ح1، ص 213؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 99؛ الحموي، معجم، ح2، ص 68؛ القرماني، أخبار الدول، ح5، ص 95؛ الزياني، الترجمانة الكبرى، ص 297؛ الويسي، اليمن الكبرى، ص 236.

(2) الباكوي، تلخيص الآثار، ص 29؛ Robinson, Some Historical Notes, P. 38

(3) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 162.

(4) الباكوي، تلخيص الآثار، ص 29.

(5) ياقوت الحموي، معجم، ح5، ص 193؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 327.

(6) ابن الأثير، الكامل، ح5، ص 359؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص 129؛ لوريمر، دليل الخليج ـ القسم الجغرافي، ح1، ص 349.

(7) هل، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أبنوس، ح1، ص 303.

(8) The Cambridge History, Vol. 3, p. 186, 215; Kirkman, Man and Menuments, P. 122.

(9) Coupland, East Africa, P. 19.

(10) الحموي، معجم، ح2، ص 106.

(11) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص 50.

وكما مرّ بنا فإن الفيلة ببلاد الزنج كثيرة[1]، وهم يفتخرون بها[2]، لكنهم لا يعملون على استئناسها أو ترويضها؛ لأنهم لا يستخدمونها في أغراضهم الحياتية أو الحربية، بل يقتلونها للمتاجرة بأنيابها العاجية الفائقة الجودة والشهرة[3]. لذا شكلت إحدى مواد تجارتهم الخارجية المهمة، فصُدرت إلى عمان، ومنها إلى الصين والهند، وصُنعت منها مختلف المواد الثمينة[4]. ونعود إلى الزنوج والفيلة، فيذكر المسعودي أنهم كانوا يستخدمون جلودها فقط لصناعة الدَرَق القوية[5]، إضافة إلى الانتفاع بلحومها[6]. وعموماً فقد أُعتبرت الفيلة «أشرف مراكب الملوك وأكثرها تصرفاً»[7] وتفاخراً بها[8].

وللنمور الزنجية الأهمية ذاتها[9]، فقد اشتهرت جلودها الحمراء[10] العظيمة الجودة الشديدة النعومة[11]، ولاسيما في بربرا، حيث تكثر النمور بها، والتي وصفت بأنها من أحسن النمور، وجلودها أفضل الجلود، وصُدرت إلى مختلف الأنحاء لصناعة أحسن أنواع السروج[12]، واعتُبِرت مدن كلوة وومومباسا وزنجبار من أنشط مراكز هذه التجارة[13].

---

(1) المسعودي، مروج، ح2، ص 6؛ البكري، المسالك، ح2، ص 188؛ القزويني، آثار البلاد، ص 23؛ الزهري، أبو عبد الله محمد، كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، دمشق ـ 1968، ص 122، ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص 101.

(2) الجاحظ، رسائل، كتاب البغال، ح2، ص 355.

(3) المسعودي، مروج، ح2، ص 6؛ البكري، المسالك، ح2، ص 188؛ القزويني، آثار البلاد، ص 23؛ القرماني، أخبار الدول، ح5، ص 167؛ الباكوي، تلخيص الآثار، ص 20.

(4) المسعودي، مروج، ح2، ص 6.

(5) المسعودي، مروج، ص 11 وص 15.

(6) القزويني، آثار البلاد، ص 23.

(7) الجاحظ، الحيوان، ح7، ص 182.

(8) الجاحظ، رسائل، كتاب البغال، ح2، ص 355.

(9) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص 254.

(10) المسعودي، مروج، ح2، ص 4.

(11) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 31؛ البكري، المسالك والمهالك، ح2، ص 188؛ الجاحظ، التبصر بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، 1966، ص 30؛ السيرافي، رحلة السيرافي، ص 101.

(12) المسعودي، مروج، ح2، ص 4.

(13) يُنظر: الحميري، الروض المعطار، ص 552؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص 49؛ Trimingham, The Arab Geographers, P. 131; Freeman - Grenville, The Medieval History, P. 199.

ومن حيوانات بلاد الزنج التي حُملت إلى الخلفاء والملوك[1] الزرافيّ[2]، وقد أُهديت لبعض الخلفاء العباسيين[3]، واشتهرت بربرا خصوصاً بوجود الزرافيّ بكثرة بها[4]. وحُمل من بلاد الزنج أيضاً الذبل[5] المأخوذ من ظهور السلاحف[6]، وهو أجوده[7]، واستعمالاته متعددة، فقد صُنع لغاصة اللؤلؤ ما يشبه المقراض يسّدون به أنوفهم عند الغوص[8]، أو يضعون على وجوههم أقنعة من الذبل هذا كالمشاقيص يستعملونها في غوصهم[9]. واُتخذت منه الأمشاط[10] والأساور[11] والخواتم ونُصب السكاكين[12] والأوعية[13]، كما صُنعت نُصب السكاكين من قرون الكركدن[14] أيضاً.

9 ـ المواد العطرية:

ولا بد من الإشارة إلى اشتهار بلاد الزنج بالمواد العطرية ذات النوعية الجيدة، والتي كانت مقصد التجار، كالعنبر[15] الذي وُجدت منه ببلاد الزنج أنواع عدة، أجودها ذو اللون المائل

---

(1) البكري، المسالك والممالك، ح2، ص 188.
(2) المسعودي، مروج، ح2، ص 4؛ القزويني، آثار البلاد، ص 23؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص 121؛ البكري، المسالك والممالك، ح2، ص 188.
(3) ابن الجوزي، المنتظم، ح5، ص 138.
(4) الحموي، معجم، ح3، ص 46؛ الحموي، المشترك وضعاً، ص 93.
(5) الذبل: ظهر السلحفاة البرية أو جلدها. ابن منظور، لسان العرب، ح11، ص 256، مادة: ذبل.
(6) المسعودي، مروج، ح1، ص 148، ح2، ص 4؛ البكري، المسالك والممالك، ح2، ص 188؛ أما شيخ الربوة فيذكر أن ببحر الزنج حيواناً يسمى البستة، ظهره أسود موشى بصفرة، وهو الذبل. نخبة الدهر، ص 165.
(7) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 61.
(8) المسعودي، مروج، ح1، ص 148؛ ابن بطوطة، الرحلة، ح1، ص 220.
(9) القرماني، أخبار الدول، ح5، ص 155.
(10) المسعودي، مروج، ح1، ص 148؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص 165.
(11) ابن منظور، لسان العرب، ح11، ص 256، مادة: ذبل.
(12) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 103.
(13) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 103.
(14) البيروني، في تحقيق ما للهند، ص 163.
(15) العنبر: تصفه مصادرنا بأنه شيء ينبت في قعر البحر، ثم تقتلعه الرياح الشديدة والأمواج القوية، فيطفو على سطح الماء، فيأخذه الناس، أو تأكله الحيتان، فتموت، فتُؤخذ ويُشق بطنها للحصول عليه. مراجعة: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ح3، ص 134؛ اليعقوبي، البلدان، ص 366 ـ 367؛ البكري، المسالك والممالك، ح1، ص 105؛ الحموي، معجم، ح2، ص 68؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ح2، ص 122 ـ 123؛ المسعودي، مروج، ح1، ص 150؛ ابن خرداذبة، المسالك، ص 61؛ الدميري، حياة الحيوان، ح1، ص 122.

للبياض[1]. وقد وُجد في عدة أماكن في الساحل، منها مقادشو[2]، ولامو[3]، وماليندي[4] وزنجبار[5]. وبعد أن يجمعه التجار يصدرونه إلى العديد من الأماكن[6]، كالعراق وفارس ـ حيث يعرف عند العطارين فيهما باسم الند[7] ـ وعدن[8] ومكة[9] والهند والأندلس[10]. وقد شكل العنبر جزءاً مهماً جداً من تجارة الساحل الخارجية، حيث كان يباع بأسعار باهضة[11]. من ناحية أخرى فقد صنع منه أهل الساحل «الغالية»، التي تعتبر من أفضل أنواع الطيب بعد مزجه بالمسك وبذور اللبان[12]، ثم انتقلت صناعة الغالية إلى العراق ومصر، ولاسيما للخلفاء وذوي الشأن[13].

ونُقل من الساحل أيضاً العود[14]. ولقيمته العالية فقد كان من جملة الهدايا التي تُقدم للخلفاء وعلية القوم[15]. كما كان للبخور والمر دور مهم في تجارة الساحل مع جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي لأهميتها الدينية والطبية[16]. لذا حرص التجار العرب المسلمون على الحصول عليها، حيث تعتبر مقادشو وعموم ساحل بنادر أفضل مناطق الساحل الشرقي في

---

(1) اليعقوبي، البلدان، ص 366؛ أما المسعودي فيقول إن لونه أزرق، مروج، ح1، ص 150. ومن الأنواع الجيدة الأخرى: الأشهب، الأصفر وأردؤه الأسود. ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، ح2، ص 134؛ السيرافي، رحلة السيرافي، ص 103.

(2) الباكوي، تلخيص الآثار، ص 29.

(3) Devic, Le Pays Des zendjs, P. 74.

(4) الحموي، معجم، ح2، ص 53.

(5) Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 80.

(6) اليعقوبي، البلدان، ص 367.

(7) الند: نوع من العنبر يتميز بسهولته لأنه مستخرج من بطن الحوت تمييزاً له عن العنبر المستخرج من ظهر الحوت والذي يكون نقياً جداً. المسعودي، مروج، ح1، ص 151.

(8) المسعودي، مروج، ح1، ص 151؛ البكري، المسالك، ح1، ص 105؛ السيرافي، رحلة، ص 103.

(9) ابن جبير، الرحلة، ص 97.

(10) البكري، المسالك، ح1، ص 105.

(11) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 215.

(12) الجاحظ، رسائل: رسالة فخر السودان على البيضان، ح1، ص 202 وص 207.

(13) مراجعة: ابن بطوطة، الرحلة، ح1، ص 202؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم، ط1، حيدر أباد الدكن ـ 1357، ح6، ص 72 ـ 73؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص 96 ـ 97؛ المقريزي، الخطط، ح1، ص 264 ـ 266.

(14) الجاحظ، الحيوان، ح7، ص 135. مراجعة: القلقشندي، صبح الأعشى، ح2، ص 129.

(15) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص 42.

(16) Trimingham, Islam In East Africa, P. 2.

تجهيزهما[1].

إضافة إلى ماسبق فقد وُجدت في الساحل مواد عطرية أخرى كالسوسن والزعفران والزنجبيل التي استُخدمت في صناعة مختلف أنواع العطور والأدهان ذات الرائحة الطيبة[2].

(1) ناجي، مظاهر الحضارة اليمنية، مجلة آفاق عربية، ص 88؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 183.
(2) Devic, Le Pays Des Zendjs, PP. 195, 199.

الفصل الرابع

أثر الحضارة العربية الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي

أولاً ـ انتشار الإسلام في الساحل الإفريقي الشرقي وأثره:

شكل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي موقفاً إنسانياً غاية في الأهمية، فقد كان لمبادئه العادلة وتطبيقاته السياسية والاجتماعية الأثر الفعّال في انتشاره خلال فترة قياسية بين الأمم والشعوب التي انتشر بينها، إذ استطاع معتنقوه أن يوسعوا رقعة انتشاره، منهين بذلك السيطرة التعسفية للإمبراطورية الساسانية، إضافة إلى تحرير بعض المناطق العربية من الحكم البيزنطي. فالإسلام كنظام عالمي كان ينشد دائماً أن يحتضن البشرية جمعاء، وبقدرته الهائلة هذه استطاع أن يعيش وينمو وينتشر في جميع المجتمعات التي وصل إليها، فطورها وطور ثقافاتها بشكل عام. من جهة أخرى تأثرت الحضارة العربية الإسلامية بالخصائص المحلية لحضارات هذه المجتمعات، فنتج عن ذلك مزيج متجانس، يدل على المرونة التي عالج الإسلام بها الاختلافات في البيئات المحلية التي حلّ وراجَ فيها.

وقد استطاع العرب إقامة مدن زاهرة وتجارة نشطة على طول شواطئ المحيط الهندي، مسيطرين على حركة التجارة والملاحة فيه[1]، ولاسيما منذ مطلع القرن 7هـ/ 13م. حيث انتشروا في كل مكان فيه[2]، فأثروا في سكانه، وحولوهم إلى الإسلام. وبمجيء البرتغاليين إلى الساحل الإفريقي الشرقي في أواخر القرن 9هـ/ 15م «وجدوا العرب يشغلون المرافىء كلها بمراكبهم الكثيرة، وقد جمعوا أحمالاً وافرة من الذهب يريدون نقلها إلى بلادهم»[3]، وكانوا يعرفون معرفة جيدة كل مناطق الساحل، ابتداءً من مقادشو شمالاً حتى سفالة جنوباً[4]، بل إنهم كانوا يختارون مناطقهم وفق شروط معينة، كأن تكون ذات موقع جغرافي يجعلها تصلح كميناء يسهل الوصول إليه من سواحل جنوب الجزيرة العربية، ويعطيها قدرة على الاتصال

---

(1) ابن ماجد، ثلاث أزهار، ص 9.

(2) Kirby, East Africa, P. 11.

(3) نقولا، العرب والملاحة، ص 94.

(4) Guillian, Documents Sur L' Histoire, P. 223.

بالداخل كي يسهل عليهم جلب مختلف البضائع إليها منه. لذا اهتموا بحماية القوافل التجارية المتجهة إلى الداخل لضمان سلامتها ووصولها، وبعقد اتفاقيات تجارية مع الزعماء الأفارقة هناك[1] ضماناً لاستمرار تجارتهم.

وقد شهد القرن 6هـ/ 12م انبثاق سبب جديد لتطوير المصالح العربية الإسلامية مع شرق إفريقية، يتمثل في الغزوات الصليبية، فقد حاول الصليبيون الهيمنة على شرق البحر المتوسط وغربه، وكانت هناك سوق تجارية تتوسع بسرعة وتمتد إلى أوربا الغربية، قائمة على تجارة العاج والذهب المستوردين مَن إفريقية الشرقية خاصة؛ ذلك أن عاج إفريقية الشرقية الطري ذا النوعية الجيدة كان صالحاً كل الصلاحية لفنون الحفر على العاج في العصور الوسطى، ولاسيما في القرن 7هـ/ 13م. أما الذهب فقد اهتم الأوربيون باستيراده، حيث ضُربت منه أول قطع عملة ذهبية في أوربا[2].

وإذا ما أردنا أن نفهم طبيعة العلاقة التي نشأت بين العرب المسلمين الذين نشروا الإسلام والحضارة العربية الإسلامية في الساحل وبين مجتمع الساحل كله لابد لنا أن نعرف أن الإسلام كان دائماً هو العنصر المتماسك والحيوي الذي يستطيع التأثير على بنية المجتمع الذي يحل فيه بشكل مباشر. وإن ثقافة هذا المجتمع ـ أياً كان ـ قد أثرت بشكل ما عليه أيضاً، وهذا ما كان واضحاً في مجتمع الساحل الإفريقي الشرقي، فالعلاقة التي ربطت بين المهاجرين العرب المسلمين والبانتو الزنوج سكان الساحل كانت قوية، اتسمت بالتأثير المتبادل في كلا الطرفين.

فقد تغلب الإسلام، كدين وطريقة حياة ونظام، على الحياة القديمة في مجتمع الساحل، إلا أن العادات والتقاليد التي كانت سائدة في هذا المجتمع قبل انتشار الإسلام فيه جعلت النظم الحياتية الإسلامية تختلف عما في بلاد العرب، وبما لا يمس مبادئ الإسلام الأساسية. فمن الإسلام انبعثت مفاهيم جديدة نحو الحياة والمجتمع أدت إلى خلق مجتمع الساحل الجديد.

---

(1) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص15.

(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 112.

ففي بداية الأمر بقي الإسلام محتفظاً بطابعه الذي كان عليه في الجزيرة العربية، لكنه بمرور الوقت، وبكثرة التزاوج مع سكان الساحل الأصليين تأثرت النظم الحياتية الإسلامية ببعض العادات الإفريقية. علماً بأن ما أخذه كان انتقائياً ومنسجماً مع المسلمات الأساسية للعقيدة الإسلامية، أما العادات التي لم تنسجم كلياً مع مبادئ الإسلام وكانت متأصلة في المجتمع الإفريقي وذات نفع له فقد جوز لها أن تبقى جنباً إلى جنب مع النظام الإسلامي القائم في الساحل. وقد طبقت هذه المفاهيم على طول الساحل، امتداداً من باجون Bajun في ساحل بنادر، حتى موزمبيق وجزر القمر[1].

ومن الواضح أن العرب المهاجرين إلى الساحل نشروا دينهم بطريقة سلمية، دون المساس بالمشاعر الوطنية المتأصلة في بنية المجتمع الساحلي. ومن هنا فإنهم نجحوا تماماً في تعزيز الثقافة والحضارة العربية كلها في هذا المجتمع، إضافة إلى ما كان لاندماجهم التدريجي مع السكان الأصليين وتزاوجهم[2] من أثر كبير في شيوع أنماط جديدة من الحضارة تميزت بها منطقة الساحل الإفريقي الشرقي، ففي كل مكان كيفّ الإسلام نفسه مع الثقافة والبيئة الاجتماعية التي حل فيها، مما أدى إلى ظهور أنماط جديدة، كما هو الحال في الساحل، حيث ظهر الجنس واللغة والثقافة السواحيلية[3].

وقد أدى تدفق الهجرات العربية الإسلامية إلى الساحل الإفريقي الشرقي واستقرارها فيه بشكل دائم إلى ظهور تغيرات واسعة في أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقد حملت هذه الهجرات معها الإسلام كدين ونظام، واستطاعت أن تؤسس مدناً ومراكز إسلامية مهمة على طول الساحل[4]. إن اعتناق الإسلام أدى «إلى إعطاء طابع إسلامي قوي للطقوس الحياتية الأساسية التي يتميز بها مجرى حياة الفرد من المهد إلى اللحد»[5]، فقد تركت الشريعة

(1) Trimingham, Islam In East Africa, P. 66.
(2) Ibid, P. 72.

(3) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الأول، ص 162.
(4) حراز، إفريقية الشرقية، ص 5.
(5) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الأول، ص 163.

الإسلامية مثلاً أثرها الكبير على حياة الأسرة الإفريقية، من حيث عادات الزواج والإرث ودفع الدية وغيرها. وإن كانت هناك بعض التشريعات التي عدلت في ضوء النظم الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع الساحل قبل انتشار الإسلام، فقد طبقت الشريعة الإسلامية في أمور الإرث مثلاً، ولكن بما لا يتعارض مع ما كان سائداً في مجتمع الساحل من أنماط تقليدية تتعلق بحقوق الملكية[1].

وكما قلنا سابقاً، فقد انتشر الإسلام في شرق إفريقية، بطريقة سلمية تماماً، حيث لعبت التجارة دوراً فعالاً ومؤثراً جداً في عملية نشر الإسلام في الشاطئ الإفريقي، بل في المناطق المتاخمة له أيضاً. فمنذ القرن 2هـ/ 8م، أصبح المحيط الهندي مجالاً تجارياً للمسلمين، وأخذ العديد من سكان وتجار الساحل وجزره يتقبلون بالتدريج الدين الإسلامي، وينضوون تحت رايته[2]. وكان نجاح التجار المسلمين في أعمالهم التجارية قد مهد الطريق لانتشار الإسلام في كثير من مناطق الساحل، وبالتالي ساعد على تأسيس دول إسلامية عديدة على أنقاض الدول الوثنية الإفريقية[3]. فالتاجر المسلم سواء أكان عربياً أم من الأفارقة المسلمين أنفسهم كان «يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته. وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، وتنفي عنه ما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة. وإذا ما دخل هذا الرجل قرية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة.. وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين»[4].

تميز التجار المسلمون الأوائل بحماسة شديدة في نشر دينهم، وكان لهم تأثيرهم القوي على المجتمعات التي يمرون بها سعياً وراء تجارتهم، فقد تمتعوا بمركز اجتماعي مرموق، كما اشتهروا بصدقهم وأمانتهم[5]، وكانت ديانتهم تثير انتباه الوثنيين الذين يمرون بهم، كما أن

---

(1) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الأول، ص 164.

(2) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 89.

(3) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، القسم الأول، ص 390.

(4) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، القسم الأول، ص 391.

(5) سوسة، أحمد، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، الباب الأول، ص 106.

معارفهم الدينية الواسعة واتصالاتهم التجارية أضفت عليهم مكانة خاصة في قلوب السكان المحليين. وقد استفاد زعماء القبائل منهم في عدة أمور، منها تحصيل الضرائب، وضمهم إلى صفوف الحرس حيث أثبتوا جدارتهم، مستعينين بخبرتهم وثقافتهم في مختلف الأعمال التي استخدموا بها[1]. وكان الترحيب والاحترام هو أول ما يجده التاجر المسلم الذي يتنقل سعياً وراء تجارته أولاً، وبالتالي لنشر الإسلام بين الأقوام التي يحل بينها. فالتجارة بالنسبة إليه ليست هي كل شيء، بل كانت الوسيلة التي يحقق بها هدفه، إذ اتسمت أقواله وتصرفاته تجاه الآخرين بالصدق والإخلاص المنبعثين من نفسه حيال مهمته الكبرى، وهي نشر الإسلام بين هؤلاء الأقوام، فكان رجلاً صالحاً يقرأ القرآن، ويؤدي فروضه الدينية، متواضعاً ومحباً للآخرين[2].

كما لعب الحجاج المسلمون الأفارقة دوراً كبيراً في نشر الإسلام بعد عودتهم إلى بلادهم من الحج، فالحاج يكون ممتلئاً حماسة وإيماناً، فيكرس كل جهوده لنشر عقيدته، متنقلاً في سبيل ذلك من مكان إلى آخر، كما قام طالب العلم بالدور نفسه. وقد قوبل هؤلاء بالتكريم، وحازوا أوفى نصيب من التقدير، حيث «بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات لا يعادى بعضها بعضاً فحسب، بل يتقاتلون في حرب فعلية، ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل، لا في المناطق المسلمة وحدها، بل في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله، سواء في الحصول على حاجاتهم، أو في درء المصائب وصرفها عنهم»[3].

ويمكننا القول إنه إذا كان الإسلام قد انتشر بفعل التجارة، وإن مكانة التجار المسلمين الكبيرة في قلوب الأهلين قد عززته، فإن التزاوج مع الأهلين قد منحهُ الديمومة؛ فعندما يمر التاجر بمنطقة ما، وتفرض عليه أعماله التجارية أن يبقى بها فترة طويلة نسبياً، فإنه يحاول أن يتزوج، وقد يستقر هناك، وعندها يأخذ الإسلام بالانتشار والرسوخ التدريجي. وهذه الحقيقة

---

(1) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، القسم الأول، ص 166 – 167.

(2) Brady, Commerce And Conquest, P. 32.

(3) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، الباب الأول، ص 392.

بدأت تتأكد تدريجياً منذ القرن الأول الهجري (7م) حينما بدأت أولى الهجرات العربية الإسلامية إلى الساحل، فاستقروا هناك، وتزوجوا نساء من أهل المنطقة، واضعين بذلك الأساس للشعب السواحيلي ولنمو الحضارة السواحيلية[1].

ولابد لنا من القول إن خلو الإسلام من أي نزعة عنصرية، أو تمييز طبقي، أو حواجز لونية مشينة، كان أهم عامل ساعد على انتشاره بين سكان الساحل الإفريقي الشرقي[2]. فجميع المسلمين أخوة لا فارق بينهم في الجنس أو اللون أو المركز الاجتماعي[3]، لذلك عومل الزنوج المسلمون من قبل المسلمين القادمين إلى الساحل معاملة خالية من التعصب العنصري، ومن هنا فإن انتشار الإسلام في إفريقية بشكل عام جاء نتيجة منطقية لعدم وجود أي إحساس باحتقار السود. والحقيقة أن الإسلام كدين لم يعامل الأسود على أنه من طبقة أدنى من الآخرين[4]، بل كان متساوياً في الحقوق والواجبات مع جميع المسلمين، استناداً إلى ما نص عليه القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة كقوله (صلى الله عليه وسلم): «بعثت إلى الأحمر والأسود»[5]، وقد سار الصحابة على هدى هذه المبادئ نفسها. كما كانوا يقسمون الأموال التي تردهم في الناس ـ كما فعل الخليفة أبو بكر الصديق ـ «بين الأحمر والأسود، والحر والعبد، ديناراً لكل إنسان»[6]. إضافة إلى كل ذلك فقد وجد الزنوج الداعي المسلم يعيش بينهم، ويتزوج منهم، ويعاملهم وفق مبادئ الإسلام القائمة على المؤاخاة والمساواة، مما دفع الزنوج إلى الإقبال على اعتناق الإسلام[7].

---

(1) Fitzgeral, orita. Ibudan, P. 98. ومن الجدير بالذكر أن العديد من أولاد الصحابة هاجروا إلى مختلف مناطق شرق إفريقية، واستقروا هناك. مراجعة: ابن طباطبا، منتقلة الطالبية، تحقيق: محمد مهدي الخرسان، النجف ـ 1968، ط1، ص 120. ولابد من أنهم باستقرارهم هذا نشروا الإسلام بين سكان المناطق التي استقروا بها، ومن المحتمل أنهم تزوجوا بنسائها المحليات، بل إن بعض العوائل السواحيلية مازالت تدّعي النسب العلوي.

(2) حراز، إفريقية الشرقية، ص 6.

(3) مراجعة: ابن هشام، السيرة، ج4، ص 275.

(4) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، الباب الأول، ص 394.

(5) الجاحظ، رسالة فخر السودان، ج1، ص 210.

(6) اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص 91.

(7) حسن، انتشار الإسلام والعروبة، ص 36. والملاحظ أن الروايات المحلية تدعي أن شخصاً يدعى حمزة بن عبد الملك أو جعفر بن عبد الملك، هو الذي نقل الشريعة الإسلامية إلى الساحل الشرقي، وخاصة في فازا faza التي عاش فيها. مراجعة: =

إن التزاوج المستمر بين العرب والإفريقيات، وما نتج عنه من نشوء جيل يحمل الدم العربي والزنجي معاً، كانت له المكانة المرموقة في المجتمع الساحلي، يجعل من الصعب تحديد ما هو عربي إسلامي صرف، وما هو عربي إسلامي مختلط. ولا شك في أن لعملية التفاعل هذه ميزة حضارية مهمة جداً، ذلك أنها ساعدت وبشكل مؤثر على نشر كثير من معالم الحضارة العربية الإسلامية وخاصة نظمها الاجتماعية بسهولة بين السكان الأصليين، سواء الذين أسلموا أم الذين بقوا على ديانتهم الوثنية، ذلك أن الجيل الجديد الذي نشأ عن التزاوج المتبادل بين العرب المسلمين والأفارقة أخذ يستند على تأييد العنصرين العربي المتمثل بالاستقرار العربي في الساحل من المنطقة العربية، والإفريقي المتمثل في الأفارقة سكان الساحل، وكذلك القبائل التي سكنت المناطق الداخلية المتاخمة للساحل[1]. وجدير بالذكر أن المسلمين الأوائل من سكان الساحل الأصليين كانوا من البانتو[2]، ومنذ منتصف القرن 5هـ/ 11م، حدث تغير مهم وجديد في معظم مدن الساحل، ذلك هو ظهور طبقة حاكمة جديدة نشأت عن التزاوج الذي تم بين العرب المسلمين المهاجرين والأهلين، عرفت بأصلها العربي المسلم، استطاعت تولي الحكم في معظم مناطق الساحل. ومعنى هذا زوال الطبقة الحاكمة القديمة، وحلول طبقة جديدة من الحكام المسلمين الذين اعتبروا الإسلام أساساً لدولتهم، كدين ونظام، وكرابطة مهمة تربطهم بالدولة الإسلامية عبر المحيط الهندي[3].

وما إن حل القرن 7هـ/ 13م حتى كان الساحل بأجمعه مسلماً[4]، فقد كثرت وانتشرت المساجد والجوامع في مختلف مناطقه، إضافة إلى وجود القبور ذات الطراز الإسلامي. وكان

= Stigand, The Land of Zinj, P. 6; Ingrams, Zanzibar, P. 77. ولا نعرف من هو حمزة أو جعفر هذا، ولماذا اعتبرته الروايات المحلية أول من نشر الإسلام في الساحل. ومن الطريف أن نذكر هنا قصة أحد العبيد الزنوج الذي أساء معاملة سيده، لكن هذا أعتقه، ثم شاءت المصادفة أن يرحل السيد إلى إحدى مناطق بلاد الزنج ليجد عبده المعتق قد أصبح ملكها، فاستقدمه واحترمه غاية الاحترام، وأكرمه بما يستحق. الظاهري، زبدة، كشف الممالك، ص 37. وعلى الرغم من المبالغة الواضحة في هذه الرواية إلا أنها تؤكد لنا نظرة الإسلام السمحة للزنوج، واحترامه لهم وحضه على حسن معاملتهم.

(1) عبد الرسول، دراسات في الهجرات، ص 264.

(2) Fitzgerald, Orita. Ibadans, P. 100.

(3) Trimingham, The Arab Geographers, P. 12.

(4) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 100.

لكل مدينة من مدن الساحل حاكمها المستقل، بل إن بعض هذه المدن أصبح معقلاً للثقافة والحضارة الإسلامية، إضافة إلى مركزها التجاري القوي كمقادشو مثلاً، التي وصفت بـ «مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع، والمترددة الذكر على السن المسافرين»[1]، أما سكان المناطق الداخلية فقد بقي معظمهم على ديانته القديمة[2].

وكان الزنوج يحترمون العرب ويهابونهم مهابة عظيمة، فمتى ما شاهدوا عربياً سواء كان تاجراً أم مسافراً عظموا شأنه واحترموه غاية الاحترام، واعتقادهم هذا متأت من كون هذا العربي هو من بلاد التمر؛ لجلالة التمر وأهميته عندهم[3]، على حد قول الجغرافيين العرب. كما أن العديد من الأفارقة تسموا بأسماء أسر عربية، وذلك طلباً للحصول على منزلة اجتماعية أعلى، أو لتعزيز مراكزهم التي حصلوا عليها[4]. وما إن انتهى القرن 4هـ/ 10م حتى أصبحت حياة وحضارة مدن الساحل عموماً عربية[5]. ومنذ القرن 5هـ/ 11م وحتى نهاية القرن 9هـ/ 15م وصلت مدن الساحل هذه إلى مستوى عال من المدنية المادية؛ فقد نمت مؤسساتها السياسية والإدارية، وازدهرت تجارتها، وازداد رخاؤها، وعاش سكانها حياة متمدنة مترفة[6].

ورغم دخول الإسلام إلى الساحل فقد بقيت فيه بعض العادات والتقاليد التي لا تتنافى وطبيعة الدين الجديد، ومن المحتمل أن مجتمعاً كهذا ساد في بداية الأمر، عندما كان التأثير الإسلامي مازال يشق طريقه ويحاول تثبيت أركانه وأسسه في مجتمع الساحل، ومن المحتمل أيضاً أن هذه العادات والتقاليد زالت بمرور الزمن حينما أصبحت أسس الحياة العربية

---

(1) ابن سعيد، الجغرافيا، ص 82، 213.

(2) The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P. 207.

(3) المسعودي، أخبار الزمان، ص 41؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص31؛ السيرافي، رحلة السيرافي، ص 101. أما الحميري فيقول إن موقفهم هذا نابع من احترامهم لأهل اليمن، الروض المعطار، ص 74. ربما لقدم العلاقة التي قامت بين اليمن والساحل، وكثرة الوافدين من اليمن إليه، بحيث تكونت هذه المنزلة العظيمة للعرب في نفوس الزنوج. مراجعة: Brady, Commerce And Conquest, P. 28. وهذا وحده ليس سبب الاحترام، بل إن احترامهم هذا نابع من مكانة العرب في نفوسهم وإجلالهم لهم.

(4) Lin – Hart, The Medicine Man, P. 115.

(5) Coupland, East Africa, P. 25.

(6) Ibid, P. 39.

الإسلامية هي السائدة في مجتمع الساحل.

وإضافة إلى اللغة المحلية فقد تكلم سكان الساحل اللغة العربية[1]، والتي من المحتمل أن تكون اللغة الرسمية لجميع مدن الساحل الإسلامية؛ فقد استخدم سلطان ماليندي لغة عربية في مراسلاته مع ملك البرتغال، إلا أن الألقاب وحركات الكلمات المستخدمة في حوليات كلوة تدفعنا إلى الافتراض بشيوع استخدام كلمات ومصطلحات مشتقة من اللغة السواحيلية[2].

وكما تأثر مجتمع الساحل بديانة وحضارة المهاجرين العرب المسلمين، فقد تأثر المجتمع العربي الإسلامي ببعض العادات الإفريقية الأصل، والتي شاعت منذ فترات مبكرة من صدر الإسلام، كعادة صنع النعش الذي هو أستر وأصون للنساء[3]، والذي صنع لأول مرة لبعض أهل النبي الكريم[4]. كذلك صناعة «الغالية» التي هي أفضل أنواع العطور، وصناعة تجليد الكتب[5]، كما شاع استعمال بعض الكلمات ذات الأصل الإفريقي البانتوى التي انتقلت من بلاد الزنج إلى المنطقة العربية[6].

ثانياً ـ السواحيليون ولغتهم:

يشير مصطلح سواحيلي إلى الجنس الخليط المتكون من الأفارقة والعرب الذين عاشوا على ساحل إفريقية الشرقي والجزر المتاخمة له، وبعضهم من يستخدم هذا المصطلح للدلالة على كل أفارقة الساحل الإفريقي الذين يتكلمون باللغة السواحيلية إما على أساس كونها اللغة الأم

---

(1) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, PP. 16 – 17; Freeman – Grenville, The East African Cost, P. 121.

(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1. P. 116.

(3) الجاحظ، رسائل، رسالة فخر السودان، ج1، ص 202.

(4) يقول الطبري إن أول من عمل لها النعش هي فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، عملته لها أسماء بنت عميس بعد أن رأته يصنع في الحبشة. المنتخب من كتاب ذيل المذيل، ص 91. بينما يذكر ابن رسته أنه صنع لأول مرة لزينب بنت جحش زوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) عملته لها أسماء بنت عميس بعد أن رأت الأحباش يصنعون نعوشاً لموتاهم، الأعلاق النفيسة، ص 192.

(5) الجاحظ، رسائل، رسالة فخر السودان، ج1، ص 202.

(6) السالمي، تحفة الأعيان، ج1، ص 361.

للسواحيليين، وإما لأنها اكتسبت عن طريق الحياة اليومية[1].

ومن المؤكد أن كلمة سواحيلي مشتقة من الكلمة العربية: السواحل، وهي مرادفة للشعب الذي يسكن الساحل[2]. ومنذ الأزمنة القديمة استعمل الكتاب العرب هذه التسمية للدلالة على الساحل الإفريقي الشرقي[3]، وإن كنا لا نعرف متى أطلقت أول مرة على الزنوج[4]. ويبدو أن موطن السواحيليين الرئيس هو الجزء الساحلي المؤلف من أرخبيل لامو والبر الرئيس وجزر زنجبار وبمبا ومافيا[5].

نشأ الجنس السواحيلي في وقت مبكر يعود إلى القرن الأول الميلادي، وربما قبل هذا التاريخ أيضاً، فمنذ ذلك الوقت كانت العلاقات التجارية بين المنطقة العربية والساحل الإفريقي قوية، وكان التجار والبحارة العرب يقدمون إلى الشاطئ الإفريقي لبيع بضاعتهم. وبما أن هذه العملية كانت تستغرق وقتاً طويلاً فقد كانوا يستقرون بصورة دائمة أو وقتية في عدة أماكن من الساحل أو الجزر القريبة منه، متزاوجين بسكانه[6] من البانتو. إن الشعب المزيج الذي نتج عن هذا التزاوج المستمر بين العرب بالدرجة الأولى، وغيرهم من المسلمين بالدرجة الثانية، وبين البانتو، هو الشعب السواحيلي[7]، والذي تعود أصوله الجنسية كما ذكرنا إلى ما قبل الميلاد. إن خاصية هذا الشعب الهجينة أدت إلى توحيد لغته وثقافته على امتداد شريط طويل من الساحل[8].

---

(1) فرنر، أليس، مادة: زنجبار، السكان السواحيليون، دائرة المعارف الإسلامية ج10، ص 429؛ Prins, The Swahili Speaking People, PP. 11 – 12.

(2) Ibid, P. 12.

(3) مراجعة: ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 199، الذي يذكر أنه غادر مقادشو قاصداً كلوة من بلاد السواحل.

(4) فرنر، زنجبار، دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص 429.

(5) حسن، انتشار الإسلام والعروبة، ص 140؛ Prins, The Swahili, P. 12.

(6) فرنر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنجبار، ج10، ص 429. دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص46، Reusch, History of East Africa, P. 48; Gray, History of Zanzibar, P. 11; posnansky, prelude To East African History, P. 110; Davidson, The Growth of African Civilization, P. 97; Murphy, History of African civilization, P. 229.

(7) Murphy, History of African Civilization, P. 229.

(8) Ibid, P. 229.

هنا يجب التفرقة بين استخدام كلمة (سواحيلي) للدلالة على جنس معين، وبين استخدامها للدلالة على لغة أو ثقافة معينة، فبالمعنى الأول يُقسم السواحيليون إلى قسمين:

1 ـ السواحيليون الشماليون الذين يدّعون الأصل العربي بالانتساب إلى زيد بن علي (رضي الله عنهما)، وهم يفخرون بهذا النسب.

2 ـ السواحيليون الجنوبيون الذين يدّعون الانتساب إلى هجرة الأخوة الستة من الخليج العربي[1].

وعموماً اعتبر معظم السواحيليين أنفسهم عرباً، واستطاعوا الإسهام في قيادة الحياة السياسية في الساحل. إن أنماط حياتهم هذه بسبب كونها إسلامية تدين بالفضل للعرب المستقرين في الساحل، جعلتها تختلف عن الأنماط السائدة عند سكان الداخل، ونستطيع أن نسميها حضارة عربية إسلامية ـ إفريقية[2].

إن كلمة موأرابو mwarabu باللغة السواحيلية تعني: العربي، إلا أنها لم تكن تطلق على كل المهاجرين العرب. فالذين قدموا من جنوب الجزيرة العربية سموا: واشحري washihiri، في حين أن القادمين من عمان كانوا يسمّون وامانغا wamanga[3]. إن كلمة واشحري مأخوذة من اسم بلاد الشحر في جنوب الجزيرة العربية[4]. ونلاحظ من جهة أخرى أن كلمة موأرابو أطلقت فقط على العرب الذين استقروا في الساحل منذ مدة طويلة جداً، وتبنوا تقاليده، وأصبحت السواحيلية لغتهم[5]. لقد أسهم هؤلاء إلى حد بعيد في حضارة الساحل، وتبنوا كثيراً من معايير السلوك التي لم تكن معروفة لديهم في الجزيرة العربية. فعرب كلوة كسواني

(1) العقاد، زنجبار، ص 12؛ حراز، إفريقية الشرقية، ص 7.

(2) العقاد، زنجبار، ص 12؛ قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص 23؛ حراز، إفريقية الشرقية، ص 7. مراجعة: بولم، الحضارات الإفريقية، ص 131؛ Kirkman, The Arab City of Gede, P. 77.

(3) إن مقطع wa يدل بالسواحيلية على الجمع. مراجعة: Murphy, History of African Civilization, PP. 96 – 97. ولعل وامانغا هي تحريف للفظة: ماجن.

(4) Lin – Hart, The Medicine Man, PP. 13 – 14.

(5) Ibid, P. 14.

مثلاً يعتقدون أن من غير المناسب التزوج بابنة الخالة؛ لاعتقادهم بأن الخالة هي بمثابة الأم، في حين أن الشريعة الإسلامية، أباحت مثل هذا الزواج[1].

إن اندماج المهاجرين العرب في مجتمع الساحل الإفريقي ساعد عليه كثيراً استعدادهم للزواج من الإفريقيات، حيث أزال مثل هذا التزاوج كثيراً من الفروق الطبقية[2]، بل إن السواحيليين اقتبسوا كثيراً من العادات العربية الاجتماعية، إضافة إلى العادات والتقاليد الإفريقية[3].

ومع أن السواحيليين كانوا نتاج تزاوج العرب بالبانتو ـ بالدرجة الأولى ـ فإن ملامحهم وصفاتهم الجسمانية تعدلت كثيراً نتيجة لامتزاجهم بالدماء العربية الإسلامية عموماً[4]. وبمضي الوقت أخذ هذا الجنس يكتسب مزيداً من العادات الإفريقية، وأصبحت المدن العربية في الساحل تجمع في أنظمتها وأنماط حياتها بين الأنماط العربية الإسلامية والإفريقية الأصلية[5].

لقد امتصت الحضارة السواحيلية كثيراً من أصول الحضارة العربية الإسلامية؛ ذلك أن الساحل الشرقي يكون جزءاً من الحضارة العربية الإسلامية الواسعة الانتشار. إن مدن الساحل الشرقي إسلامية بالدرجة الأولى، وتعتمد التجارة أسلوباً لحياتها، وأساس حضارتها هو من جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي. إلا أنه لا يمكن القول إنهم كانوا عرباً أقحاحاً، ولابد من أن أعداد المهاجرين العرب المستقرين في الساحل كانت أقل من أعداد السكان الأصليين. ومن المحتمل جداً أن أعداد النساء العربيات المهاجرات كانت قليلة أصلاً، لذا كان من الطبيعي أن يتجه الرجال العرب المسلمون إلى التزاوج بالإفريقيات، أو من النساء ذوات الدم المختلط، وسرعان ما اندمج الأبناء في المجتمع الساحلي[6].

---

(1) Lin – Hart, The Medicine, P. 14.
(2) Ibid, P. 14.

(3) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص 22.
(4) حراز، إفريقية الشرقية، ص 7.
(5) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص 22.

(6) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 218.

وكما ظهر الشعب السواحيلي كنتاج لتزاوج العرب المسلمين المستقرين في الساحل الإفريقي الشرقي مع سكان الساحل الأصليين من البانتو، فقد ظهرت اللغة السواحيلية أيضاً. ومع أنها مرتبطة بظهور الجنس السواحيلي، إلّا أنها تشكل مفهوماً ثقافياً وليس جنسياً، وهي تنتشر بالدرجة الأولى في كينيا حالياً، وإلى حد قليل في الصومال وتنزانيا وموزمبيق وبعض الجزر المجاورة[1]، بل إن بعضهم يعتبرها لغة الشرق الإفريقي من كينيا حتى موزمبيق[2]. ولم يقتصر استخدامها كلغة حديث بين سكان الساحل[3] في هذه المناطق فحسب، بل كانت أداة تفاهم بين القبائل ذات اللهجات المختلفة، لذلك انتشرت في بعض مناطق إفريقية الداخلية، وامتدت لتصل إلى مناطق ساحلية بعيدة[4]. وعلى الرغم من أن معظم سكان الساحل عرفوا اللغة العربية وتكلموا بها، فإنهم استخدموا أيضاً إلى جانبها اللغة السواحيلية التي اكتسبت لهجات مختلفة بحسب المناطق التي وجدت فيها[5].

ومنذ نشأة اللغة السواحيلية استخدمت الحروف العربية[6]، وتتميز مفرداتها الإفريقية بسهولة تركيبها، كما تتميز بكثرة المفردات العربية فيها أكثر من أية لغة أخرى[7]، حيث يقدر عددها من الربع إلى النصف[8]، وخاصة الألفاظ المستعملة في الشؤون التجارية والفنية[9]،

---

(1) سلوم، داود، الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحيلية، مستلة من مجلة كلية الآداب العدد 19، 1976، ص 2.

(2) بولم، الحضارات الإفريقية، ص 131.

(3) لوريمر، دليل الخليج، ج5، ص 63، 25.

(4) العقاد، زنجبار، ص 12.

(5) مراجعة: Davidson, The Growth of African Civilization, P. 97; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 117; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 187.

(6) سلوم، الألفاظ المستعارة، ص 2؛ العقاد، زنجبار، ص 13.

(7) العقاد، زنجبار، ص 13؛ مراجعة: فرنر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنجبار، ص 431؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 187; Hollingsworth, Ashort History, P. 7.

(8) العقاد، زنجبار، ص 13. وهناك مَن يجعل نسبة الكلمات العربية المستخدمة في السواحيلية هي الثلث. Ayany, Ahistory of Zanzibar, P. 6 وهناك من الباحثين مَن يجعل نسبتها تصل إلى 65%. مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 434.

(9) العقاد، زنجبار، ص 13.

والكلمات الدينية والفقهية[1] وأسماء السفن والأواني الخزفية[2]، أما الألفاظ الخاصة بالزراعة مثلاً فهي بانتوية الأصل[3].

ومن المؤكد أنه كان للبحارة العرب من الخليج العربي وبخاصة العمانيين دور بارز في نقل كثير من المفردات العربية إلى الساحل، بل إن الألفاظ المستعملة في اللغة السواحيلية هي في أصلها مأخوذة «من ألفاظ سواحل اليمن وقبائلها المنعزلة»[4]. لذا نستطيع الافتراض أن العرب من سواحل الجزيرة العربية ابتداءً من البصرة إلى اليمن حملوا معهم كثيراً من كلماتهم العربية، بل إن كثيراً من هذه الكلمات كانت قد استخدمت في جنوب العراق، كألفاظ الملاحة مثلاً[5].

ومن الغريب والجميل في الوقت نفسه أن أغلب ما استعارته اللغة السواحيلية من الكلمات العربية، بقي مستعملاً فيها إلى الآن، بينما زال أو قلّ استعمالها اليومي في المجتمع العربي الإسلامي، ولاسيما في الفترات المتأخرة، ومن هذه الكلمات: مسواك Mswaki، عزّر Azir، فدية Fidi، عُشر Ushuru، قرطاس Karatashi، وغيرها كثير[6].

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن السواحيليين قرنوا الحضارة بالعرب، بل جعلوا التحضر يشتق من اسمهم «فإذا ما أرادوا أن يقولوا: قد تحضر الإنسان، قالوا في لغتهم Staaribika؛ أي استعرب. وأسموا الحضارة في لغتهم ustaarabu أي استعراب، واللفظ مشتق من استعرب؛ أي أصبح عربياً، أو كما هو مدلوله في لغتهم: أصبح متحضراً[7]». ومع شيوع اللغة السواحيلية فقد بقيت اللغة العربية مستخدمة بكثرة كلغة معروفة عند الأهالي، حيث كُتبت بها كثير من

---

(1) فرنر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنجبار، ص 432.
(2) قاسم، العلاقات العربية الإفريقية، ص 24.
(3) العقاد، زنجبار، ص 13.
(4) سلوم، الألفاظ المستعارة من العربية، ص 12.
(5) سلوم، الألفاظ المستعارة من العربية، ص 12.
(6) سلوم، الألفاظ المستعارة من العربية، ص 7.
(7) سلوم، الألفاظ المستعارة من العربية، ص 12.

التواريخ المحلية والرسائل الرسمية[1]، ولاسيما في كلوة وزنجبار وممباسا[2]. ولعل استخدام اللغة السواحيلية مكن العرب المهاجرين من سرعة التفاهم مع القبائل الإفريقية، وبالتالي زادت عملية النقل والتأثير الحضاري فيهم[3].

فاللغة السواحيلية تعتبر غنية بمفرداتها لكثرة ما استعارته من اللغة العربية، هذا الأمر لم يمنع من ظهور اختلافات في طريقة كتابة ونطق بعض الألفاظ من منطقة إلى أخرى، إلا أن السواحيليين يعتبرون لهجة زنجبار أفصح من غيرها، وتأتي بعدها لهجتا لامو وممباسا[4].

ثالثاً ـ فنون العمارة:

1 ـ طرز بناء المدن والبيوت:

يتضح وجــود طــراز عمراني إسلامي متميز في الساحل الإفريقي الشرقي منذ القرن 6هـ/ 12م[5]، وهو طراز متأثر بفنون العمارة العربية خاصة[6]. وقد أسلفنا القول في الفصل الثاني أن العرب المهاجرين إلى الساحل أسسوا كثيراً من المدن التي نمت وازدهرت وبلغت حداً كبيراً من القوة والثراء، إلا أن هذه المدن كانت تفتقر إلى وجود مركز تتجمع حوله، كالمسجد مثلاً الذي كان يشكل مركز أي مدينة إسلامية في مختلف مناطق الدولة العربية الإسلامية. فالجامع في مدن الساحل الإفريقي كان مطوقاً بالأبنية، مع وجود فسحة بالقرب منه تستخدم عادة كمقبرة[7].

---

(1) من هذه المخطوطات: تاريخ كلوة، تاريخ باتا، خبر اللامو. مراجعة: The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P.219.

(2) فرنر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنجبار، ص 432.

(3) عبد الرسول، دراسات في الهجرات العربية، ص 265.

(4) يُنظر: حراز، إفريقية الشرقية، ص 7؛ مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 434؛ فرنر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زنجبار، ص 43.

(5) Freeman – Grenville, Some Preliminary Observations On Medieval Mosques Near Dar Es Salam, Tanganyika Notes And Records, Vol. 36, 1954, P. 64.

(6) March, Ahistory of East Africa, P. 22.

(7) The Cambridge History of Africa, Vol. 2, P. 211.

ومن النصوص التي تتوافر لدينا نستطيع أن نكوّن صورة جميلة وواضحة عن طراز بناء مدن وبيوت الساحل. فقد تميزت البيوت بقربها بعضها من بعض، بل إن معظمها تكون مشتركة على الأكثر بحائط يفصل أحدها عن الآخر، وتكون البيوت أحياناً متصلة بعضها ببعض، مما يدفعنا إلى افتراض وجود علاقات عائلية بين ساكنيها[1]، وحجرات البيت طويلة وضيقة[2]، أما عرضها فيتحدد بسقفها المبني من الصخر والجص، والذي يستند على خشب جذوع شجر المنغروف[3]. وفي أحيان أخرى نجد السقوف مبنية من خشب شجرة جوز الهند، وأخشاب أخرى مثل خشب شجرة الموا Mwua[4]. كما كان الجص يستخدم وحده أحياناً في بناء السقوف[5]، ومن الطريف أن نجد أن بعض البيوت كانت تسقف بعظام الحيتان[6].

وفي الغالب يوجد خلف الغرف في آخر الدار حديقة صغيرة[7]، والدخول إلى البيوت يتم من خلال ممرات تؤدي إلى فناء وسطي مشمس بحسب الطراز العربي[8]، تقع حوله الغرف، كغرف الاستقبال والطعام، وفي المؤخرة تقع غرف النوم، وقد رصفت هذه الغرف جميعها بملاط الجص[9]. وتقسيم البيوت هذا هو تقسيم تقليدي، إذ كثيراً ما كانت تضاف غرف أخرى. أما المداخل الرئيسة للبيوت فكثيراً ما كانت تزين بقطع من الصفر والعظام مما يكسبها منظراً جذاباً، وهذا النوع من الزينة كان مألوفاً كثيراً في طرز البناء في الساحل[10].

(1) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212; Zamani, Asurvey of East African History, P. 4; Stigand, The Land of Zinj, P. 152.

(2) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 213.

(3) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 213; Kirby, East Africa, P. 11.

(4) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212.

(5) Kirby, East Africa, P. 11.

(6) القزويني، آثار البلاد، ص 22.

(7) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212; Coupland, East Africa, P. 25.

(8) Stigand, The Land of Zinj, P. 152.

(9) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212.

(10) Ibid, Vol. 3. P. 212; Zamani, Asurvey of East African History. PP. 114 –115; Kirby, East Africa, P. 11; Stigand, The Land of Zinj, P. 152.

أما النوافذ فهي متنوعة ومصممة وفق الطراز العربي[1]، ولا توجد إلا في واجهات الغرف المطلة على باحة الدار، لذا فإن الغرف الداخلية لابد من إنها كانت مظلمة، كما أن جدرانها سميكة وعالية، مما يجعلها باردة[2]. ولم تكن الجدران تصبغ، بل تطلى بالجص فقط، وتتميز غرف البيت بوجود كوات تحفر أحياناً على الجدران، أو في الممرات لأغراض الزينة[3]، وفي بعض الأحيان جعلت سقوف الغرف مقبّبة، وإن كان هذا أمراً نادراً[4]. كما تميزت البيوت الكبيرة بوجود باحة داخلية يحيط بها المطبخ وبيوت للخدم[5]، وقد وجدت في بعضها أجنحة خاصة بالنساء[6]، وخاصة في قصر السلطان أو الشيخ[7].

أما أبواب البيوت والغرف وأطر الشبابيك فقد صنعت من الخشب المنقوش بنقوش جميلة مطعمة بالمعدن[8]، وأحياناً كانت تصنع من الخشب المحفور وحده، وهو أمر مألوف في كثير من مدن الساحل، وما زالت تقاليد الزخرفة موجودة، وخاصة في زنجبار[9].

أما الأزقة فقد صُمّمت وفق الطراز العربي[10]، فهي سكك ضيقة تسمح بمرور المارة والدواب فقط، وتتميز ببرودتها وكثافة الظل فيها، وهذا من متطلبات المناخ الحار[11]، كما رصفت السكك بملاط الجص[12].

---

(1) Stigand, The Land of Zinj, P. 152.

(2) Ibid, P. 152; Zamani, Asurvey of East African History, P. 114 – 115.

(3) Kirby, East Africa, P. 11; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212 – 213; Zamani, Asurvey of East African History, P. 114 – 115; Stigand, The Land of Zinj, P. 152.

(4) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 213.

(5) Ibid, Vol. 3, P. 213.

(6) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 122; Kirby, East Africa, P. 11.

(7) Kirby, East Africa, P. 11.

(8) Coupland, East Africa, P. 25.

(9) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 134.

(10) Stigand, The Land of Zinj, P. 152.

(11) مراجعة: Ibid, P. 152; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212; Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(12) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212.

استخدم السكان الصخور والحجارة في البناء، وعرفوا حرق الكلس للحصول على الجص[1]. وقد أكثروا من استخدام الصخور المرجانية في بناء بيوتهم، وخاصة حين ازدادت ثروة مدن الساحل[2]. ويبدو أن البناء كان أول الأمر بالخشب، كما في كلوة مثلاً[3]، ثم استبدل بالصخور والحجارة بعد القرن 6هـ/ 12م.

إن معظم البيوت ذات طابق واحد، كما في مدينة غيدى مثلاً[4]. أما في المدن الكبيرة فقد وجدت البيوت ذات الطابقين، كما في لامو[5]، أو من عدة طوابق[6]، كما في ماليندي[7] وممباسا[8]، أما كلوة فقد تكونت بيوتها من ثلاثة طوابق[9]. إن مستوى فن عمارة هذه البيوت عال جداً، والصخور المرجانية هي المستخدمة في البناء في الغالب، كما استخدم الجص الصلب أيضاً[10].

أما دور الشيوخ والسلاطين فقد كانت أكبر حجماً[11]، حيث احتوت على غرف عديدة مخصصة للحكم والقضاء، وغرف أخرى لخزن المواد والسلع التجارية المختلفة، كما وجدت فيها أجنحة خاصة للنساء[12]. ومن المحتمل أن السلطان كان يتخذ قصره قرب المسجد كما هو الحال في قصور الخلفاء أو الأمراء أو الولاة في الدولة العربية الإسلامية، ففي مقادشو وكلوة كانت دار الشيخ أو السلطان تقع بالقرب من المسجد[13]، وفي بعض الأحيان كان

(1) Zamani, Asurvey of East African History, P. 117; Coupland, East Africa, P. 25.
(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. I, P. 121.
(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.
(4) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212; Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 193.
(5) Stigand, The Land of Zinj, P. 152.
(6) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 182.
(7) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 22.
(8) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 193.
(9) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212.
(10) Ibid, Vol. 3, P. 212.
(11) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 211.
(12) Kirbay, East Africa, P. 11.
(13) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198، 201؛ Kirbay, East Africa, P. 11.

السلطان يتخذ داره قرب الساحل[1]، ربما لقضايا أمنية أو عسكرية، أو لكي يكون في موضع يمكنه من مراقبة وتنظيم الحركة التجارية الواردة والصادرة، إضافة إلى جمال الموقع. وخلف قصر السلطان وجدت بيوت الطبقات الدنيا والعبيد الذين عاشوا في بيوت مبنية من الطين والخشب[2].

وقد وجدت بعض المرافق الاجتماعية في مدن الساحل، وإن كانت قليلة. فإضافة إلى المساجد وجدت دور الضيافة، كما في مقادشو مثلاً، والتي سميت بدار الطلبة، وقد أعدت لضيافة الطلبة والفقهاء والعلماء القادمين إلى المدينة، وكانت تقع قرب دار الشيخ[3]، وأخرى في سونغو منارا بكلوة ملحقة بالمسجد[4].

وفي بيوت مدن الساحل وجد نظام إسالة الماء، كما في بيوت كلوة وغيدى، حيث وجدت الحمامات التي تغذيها المياه الجارية[5]، ووجدت أيضاً شبكة لمجاري المياه القذرة، كما في الحصن الكبير في كلوة المسمى حصوني كبوا Husuni Kubwa[6]. وكان في سونغو منارا نظام إسالة مع مغاسل وأنابيب صخرية[7]. وقد استخدمت بيوت الساحل وسائل معينة لتبريد المياه، حيث أنشئت فيها غرف صغيرة تحتوي على فجوات توضع فيها جرار المياه لتبريدها[8]. وبسبب كثرة الحدائق والبساتين في مدن وبيوت الساحل فقد أسست قنوات عديدة لجريان المياه العذبة إلى الحدائق والبساتين لريها، كما في كلوة مثلاً[9].

وقد شهدت مدن الساحل تحولاً في طرز بنائها؛ فمقاديشو مثلاً كانت من أولى المدن التي

---

(1) Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(2) Ibid, P. 64.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 197.

(4) Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 5.

(5) Kirby, East Africa, P. 11.

(6) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 109.

(7) Mathew, Songo Mnara, P. 156.

(8) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 213; Zamani, Asurvey of East African History, P. 114.

(9) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 18.

تحولت من البناء بالخشب واللّبن إلى البناء بالحجر[1]، وهو أمر يدل على ثرائها المتزايد[2]. أما في لامو ـ وخصوصاً في ماندا ـ فقد بنيت البيوت بالصخور المرجانية المثبتة بالملاط. مع وجود كثير من البيوت المبنية بالطين والقصب[3]. وقد شيدت بيوت مومباسا من الحجر والصخر[4]، وأحياناً من الحجر والجص[5]، وهي عالية جداً[6]، ومزينة بزخارف خشبية جميلة[7]، وطرز بناء بيوتها يشبه نمط بناء البيوت في الأندلس[8]. وشوارعها جميلة التخطيط كشوارع كلوة[9]، يخترقها المشاة والفرسان على جيادهم المطهمة[10]. أما في ماليندي فقد استخدمت الأحجار والصخور في بناء بيوتها التي اشتهرت بجمالها ونوافذها المزخرفة وسطوحها المستوية[11]، كما امتازت شوارعها بتنظيمها الهندسي البديع[12]. ويبدو أن العرب أعادوا بناءها في القرن 7هـ/ 13م، حيث اتسمت مبانيها بطرازها العربي الذي تخللته نقوش إفريقية ذات ألوان صارخة زاهية[13].

ومن بين جميع مدن الساحل اشتهرت كلوة بأنها من أحسن المدن وأتقنها عمارة[14]؛ فبيوتها

---

(1) Guillian, Documents sur L' Histoire, Deuxeme Parite, Tome Premier, P. 520.

(2) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 112.

(3) Zamani, Asurvey of African History, P. 109.

(4) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 17.

(5) Davidson, The Growth of African cCivilization, P. 109.

(6) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 20; Davidson, The Growth of African Civilization, P. 109.

(7) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 20.

(8) حراز، إفريقية الشرقية، ص 9.

(9) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 20; Davidson, The Growth of African Civilization, P. 109.

(10) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 20.

(11) Ibid, Vol. 1, P. 22.

(12) حراز، إفريقية الشرقية، ص 9.

(13) سعد، مدن عربية، ص 64.

(14) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

كثيرة وجميلة مبنية بالحجر والصخر[1]، وقد صنعت أبوابها من الخشب المنحوت[2] المزخرف بزخارف جميلة جداً[3]، وانتظمت شوارعها لانتظام بيوتها[4] التي أحاطتها حدائق زرعت بمختلف أشجار الفواكه والنخيل[5]. وتعتبر أبنية منطقة سونغو منارا أرقى إنجاز معماري في كلوة، والتي ينسب بناؤها إلى مهاجرين عرب قدموا من الجزيرة العربية أو الخليج العربي، وما زالت أبنيتها قائمة إلى الآن[6]، وهي تشهد على عظمة الفن المعماري العربي الإسلامي.

2ـ الأسوار والحصون:

لم يهتم أهل مدن الساحل الإفريقي الشرقي كثيراً بتشييد الأسوار والحصون للأغراض الدفاعية إلا في حالات قليلة، فبسبب اهتمام مدن لامو وباتا بالجهاد ضد الوثنيين سكان الداخل، وبسبب كونهم في حالة حرب مستمرة معهم، فقد سورت المدينتان بأسوار من الصخور والحجارة[7]، وما يزال جزء من آثار سور باتا قائمًا حتى الآن[8]، كما كانت مقادشو مسورة بسور له أربعة بروج[9].

أما غيدي الواقعة شمال مومباسا بنحو 65 ميلاً، فقد سُورت بسورين داخلي وخارجي[10]،

---

(1) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 17; Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64; Freeman - Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 192. بينما يذكر ابن بطوطة أن بيوتها مبنية بالخشب، الرحلة، ج1، ص 200. ومن المحتمل أن ابن بطوطة عندما زار كلوة حوالي منتصف القرن 8هـ/ 14م كانت بيوتها مبنية بالخشب، ثم تحول السكان إلى البناء بالصخور والأحجار تدريجياً، بحيث إنه عندما وصل البرتغاليون إلى الساحل أواخر القرن 9هـ/ 15م وجدوا معظم مدنه مبنية بالصخور.

(2) Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(3) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 17.

(4) Ibid, Vol. 1, P. 17.

(5) Ibid, Vol. 1, P. 18; Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(6) Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 5.

(7) مراجعة: Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 29; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 121.

(8) Chittick, Anew Look At The History of Pata. P. 375.

(9) المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، ج3، ص 574.

(10) Freeman - Grenville, The Medieval History of The Coast, P. 192; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 129.

أما السور المضلع لمدينة ماكوتاني بكلوة فيحيط بمنطقة تبلغ مساحتها حوالي خمسة فدادين[1].

ويعتبر «حصوني كبوا»؛ أي حصن كبوا في كلوة أكثر الاكتشافات أهمية في هذا الموضوع، ففي الداخل بُني قصر ذو طراز معماري رفيع وخالٍ من أي تأثيرات معمارية إفريقية، بل يشابه تصميمه الطرز المعمارية في مختلف مناطق الدولة العربية الإسلامية[2]، ويعتبر تصميمه أرقى ما وصلت إليه طرز بناء التحصينات في الساحل الإفريقي الشرقي[3]؛ لأنه يختلف عن أي بناية معروفة في الساحل، فتصميم جدرانه الخارجية يشبه طرز عمارة الدولة العربية الإسلامية إبان الحكم الأموي والعصور العباسية الأولى[4]، ومن الممكن مقارنته بتصاميم البناء في مدينة المشتى في الأردن، والجامع الكبير في مدينة الرقة بالجزيرة الفراتية أواخر القرن 4هـ/ 10م[5].

والمعتقد أن باني هذا الحصن هو سلطان كلوة الحسن بن سليمان الذي حكم بين 587 ـ 612هـ/ 1191 ـ 1215م[6]، فقد وجدت نقوش باللغة العربية في هذا الحصن مزخرفة، منها نص يدعو الله تعالى أن يراعي الملك المنصور الحسن بن سليمان الذي لقب بناصر أمير المؤمنين[7]. والمعتقد أن تاريخ بناء الحصن يعود إلى أواخر القرن 6هـ/ 12م[8]، وقد استقدم البناؤون المهرة من العراق ومصر لبناء هذا الحصن[9]، وهذا قد يوضح لنا سبب تشابه

---

(1) Chittick, Notes on Kilwa, P. 186.

وتقدر مساحة الفدان في العصور الوسطى بحوالي 6368 متر مربع. هنتس، المكاييل والأوزان، ص 98.

(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 125.

(3) Chittick, Notes on Kilwa, P. 199.

(4) Chittick, Kilwa and The Arab Settlement, Vol. 17, P. 188; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 212.

(5) Chittick, kilwa and The Arab Settlement, Vol. IV, P. 188.

(6) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. I, P. 125.

(7) Chittick, Kilwa and The Arab Settlement, Vol. IV, P. 186; The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 205.

(8) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 126.

(9) Ibid, Vol. 1, P. 125.

وهناك رأي آخر مفاده أن هذا الحصن كان سوقاً تجارياً بناه السلطان الحسن بن سليمان سلطان كلوة. مراجعة: The Cambridge History of Africa, Vol. 3. P. 205.

وهناك رأي يذهب إلى الاعتقاد بأن هذا الحصن كان قصراً محصناً. Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 162.

طراز بنائه مع طرز الأبنية الأموية والعباسية.

3ـ المساجد:

كان لاستقرار المهاجرين العرب في الساحل وارتباطهم بسكانه الأصليين بروابط عميقة أثره الفعال في نشر الإسلام بين الأهلين، فتقبلوه تقبلاً حسناً، وتشبعوا بمبادئه، بحيث وصفوا بأنهم أهل دين وصلاح وورع. ومن المنطقي وقد انتشر الإسلام في طول الساحل أن تهيأ للمسلمين مراكز العبادة، فكان وجود المساجد في كل مدينة من مدنه. إن عدد المساجد الكبير في الساحل يدل على أن طابع الحضارة الإسلامية الوسيطة كان بالأساس طابعاً دينياً[1]. وبما إن معظم الساحل اعتنق الإسلام منذ القرنين 3 و4هـ/ 9 و10م فإنه كان لكل مدينة مساجدها العديدة المزخرفة بنقوش إسلامية جميلة[2].

إن أقدم إشارة للمساجد في الساحل نجدها في بقايا مسجدين عُثر عليهما في جنوب غرب باجامويو[3]، وتحمل بصمة طرز البناء العربية، وتعود إلى القرن 1هـ/ 7م[4]. ومع أن الكتابات المؤرخة قليلة في مساجد الساحل إلا أننا نجد في بعضها كتابات سجلت تواريخ البناء، وأسماء مؤسسيها في بعض الأحيان. ومن أقدمها مسجد كيزمكازي الواقع جنوبي جزيرة زنجبار، والذي زُين بنقوش وكتابات كوفية أشارت إلى تاريخ إنشائه الذي يعود إلى عام 500هـ/ 1106م[5].

أما مقادشو فيبدو أنها احتلت مكانة إسلامية مرموقة بين مدن الساحل؛ فقد كان سكانها من المسلمين، وكثر عدد المساجد بها حتى سميت بـ «مدينة الإسلام المشهورة في ذلك

(1) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 205.

(2) Coupland, East Africa, P. 26.

(3) باجامويا، تقع قرب دار السلام في تنزانيا حالياً.

(4) Forster, Anote On Some Ruine Near Bagamoyo, PP. 105, 109.

(5) Flury, The Kufic Inscription, P. 257 and 258 – 259; Ingrams, Zanzibar, P. 133; Freeman – Grenville, Some Preliminary, P. 64.

الصقع والمترددة الذكر على ألسن المسافرين»[1]. وأشهر جوامعها ثلاثة؛ أولها سمي بالجامع الكبير، وتذكر اللوحة المنقوشة بخط النسخ على أحد أبوابه تاريخ إنشائه، وهو سنة 636هـ/ 1238م[2]؛ أما الثاني فهو جامع فخر الدين الذي يحمل محرابه نقش تاريخ بنائه، واسم بانيه، وهو أول شيوخ مقادشو المدعو أبو بكر بن فخر الدين، في سنة 667هـ/ 1268م[3]؛ ويدعى الثالث جامع الأركان الأربعة Arba Rukn[4]، وتوحي هذه التسمية بأن حلقات التدريس العلمية الفقهية كانت تُعقد به. وعرف عن مركة كثرة جوامعها التي تراوحت بين 13 ـ 14، وكلها منقوشة بزخارف جميلة[5].

وقد وجدت المساجد العديدة في مومباسا التي كانت مبنية من الخشب، وجميلة الصنعة، و«محكمة الإتقان»[6]، كما وجدت خرائب لمسجد كبير في كلنديني Kilindini التي تعتبر الميناء الجنوبي لمومباسا[7]. أما في كليفي Kilifi الواقعة على بعد 35 ميلاً شمال مومباسا فقد وجدت بقايا مسجدين، وأسس مسجد ثالث مع بقايا زخارف مرجانية منحوتة ونقوش عربية[8]. ويعتبر مسجد تكوا في جزيرة ماندا ـ وهي إحدى ثلاث جزر رئيسة في أرخبيل لامو ـ من ضمن المعالم العربية العديدة المنتشرة على طول الساحل الإفريقي الشرقي[9].

وقد حظينا بوصف جميل لمسجد مدينة غيدى، فهو على شكل مستطيل يتجه بين الجنوب والشمال، وسقفه مستو، وهناك صف من الأعمدة أمام المحراب، بحيث تحجب رؤية المحراب تقريباً، وفي مدخل الجامع عدة أقواس. وعلى العموم فقد بني هذا المسجد ـ شأنه شأن معظم

---

(1) ابن سعيد، الجغرافية، ص 82.
(2) Yajima, Zanzibar, P. 53; Robinson, Some Historical Notes on East Africa, P. 35.
(3) زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ج1، ص 75.
(4) Yajima, Zanzibar, P. 53.
(5) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Tome Premier, P. 135.
(6) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.
(7) Kirkman, Man, and Monuments, P. 119.
(8) Kirman, Mnarani of kilifi, P, 95.
(9) Kirkman, Takwa, The Mosque of The Pillar, P. 176.

المساجد ـ على غرار الطراز السائد في الساحل في بناء المساجد[1].

أما كلوة التي عرفنا سابقاً مدى قوتها السياسية وثرائها، حيث تمكنت من فرض سيطرتها على معظم الساحل الشرقي، حتى ذكر أن سكانها اعتنقوا الإسلام وتكلموا العربية[2]، فإن آثارها العديدة تدل على وجود عدة مساجد فيها، منها جامع كبير هو جامع الجمعة، أو ما سمي بـ الجامع العظيم[3]، وهو أكبر وأجمل جامع باقٍ في كل الساحل الإفريقي الشرقي[4]. ومع أن تاريخ بنائه غير معروف، إلا أن من المؤكد أن السلطان سليمان بن الملك العادل الملقب بـ المطر الجديد الذي حكم من 835 ـ 856هـ/ 1431 ـ 1452م هو الذي أمر بإعادة بنائه[5]، وتألف من قسمين؛ شمالي وجنوبي، تميز سطحه بمنارات وقبب زرقاء، وإلى شرقِه تنتصب منارته العالية الأسطوانية الشكل[6]. وعلى العموم فقد اشتهرت كلوة بكثرة مساجدها التي تزيد على الثلاثمئة[7]. ومن المؤسف أن البرتغاليين دمروا هذه المساجد عند وصولهم إلى الساحل في أواخر القرن 9هـ/ 15م[8].

وكانت الجوامع تنتشر بكثرة في جزر زنجبار وبمبا ومافيا بسبب إسلام أهلها، وتفقههم بالدين، وتشربهم بمبادئه، يقرأ فيها القرآن الكريم. ففي بمبا وحدها، اكتشفت آثار مساجد تزيد على العشرة[9]، وقد وجد في خرائب مدينة مكومبو Mkumbuu[10] مسجد رائع يأتي في الدرجة الثانية من حيث روعته وطرازه المعماري في كل المنطقة الحالية التي تمثّل تنزانيا وكينيا

---

(1) Kirkman The Arab City of Gedi, P. 1.

(2) Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 131.

(3) Chittick, Notes on kilwa, P. 192.

(4) Posnansky, Prelude To East African History, P. 118.

(5) الصوافي، السلوة، ص 9 ـ 10؛ Strong, The History of kilwa, P. 416 – 417; Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 13 – 14.

(6) Chittick, Notes on kilwa, P. 119.

(7) مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 423.

(8) مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، ص 423.

(9) Ingrams, Zanzibar, P. 137.

(10) وهي المدينة الثانية في بمبا بعد تومباتو Tombatu. مراجعة: Gray, Ahistory of Zanzibar, P. 18.

وزنجبار[1]، بعد جامع كلوة الكبير.

سنعرض الآن مميزات الفنية التي تميزت بها مساجد الساحل الإفريقي الشرقي: في جامع كيزمكازي Kisimkazi بزنجبار عثر على عدة نقوش كوفية محفورة في الصخر، وهي تزين جدار القبلة والمحراب، وهي ذات قيمة فنية وتاريخية كبيرة[2]، وتعتبر فريدة من نوعها، ليس في الساحل الإفريقي الشرقي فحسب، بل في الأقاليم الآسيوية التي دخلها الإسلام[3]. والميزة الأساسية فيها أنها ذات دقة ومهارة، إلى درجة أنه ليس من المعقول أن تكون من عمل حرفي محلي لا يعرف شيئاً أكثر من تلك النقوش الموجودة في منطقته الأصلية[4]. وعلى الرغم من تشابه هذه النقوش مع نقوش القاهرة الكوفية التي يعود تاريخها إلى 20 سنة بعد تاريخ نقوش كيزمكازى، إلا أن نقوش القاهرة بسيطة، وغير مزخرفة، ولا تصل في إتقانها وجمالها إلى المدى الذي وصلت إليه نقوش جامع كيز مكازي بزنجبار[5]. ويحق لنا أن نتساءل فيما إذا كان قد استقدم بناؤون مهرة من منطقة الخليج العربي لبناء وزخرفة مسجد كيزمكازي، أم كانت هناك هجرة مستقرة في زنجبار قدمت من أقاليم عربية أخرى قامت ببناء هذا المسجد، بحيث ظهر طابع النقوش والكتابات الكوفية واضحاً فيه، بل اعتبرت هذه النقوش فريدة من نوعها في كل الساحل الإفريقي الشرقي.

أما عن المحراب فيبدو أنه يمثل الأنموذج لمحاريب مساجد ساحل إفريقية الشرقي، وهو على شكل قبة نصف دائرية، ذات جوانب مسطحة، تزين بنقوش وزخارف عربية تتضمن آيات قرآنية[6]، إضافة إلى تزيينها بالصخور المرجانية المحفورة والمنقوشة بأشكال جميلة[7].

---

(1) Gray, Ahistory of Zanzibar, P. 18.
(2) Flury, The kufic Inscription, P. 257.
(3) Ibid, P. 264.
(4) Ibid, PP. 262 – 263.
(5) Ibid, P. 261.
(6) Kirkman, Mnarani of kilifi, P. 97.
(7) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 118.

وقد تميزت مساجد الساحل بكثرة قبابها المزخرفة بزخارف أنيقة، كما في قباب المسجد الجامع في كلوة[1]، كما زينت أبواب بعض المساجد بزخارف جميلة، تحمل أحياناً تواريخ محددة[2]، إضافة لاستخدام المصابيح الزجاجية الملونة الخضراء والزرقاء التي تشبه النماذج المصرية في العصور الوسطى[3]. ومن الطريف التنويه هنا بأن زينة المساجد الشائعة جداً في إفريقية الشرقية هي استخدام أشكال عظام أسماك الرنكة؛ ففي جامع سونغو منارا بكلوة مثلاً استندت القبة على أعمدة مزخرفة بأشكال هذه العظام[4]. وقد تأثرت طرز بناء القباب والأقواس في بعض مساجد الساحل، كجامع كلوة، بالفنون المعمارية المصرية[5]، وبالطرز الهندسية الإسلامية عموماً[6]. كما تميزت جميع النقوش والزخارف بطابعها الهندسي، وخلوها من رسوم الأشخاص والحيوانات للاعتبارات الدينية الإسلامية[7].

ولا تحدد مصادرنا موقع المسجد، فأحياناً يقع قرب دار السلطان كما في مقادشو[8]، وأحياناً أخرى يكون مجاوراً للسوق، أو في وسطه[9]. كما احتوى المسجد على مقصورات مخصصة لصلاة السلاطين، أو الشيوخ وحدهم، بينما يصلي الآخرون خلفها كما في جامعي مقادشو وكلوة[10]. إضافة إلى مبانٍ لاستقبال الضيوف، وأخرى لسكن الغرباء الوافدين كما في جامع تكوا بهاندا في أرخبيل لامو[11]، كما وُجدت دار ضيافة ملحقة بمسجد سونغو منارا[12]. وسمي

(1) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 183; Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 118.

(2) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 118.

(3) Mathew, Songo Mnara, P. 155.

(4) Kirkman, Manarani of kilifi, P. 100; Mathew, Songo Mnara, P. 155.

(5) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 204.

(6) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 118.

(7) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 118.

(8) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198.

(9) Freeman – Grenville, Some Perliminary Observations, P. 67.

(10) ينظر: ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198؛ Chittick, Notes on kilwa, P. 193.

(11) Kirkman, Takwa, PP. 176 – 180.

(12) Gray, Ahistory of kilwa, Part. 1, P. 5.

مكان الوضوء في المسجد باسم (المبركة)[1]، يبدو أنه مشتق من الكلمة العربية (البركة).

4 ـ مظاهر الحياة الاجتماعية:

إن معلوماتنا عن مظاهر الحياة الاجتماعية في الساحل ضئيلة جداً، لكننا سنحاول رسم صورة عنها من خلال الإشارات التي أوردتها مصادرنا.

فبالنسبة إلى اللباس فقد ارتدى سكان الساحل الإفريقي الشرقي الملابس الثمينة المذهبة المصنوعة من الحرير والقطن[2]، وقد يكون هذا هو لباس علية القوم، ويعطينا ابن بطوطة على سبيل المثال وصفاً للباس شيخ مقادشو عندما زاره، فقد «كان لباسه... فرجية[3] قدسية خضراء، وهو متقلد بفوطة حرير، ومعتم بعمامة كبيرة»[4]، ويبدو أن طراز لباسهم هو نفس طراز اللباس العربي[5]. وفي بعض الأحيان كان الرجال يكتفون بتغطية أجسامهم من الوسط إلى الأسفل بالأقمشة القطنية والحريرية، ويضعون فوق أكتافهم العباءات، مع استخدام أحزمة للخصر وعمامات من أنواع غالية. وكانت ألوان ملابسهم أحياناً براقة وصارخة[6]، وقد تحلت نساؤهم بعقود الذهب والفضة وأنواع الحلي الثمينة الأخرى[7].

ولم يعرف السكان السراويل، وكانوا يستخدمون عوضاً عنها فوط الخز يشدونها على أوساطهم[8]. وقد شاع استخدام الدراعة[9] المصنوعة من بعض أنواع الأقمشة المصرية المستوردة، كما استوردت أنواع أخرى من الأقمشة والملابس من القدس، وصنعت عمائمهم

---

(1) Forster, Anots on Some Ruins, P. 105.

(2) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 195.

(3) الفرجية: ثوب فضفاض، أكمامه طويلة تتجاوز أطراف الأصابع. دوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد ـ 1971، ص 265 ـ 270.

(4) الرحلة، ج1، ص 198.

(5) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tome Premier. P. 522.

(6) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 6, 17, 19, 22.

(7) Ibid, P. 17.

(8) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198.

(9) الدراعة: رداء يعمل من الصوف، مفتوح من الأمام من أعلى القلب، وفيه أزرار وعرى. دوزي، المعجم المفصل، ص 146.

من الأقمشة المصرية أيضاً[1] على الرغم من وجود عدة مصانع لصنع الأقمشة في مدن الساحل، ومنها مقادشو التي اشتهرت بصنع الثياب الممتازة[2]، ومن الطريف أن نذكر أن سكان الساحل الأصليين من الزنوج كانوا يستخدمون جلود النمور في ملبسهم[3].

أما طعام السكان فقد اعتمد بالدرجة الرئيسة على الذرة[4]، وعلى نوع من النبات يشبه الكمأة يدعى الكلاري[5]، كما أكلوا الرز المطبوخ بالسمن[6]. وقد شكلت اللحوم جزءاً مهمًا من طعام السكان، كلحوم الأغنام والدجاج وبقية أنواع المواشي، والأسماك[7]. وقد أكثروا من أكل الموز الذي زرع بكثرة عندهم، وأحياناً كانوا يطبخونه قبل نضجه مع الحليب[8]. كما صنعوا اللبن الرائب الذي يضيفون إليه الليمون والفلفل المملح والمخلل والزنجبيل الأخضر والعنبا التي تكون قبل نضجها حامضة الطعم، فيخللونها ويأكلون هذه الموالح والمخللات مع الرز[9]. ومن فواكهم الأخرى ـ إضافة إلى الموز ـ الليمون والأترج والجمون الذي يشبه الزيتون إلا أنه شديد الحلاوة[10].

وكان شيخ مقادشو يضع الموائد لسائر الناس في دار خاصة سميت بدار الطعام، يأكلون فيها على ترتيب معين، فيأتي في المقدمة الفقهاء والشرفاء والمشايخ والحجاج والوزراء والأمراء، ومن أراد الشيخ تشريفه فإنه يبعث إليه ليأكل معه[11]. أما الطبقات الدنيا فكان طعامها يعتمد

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198.
(2) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 195 - 196.
(3) ابن سعيد، عجايب الأقاليم السبعة، ص 6.
(4) المسعودي، مروج، ج2، ص 17؛ Devic, Le Pays Des Zindjs, P. 142.
(5) المسعودي، مروج، ج2، ص 17.
(6) المسعودي، مروج، ج1، ص 197؛ The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 218.
(7) Freeman - Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 196; The Camridge History of Africa, Vol. 3, P. 217; Devic, Le Pays Des Zindjs, P. 142.
(8) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 197؛ Devic, Le Pays Des Zindjs, P. 217.
(9) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 197، 198.
(10) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.
(11) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 199.

على الدخن والرز، وأنواع مختلفة من الجذور المزروعة، وكميات من الفواكه البرية[1].

وكانت أواني الطعام تصنع من الخشب[2] أو من الخزف[3]. وقد اهتمت الطبقات العليا من السكان باستيراد الخزف الإسلامي الصقيل أو المزجج أو الخزف الصيني. ويظهر أنه حتى السكان الفقراء كانوا في القرن 9هـ/ 15م يأكلون طعامهم في أواني خاصة بدلاً من تناولها من القدر مباشرة[4]. وقد صنعت قدور الطبخ من الفخار المحلي، وسميت باسم (صفرية)، وهي كلمة عربية، إلا أن الأغنياء استخدموا أواني نحاسية. كما استوردوا الأطباق والأواني من العراق وسوريا ومصر، وفيما بعد من الهند والصين[5]. ومن الجميل التنويه هنا أن قدور الطبخ المزخرفة والمصنوعة مثلاً في غيدي تشابهت مع تلك الموجودة في جميع مناطق الساحل التي سادتها مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، ويبدو أنها عربية الأصل؛ جلبها المهاجرون الأولون معهم، ثم صنعها السكان المحليون لاحقاً[6]. كما استُخدمت الأواني الفخارية التي تشبه الفخار السوري المصنوع في القرنين 3 و4 هـ/ 9 و10م[7].

إن أغلب مواد الترف في منطقة الساحل الإفريقي الشرقي صنعت من الزجاج والمعدن والفخار والخزف المعروف في المنطقة الغربية أو خزف الشرق الأقصى. كما وجدت كؤوس معدنية للشرب، وجرار فخارية للماء إسلامية الطراز، إضافة إلى الأواني الفخارية ذات الطراز العربي[8]. وقد وجدت في بعض مناطق الساحل ـ مثل غيدى ـ أواني فخارية عليها نقوش وكتابات كوفية، إلا أنها لم تصنع في غيدى، وربما تكون صنعت في مقادشو أو في المراكز العربية

(1) Dorman, The Kilwa Civilization, P. 64.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 197.

(3) Zamani, Asurvey of East African History, P. 115.

(4) Ibid, P. 115.

(5) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 194.

(6) Kirkman, The Arab City of Gedi, P. 74.

(7) Ibid, P. 12.

(8) Ibid, PP. 71 – 72.

الأخرى في الساحل[1]. وقد استخدم السكان المصابيح الفخارية، واستوردوا الشموع التي حملت في الساحل اسماً عربياً هو (مشمع)[2].

5 ـ الزراعة والصناعة:

لابد لنا من أن نأخذ فكرة موجزة عن المحاصيل الزراعية التي أدخلت زراعتها بفضل التجارة بالدرجة الأولى إلى الساحل الإفريقي الشرقي؛ إذ إن من المتفق عليه أن الزنوج عرفوا منذ وقت مبكر زراعة عدة أنواع من الحبوب؛ كالدخن والفول السوداني والسمسم، حيث يعتقد أن زراعتها أدخلت إلى الشاطئ الإفريقي منذ أوقات موغلة في القدم[3]، كما انتقلت زراعة بعض أنواع الحبوب كالقمح والشعير والعدس إلى الساحل من المصريين القدماء[4].

وكان للاستقرار العربي في الساحل الشرقي أثر في إدخال بعض المزروعات ذات الأصل الأسيوي؛ كالنباتات العطرية والرز والقطن وقصب السكر[5]. فبما أن هذا الاستقرار اتخذ شكل إقامة مدن ومراكز قوية ثابتة في الساحل، مارست التجارة في معظم المواد، وسادت في الطرق التجارية، لذا كان لابد لها من أن تؤمن حاجاتها الاقتصادية، وتبني لنفسها أساساً اقتصادياً قوياً يتضمن نظاماً زراعياً يكفل لها توفير حاجاتها اليومية، من هنا اهتم عرب الساحل بالزراعة، وأدخلوا أنواعاً جديدة من المزروعات إليه[6].

من هذه المزروعات الرز الذي اشتهرت ضفاف الأنهار قرب المدن بزراعته[7]، وخاصة

(1) Ibid, P. 78.
(2) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 154.

(3) ويدنر، تاريخ إفريقية، ص 24 ـ 25.
(4) ويدنر، تاريخ إفريقية، ص 24 ـ 25.
(5) عبد الرسول، دراسات في الهجرات، ص 258.
(6) حراز، إفريقية، ص 6. مراجعة: بولم، الحضارات الإفريقية، ص 132.

(7) Coupland, East Africa, P. 34.

بمبا[1]، التي كان جزء من إنتاجها يستهلك محلياً، والباقي يصدر إلى عدن[2]. كما شكلت الذرة[3] والحمص[4] غذاء السكان الرئيس[5]، فانتشرت مزارع الذرة بكثرة[6]، وكذلك الحمص الذي نقلت زراعته إلى الساحل من قبل التجار الواردين إليه[7]. كما انتشرت زراعة قصب السكر[8]، وخاصة في بمبا[9]، وكذلك القطن الذي أدخل العرب زراعته إلى الساحل[10]، واشتهرت مقادشو بزراعته وتصديره إلى مدن الساحل الأخرى[11].

وقد زرعت أشجار جوز الهند في الساحل منذ فترة مبكرة تعود إلى القرن الأول للميلاد[12]، حيث أدخل التجار زراعته إلى الساحل من الهند، وقد اشتهرت كل من زنجبار ومافيا بزراعته[13]. وعندما استقر العرب في لامو جلبوا معهم بذور شجرة جوز الهند، وزرعوها هناك[14]، وقد قام السكان باستخلاص زيته[15]. كما زرعت أنواع الفواكه في كافة أنحاء الساحل، حيث جلب بعضها من الشرق من قبل التجار، كالبرتقال[16] مثلاً والليمون[17]

(1) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1. P. 133; Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 133; Pearce, Zanzibar, P. 395.

(2) Zamani, Asurvey of East African History, P. 116.

(3) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 162؛ Devic, Le Pays Des Zindjs, P. 142.

(4) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 162 ـ 163.

(5) Devic, Le Pays Des Zindjs, P. 142.

(6) الرامهرمزي، كتاب عجايب الهند، ص 173.

(7) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص 162 ـ 163.

(8) الرامهرمزي، كتاب عجايب الهند، ص 173. السيرافي، رحلة السيرافي، ص 100.

(9) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 197.

(10) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 655.

(11) Guillian, Documents sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tome Premier, P. 528.

(12) Zamani, Asurvey of East African History, P. 106.

(13) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 133.

(14) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 11.

(15) Zamani, Asurvey of East African History, P. 106.

(16) Coupland, East Africa, P. 34; Zamani, Asurvey of East African History, P. 116.

(17) Zamani, Asurvey of East African History, P. 116.

اللذين زرعا في مناطق الساحل، كماليندي[1] وممباسا[2] وكلوة[3]، وكذلك الأترج والجمون الذي يشبه الزيتون، إلا أنه شديد الحلاوة[4]، كما وجد الرمان، أيضاً وخاصة في مومباسا[5]. وقد اشتهرت زراعة الموز في الساحل بأنها من الزراعات القديمة التي أدخلتها بعض الأقوام المهاجرة إلى الساحل من الشرق الأقصى[6]، وكان يعتبر غذاء السكان الاعتيادي في الساحل[7]، كما أنه شكل جزءاً مهماً من غذاء سكان مومباسا[8]، وقد زرع في لامو أيضاً[9]. وزرعت الكروم التي تثمر ثلاث مرات في السنة في الساحل، وخاصة في زنجبار[10].

اعتنت مدن الساحل عموماً بالزراعة، فقد اشتهرت كل من مالیندی ومومباسا باهتمامها بالزراعة، وكثرة المزارع المنتشرة فيها[11]، والأنواع الكثيرة من الحبوب والخضر والفواكه التي تزرع فيها[12]. وفي باتا اهتم بعض حكامها بإنشاء المزارع وتوسيعها[13]. كما شهدت كلوة ازدهار زراعة مختلف أنواع المزروعات[14]، وكانت بساتين الفواكه تحيط المدينة وتسقيها المياه العذبة التي تمر في قنوات خاصة بها[15]. وكان العبيد السود هم اللذين يقومون بالزراعة، وهم

---

(1) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 197.

(2) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 20.

(3) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 196.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200.

(5) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 20; Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 132.

(6) Hollingsworth, Ashort History, P. 4.

(7) Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 142.

(8) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 200. يُنظر أيضاً: Robinson, Some Historical Notes, P. 40.

(9) Robinson, Some Historical Notes, P. 40.

(10) الحموي، معجم، ج7، ص 339؛ القزويني، آثار البلاد، ص 59.

(11) ويدنر، تاريخ إفريقية، ص 137. إلا أن ابن بطوطة يذكر أن أهل مومباسا لا زرع لهم، وهم يجلبون ما يحتاجونه من المناطق المجاورة. الرحلة، ج1، ص 200.

(12) Barbosa,The Book of Durate Barbosa, Vol, 1. P, 20; Freeman - Grenville, The East African Coast, P. 132.

(13) Werner, The History of Pata, P, 157.

(14) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 196.

(15) Ibid, P. 196.

أسرى الحروب والغارات، وإن كان من الصعب تقدير أعدادهم[1].

وقد أطلقت تسمية مخزن الغلال[2] على جزر زنجبار وبمبا ومافيا؛ لكثرة ما كان يزرع فيهم من الحبوب والفواكه[3]، بل إن بمبا على الأخص صدرت كميات كبيرة من الفواكه والحبوب إلى الداخل[4]. إلا أن هذا لم يمنع بعض مناطق الساحل - كماليندي مثلاً - من استيراد ما تحتاج إليه من الحبوب، كالرز والحنطة من الهند[5].

إن استقرار مدن الساحل العربية الإسلامية السياسي ورخاءها الاقتصادي الذي نجم عن قوتها السياسية، واحتكارها لإنتاج وتصدير كثير من المواد المهمة، مكن السكان إضافة إلى استيراد ما يحتاجون إليه، من إنشاء الكثير من الصناعات التي يحتاج إليها مجتمع مزدهر كمجتمع هذه المدن، وهذا الأمر هو نتيجة حتمية لذلك الازدهار. لذا فقد ظهرت في أنحاء عديدة من الساحل صناعات مختلفة قامت معظمها على المواد الأولية التي وجدت أصلاً في هذه المنطقة.

فقد اشتهرت مقادشو بصنع الثياب التي «لا نظير لها»[6]، والتي صدرت إلى مصر وبقية المناطق. ويبدو أن صناعة المنسوجات هذه كانت قائمة على القطن المزروع بمقادشو نفسها. لكن هذه الصناعة بدأت بالاضمحلال بعد احتلال البرتغاليين لمدن الساحل[7]. وكان الحرير ينتج في باتا، حيث استخدم في تجارتها الخارجية[8]. وفي زنجبار كانت هناك مصانع لصناعة الأقمشة القطنية والحريرية الجميلة، وكذلك صناعة الحبال من ألياف شجر جوز الهند[9].

---

(1) Ibid, P. 197.

(2) Freeman – Grenville, The East African Coast, P. 133.

(3) Ibid, P. 133.

(4) Gray, History of Zanzibar, P. 4; Pearce, Zanzibar, P. 394 - 395

(5) Barbosa, The Book of Duarte Barbosa, Vol. 1, P. 23.

(6) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 196.

(7) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Partie, Tome Premier, P. 528.

(8) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 217.

(9) Devic, Le Pays Des Zendjs, P. 80.

وكانت الأقمشة تصنع في كلوة من القطن المزروع فيها محلياً[1]، والتي استخدمت للاستهلاك المحلي وللتجارة مع الداخل[2]. ومن الطريف أن نعرف أن معظم هذا القماش المصنوع في كلوة كان يدفع مقابل الحصول على الذهب والخرز الزجاجية[3]. أما في سفالة، وبسبب انتشار زراعة القطن فيها، فقد صنعت الأقمشة البيضاء، وبسبب عدم معرفتهم بطريقة صبغ الأقمشة أو ربما لعدم وجود الأصباغ لديهم فقد كانوا يعمدون إلى الأقمشة الملونة المستوردة من الهند فيستخرجون خيوطها ثم يعيدون غزلها مع أقمشتهم البيضاء اللون، فتتكون لديهم أقمشة جديدة ملونة[4].

كما عرفت بعض مدن الساحل كمقادشو صناعة الجلود وتصديرها إلى الخارج، وهي من الصناعات القديمة التي عرفها الساحل الإفريقي الشرقي[5]. وبسبب حاجة سكان الساحل إلى الأسلحة في جهادهم ضد الوثنيين سكان الداخل المتاخمين لهم، إضافة إلى المنازعات التي كانت تحدث بين مدن الساحل نفسها، فقد ظهرت صناعة الأسلحة؛ ففي لامو كانت هناك منطقة خاصة بصانعي السيوف[6]، كما صنعت السهام والدروع والأقواس في كلوة[7].

وبنتيجة كثرة الذهب والفضة وبقية أنواع الأحجار الكريمة في منطقة الساحل الإفريقي الشرقي فقد تزين السكان بأنواع الحلي، لذلك قامت صناعة صياغة الذهب والفضة، حيث تفنن الصاغة في صنع الأساور والأقراط والعقود الثمينة للرجال والنساء على حد سواء[8]. ويبدو لنا أن هذه الصناعة نشأت في فترة متأخرة ربما تعود إلى ما بعد ازدهار مدن الساحل سياسياً واقتصادياً؛ أي إلى ما بعد القرن 6هـ/ 12م، لأننا نعرف أن سكان الساحل كانوا في

---

(1) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 196.
(2) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 217.
(3) Zamani, Asurvey of East African History, P. 112.
(4) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 9.
(5) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Parti, Tome Premier, P. 525.
(6) الباقري اللاموي، خبر اللامو، ص 15.
(7) Freeman – Grenville, The Medieval History, P. 197.
(8) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 217; Zamani, Asurvey of East African History, P. 116.

البداية يفضلون التحلي بالحديد والنحاس بدلاً من الذهب والفضة على كثرتها عندهم.

وكما عرفنا سابقاً فقد عرف أهل الساحل صناعة أنواع جيدة من العطور، وصناعة تجليد الكتب كذلك، إضافة إلى صناعة النعوش[1]، كما صنعوا الدرق من جلود الفيلة المتوافرة عندهم، ومن الذبل أيضاً[2]، وكذلك صناعة الأبواق العاجية[3].

6 ـ النقود:

كان من المنطقي بعد الازدهار السياسي والحضاري الذي شهدته مدن الساحل العربية الإسلامية أن تنمو مؤسساتها الإدارية والمالية بشكل يتناسب مع نموها الحضاري، واستقرارها السياسي، وثرائها النابع من سيادتها التجارية على مواد التجارة وطرقها. وكان من بين العمليات المالية التي نمت وازدهرت في معظم مدن الساحل عملية سك النقود؛ فقد انتشر استعمال النقود بين السكان، وأسست دور الضرب في معظم المدن لسك النقود، وضرب السلاطين أنواعاً مختلفة منها نقشوا عليها أسماءهم مع آيات قرآنية ونقوش بالخط الكوفي.

ومن الواضح أنه كان للنقود ـ كما في أي مكان آخر ـ أثر علمي وتاريخي مهم، إضافة إلى قيمتها المالية ودورها في العملية الاقتصادية. هذا الأثر يظهر واضحاً في المعلومات التي حملتها، كذكر أو تصحيح أسماء الحكام وسنوات حكمهم، إضافة إلى تزويدنا بمادة جيلة مما حملته من نقوش أو آيات قرآنية، أو أبيات من الشعر، أو ألقاب الحكام التي تشابهت تماماً مع ألقاب الخلفاء العباسيين. فقد أفادتنا النقود كثيراً في تصحيح أسماء العديد من السلاطين، وتحديد وتصحيح تواريخ حكمهم؛ فكثيراً ما أوردت كتب التواريخ معلومات غير مؤكدة عن أسماء بعض الحكام وسنوات حكمهم، إلا أنها صححت بفضل النقود التي سكت في عهد أولئك الحكام وحملت المعلومات الصحيحة عنهم.

---

(1) الجاحظ، رسائل، رسالة فخر السودان، ج1، ص 202.

(2) المسعودي، مروج، ج2، ص 11، 15.

(3) الباقري، اللاموي، خبر اللامو، ص 17.

وبواسطة النقود نستطيع أن نعرف حكم آخر سلطان، ومن قلة النقود أو كثرتها نستطيع أن نخمن حالة المدينة السياسية ومدى قوتها أو ضعفها ومدى انحلالها، كما نستطيع أن نربط توقف سك النقود في منطقة ما بانحلالها السياسي، أو فقدانها لأهميتها السابقة التي جعلتها قادرة على أن تؤسس داراً لضرب النقود فيها، ونستطيع أن نعرف أيضاً مدى الازدهار الذي بلغته بعض مدن الساحل من نقودها التي ضربها سلاطينها، ككلوة مثلاً التي تفنن سلاطينها في ضرب النقود ونقشها، فظهرت أنواع عدة منها وبأشكال مختلفة.

من ناحية أخرى فقد عثر على كثير من النقود الأموية والعباسية في عدة مناطق من الساحل، وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على مدى الازدهار التجاري الذي عاشته المنطقة طوال عهودها، وعلى مدى العلاقات التجارية الوثيقة التي ربطتها مع منطقة الجزيرة العربية والخليج العربي عموماً.

اشتهرت بعض مدن الساحل أكثر من غيرها باهتمام سلاطينها بسك النقود بكميات كبيرة. وإضافة إلى ذلك فقد لعب الترف والرخاء دوراً بارزاً في هذا المجال، فمن بين المدن الكثيرة في الساحل التي وصلت حداً كبيراً من الشهرة والرخاء بعد القرن 6هـ/ 12م كانت كلوة أكثرها نجاحاً وازدهاراً؛ حيث اكتسبت سيادة متزايدة على كل الساحل الجنوبي الشرقي خاصة، وقد حقق لها وضعها التجاري القوي المتين العديد من نواحي التقدم، فمنذ عهد أول سلاطينها علي بن الحسين ضربت النقود النحاسية فيها لأول مرة، واستمر سكها في عهد خلفائه. إن هذه النقود لا تحمل تاريخ السك، وهي جميعها ذات حجم واحد تقريباً، وإن اختلفت قيمتها النقدية[1].

وهناك نقطة مهمة جديرة بالمعرفة، وهي أننا لا نعرف متى سكت النقود لأول مرة في الساحل، ولا في أية مدينة من مدنه العديدة، فلم نعثر على ما يوضح هذا الإبهام. فقبل شيوع استخدام النقود في الساحل كان نظام المقايضة هو السائد، كما استعملت أنواع عديدة من

(1) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 106 – 107.

الصدف والودع في التبادل التجاري. وبمرور الزمن دخلت النقود في كافة أوجه الاستخدامات التجارية، ومن المحتمل أن استخدامها حدث بعد الاستقرار والرخاء اللذين شهدتهما مدنه، وبفعل التجارة الخارجية الواسعة والتأثيرات الحضارية التي جلبها العرب والمسلمون معهم، وكان من بينها التبادل التجاري بواسطة النقود.

إن أغلب النقود المكتشفة سكت من النحاس، وقد وجدت بعض النقود الفضية، إلا أنها قليلة القيمة، وتتكون من قطع صغيرة[1]. وفي كلوة سكت النقود النحاسية منذ مطلع القرن 7هـ/ 13م[2]، ولم يسك أي من سلاطينها نقوداً ذهبية أو دنانير[3]. فقد ضرب السلطان الحسن بن طالوت مؤسس حكم عائلة المهادلة في كلوة أول نقود نحاسية معروفة فيها. ومع أن الذهب كان يعتبر سلعة تجارية غاية في الأهمية ومخصصة للتصدير بأرباح عالية[4]، إلا أن هذا لم يمنع من العثور على مجموعة من النقود الذهبية في أونكوجا أوكو Ungujakuu في زنجبار[5] عليها نقوش كوفية[6]، من بينها دينار ذهبي يعود إلى عام 182هـ/ 798م ضرب في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد[7]، والمعتقد أن مثل هذه العملة الذهبية، وردت إلى الساحل بفعل التجارة.

لقد ازدهرت صناعة سك النقود[8]، وتفنن السلاطين فيها، فقد سك السلطان الحسن بن سليمان (884 - 889هـ/ 1479 - 1484م) النقود بستة عشر شكلاً مختلفاً، وقد عثر على كميات من هذه النقود زادت على 2000 قطعة[9]. وانتشرت دور الضرب في عدة أماكن من الساحل،

(1) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 203.
(2) Posnansky, Prelude To East African History, P. 118.
(3) Gray, Ahistory of Kilwa, Part. 1, P. 14.
(4) Ibid, Part. 1, P. 11.
(5) The Cambridge History of Africa, Vol. 1, P. 194; Ingrams, Zanzibar, P. 134.
(6) Ingrams, Zanzibar, P. 134.
(7) The Cambridge History of Africa, Vol. 3, P. 194 – 195.
(8) Zamani, Asurvey of East African History, P. 114.
(9) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 124.

إذ يحتمل وجود دار لضرب النقود في مقاديشو[1]، على اعتبار أنها امتلكت عملة خاصة بها[2]؛ وفي كسماني بيافيا أنشأ سلاطين كلوة من عائلة أبي المواهب داراً للضرب[3]، وكذلك زنجبار[4]؛ أما كلوة فمن الطبيعي أن يكون فيها دار للضرب، وكان إنتاجها من سك النقود يزداد بازدياد قوتها ورخائها[5]. أما نقوش هذه النقود فهي بشكل عام تشبه نقوش النقود التي سكت في مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية؛ فقد حملت أسماء وألقاب السلاطين[6]، مع عدم ذكر تاريخ ومكان السك[7]، إضافة إلى اسم الجلالة، وأحياناً أبياتاً مقفاة من الشعر[8].

7 ـ انعكاسات الثقافة العربية الإسلامية في الساحل:

كان للمساجد دور كبير ومؤثر في الحياة العلمية لمجتمع الدولة العربية الإسلامية عموماً؛ فمنذ البداية اتُّخذت مراكز لتعليم المعارف الدينية، وفيها كان يقرأ القرآن الكريم، وتعلم تلاوته للطلاب الذين يتحلقون عادة حول الفقيه أو العالم، يفقههم في أمور دينهم. ومع التطور الحضاري الذي شهده مجتمع الدولة العربية الإسلامية تطور دور المساجد العلمي إلى حد كبير، بحيث أصبحت بمثابة مدارس للطلبة، بل إن العديد من الجوامع كانت مخصصة لتدريس المذاهب الإسلامية الأربعة. كما بنيت المدارس التي درست فيها مختلف العلوم، وكان لها دورها الفعال في دفع الحركة العلمية.

وفي الساحل الإفريقي الشرقي الذي اعتبر سكانه أنفسهم من الشعوب المتحضرة بفعل انتشار الدين الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية بينهم، فإنهم اهتموا بأمور الدراسة والتعليم ونشر القراءة والكتابة بين السكان. ويبدو أن الدراسة كانت تجري في المدارس الملحقة

---

(1) Davidson, The Growth of African Civilization, P. 107.
(2) Oliver and Mathew, History of East Africa, Vol. 1, P. 132.
(3) Ibid, P. 126.
(4) Ibid, P. 124.
(5) Ibid, P. 123.
(6) Walker, The History and Coinage, P. 48.
(7) Ibid, P. 48.
(8) Gray, History of Zanzibar, P. 23.

بالجوامع أو في الجوامع ذاتها. وقد استمر النظام الإسلامي هذا لقرون عديدة في الساحل، حيث تعلم الكثيرون من جراء ذلك التكلم والكتابة باللغة العربية، وألفت الكتب المختلفة بها[1]. إلا أننا لا نستطيع أن نحدد كم هو عدد هذه الجوامع، فالمعلومات عنها قليلة جداً، ولا تزودنا المصادر إلا بالنتف القليلة عنها. فمن المحتمل أن الجامع الكبير في مركة كان بمثابة معهد علمي، أو مدرسة كبيرة، إضافة إلى كونه مركزاً للصلاة، وذلك بسبب وجود أعداد كبيرة من المساجد الصغيرة في مركة التي خصصت جميعها للصلاة، أما الجامع الكبير هذا فيبدو أنه كان مكاناً للتدريس أيضاً[2]. ومن المحتمل وجود مثل هذا النوع من الجوامع في مقادشو؛ لما وصلته من شهرة ومكانة بين مدن الساحل، بحيث أصبح اسمها يتردد على كل لسان[3]، وربما خصص جامع الأركان الأربعة فيها للتعليم والتدريس، إضافة إلى احتمال قيام الجامع الكبير في مقادشو بالمهمة نفسها[4]. كما عرف جامع كلوة المسمى «جامع الجمعة» أو «الجامع العظيم» بأنه أعظم جامع في الساحل الإفريقي كله[5]، ولا يستبعد أبداً قيام حركة للتعليم والتدريس فيه؛ لأن مكانة الجامع وشهرته توحي لنا بذلك. ويعتقد أيضاً وجود مدرسة في جامع كليفي تقع إلى الجانب الشرقي منه[6].

ومن الجميل أن نعرف أن طريقة التدريس في بعض مناطق الساحل ـ وخاصة فيما يسمى اليوم بالصومال ـ كانت هي نفسها في جوامع الدولة العربية الإسلامية في مختلف مناطقها، والتي كانت تتم بأن يجلس الطلاب، سواء كانوا في المسجد، أم في بيت ما، أو حتى تحت ظل شجرة، على شكل حلقة، يستمعون فيها إلى الفقيه أو العالم وهو يلقي عليهم دروساً في مختلف نواحي المعرفة الدينية. وكان من المهم للآباء أن يدفعوا أبناءهم لحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.

(1) Lin – Hart, The Medicin Man, P. 6 - 7.

(2) Guillian, Documents Sur L' Histoire, Deuxieme Partie, P. 139.

(3) مراجعة: ابن سعيد، الجغرافيا، ص 82.

(4) Yajima, The Arab Dhow Trade, P. 53.

(5) Chittick, Notes on Kilwa, P. 180, 192; Posnansky, Prelude To East African History, P. 118.

(6) Kirkman, Mnarani of Kilifi, P. 97.

كما وجدت مدارس متخصصة لتعليم القرآن. ومن الطبيعي أن يستخدم السكان اللغة العربية في صلاتهم، وفي قراءة النصوص القرآنية[1]. وكما عرفنا فقد تأثر الإسلام بالبيئات المحلية التي انتشر فيها، فتشكل مزيج متجانس دل بشكل قاطع على مرونة الإسلام في المجتمعات التي انتشر فيها، ومن هنا فقد شاع استخدام اللغات أو اللهجات المحلية في شرح تعاليم الإسلام، إضافة إلى اللغة العربية، وخاصة في شرح نصوص الآيات القرآنية؛ فمثلاً كان الفقيه يقرأ نصاً قرآنياً أو حديثاً شريفاً باللغة العربية، ثم يشرحه بعد ذلك باللغة أو اللهجة المحلية[2]. وقد اهتم السكان بعقد الاجتماعات الدينية، وخاصة في شهر رمضان، حيث كانت تتم عصراً، ويتناوب الشرح والتفقيه ثلاثة من رجال الدين، يقوم الأول بقراءة بعض الأحاديث النبوية الشريفة، ومهمة الثاني هو شرحها والتعليق عليها، أما الثالث فمهمته قراءة بعض التراتيل الدينية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك في أثناء الفترات المناسبة، وبهذه الطريقة انتشرت المعرفة الإسلامية بمختلف علومها في مدن الساحل.

وكنتيجة طبيعية لدور الفقهاء التعليمي هذا فقد احتلوا مركزاً مرموقاً في مجتمع الساحل، ففي كلوة مثلاً كانوا خزاناً على المال، كما رافقوا السلطان في رحلاته[3]. وكانت لهم المكانة نفسها في مافيا[4]، وكذلك في مقادشو التي اشتهر فيها العديد من الفقهاء الذين سافروا إلى مكة والمدينة للتفقه بأمور الدين، وبرعوا به، واحترامهم الناس لمكانتهم العلمية[5].

وبمرور الوقت ظهرت في الساحل تقاليد جميلة في استقبال الفقهاء والعلماء، تدل على إكرام الناس وتقديرهم لهم، وقد برز ذلك عند أهل مقاديشو خصوصاً؛ فإذا كان في السفينة الواردة إليهم أحد رجال الدين أو أحد الفقهاء فإنه يصبح نزيل القاضي الذي يبعث بأحد أصحابه

---

(1) Andrzejewski, Is There Arabic Influence In Somali poetry. P. 3.

(2) Ibid, P. 3.

(3) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 17.

(4) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9.

(5) ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع مراجعة: الفاسي، العقد الثمين، ج1، ص 433 ـ 434، ج2، ص 249؛ الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ج2، ص 109، ص 142، ص 174؛ ابن زريق، الفتح المبين، ص 150.

مع الشبان الذين يصعدون إلى السفن لاختيار نزلائهم، فيأخذه إلى القاضي الذي يستقبله في الميناء. ومن رسومهم في هذه الحالة أن يتوجه القاضي ونزيله الفقيه أو الشريف للسلام على شيخ مقادشو أولاً، حيث يُكّرم هو والقاضي ومن معهما بتقديم أوراق التانبول[1] والفوفل[2] إليهم، ويُرشُّون بماء الورد المستورد من دمشق، ثم يأمر الشيخ بإنزاله بدار خاصة هي دار الطلبة المعدة أصلاً لضيافتهم، فيبقون فيها ثلاثة أيام، ومن ثم يأتيه القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ بكسوة معينة، ويرتدي كل منهم كسوته الخاصة به استعداداً لمقابلة الشيخ الذي يلقاهم ويرحب بهم، ويحضرون مجلسه، ويتناولون الطعام معه[3].

وقد اهتم بعض السلاطين ـ وخاصة سلاطين كلوة ـ بالتفقه بالدين الإسلامي، فبرعوا به، حيث سافروا إلى مكة للحج، وللتبحر بأمور الدين. وكان بعضهم يعد من العلماء الأفاضل كالسلطان أبي المواهب الحسن بن سليمان المطعون (710، 734هـ/ 1310 ـ 333م)[4].

وهناك نقطة جديرة بالمعرفة، وهي مدى انتشار القراءة والكتابة بين سكان الساحل، وهي نقطة في غاية الأهمية، إلا أن مصادرنا لا تزودنا تقريباً بالمعلومات التي تفيدنا في رسم صورة واضحة عنها. وعلى الرغم من أن مخطوطة خبر اللامو تذكر إشارة بسيطة عن تداول السكان للرسائل بينهم[5]، إلا أنها لا تمكننا من معرفة مدى حجم انتشارها بين سكان الساحل. ونحن نفترض أن غالبية السكان ـ وخاصة الطبقات العليا ورجال الدين والفقهاء ـ قد عرفوا القراءة والكتابة التي انتشر استخدامها بينهم، ومن المحتمل جداً أن اللغة العربية قد استخدمت إلى جانب اللغة السواحيلية، سواء في المخاطبة أم المراسلات أو التأليف؛ فقد كتبت بعض التواريخ المحلية باللغة العربية، منها مخطوطة السلوة في تاريخ كلوة، التي هي عبارة عن نسخة ملخصة

---

(1) التانبول: شجر يغرس كالعنب ولا ثمر له، والمهم فيه أوراقه، وأطيبه الأصفر الذي يمضغ لتطييب النكهة، وهو معظم جداً ومرغوب للغاية. ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 205.

(2) الفوفل: نوع من النخيل يشبه نخل النارجيل، تحمل كبائسه كالتمر، ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 196.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 196.

(4) الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 9، 10.

(5) الباقري، اللاموي، خبر اللامو، ص 11.

لتاريخ كبير يعتقد بأنه مكتوب بالعربية يدعى «السنة الكلوية»، والذي ما زال مفقوداً للآن.

والمخطوطة الأخرى التي كتبت أصلاً بالعربية هي مخطوطة «تاريخ باتا» المستقاة من تاريخ أوسع هو «ملوك باتا». ومن غير المنطقي أن التأليف أو الكتابة باللغة العربية في الساحل اقتصر على هاتين المخطوطتين، والمعتقد بأن اللغة العربية انتشرت بين السكان كلغة تخاطب وكتابة على نطاق واسع، وذلك بعد انتشار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية في جميع مناطق الساحل الإفريقي. إلا أن الأحداث السياسية المدمرة التي شهدها الشاطئ الإفريقي ابتداءً بالمنازعات السياسية والحروب التي نشبت بين مدن الساحل نفسها، والهجمات التي كانت تشنها القبائل الداخلية على منطقة الساحل، أدت إلى تدمير كل شيء. وأخيراً فإن الغزو البرتغالي المدمر لمدن الساحل الذي حاول القضاء على حضارة مدنه العربية الإسلامية كانت نتيجته الحتمية دمار أو ضياع أو تلف كثير من الكتب والمراسلات التي كتبت بالعربية، والتي كان من الممكن أن تلقي أضواءً جديدة على مدى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي.

أما عن مواد الكتابة فيبدو أن سكان الساحل استوردوا الطوامير من الشام، والحبر الأسود من تركيا[1].

وبسبب انتشار الإسلام في الساحل فقد أصبح للقضاة والفقهاء والعلماء مكانة مرموقة في المجتمع؛ فقد تمتع القضاة بمكانة عالية، واحتُرموا من قبل سلاطين الساحل، حيث كان لقاضي مقاديشو مثلاً المدعو ابن البرهان المصري الأصل عام 732هـ/ 1331م مكانة عالية عند شيخ مقاديشو، فكان يرافقه، ويُفرش له بساط وحده لا يجلس معه أحد في حضرة الشيخ، وحينما يستعد هو والفقهاء الشرفاء والصالحون والمشايخ لإدارة مقاليد أمور المدينة يجلس القاضي على دكة وحده، بينما يجلس الآخرون على دكك خشبية، وحينما يشترك مع شيخ مقاديشو في مجلس حكم أو إدارة فإنه يجلس عن يساره، بينما يجلس الآخرون بين يدي الشيخ أو على يمينه، و«حينما يقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل

(1) Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, P. 199.

الشكايات، فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى؛ وهم الوزراء والأمراء»[1].

ولابد لنا من الإشارة أخيراً إلى اهتمام حكام الساحل بالجهاد ضد سكان الداخل الوثنيين، معتبرينه واجباً دينياً مقدساً، كما فعل سلاطين كلوة مثلاً[2]؛ فكانوا يحاربونهم، ويأخذون الغنائم، فيُخرجون خُمسَها يصرفونه في أبوابه الشرعية، ويفردون نصيب ذي القربى على حدة ليدفعوه للشرفاء القادمين إليهم من بلاد الحجاز والعراق[3]. كذلك فعل أهل مومباسا[4]، أما أهل لامو وباتا ـ وبسبب كثرة حملاتهم الجهادية ضد وثنيين الداخل ـ فقد عمدوا إلى تسوير وتحصين مدنهم لدرء خطر هجوم أعدائهم[5].

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص 198 ـ 199.

(2) ابن بطوطة، الرحلة،، ج1، ص 201؛ الصوافي، السلوة في أخبار كلوة، ص 10.

(3) ابن بطوطة، الرحلة،، ج1، ص 201.

(4) Barbosa, The Book of Durate Barbosa, Vol. 1, P. 21.

(5) Ibid, Vol. 1, P. 29.

الباب الثاني
تاريخ المسلمين في غربي إفريقية
«السودان الغربي»

الفصل الأول

مصادر ومراجع دراسة تاريخ المسلمين
في غربي إفريقية (السودان الغربي)

أولاً ـ مصادر عربية؛ جغرافية وتاريخية:

تكلمت المصادر العربية عن بلاد السودان، وقصدت بها بلاد السودان الغربي، أو غربي إفريقية عموماً. فذكر بعضها كلاماً عن تلك البلاد من دون ذكر مدنها أو ممالكها، كمملكة غانة ومملكة مالي، وعن سفر التجار من الغرب الأوسط أو الأقصى إلى بلاد التبر سعياً وراء الذهب، وذكروا محاصيلها، ولباس أهلها. وتكلمت مصادر أخرى عن غانة، بينما تكلمت مصادر ثالثة عن غانة ومالي. فمن تكلم عن بلاد السودان عموماً: الإصطخري، وصاحب كتاب حدود العالم. أما أول من ذكر بلاد غانة فهو ابن الفقيه، ثم المسعودي، وابن حوقل، والبكري، والزهري، والإدريسي، وأبو حامد الغرناطي، والشريشي، وياقوت الحموي، والقزويني، وابن سعيد. ويمكن عدُّ البكري أول من ذكر مالي وسماها ملل، ثم ابن سعيد عند كلامه عن مدينة درهم التي تقع بين مدينة لمى وملل دون تفصيل. ثم ظهر اسم مالي في مصادر القرنين الثامن والتاسع الهجريين، أي بعد ظهور إمبراطورية مالي، واشتداد قوتها، وقيام بعض ملوكها بالحج إلى مكة، ومرورهم بمصر. ومن أمهات المصادر التي تكلمت عن الإمبراطورية المذكورة ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار، وابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان التي زار فيها مالي، وابن خلدون في تاريخه، والقلقشندي في صبح الأعشى الذي كان أكثر اعتماده على العمري.

أما المصادر الأساسية لمعرفة أخبار مملكة سُنغي فهي خمسة معاصرة لتلك المملكة: الحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، ومحمود كعت، وأحمد بابا التنبكتي، والسعدي، ثم الفشتالي، إضافة إلى مصدر متأخر زمنياً عن تلك المصادر الخمسة هو البرتلي الولاتي.

وفي الواقع فإن قسماً من مصادر دراسة تاريخ السودان الغربي ذكر نزراً قليلاً عن غربي إفريقية أو بلاد السودان، بينما أعطى قسم آخر معلومات أفضل عن جغرافيتها وتاريخها.

ومن هذه المصادر ابن الفقيه (ت 230هـ/ 903م) في «مختصر كتاب البلدان»، حيث تكلم عن بلاد غانا بشكل مختصر، والذهب بها، وطعام أهلها، ولباسهم[1]، وكذلك فعل المسعودي (ت 346هـ/ 957م) عندما ذكر أنسابهم، وأنواعهم، ومناطقهم[2].

أما الإصطخري (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) في كتابه «المسالك والممالك» فقد أشار إلى السودان، وأن الخدم الذين يباعون في البلاد الإسلامية منهم، وهم جنس ليسوا بنوبة ،ولا بزنج، ولا بحبشة، ولا من البجة، وهم أشد سواداً من الجميع وأصفى، وذكر حدود السودان الغربي بدقة[3].

ويتكلم ابن حوقل (ت بعد 367هـ/ 977م) الذي زار السودان ـ في «صورة الأرض» عن البربر سكان الصحراء الإفريقية، وأسماء قبائلهم بإسهاب، وعن علاقاتهم بغانة، والذهب الوفير بها، وحاجتهم الماسة إلى الملح المتوافر في أودغست، لأنهم لا يستطيعون العيش من دونه، وربما وصل ثمن حمل الملح في بلاد السودان ما بين 200 ـ 300 دينار[4]. ويشير إلى ما يتصف به البربر من الجلد والقوة والبسالة والجرأة والفروسية على الإبل، ومعرفة بأحوال الصحراء، وهم يتلثمون رجالاً ونساءً منذ الطفولة، وينشؤون على ذلك[5]. وكانوا يفرضون ضرائب على المجتازين بأرضهم من التجار، على كل جمل وحِمْل، ومن الراجعين بالتبر من بلاد السودان[6]. ويصف الصحارى بين بلاد المغرب وبلاد السودان بأنها (منقطعة، قليلة المياه، متعذرة المراعي، لا تسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورود والصَدَر)[7].

---

(1) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص 83.

(2) علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف البقاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2002، ج 1، ص 252.

(3) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك و الممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، 1961، ص 34 ـ 35.

(4) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتب الحياة، بيروت، 1967، ص 98.

(5) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ص 98 ـ 99.

(6) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ص 98.

(7) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ص 100.

ويتحدث مؤلف مجهول في كتابه «حدود العالم من المشرق إلى المغرب» الذي كتبه سنة 372هـ، عن بلاد السودان، فيذكر أن المفازات تحدها من ثلاث جهات؛ الشرقية والجنوبية والشمالية، ومن الغرب بحر الأقيانوس المغربي. ويقول إن مساحتها 700 فرسخ في 700، وهي البلاد التي يؤتى منها بأغلب الخدم، وفي أرضهم بأسرها معدن الذهب، وبينها وبين مصر 80 يوماً على البعير، و يوجد في هذا الطريق موضع واحد فقط فيه ماء وكلأ. يأتيها تجار مصر، فيجلبون إليها الملح والزجاج والرصاص، ويشترون منها أحجار الذهب[1].

أما أبو عبيد البكري (ت 487هـ/ 1094م) فقد أشار في كتابه «المسالك والممالك»، إلى بلاد السودان، فذكر مدنها المشهورة، والمسافات بينها، وما فيها من الغرائب، وسير أهلها، وأن المصاقبين لبلاد السودان هم بنو جدالة، والذين هم آخر بلاد الإسلام، وأقرب مدينة من مدن بلاد السودان إليهم صنغانة التي بينها وبين آخر بلاد الإسلام مسيرة ستة أيام، ثم يلي صنغانة على نهر النيجر مدينة تكرور، أهلها سودان، وكانوا وثنيين، لكنهم أسلموا على يد ملكهم وارجابي بن رابيس المتوفى عام (432هـ/ 1041م) بعد أن أسلم، وطبق الشريعة الإسلامية، وإن أهلها كانوا مسلمين على أيامه عندما ألّف كتابه عام 460هـ/ 1068م. وإن أهل مدينة سلى التي تليها، والتي تقع على نهر النيجر أيضاً، مسلمون أيضاً، اعتنقوا الإسلام على يد وارجابي[2].

علماً أن أبا عبيد البكري الأندلسي قد ألف كتابه المشار إليه في الأندلس، ولم يزر بلاد السودان الغربي، وغالباً ما ينقل أخباره حول بلاد السودان من الفقيه أبي محمد عبد الملك[3]، ولا يعرف من هو هذا الفقيه، هل هو أندلسي له رحلة إلى بلاد السودان، أم سوداني وفد إلى الأندلس؟! وهل البكري التقاه مباشرة، أم نقل عن كتاب كَتبه؟!

(1) مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1999، ص 147ـ148.
(2) أبو عبيد البكري، المُغرب في ذكر إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، صورة أصدرتها مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة الجزائر، 1857، ص 172، 174.
(3) البكري، المُغرب، ص 179، 181.

وللشريف الإدريسي (ت 561هـ/ 1147م) كتاب شهير هو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» طبعت قطعة مأخوذة منه بعنوان «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس». بدأ هذه القطعة بالإقليم الأول وهو بلاد السودان، أو غربي إفريقية، وقسّمه إلى ثلاثة أجزاء، وذكر أن مبدأ هذا الإقليم من البحر الغربي المسمى بحر الظلمات الذي لا يعلم ما خلفه، وذكر جزيرتي الخالدات اللتين بدأ بطليموس منهما خطوط الطول والعرض[1]. ثم ذكر في الجزء الأول من هذا الإقليم من بلاد السودان المدن الآتية: أوليل؛ وهي جزيرة في المحيط على مقربة من الساحل، ومملحتها، حيثُ ينقل ملحها إلى جميع بلاد السودان، وسلى، وتكرور، ودَو، وبريسي، ومورة. ثم يشير إلى أن السكن والاستقرار لا يمكن أن يكون إلا على نهر النيجر [الذي يسميه النيل]، أو على رافد من روافده؛ لأن الأراضي المجاورة لنهر النيجر صحارى قفرة جداً. وعلى الضفة الشمالية من نهر النيجر تقع مدينة سلي، وهي مدينة كبيرة، تجارتها رائجة، وتتبع سلطان التكرور[2].

وينتقل في كلامه إلى مدينة التكرور التي تبعد عن سلى مسيرة يومين، سواء في نهر النيجر أم في البر، وهي أكبر من سلى، وأكثر تجارة، والتجار المغاربة يسافرون إليها من المغرب الأقصى لبيع الصوف والنحاس والخرز، ويشترون منها الذهب والخدم. ثم يتكلم عن الطعام، وهو الذرة والسمك والألبان، وأكثر مواشيهم الجمال والمعز[3].

ثم يشير إلى حياة أهل بلاد السودان عموماً، فيذكر أنواع أشجارهم، وحيواناتهم، وصناعتهم، وأسلحتهم، ومواد بناء بيوتهم، وحليهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، ولباسهم، وينهي هذا الجزء الأول من الإقليم الأول بالكلام عن زراعتهم، واللحوم التي يأكلونها[4].

---

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، مطبعة بريل، ليدن، 1968، ص 2.

(2) الإدريسي، صفة المغرب، ص 4.

(3) الإدريسي، صفة المغرب، ص 4.

(4) الإدريسي، صفة المغرب، ص 4 ـ 5.

ثم ينتقل إلى مدينة غانة الكبرى، ويذكر أنها مدينتان على ضفتي النهر [يسميه البحر الحلو]، وهي أكبر بلاد السودان قطراً، وأكثرها سكاناً، وأوسعها متجراً، ويقصدها التجار الأغنياء من جميع البلاد المحيطة بها، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى. وأهلها مسلمون، وملكها على ما يقال من نسل صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ويخطب يوم الجمعة لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين الخليفة العباسي المستظهر بالله (487 ـ 512هـ/ 1098 ـ 1123م) في بغداد[1].

وبعد أن يتكلم عن لباس الملك ولباس أهل غانة، يقوم بتحديد مملكة غانة، فيقول: يحدها من الغرب بلاد مقزارة، ومن الشرق بلاد ونقارة، ومن الشمال الصحراء التي تصل أرض السودان بأرض البربر، ومن الجنوب أرض الكفار من اللملميَّة. ومن مدينة غانة إلى أول بلاد ونقارة مسير 8 أيام، وهي بلاد التبر المشهور بجودته وكثرته. وهي جزيرة طولها 300 ميل، وعرضها 150 ميل، ونهر النيجر [النيل] يحيط بها من كل جهة في أغلب أيام السنة. فإذا جاء شهر آب، وفاض النهر، وغطى هذه الجزيرة، أو أكثرها، يأخذ السكان بالبحث عن التبر وبيعه لأهل وارقلان وأهل المغرب الأقصى، الذين يقومون بسكه دنانير في دور الضرب في بلادهم. والتبر أكبر غلة عند السودان، وأهلها أغنياء، والخيرات تستورد لهم من أنحاء العالم، وهم سود جداً[2].

ثم ينتقل الإدريسي إلى الجزء الثالث من الإقليم الأول، فيذكر مدنه المشهورة، وهي: كوغة، وكوكو، وتملمة، وزغاوة، ومانان، وانجيمي، ونُوابية، وتاجوة.

وتعتبر كوكو أشهر مدن هذا الجزء، تقع على ضفة نهر يجري من ناحية الشمال، وبعد أن يجتازها بأيام كثيرة يغوص في رمال الصحراء. ملكها مستقل، يخطب بنفسه، وله دخل كبير، وحشم، وجيش قوي. ثم يتكلم عن لباس أهلها، وتجارتهم، ونباتاتهم. ومنها إلى مدينة غانة

---

(1) الإدريسي، صفة المغرب، ص 6 ـ 7.

(2) الإدريسي، صفة المغرب، ص 7 ـ 8.

شهر ونصف[1].

أما المدينة الثالثة فهي لملمة، ومن كوكو إليها شرقاً 14 مرحلة، وهي مدينة صغيرة، بشرها كثر، وفيها رجل ثائر بنفسه، على جبل صغير منيع بأجراف قد أحاطت بجميع جهاته[2].

ويتكلم عن مدينة رابعة هي مانان من أرض كانم، فيقول: ومن تملمة إلى مانان من أرض كانم 12 مرحلة، وهي مدينة صغيرة لا يوجد فيها صناعات، وتجارتهم قليلة، ولديهم جمال ومعز[3].

أما الجغرافي الأندلسي الزهري (ت حوالي 532هـ/ 1137م) صاحب كتاب «الجعرافية» (بالعين وليس بالغين)، فقد أشار إلى أن أهل غانة كانوا كفاراً، وأصبحوا مسلمين بعد دخول المرابطين إليها سنة 469هـ/ 1076م، وحسن إسلامهم، وهم على أيامه مسلمون، وعندهم العلماء وقراء القرآن الكريم الذين تمتعوا بمنزلة رفيعة، وقد زار رؤساء من أكابرهم الأندلس، وحجوا إلى مكة، ورجعوا إلى بلادهم. كما أنفقوا أموالاً كثيرة في الجهاد ونشر الإسلام في غربي إفريقية[4].

وذكر الشريشي (ت 619هـ/ 1223م) في كتابه شرح مقامات الحريري أن غانة بلد من بلاد السودان، وأن تجار المغرب يصلون إليها من سجلماسة لشراء الخدم للتسري، وأن في إمائها من الخصال فوق المطلوب[5]. كما ذكر انتشار الإسلام فيها، ووجود مدارس العلم بها، وأن التبر أهم تجاراتها.

أما ياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1228م) في معجمه فقد تكلم فيه عن السودان في ثلاث

---

(1) الإدريسي، صفة المغرب، ص 11 ـ 12.
(2) الإدريسي، صفة المغرب، ص 12.
(3) الإدريسي، صفة المغرب، ص 12.
(4) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الجغرافيا، تحقيق: محمد حاج صادق، دمشق، 1968، ص 25.
(5) أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي، شرح مقامات الحريري البصري، أشرف على نشره وطبعه وتصحيحه محمد بن عبد المنعم الخفاجي، المكتبه الثقافيه، بيروت.

مواضع، هي: غانة، وتبر، وتكرور. وكان أكثر دقة في التعريف بغانة، فقال إنها في جنوب المغرب متصلة ببلاد السودان[1]. وفي مادة: التبر تكلم بشيء من التفصيل عن تجارة الذهب، وطرق المواصلات، وعن العناء الشديد الذي يتعرض له التجار، وقلة المياه، وعن التجارة الصامتة مع أصحاب التبر[2]. أما عن تكرور فذكرها بشكل مختصر جداً، فقال إنها في أقصى جنوب المغرب، و أهلها أشبه بالزنزوج[3].

وتكلَّم القزويني (ت 682هـ/ 1283م) في كتابه «آثار البلاد» في أربعة أماكن عن: بلاد السودان، وتكرور، وغانة، وبلاد التبر. فعن بلاد السودان تكلم عن حدودها، وأهلها من المسلمين والكفار، وحيواناتها، وأشجارها، وبيوتها، وحشراتها[4]. أما تكرور فينقل عمن شاهدها، وهو الفقيه علي الجنحاني المغربي، قوله أن أهلها مسلمون وكفار، والحكم فيها للمسلمين، ويذكر لباسهم، ومحصولاتهم، وحيواناتهم، وبخاصة الفيلة بأعداد كبيرة جداً[5]. أما عن غانة فيقول: إنها متصلة بجنوب بلاد المغرب من جهة، وبلاد التبر من جهة أخرى[6].

وأما عن بلاد التبر فينقل فيها ما ذكره ابن الفقيه وياقوت الحموي عن ذهبها، ولباس أهلها، وحيواناتها[7].

ويذكر ابن سعيد المغربي (ت 685هـ/ 1286م) في كتابه «بسط الأرض في الطول والعرض» عن مدن التكرور، ولباس أهلها، وخيولهم، وسلاحهم، ثم يتحدث عن بحيرة كوري، وبلاد كوكو، ونهر كوكو، ومدن الكانم، وسلطانها، ودار صناعته التي كان منها يغزو بأسطوله بلاد الكفار، ويذكر قاعدة الكانم جيمي[8].

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، م4، مادة: غانة، دار صادر ـ بيروت، 1957، ص 184.
(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص 12 ـ 13، مادة: تبر.
(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، م2، ص 38، مادة تكرور.
(4) زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص 24.
(5) زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 27.
(6) زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 57.
(7) القزويني، آثار البلاد، ص 18 ـ 19.
(8) ابن سعيد، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، نشر خوان فرنيط خينس، تطوان، 1958، ص 24 ـ 28.

أما أبو الفدا (ت 732هـ/ 1349م) في كتابه «تقويم البلدان» فينقل معلومات قليلة عن تكرور وبلاد السودان عن ابن سعيد والإدريسي، وبخاصة المعلومات عن صحراء بيس التي يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة التي يكابدون فيها شدة العطش، والوهج، وعدم توافر الماء[1].

وهنالك مصادر تكلمت عن تاريخ غربي إفريقية أو عن بعض أعلامها مثل:

ما كتبه محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي الوجار (ت 1139هـ/ 1669م) في كتابه «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي» الذي تضمن أربعة عناوين، هي: ذكر الخبر عن فتح المنصور لبلاد السودان، وطريقة ذلك، وسببه. وذكر الخبر عن آل سُكية ملوك السودان، وأوّليتهم، وذكر الخبر عن مشاورة السلطان المنصور أصحابه في غزو إسحق سُكية، واقتحام بلاد السودان عليه، وذكر الخبر عن بعث المنصور جيوشه إلى السودان[2].

ومن ذلك ما كتبه المحبي (ت 1111هـ/ 1699م) في كتابه «تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» عن أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي السوداني[3].

ثانياً ـ أمهات المصادر العربية عن تاريخ غربي إفريقية، أو بلاد السودان الغربي:

سيتم الحديث بالتفصيل عن أهم عشرة مصادر عربية عن تاريخ غربي إفريقية أو بلاد السودان الغربي، سبعة منها لمؤلفين غير سودانيين، هم: العمري، وابن بطوطة، وابن خلدون، والقلقشندي، والحسن الوزان، والفشتالي، والولاتي، وثلاثة منها لمؤلفين سودانيين، هم: محمود كعت، وأحمد بابا التنبكتي، والسعدي، المعاصرون لبعض الإمبراطوريات الإسلامية التي حكمت هناك.

---

(1) إسماعيل بن علي، تقويم البلدان، باريس، ص 2، 137، 153.

(2) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي الوجار، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية هوداس، ط 2، مكتبة الطالب، الرباط، د.ت، ص 88 ـ 98.

(3) محمد، تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، دار صادر، بيروت، 1284هـ ص 170 ـ 172.

1 ـ العمري (ت 749هـ/ 1349م):

من المصادر العربية المهمة لتاريخ المسلمين في بلاد السودان كتابا ابن فضل الله العمري «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» و«التعريف بالمصطلح الشريف». ففي مسالك الأبصار يتحدث عن مملكة مالي ـ المعاصر لها؛ فيحدد موقعها بجنوب بلاد المغرب متصلة بالبحر المحيط، وقاعدتها مدينة يني، وَوَصَفَ أهلها، وسلطانَيْها الأخوين موسى منسا وسليمان، وعن دور الأخير في الجهاد ونشر الإسلام في المملكة، وبنائه المساجد والجوامع، وتقريبه للعلماء والفقهاء.

وذكر العمري تفصيلات كثيرة عن مملكة مالي، عن أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ورسوم دار السلطنة، وغيرها الكثير، معتمداً على ما قاله ابن أمير صاحب، وما حدثه به الشيخ الثقة أبو عثمان سعيد الدُكّالي الذي سكن يني العاصمة خمسة وثلاثين سنة، وكذلك ما حدثه به محمد بن الصايغ الأموي الأندلسي[1].

والخلاصة أن هذا الكتاب قدم معلومات مهمة جداً ودقيقة عن مالي: مدنها، وقبائلها، وطرز عمارتها، وأقواتها، وحيواناتها، وعاداتها، وأزيائها، وجيوشها، ومعادنها، وصلات ملوكها بما يجاورها، وساق طرفاً من سير ملوكها[2].

وفي كتابه الآخر «التعريف بالمصطلح الشريف»[3] ذكر في رتب المكاتبات رسم المكاتبة إلى كل من ملك التكرور وصاحب البرنو وصاحب الكانم.

2 ـ ابن بطوطة (ت 799هـ/ 1377م):

ومن مصادر دراسة التاريخ الإسلامي في غربي إفريقية أو السودان الغربي ابن بطوطة في رحلته المعروفة برحلة ابن بطوطة. ومن المعروف أن الأديب محمد بن جزي الكلبي كاتب

(1) أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: محمد عبد القادر خريسات وآخرون، إصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2001.

(2) المنجد، صلاح الدين، (جمعها وعلق عليها وقدم لها)، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1982، ص7.

(3) العمري، تحقيق: سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، 1992.

السلطان أبي عنان المريني هو الذي دون ما يمليه عليه ابن بطوطة بأمر من السلطان المذكور الذي أُعجب بأخبار رحلات ابن بطوطة، وذلك في سنة 753هـ/ 1352م، وأن الرحلة تمت كتابتها سنة 757هـ/ 1356م. فوصف الطريق إلى مالي، ابتداءً من أيولاتن متجهاً إلى مالي، والمسافة بينهما 24 يوماً للمجد. ويذكر أن المسافر إلى تلك البلاد لا يحمل نقوداً أو زاداً، إنما يحمل قطعاً من الملح والحلي الزجاجية والعطور، فيبيعها مقابل شرائه المحاصيل الغذائية كالدقيق واللبن والأرز[1]. ثم يذكر وصوله إلى ما يسميه النيل الأعظم؛ ويقصد به نهر النيجر، ويذكر المدن التي عليه الواحدة بعد الأخرى، وأن معظم سكانها من المسلمين[2]. ولما وصل إلى مدينة مالي استقبله جماعة من الفقهاء من البيضان والسودان، وذكر أسماءهم، فأكرموه أتم إكرام، وبخاصة ابن الفقيه الجزولي الذي كان متزوجاً ببنت عم السلطان، وهو منسا سليمان[3]. ثم يصف رسوم دار السلطنة، ورسوم صلاتي عيدي الأضحى والفطر، وإنشاد الشعراء للسلطان، وتبرؤ السلطان من الظلم، وعدم مسامحة السلطان فيه، وتوافر الأمن، والحفاظ على إرث من يموت من البيضان، ومواظبتهم الصلاة، وحفظ القرآن، ومحاسبة من لم يفعل ذلك[4]، وعدم وجود لصوص في البلاد.

ثم تحدث عن مدينة تنبكتو، فذكر أن أكثر سكانها من قبيلة مسوفة أهل اللثام[5]. وبعدها يتطرق إلى مدينة كَوْكَوْ، فذكر محصولاتها، وتجارتها، والفقهاء المغاربة فيها من مدن مكناسة وتازة وفيلاليت[6].

لقد زار الرحالة ابن بطوطة مملكة مالي، حيث كان معاصراً لها. ووُصفت معلوماته عنها بأنها مفيدة جداً، ولاسيما عن أحوالها المعاشية، وعادات أهلها، وتقاليدها، ورجالها، وثقافتها،

(1) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 679ـ 680.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 680، وطبعة طلال حرب، ص 690.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 681، وطبعة طلال حرب، ص 690ـ 691.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 683ـ 686.

(5) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة صادر، ص 694.

(6) ابن بطوطة، الرحلة، طبعة صادر، ص 695.

ونتاجها الزراعي.

3ـ ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م):

ومن المصادر المهمة في تاريخ المسلمين في السودان المؤرخ الشهير ابن خلدون في تاريخه المعروف بتاريخ ابن خلدون أو العبر.....، فهو يتكلم عن السودان، وملوكهم، وممالكهم، وبخاصة معاصريه بقايا المرابطين الذين كانوا يحكمون في جزائر الأندلس الشرقية، وهي ميورقة ومينورقة ويابسة، وبعض مناطق المغرب العربي، كقابس وطرابلس. فبعد سقوط حكم بني غانية ـ وهم من بقايا المرابطين على يد الموحدين ـ اتجه من بقي منهم إلى الصحراء المغربية، وأقاموا فيها كما كان حالهم قبل قيام دولة المرابطين، وأدانوا بالطاعة إلى ملوك السودان، وامتهنوا التجارة بين السودان وبلاد المغرب العربي، وكثيراً ما كانت تحدث حروب بينهم وبين القبائل العربية في المغرب. ثم ينتقل للكلام عن الأمم السودانية عموماً، فيحدد موقعهم الجغرافي، وأشهر شعوبها، وقبائلها[1].

ولما دخل العرب المسلمون فاتحين إفريقية المغرب، ودخل معهم التجار العرب المسلمون، لم يجدوا أعظم من ملوك غانية التي تقع دولتهم على البحر المحيط من الغرب، وعاصمتهم غانية على شكل مدينتين على ضفتي نهر النيجر[2].

ويتكلم ابن خلدون عن ملوك غانة اعتباراً من ملكهم الأعظم ماري جاطة (628 ـ 653هـ/ 1230 ـ 1255م) الذي قضى على صوصو، حتى عهد منسا مغا الذي تولى الحكم سنة 792هـ/ 1369م[3].

وينقل أخبار غانة إلى ابن خلدون أشهرُ فقهائها الشيخ عثمان الذي التقاه في مصر في طريقه إلى الحج سنة 799هـ/ 1399م، فيقول إن مملكة غانة ضعفت، فاستطاع المرابطون مدّ

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدوليّة، عمان، د. ت، ص 1654.
(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.
(3) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655 ـ 1657.

نفوذهم إليها، فكانوا سبباً في انتشار الإسلام فيها. ثم تكلم عن أهل صوصو السودانيين الذين استطاعوا إسقاط مملكة غانة، ثم تمكن أهل مالي السودانيون ـ وهم مسلمون ـ من القضاء على مملكة الصوصو، وأصبحت بلادهم بما فيها أملاك مملكة غانة القديمة حتى البحر المحيط ضمن مملكة مالي[1].

ومن مصادر ابن خلدون عن إمبراطورية غانة وملوكها كل من الحاج يونس ترجمان التكرور، والمعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي من نسل عبد المؤمن الموحدي، وهو الذي يسميه (صاحبنا) والذي التقى سلطان مالي منسا موسى في غدامس عند توجهه للحج، ثم صحبه. والمصدر الرابع لابن خلدون عن غانة هو القاضي أبو عبد الله محمد بن وانسول السجلماسي الذي تولى القضاء في كوكو بمملكة غانة منذ سنة 776هـ/ 1374م[2].

4 ـ القلقشندي (ت 821هـ/ 1418م):

ومن المصادر المهمة التي أسهبت في الكلام عن تاريخ الإسلام في غربي إفريقية القلقشندي، وهو معاصر لابن خلدون. وقد تحدث عن البرنو وكانم ومالي وصوصو وغانة وكوكو وتكرور. مبتدئاً كلامه عن بلاد السودان بتحديد موقعها الجغرافي، فيقول: يحدها من الغرب البحر المحيط الغربي، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق البحر القلزم مما يقابل اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرقي بلاد الزنج في جنوبي البحر الهندي، ومن الشمال البراري الممتدة بين الديار المصرية وأرض برقه، وبلاد البربر، من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط[3].

ويذكر أن المشهور من ممالكها ست، وهي: بلاد البجا، وبلاد النوبة، وبلاد البرنو، وبلاد

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656.

(3) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق نبيل خالد الخطيب، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 263.

كانم، وبلاد مالي ومضافاتها، ومملكة الحبشة[1].

وفيما يخص موضوع السودان الغربي يتكلم عن بلاد البرنو التي عنونها بالمملكة الثالثة، وعاصمتها كاكا، وأن أهلها مسلمون، وأغلب ألوانهم السواد. ويأخذ القلقشندي معلوماته عنها عن العمري، وعن مبعوث ملك البرنو الواصل إلى مصر بصحبة الحجيج أيام السلطان المملوكي الظاهر برقوق (784 ـ 801هـ/ 1381 ـ 1398م) ويذكر أن هنالك مكاتبات بين ملوك البرنو وسلاطين المماليك، منها الرسالة التي بعثها ملك البرنو إلى السلطان الظاهر برقوق التي يذكر فيها أنه من ذرية سيف بن ذي يزن، وقد أخطأ ملك البرنو في نسب سيف بن ذي يزن إلى قريش، بينما هو من أعقاب تبابعة اليمن من حمير[2].

ويتكلم عن بلاد الكانم، فيقول: إن أهلها مسلمون، والغالب على ألوانهم السواد، ثم يذكر محصولاتها، وفواكهها، ومعاملاتها التجارية، وأن عاصمتها جيمي، وملكها مسلم، وهو من نسل سيف بن ذي يزن. ويعتمد في معلوماته على العمري في كتابيه «مسالك الأبصار» و«التعريف»، وابن عبد الملك المراكشي في «التكملة»، وأبي الفدا في «تقويم البلدان»، وابن سعيد من دون ذكر اسم الكتاب[3].

أما بلاد مالّي ومضافتها فيضعها تحت عنوان (المملكة الخامسة من بلاد السودان) وهي الثالثة من بلاد السودان الغربي بعد البرنو وكانم، فيقول (مالّي) بتشديد اللام، وهي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور. وينقل عن العمري في كتابيه «مسالك الأبصار» و«التعريف» أنها تقع جنوب المغرب، وحدُّها من الغرب البحر المحيط، وفي الشرق بلاد البرنو، وفي الشمال

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى،ح5، ص 263، 264، 268، 269، 271، 289.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ح5، ص 268 ـ 269، وطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة كوستا تسوماس وشركاه، ح5، ص 279. والحقيقة أن سيف بن ذي يزن الحميري ملك اليمن مدة 25 سنة، وكانت ولادته سنة 110 ق. م/ 516م. وقتل وعمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثلاث سنوات (549 ـ 574م/ 38 ـ 53ق. هـ). ينظر: الزركلي، الإعلام، ح3، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ص 149.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية العامة، ح5، ص 280 ـ 281، وطبعة دار الكتب العلمية، ح5، ص 269 ـ 271 وطبعة بتحقيق يوسف علي طويل، بيروت، 1987، ص 7.

جبال البربر، وفي الجنوب الهمج. مناخها شديد الحرارة، وأهلها طوال في غاية السواد، وتفلفل الشعور، وهي من أعظم الممالك السودانية[1].

ويبتدئ بذكر أقاليمها، وهي خمسة، كل إقليم منها مملكة بذاتها، فالأول هو: مالي ويقع في الوسط بين إقليمي صوصو غرباً وكوكو شرقاً، وعاصمته مدينة يني، وهي جزيرة كبيرة يحيطها فروع من نهر النيجر من جهاتها الأربع[2].

والإقليم الثاني هو: صُوْصُوْ، ويقع غرب إقليم مالي[3].

وبلاد غانة الإقليم الثالث، وهي غربي إقليم صوصو، تجاور المحيط الغربي، وعاصمته مدينة غانة، وإن لها نيلاً [نهر النيجر] شقيق نيل مصر يصب في المحيط الأطلسي، وهي مبنية على ضفتي نهر النيجر، يسكن إحدى ضفتيها المسلمون، والثانية يسكنها الكفار.

والذهب متوافر فيها بكميات كثيرة، وأن أهلها أسلموا أيام الفتح الإسلامي. ويعتمد القلقشندي في معلوماته على كل من ابن سعيد وأبي الفداء والحميري صاحب الروض المعطار وابن خلدون[4].

وبلاد كوكو هي الإقليم الرابع، وهي شرق مالي، وعاصمتها كَوْكَوْ، وهي مدينة كبيرة تقع على الضفة الشرقية من نهر ـ لم يُسمِه ـ ينبع من الشمال ويغور في الصحراء. ولبلاد كوكو ملكها الخاص بها.

وبلاد التكرور هي الإقليم الخامس من أقاليم بلاد مالي ومضافاتها، وتقع شرقي بلاد كَوْكَوْ. ويليه من جهة الغرب مملكة البرنو، وهي عاصمة مملكة مالي، وتقع على الضفة الغربية من نهر النيجر. ثم يتكلم عن محاصيلها الزراعية، وحيواناتها، وتجارتها مع المغرب الأقصى. ثم يذكر

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية العامة، ح5، ص 282، وطبعة دار الكتب العلمية، ح5، ص 271.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ح5، طبعة المؤسسة المصرية العامة، ص 283، وطبعة دار الكتب، ح5، ص 272 ـ 273.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية العامة، وطبعة دار الكتب، ح5، ص 273.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية العامة، ص 284، وطبعة دار الكتب، ح5، ص 273 ـ 274.

أن ملوك هذه الأقاليم الخمسة وبعض ملوك البربر شمال بلاد مالي تحت حكم صاحب مملكة مالي. أما بلاد مغازة الذهب ـ وهي بلاد الهمج الكفار ـ فإنهم في طاعته، يفرض عليهم إتاوة سنوية من الذهب من دون السيطرة عليها، ولو شاء لاستطاع، اعتقاداً من ملوك مالي بأنهم إذا ما فتحوا هذه المنطقة، وانتشر الإسلام فيها، وأذّن المؤذن فيها، قل وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يعدم، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار، فاكتفى ملوك مملكة مالي بالطاعة، ودفع ما قرر عليهم من الذهب. وكانت مصادره عن هذا الإقليم كلاً من العمري في «مسالك الأبصار»، والحميري في «الروض المعطار»[1].

ثم ينقل عن العمري في كتابه «مسالك الأبصار» معلوماته عن معدن الذهب، بأنه على نوعين: نوع يوجد في الصحراء له ورق شبيه بالنخيل، والثاني يوجد على ضفاف نهر النيجر، تحفر له حفائر، فيوجد فيها كالحجارة و الحصى. إضافة إلى النحاس الأحمر والملح الذي هو معدوم في داخل بلاد السودان الأخرى، ولندرته يضطر الناس إلى مبادلته كل صُبْرة [كوم بلا وزن أو كيل] ملح بمثله من الذهب، وكانت عملية المبادلة تتم بوساطة ما يسمى بـ «التجارة الصامتة» من دون مواجهة المتبادلين بعضهم البعض.

ويذكر القلقشندي نقلاً عن معاصره ابن خلدون أن هذه الممالك الخمسة كانت بيد ملوك مستقل بعضهم عن البعض الآخر، وكان من أعظمها مملكة غانة، فلما أسلم الملثمون من البربر قاموا بفتح تلك الأقاليم، وانتشر الإسلام بين كثير منهم، وأعطى من لم يسلم الجزية، ثم ضعفت غانة، وسقطت على يد مملكة صوصو المجاورة لهم، فملكوا غانة[2].

أما ملوك مالي فقد دخلوا في الإسلام منذ زمن قديم، وأول من أسلم منهم ملك اسمه بَرَمِنْدانَّة، ثم حج بعد إسلامه، وسار أخلافه بسيرته.

ثم يتحدث القلقشندي: عن أرباب الوظائف بمملكة مالي، فيذكر بصورة مختصرة عن

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، طبعة المؤسسة المصرية العامة، ص 286 ـ 287، وطبعة دار الكتب، ج5، ص 275 ـ 276.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ص 293، وطبعة دار الكتب، ج5، ص 281 ـ 282.

العمري في «مسالك الأبصار» أن بها الوزراء، والقضاة، والكتاب، والدواوين، وأن السلطان لا يكتب شيئاً في الغالب، بل يوكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء. أما كتابتهم فهي بالخط العربي المغربي[1].

ثم يشير إلى أن لباسهم عمائم بحنك مثل العرب، ولبسهم شبيه بلبس المغاربة، وهو من القماش القطني الأبيض: جباب ودراريع غير مفتوحة، وأبطالهم يلبسون الأساور من الذهب، ويركبون بالسروج مثل العرب[2].

وأخيراً يتحدث في ترتيب المملكة، فيشير إلى مراسيم قصر السلطان: جلوسه، ومجلسه، وسلاحه من الذهب، ومماليكه، وأمراؤه، وسفيره بينه وبين الناس ويسمى الشاعر، وسيافه، والعادات الغريبة التي يتوجب القيام بها من قبل الحاضرين إلى مجلسه. وأن السلطان لا يأكل إلا منفرداً لوحده. وقد رأى هذه المراسيم والي مصر ابن أمير حاجب عن خدمة حاشية السلطان لمنسا موسى لما قدم الديار المصرية في طريقه إلى الحج[3].

ويعلق صلاح الدين المنجد على ما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي، فيقول: إنه عقد فصلاً هاماً عن مالي، رتب فيه ما قاله من سبعة من المؤلفين، حسب أبواب أو موضوعات، فنقل عن العمري، وابن سعيد، وأبي الفداء، والحميري، وغيرهم. وكان جل اعتماده على العمري. وجاءت قيمة المعلومات الواردة فيه أنه جمع كثيراً من تلك المعلومات من كتب الجغرافيين والمؤرخين السابقين له، والتي بعضها لم تصل مؤلفاتهم إلينا، ثم قيامه بتنسيق تلك المعلومات، وإخراجها بالصورة التي هي عليها في صبح الأعشى[4].

5 ـ حسن الوزان، المشهور باسم ليون الإفريقي (ت بعد 957هـ/ 1550م):

للمؤلف اسمان؛ أحدهما إسلامي، والثاني مسيحي، وقد ذكر هو نفسه اسمه بخطه بعد

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، طبعة المؤسسة المصرية، ص 298، وطبعة دار الكتب العلمية، ج5، ص 286 ـ 287.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 299، وطبعة دار الكتب العلمية، ج5، ص 287.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 300 ـ 301، وطبعة دار الكتب العلمية، ج5، ص 288 ـ 289.
(4) المنجد، مالي، ص 8.

مطالعته لمخطوط «قواعد الشعر» لأحمد بن يحيى بن ثعلب [المخطوط في مكتبة الفاتيكان تحت رقم 357 عربي] رغم مرور مدة على أسره، وتداول اسمه المسيحي، إذ قال ((العبد الفقير إلى الله مؤلفه يُوحَنّى الأسد الغرناطي، المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي))[1]. كما أورد اسمه نفسه في نهاية مؤلَّفِه أيضاً، فهو الحسن بن محمد الوزان أبو علي الغرناطي أصلاً، الفاسي داراً، المسمى في أسره يوحنا الأسد Jean leon، والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الإفريقي Leon L' Africain[2].

ولد الحسَن الوزان في غرناطة قبيل سقوطها على يد الملكين الكاثوليكيين الإسبانيين فردناند وإيزابلا، واختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، لكن المرجح أنها حوالي 888هـ/ 1483م؛ أي قبل سقوط غرناطة بنحو تسع سنوات[3]. انتقل صغيراً مع أسرته إلى فاس بعد سقوط غرناطة عام 897هـ/ 1492م، فتعلم بجامع القرويين[4]، حيث درس على أعلام العلماء القرويين الكثيرين، وعلى رأسهم الإمام محمد غازي المكناسي صاحب الفهرس المنسوب إليه، ثم نجدهُ يجالس الفقهاء والقضاة يناظرهم ويناقشهم في نوازل فقهية وفتاوى دقيقة، وذلك خلال رحلاته العديدة. إضافةً إلى كونه كاتباً وشاعراً، كما كان ماهراً في الحساب، يستخلص واجبات بيت المال من القبائل[5]، واستهل حياته العلمية للشهادة عدلًا مع عدول فاس الرسميين[6]. ولفت نظرَ سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي هذا النبوغُ المبكر للحسن الوزان، فقربه، وأدخله في سلك رجال بلاطه، وانتدبه ـ على الرغم من حداثة سنه ـ لبعض المهام الدبلوماسية والوساطات السياسية، فأرسله سنة 915هـ/ 1512م إلى الملك

(1) تنظر صورة اسمه بخطه على كتاب قواعد الشعر لثعلب كما وردت أعلاه في الزركلي، الأعلام، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج2، ص 217، وينظر أيضاً: الوزان، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقية، ط 2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، 1983، ج1، مقدمة المترجمين، ص 12.

(2) الوزان، وصف إفريقية، ج1، مقدمة المترجمين، ص 217.

(3) الوزان، وصف إفريقية، ج1، مقدمة المترجمين، ص 7.

(4) الوزان، وصف إفريقية، ج1، ص 7؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص 217.

(5) الوزان، وصف إفريقية، ج1، مقدمة المترجمين ص 7.

(6) الوزان، وصف إفريقية، ج1، مقدمة المترجمين ص 7.

المراكشي طالباً نجدته ضد البرتغاليين والأسبان الذين احتلوا عدداً من الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي[1].

وقام الحسن الوزان برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، وسجل مشاهداته في مذكرات شبه يوميات أصبحت أساساً لكتابه الجغرافي، فقد صحب أباه وهو صغير إلى إقليم جبال الريف والأطلس المتوسط، وكان أبوه مكلفاً من قبل السلطان بجمع ضرائب هذه المنطقة[2]. كما قام برحلات أخرى طويلة زار خلالها مصر والجزيرة العربية والعراق وفارس وأرمينيا والتتار. أما رحلاته التي شكلت مادة كتاب وصف إفريقية فهي:

أ ـ رحلته إلى تنبكتو وغيرها من بلاد السودان مع عمه الذي كان مكلفاً عام 917هـ/ 1511م بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي ثاني ملوك الدولة الوطاسية (910 ـ 932هـ/ 1503 ـ 1525م) وبين ملك سنغاي الحاج محمد أسكيا الكبير (900ـ935هـ/ 1493ـ1528م). فقد سلكوا في الذهاب الطريق الغربي عبر مراكش ودرعة، وعادوا عن طريق سجلماسة ـ فاس. وفي رحلته الثانية إلى تنبكتو، حيث عبر الطريق من هناك إلى مصر، وعاد إلى وطنه بحراً.

ب ـ رحلته إلى الشواطئ الغربية القريبة من فاس، وحضر محاصرة الوطاسيين لمدينة أصيلة المحتلة من قِبل البرتغاليين عام 914هـ/ 1508م.

ج ـ رحلته إلى وسط المغرب، وفيها تعرف إلى الشريف السعدي محمد القائم بأمر الله.

د ـ رحلته إلى الأطلس الكبير عام 918هـ/ 1514م.

هـ ـ رحلته إلى بلاد حاحا في المغرب، وحضر معركة بولعوان بين المغاربة والبرتغاليين قبل أن يلتحق بمراكش.

(1) الوزان، وصف إفريقية، ج1، مقدمة المترجمين ص 7ـ8؛ رزق الله، مهدي، حركة التجارة، ص21؛ الزركلي، الإعلام، ج2، ص217.
(2) الوزان، وصف إفريقية، ج1، مقدمة المترجمين، ص 8.

و ـ رحلته من مراكش إلى سوس عبر ممر أمزميز عام 920هـ/ 1515م، وفيها التقى بالشريف السعدي.

ز ـ رحلته إلى الحجاز سنة 921هـ/ 1516م.

ح ـ رحلة الأستانة، التي خرج إليها بعد أداء فريضة الحج للقاء السلطان العثماني سليم الأول سفيراً من قبل ملك فاس محمد الوطاسي، لكن سليم الأول كان قد خرج في حملته العسكرية الشهيرة للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، فلحق به الوزان، وحضر معه المعارك التي انتهت يوم 21 ربيع الأول 923/ 13 نيسان 1517م بالقضاء على مقاومة المماليك في مصر، وبقي الحسن الوزان في مصر بضعة أشهر، ولما خرج السلطان العثماني سليم من الإسكندرية اتجه الحسن الوزان إلى السودان.

ط ـ وصوله إلى ليبيا وتونس في طريق العودة إلى المغرب، حيث بقي هنالك حوالي سنتين، وعندما أبحر من تونس عائداً إلى المغرب سنة 926هـ/ 1520م وقع في أيدي القراصنة الصقليين الإيطاليين، فأسروه بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابولي، ثم قدموه هدية للبابا ليو العاشر في روما[1].

ولأن البابا ليون العاشر كان من بابوات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون، فقد سُر بهذا الأسير العالم العربي الشاب الذي كانت معه كتبه وأوراقه[2]، فتوثقت العلاقة بينهما، ويقال إن البابا نَصَّرَه، ثم أطلق عليه اسمه Giovani Leoni، وفي كنف هذا البابا أكمل الوزان كتابه الشهير «وصف إفريقية» وترجمه كله إلى اللغة الإيطالية[3]. ويقول مترجما الكتاب إلى اللغة العربية أن الحسن الوزان أدرك أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية، فتظاهر بالتمسح، وحمل اسم مالكه وحاميه البابا، فصار يدعى (J. leon)

---

(1) الوزان، وصف إفريقية، ح1، مقدمة المترجين، ص 8 ـ 10؛ الزركلي، الأعلام، ح2، ص 218؛ رزق الله، حركة التجارة، ص 22؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، مادة: ليو الإفريقي، ح27، ص 8335 ـ 8339.
(2) الوزان، وصف إفريقية، ح1، مقدمة المترجين، ص 10؛ الزركلي، الأعلام، ح2، ص 218.
(3) رزق الله، حركة التجارة، ص 22.

أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الإفريقي(1). وقد اختفى الحسن الوزان من روما في ظروف غامضة(2)، وعاد إلى بلاده عام 934هـ/ 1527م(3)، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام، وهي تونس، وعاد إلى حياته الإسلامية الأولى(4).

وهنا يسدل الستار عن حياة الحسن الوزان، ولا يعرف هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس، ولا يعرف تاريخ ولا مكان وفاته، والتي كانت على الأغلب بعد عام 957هـ/ 1550م(5).

أما كتاب «وصف إفريقية» الذي يهم دارسي تاريخ المسلمين في غربي إفريقية فهو يمثل القسم الثالث من كتاب الجغرافية العامة، الذي ألفه الحسن الوزان باللغة العربية. ثم ترجم المؤلف نفسه هذا القسم إلى اللغة الإيطالية في روما سنة 932هـ/ 1525م. وقد اعتذر عما يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء، خاصة عند الترجمة، لأنه قد مر عليه بعد ما ألف وصف إفريقية مدة طويلة، لم يطلع فيها على كتاب في تاريخ إفريقية أو جغرافيتها، وإنما اعتمد على ما علق بذهنه مما رآه قبل هذه المدة الطويلة، وهذا ما يفسر خلو هذا الكتاب من نقول حرفية، على عكس ما عند الجغرافيين العرب. وأكثر ما ينقل عن الرقيق القيرواني وابن خلدون، ويذكر عشرات المؤلفين العرب كالبكري والإدريسي والعمري، ومع ذلك يبقى معظم مادة الكتاب من مشاهدات المؤلف وخبراته الشخصية(6).

ويقسم الحسن الوزان إفريقية إلى أربعة أجزاء هي: ● بلاد البربر ● بلاد الجريد ● الصحراء الكبرى المترامية [صحارى ليبيا] ● بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء(7).

أمّا صحارى ليبيا فيقسمها إلى خمسة أجزاء بحسب القبائل التي تسكنها، والتي يسميها

(1) الوزان، وصف إفريقية، ح 1، مقدمة المترجين، ص 11.
(2) الوزان، وصف إفريقية، ح 1، مقدمة المترجين، ص 14.
(3) الزركلي، الإعلام، ح2، ص 218.
(4) الوزان، وصف إفريقية، ح 1، مقدمة المترجين، ص 14.
(5) الوزان، وصف إفريقية، ح 1، مقدمة المترجين، ص 14؛ الزركلي، الأعلام، ح2، ص 217.
(6) الوزان، وصف إفريقية، ح 1، مقدمة المحققين، ص 14 ـ 15؛ الزركلي، الأعلام، ق 2، ص 218.
(7) الوزان، وصف إفريقية، ح 1، ص 15.

الشعوب، وهي: • صحراء صنهاجة • الصحراء التي يسكنها شعب وتريكه • الصحراء التي يسكنها شعب تاركه • الصحراء التي يسكنها شعب لمطة • الصحراء التي يسكنها شعب برداوة. ويتكلم عن كل واحدة من هذه الصحارى[1].

أما بلاد السودان فيتكلم عن جغرافيتها، وسكانها، وفتحها، وملوكها، وممالكها، مثل: مملكة ولاته، مملكة غينيا، مملكة مالي، مملكة تنبكتو، كاغو وممتلكاتها، مملكة كُوبَرْ، أَغَدَس ومملكتها، مملكة كانو، كاتسينا ومملكتها، زَكْزَكْ مملكة زَنْفَرَى، مملكة وانْكُرة، بورنو ومملكته، وكَاوْكَا ومملكتها[2].

6ـ الفشتالي (ت 1031هـ/ 1621م):

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الصنهاجي الفشتالي، نشأ في قبيلته فشتالة بنواحي فاس، ودرس فيها على علمائها أحمد المنجور، والقاضي عبد الواحد الحميدي، والفقيه النحوي أحمد الزموري. بدأ حياته الوظيفية كاتباً في ديوان إنشاء الأمير المأمون ولي عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي بفاس، ثم انتقل من خدمته إلى خدمة السلطان نفسه، ثم عاد مع السلطان إلى مراكش بعد زيارة السلطان الأولى لمراكش سنة 990هـ/ 1582م، وبدأ أعماله في ديوان الإنشاء بتحرير نص بيعة سلطان البرنو سنة 991هـ/ 1583م، ثم أصبح من جلساء المنصور وخاصته المقربين سنة 993هـ/ 1585م، وكلف بتحرير نص بيعة المأمون قراءتها على الملأ، وهكذا أصبح الفشتالي بمثابة وزير القلم الأعلى. وبعد أن كلفه المنصور بتدوين أخبار الدولة السعدية، وتسجيل وقائعها، أصبح الفشتالي مؤرخ الدولة الرسمي.

وشرع فعلاً في تأليف كتاب تاريخي عام عن الدولة السعدية منذ نشأتها في مطلع القرن السادس عشر؛ أي تاريخ السلاطين الشرفاء السعديين، وسماه «مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا» إلا أن معظم الكتاب قد ضاع، أو هو في حكم المجهول، ولم يصل إلينا منه إلا بعض

(1) الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 148 ـ 154.
(2) الزركلي، الأعلام، ج2، ص 159 ـ 179.

الأحداث والوقائع التي تعود إلى عهد أحمد المنصور الذهبي[1].

وفيه يذكر أحداثاً عن بلاد السودان وقعت في عهد أحمد المنصور السعدي، وبخاصة ما يتعلق بالأساكي سلاطين إمبراطورية سنغاي، واحتلال جيش المنصور لها وإسقاطها، إضافة إلى بعض أخبار إمبراطورية البرنو.

7 ـ البرتلي الولاتي (ت 1219هـ/ 1804م)[2]:

هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق بن أبي عبد الله محمد بن الطالب علي بنان البرتلي، عرف بالطالب محمد بن أبي بكر الصديق[3]. كتب أحد تلامذته ترجمة له[4]، ذكر فيها شيوخه السودانيين الذين تتلمذ على أيديهم، كالطالب المحضري، والطالب الأمين الحرشي، والحسن البرتلي، وعمر المحجوبي[5]. وذكر مؤلفاته، منها: تأليف في علم التاريخ، وتأليف في تراجم علماء التكرور[6]. والمقصود بالتأليف الأخير هو الكتاب المعنون «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»[7]. وهذا الكتاب ـ على ما قال عنه المحققان ـ ذو أهمية كبيرة في تاريخ الثقافة العربية؛ لأنه يسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية، فهو يتضمن 200 ترجمة لكبار علماء التكرور خلال 159 سنة (1056 ـ 1215هـ/ 1646 ـ 1800م)[8].

ويفيد كتاب «فتح الشكور» الباحثين بمعلومات قيمة عن التأثر والتأثير بين مراكز الثقافة العربية المختلفة في ذلك الوقت، وأسماء كتب التراث العربي التي كانت موجودة آنئذ، وأسماء مؤلفات علماء التكرور، ومساهماتهم في المحصول الضخم للمؤلفات العربية عبر القرون

(1) الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، 1972، ص 2 ـ 6.
(2) الولاتي، فتح الشكور، ص 22.
(3) الولاتي، فتح الشكور، ص 17.
(4) الولاتي، فتح الشكور، ص 17 ـ 23.
(5) الولاتي، فتح الشكور، ص 18.
(6) الولاتي، فتح الشكور، ص 18.
(7) حققه محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ونشر في دار الغرب الإسلامي.
(8) البرتلي الولاتي، فتح الشكور، مقدمة المحققين، ص 5.

المتعاقبة في آسيا وإفريقية وأوروبا[1]. لذا يمكن اعتباره مصدراً مهمّا من مصادر دراسة الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي، إضافة إلى أهميته في دراسة التاريخ السياسي من منتصف القرن الحادي عشر الهجري إلى بدايات القرن الثالث عشر الهجري/ منتصف القرن السابع عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

8ـ محمود كعت[2] (ت 1002هـ/ 1594م):

ولد محمود كعت بن المتوكل على الله مؤلف كتاب «تاريخ الفتاش» سنة 873هـ/ 1468م، بناء على قوله هو، بدأ بتأليفه سنة 925هـ/ 1519م وهو في الثانية والخمسين من عمره.

وساهم في تكملته خمسة آخرون، ثلاثة منهم أولاد محمود كعت هم: القاضي إسماعيل كعت، والقاضي محمد الأمين كعت، ويوسف كعت[3]. وكانت مساهمة هؤلاء الثلاثة تتراوح في تكملته بين الكتابة فعلاً، أو تقديم أوراق ومذاكرات لابن أختهم، المكمِل الرابع في تأليف الكتاب الذي لم يذكر اسمه ولا مرة واحدة، وهو بهذا حفيد محمود كعت لأمه، وقد ساهم مساهمة كبيرة في تكملة الكتاب، ولا يعرف اسم المكمِل الخامس، وبناء على ما تقدم فإن ستة مؤلفين ساهموا بطريقة أو بأخرى في تأليف الكتاب.

فهو إذن القاضي الفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني داراً، التنبكتي مسكناً، الوعكري أصلاً[4]، وعبارة (الكرمني داراً) تعني أن عائلته كانت تسكن كرمن أحد أقاليم تندرمة، و(التنبكتي مسكناً) تعني أن مدينة تنبكت كانت موطناً له، و(الوعكري) نسبة إلى

---

(1) البرتلي الولاتي، فتح الشكور، مقدمة المحققين، ص 5ـ6.

(2) تنطق كلمة كعت من قِبل أهل المنطقة: كاتي، فهم يكتبون العين للدلالة على المد. ينظر أحمد فؤاد بليع، محمود كعت وكتابه تاريخ الفتاش، ملحق بكتاب الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية، تأليف ك.مادهو يانيكار، ط 2، من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1998، ص 548؛ قداح، نعيم، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 27.

(3) القاضي الفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي الوعكري، تاريخ الفتاش، في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق: هوداس ودلافوس، باريس ـ 1981. والفع هو اختصر للكلمة العربية: الفقيه.

(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 1ـ2.

وعكري من مدن المغرب؛ فهي أصل أسرته[1].

ويبدو أن محمود كعت الجد ألّف كتابه هذا في حق سلطان سنغي أسكيا الحاج محمد (898 ـ 935هـ/ 1493 ـ 1528م)[2] الذي اعتلى عرش مملكة سُنْغي في زمانه، والذي كان عهده متميزاً بسبب أعماله الجيدة وعدله[3].

وهذا الكتاب «تاريخ الفتاش» يتحدث بالدرجة الأولى عن عهد سني علي وأسكيا الحاج محمد، مروراً ببعض أحداث مملكة سُنغي وملوكها، ثم الحملة السعدية على مملكة سُنغاي واحتلالها من قبل القائدين جودر ثم محمود بن زرقون سنة 999هـ/ 1594م، وحتى بعض أحداث سنة 1075هـ/ 1664م.

وأخيراً، ومما يثير الاستغراب أن معاصر محمود كعت وابن مدينته تنبكتو العالم والمؤرخ أحمد بابا التنبكتي لم يذكره، ولذا لم يفرد له ترجمة، وبالتالي لم يذكر شيئاً عن كتاب «تاريخ الفتاش»، ربما لأن عائلة كعت لم تكن مالكية، وإن كتابا أحمد بابا التنبكتي «نيل الابتهاج» وملخصه «كفاية المحتاج» مخصصان لتراجم المالكية، أو أن عائلة كعت كانت منافسة لعائلة أقيت، أو لسبب آخر غير معروف. كما أن السعدي في «تاريخ السودان» والولاتي في «فتح الشكور» لم يذكرا شيئاً عن عائلة كعت، عدا ما أشار إليه السعدي عن وفاة القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل على الله عام 1002هـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

9 ـ أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ/ 1627م):

هو من أبرز علماء وفقهاء ومؤرخي السودان الغربي، كتب سيرته الذاتية في نهاية كتابه «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»[4] الذي هو مختصر لكتابه الآخر المعنون «نيل

---

(1) الفتاش، ص 48.

(2) حول مدة سلطته التي هي 43 سنة على الأصح، أو 39 سنة التي انتهت بعزله من قبل ابنه أسكى موسى، ينظر: محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 78.

(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 10 ـ 11.

(4) التنبكتي، أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، 2002م،

الابتهاج بتطريز الديباج» الذي عده ذيلاً ذَيَّل به كتاب «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون[1]، والكتب الثلاثة في تراجم المالكية.

وقد جاء في كتابه «كفاية المحتاج» قوله عن سيرته الذاتية: (وكما كانت النفوس تتشوق لمعرفة مؤلفي الكتب، رأيت أن أذكر نفسي هنا لئلا يجهلني من وقف على هذا الجزء)[2]. فذكر اسمه ونسبه مطولاً في هذه السيرة[3]، كما ذكره مختصراً في كتابه الآخر «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» وأضاف إليه ألقاب: التكروري، ثم التنبكتي المالكي[4]. أما تاريخ ولادته فذكر أنه ولد سنة 963هـ استناداً إلى ما وجده بخط والده[5]، وتوفي سنة 1036هـ/ 1627م، على ما ذكره السعدي[6]، ويبدو أن المجي توهم عندما ذكر وفاته عام 1032هـ/ 1623م[7].

درس أحمد بابا التنبكتي في تنبكت على يد بعض أفراد أسرته الشهيرة؛ أسرة أقيت، منهم والده أحمد (ت 991هـ/ 1583م) الذي درس على يديه علم الحديث، والمنطق (ت 991هـ/ 1583م) وعلوم النحو، والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، واللغة العربية، والبيان، والتصوف[8]، كما درس في تنبكت أيضاً على يد محمد بن محمود التنبكتي المعروف ببَغْيُع (ت 1002هـ/ 1593م) الذي لازمه أكثر من عشر سنين درس فيها كتباً كثيرة، كمختصر خليل، والموطأ، والبخاري، ومسلم[9]. كذلك التقى بمراكش بأبي عبد الله بن يعقوب العالم والأديب المراكشي، فقرأ عليه كتباً كثيرة مثل: الشفا لعياض، والبخاري، والترمذي، والموطأ لمالك، وألفية الحديث

ص 513 ـ 517.

(1) التنبكتي، أحمد بابا، كفاية المحتاج، ص 25، 513.

(2) التنبكتي، أحمد بابا، كفاية المحتاج، ص 513.

(3) التنبكتي، أحمد بابا، كفاية المحتاج، ص 513.

(4) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بهامش كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 4.

(5) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 516.

(6) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، تحقيق هوداس وبنوة، باريس، 1964، ص 243 ـ 244. ينظر أيضاً: ابن شنب محمد، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أحمد بابا التنبكتي، ترجمة أحمد الشنتناوي وزملائه، م 1، ص 457 ـ 458.

(7) محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار الصياد، بيروت، 1284هـ ح 1، ص 170.

(8) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 514.

(9) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 341 ـ 342؛ كفاية المحتاج، ص 478، 514؛ ينظر أيضاً السعدي، تاريخ السودان، ص 44 ـ 45.

للعراقي، وغيرها، وذلك بعد إجلاء أهل بيته ـ وهو منهم ـ من تنبكت إلى مراكش على يد القائد السعدي محمود بن زرقون[1].

وقد قام أحمد بابا بالتدريس بعد إطلاق سراحه سنة 1004هـ/ 1595م في جامع الشرفا بمراكش بطلب من أهلها، كما قام بالإفتاء فيها، قائلاً: (بحيث لا تتوجه الفتوى غالباً فيها إلا إلي)[2].

ويذكر أحمد بابا المحنة التي تعرض إليها وأسرته على يد محمود زرقون قائد حملة السعديين من مراكش إلى تنبكت التي استولى عليها، فقد جاء بهم أسرى في القيود، فوصلوا مراكش في رمضان سنة 1002هـ/ 1593م، ثم أطلق سراحهم سنة 1004هـ/ 1595م من قبل السلطان المنصور السعدي، على أن يبقوا في مراكش[3]. ولما تولى سلطنة السعديين في مراكش مولاي زيدان سنة 1014هـ/ 1605م أذن له ولمن بقي من أسرته بالعودة إلى تمبكتو، وهناك كرس بقية حياته لتعليم الفقه تحديداً[4].

وعُرف أحمد بشدته في الحق، لا يتهاون في الأخذ بنصرة الضعفاء، ولا يهاب قط أن يقول كلمة الحق، ولو كان ذلك بحضرة الأمراء والسلاطين[5]. وقد وصفه معاصره المؤرخ السعدي بأنه فريد عصره، والبارع بكل العلوم، ولا يخاف في الحق لومة لائم[6].

وقد ترجم أحمد بابا التنبكتي في كل من كتابيه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، ومختصره «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» لـ 698 عالماً من علماء المالكية[7]، بما فيها سيرته

---

(1) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 514ـ515.
(2) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 515ـ516.
(3) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 515؛ الوفراني، نزهة الحادي، ص 97.
(4) الوفراني، نزهة الحادي، ص 97؛ ابن شنب، دائرة المعارف الإعلامية، مادة: أحمد بابا، م 1، ص 458.
(5) ابن شنب، دائرة المعارف، م 1، ص 458.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 35.
(7) كفاية المحتاج، ص 512.

الذاتية في آخر كتاب كفاية المحتاج[1]. وكان نصيب تراجم علماء السودان فيهما 17 عالماً[2]، تسعة منهم من أسرة أقيت؛ أسرة[3] أحمد بابا التنبكتي. كما وردت أسماء علماء وفقهاء سودانيين دون تراجم، من خلال تراجم مالكية أخرى، وبخاصة من هم ببلاد السودان[4]. وذكر تراجم مستقلة لعلماء رحلوا إلى السودان من أمثال: أحمد بن سعيد الزموري[5]، وعبد الرحمن القصري الفاسي[6]. كما ذكر المصادر التي اعتمدها في كتابة تراجمه للعلماء المالكية[7]، إضافة لذكره تاريخ تأليفه كتاب كفاية المحتاج؛ وهو سنة 1013هـ/ 1603م[8].

10 ـ عبد الرحمن السعدي (كان حياً 1066هـ/ 1656م):

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي[9]، مؤرخ مملكة سنغاي في بلاد السودان[10] في كتابه «تاريخ السودان». ولد سنة 1004هـ/ 1595م[11]، في مدينة تمبكتو[12]، أما أصله فمن مدينة جِنّي[13] على نهر النيجر، تلقى دراسته الأولى فيها[14]، ثم انتقل إلى تمبكتو صغيراً، وحضر مجالس كبار علمائها، ودخل في سلك إدارة الدولة السعدية في تمبكتو كاتباً للباشوات،

---

(1) كفاية المحتاج، ص 513 ـ 517.

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 88 ـ 90، 93 ـ 95، 102، 161، 182، 218 ـ 220، 330 ـ 332 ـ 335، 340، 341، 342، 343 ـ 344، 348؛ كفاية المحتاج، ص 75، 79، 80، 112، 170، 201، 255، 273، 464، 474، 476 ـ 479، 483 ـ 484، 492.

(3) نيل الابتهاج، ص 88 ـ 90، 93 ـ 95، 102، 161، 182، 218 ـ 220، 340، 343 ـ 344؛ كفاية المحتاج، ص 75، 79، 80، 170، 201، 273، 474، 483 ـ 484.

(4) نيل الابتهاج، ص 331، 335.

(5) نيل الابتهاج، ص 161.

(6) نيل الابتهاج، ص 176.

(7) كفاية المحتاج، ص 516 ـ 517.

(8) كفاية المحتاج، ص 516.

(9) السعدي، تاريخ السودان؛ الولاتي، أبو عبد الله الطالب، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، ط2، بيروت ـ 2007، ص 176.

(10) بروكلمان، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السعدي.

(11) السعدي، تاريخ السودان، ص 213؛ الولاتي، فتح الشكور، ص 176؛ بروكلمان، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السعدي.

(12) السعدي، تاريخ السودان، ص 21.

(13) حجي، محمد، الحركة الفكرية في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، د. ت، ج2، ص 639.

(14) حاطوم، نور الدين وآخرون، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الهلال، دمشق، 1981 ـ 1982، ص 653؛ الزركلي، الأعلام، ج3، ص 313؛ حجي، الحركة الفكرية، ج2، ص 639.

ثم عدلاً وسفيراً[1]. تولى إمامة مسجد سنكري في تمبكتو سنة 1036هـ/ 1627م[2]، والتدريس فيه[3]، ولا يعرف الباحثون عنه غير القليل مما بثه هو في ثنايا مؤلفه القيم «تاريخ السودان»[4].

ومن الملاحظ أن اسمه واسم والده وأجداده كلها أسماء عربية، أما لقبه (السعدي) فثمة احتمالان: إما نَسَبَهُ إلى قبيلة بني سعد العربية، التي منها مرضعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حليمة السعدية، أو نسبة إلى السعديين سلاطين مراكش، حيث كان يعمل موظفاً في دولتهم بمدينة تمبكتو التي كانت تحت حكمهم آنئذ[5].

أما وفاته فهي إما خلال سنة 1066هـ/ 1656م، وإمّا بعدها؛ لأن من الثابت أنه كان حياً في مطلع هذه السنة[6].

يحتوي مؤلفه «تاريخ السودان» على 38 باباً، أتمها باستثناء الجزء الأخير، سنة 1063هـ/ 1653م، وأطلق عليها اسم المجموعة(7). وقد أعقب ذلك بكتابة الباب الأخير، وهو الثامن والثلاثون الذي يتضمن تاريخ السودان لبقية عام 1063هـ حتى 1066هـ/ 1656م(8).

بدأ الكتاب بمقدمة أشاد فيها باهتمام الجيل الأول ـ على حد قوله ـ من المسلمين بالتاريخ، ولكنه لما رأى (انقراض ذلك العلم ودروسه، وإنه كبير الفوائد كثير الفرائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه، وأسلافه، وطبقاتهم، وتواريخهم، ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب[9] ما رويت من ذكر ملوك السودان أهل سغى، وقصصهم، وأخبارهم، وسيرهم، وغزواتهم، وذكر تنبكت، ونشأتها، ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين

(1) حجي، الحركة الفكرية، ح2، ص 639؛ حاطوم، المدخل، ص 653.
(2) الولاتي، فتح الشكور، ص 176؛ حجي، الحركة الفكرية، ح2، ص 639.
(3) حجي، الحركة الفكرية، ح2، ص 639.
(4) حجي، الحركة الفكرية، ح2، ص 639.
(5) بليع، عبد الرحمن السعدي وكتابه تاريخ السودان، ص 550.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 321.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 314.
(8) السعدي، تاريخ السودان، ص 321.
(9) كتب: أي كتابة.

الذين توطنوا فيها، وغير ذلك، إلى أواخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مراكش....)[1]. وكتابه هذا يتناول تاريخ مملكة سنغاي، وسير سلاطينها، وعلمائها، وقضاتها، وعلاقاتها الخارجية، ولاسيما مع السعديين بمراكش، وينتهي بتاريخ السودان إلى عام 1063هـ/ 1605م ومعظم تركيزه على سنغاي أولاً، ثم تنبكت مسقط رأسه ثانياً، وعلى مدينة جنى ثالثاً.

ويحلل بعض الباحثين الكتاب فيقولون: إن تاريخ السودان على الرغم من عنوانه العريض إلا أن تركيزه كان على دولة سنغى، وعهد الاحتلال السعدي المراكشي لها، وينصب اهتمامه على مدينة تنبكت مسقط رأسه، والمدينة الثانية التي حظيت باهتمامه هي مدينة جنى. وإن الجزء الأول من كتاب تاريخ السودان ـ الذي يتجاوز نصفه تقريباً ـ اعتمد فيه على مصادر شفهية أو مكتوبة، أما الجزء الثاني فيختلف عن الأول؛ لأنه كان يسجل الأحداث عن قرب، كشاهد عيان، فجاءت معلوماته فيه حية أصيلة[2]. وعموماً فالكتاب زاخر بسير العلماء، إلا أنه لا يشير بشيء من التفصيل عن حياتهم الخاصة، والأحداث التي ارتبطوا بها، مقتصراً بذلك على أسمائهم فقط، ومشايخهم، والكتب التي درسوها، وتواريخ وفياتهم، ومكان دفنهم. واتبع الطريقة نفسها عند الكلام عن رؤساء سنغى[3]، وهناك من يعتبره من أوثق المصادر عن تاريخ تلك البلاد في القرن 11هـ/ 17م[4].

ثالثاً ـ المراجع العربية عن تاريخ ممالك غربي إفريقية أو السودان الغربي:

وهي كثيرة جداً لعل أبرزها ما كتبه إبراهيم علي طرخان عن أهم تلك الممالك التي أفرد لكل منها كتاباً مستقلاً، «إمبراطورية غانا الإسلامية»، القاهرة، 1970، تكلم فيه عن ظهور إمبراطورية غانة، وغانا الإسلامية، نهايتها، والأحوال العامة فيها. وتضمن الكتاب خرائط

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 1 ـ 2.
(2) بلبع، عبد الرحمن السعدي، ص 551 ـ 552؛ أحمد، حركة التجارة، ص 27.
(3) أحمد، التجارة، ص 27 ـ 28.
(4) حجي، الحركة الفكرية، ح2، ص 639.

لإمبراطورية غانة، ومدينة كومبي صالح، ونشاط قبائل السُّونِنْك، وطرق القوافل الرئيسية في غربي إفريقية.

والكتاب الثاني هو «دولة مالي الإسلامية» نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973. تضمن قيام دولة مالي، وانتشار الإسلام فيها، وازدهارها، ونهايتها، والأحوال العامة فيها، وختمه بظهور البامبارة وجمهورية مالي الحديثة. إضافة إلى الملاحق التي تضمنت معجماً بالألفاظ والمصطلحات والأثر اللغوي العربي والإسلامي عند الماندنجو وجيرانهم في غربي إفريقية، مع عدد كبير من الخرائط، وهو بحق من أهم الكتب التي أُلفت عن تاريخ مملكة غانة.

أما الكتاب الثالث لإبراهيم علي طرخان فهو «إمبراطورية البرنو الإسلامية» نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975. تضمن مهد الإمبراطورية، وعناصر سكانها، وقيام إمبراطورية البرنو؛ أي عصر سيادة كانم، أو العصر الكانمي، والإسلام في إمبراطورية البرنو، وإمبراطورية البرنو في ذروة مجدها في العهد الكانمي، وانتقال مركز الإمبراطورية من كانم إلى برنو، والعصر البرنوي أو عصر سيادة برنو، وسقوطها، والأحوال العامة فيها، كما تضمن الكتاب عدة ملاحق وخرائط وصور.

وللأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود كتاب بعنوان «الإسلام والثقافة العربية في إفريقية» وآخر عن قيام دولة المرابطين، القاهرة، 1957.

وألف حسن إبراهيم حسن كتاباً بعنوان «انتشار الإسلام في القارة الإفريقية» احتوى على مسالك الإسلام في إفريقية، ووسائل انتشاره، ومظاهر حضارته في غربي إفريقية، مع 7 خرائط، أغلبها عن ولايات السودان الغربي عبر القرون (5ـ 11هـ/ 11ـ 17م).

ولمهدي رزق الله أحمد كتاب بعنوان «حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية». وهو في الأصل أطروحة دكتوراه من قسم التاريخ والحضارة الإسلامية في جامعة الأزهر، تناول فيه عوامل تغلغل الإسلام ونجاحه في غربي إفريقية، والآثار الحضارية الناجمة عنه، متحدثاً عن دول غانا ومالي وسنغي، وحركة التعليم

الإسلامي في معاهد غربي إفريقية، وعلمائه، والكتب والمواد الدراسية الشائعة الاستعمال، والتبادل التعليمي مع البلاد الإسلامية.

ولعمر محمد صالح كتاب بعنوان «الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي» مؤسسة الرسالة، 1993. وهو في الأصل أطروحة دكتوراه في الحضارة الإسلامية من جامعة السوربون 4. والمؤلف سنغالي من غربي إفريقية، تناول فيه انتشار الإسلام في غربي إفريقية، والمحاضر (جمع محضرة، ويبدو أنها تعني المدرسة)، ودورها في نشر الثقافة العربية الإسلامية في حوض نهر السنغال[1].

وقام معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعقد ندوة في الخرطوم سنة 1983 بعنوان: ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، ونشرت الندوة في صورة كتاب في بغداد، 1985م. وقد ساهم فيها قسم من الباحثين ببحوث منها: انتشار الإسلام في غرب إفريقية حتى القرن السادس عشر الميلادي لعز الدين عمر موسى، ودور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي لأحمد الياس حسين، وعلماء بلاد السودان الغربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية لأحمد إبراهيم دياب، ومساهمة أحمد بابا التمبكتي في الحضارة العربية الإسلامية من خلال كتابه: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لعبد الجليل التميمي، والحسن الوزان ـ ليو الإفريقي ومساهمته في الحضارة العربية الإسلامية للشيخ الأمين عوض الله، والشيخ عثمان بن فودي والحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الاتحادية لمحمد أحمد الحاج، ودراسة أولية في أسانيد الشيخ عثمان بن فودي لعمر عبد الرزاق النقر، وعبد الله بن فودي محمد بلو بن الشيخ عثمان فودي من علماء غربي إفريقية في القرن التاسع عشر للسرسَيد أحمد العراقي.

وهناك كتب لمؤلفين أجانب كتبوا عن إفريقية، ترجم قسم منها، مثل: الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية، تأليف ك. مادهو يانيكار، ترجمة وتعليق

(1) ولمزيد من المعلومات حول هذه المراجع، تُنظر قائمة المراجع.

وتحقيق على مصادره العربية أحمد فؤاد بلبع، وهو من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1998. وفيه معلومات مهمة عن الإمبراطوريات في غرب إفريقية. كما تضمن ملحقين للمترجم؛ الأول بعنوان: محمود كعت وكتابه تاريخ الفتاش، والثاني بعنوان: عبد الرحمن السعدي وكتابه تاريخ السودان. إضافة إلى كتب: تاريخ إفريقية السوداء لمؤلفه جوزيف لي زيربو، ترجمة يوسف شلبي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1994، ولجوان جوزيف كتاب بعنوان: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقية السوداء، ترجمة مختار السويفي، وللدكتورة فاج: تاريخ غرب إفريقية، ترجمة السيد يوسف النصر، دار المعارف، القاهرة، 1982، ولتوماس هودكير: ممالك السودان الغربي، ترجمة عبد الواحد الأمبابي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، بلا تاريخ.

ناهيك عن مواد تخص السودان الغربي في دائرة المعارف الإسلامية، مثل مادة: تمبكتو لكاره ده قو، وجِنّي لـ يفر G. Yver، وله أيضاً مادة: البرنو، وكانم. وكتب دلافوس أربع مواد هي: سنغال، سنغاي، السودان، سُوسُو. وكتب بروكلمان مادة: السعدي، ولمحمد بن شنب مادة: أحمد بابا.

الفصل الثاني

العلاقات العربية مع غربي إفريقية جنوب الصحراء

أولاً ـ جغرافية غرب إفريقية والصحراء الكبرى:

إن كتابة تاريخ غربي إفريقية عموماً وتاريخ الإسلام في تلك البقعة خصوصاً يحتاج إلى التطرق إلى جغرافيتها، وسكانها، وأثر الصحراء الكبرى على تاريخها وشعوبها[1].

وسنبدأ بدراسة:

1 ـ جغرافية غربي إفريقية، أو السودان الغربي:

السودان في اللغة السود، ويطلق أيضاً على بلاد السود[2]، والمفروض أن تعني بلاد السودان جميع البلاد التي يقطنها السود، لكن أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين أطلقوها على بلاد السودان الغربي، أو غربي إفريقية دون السودان الشرقي أو المصري، وكذلك دون المناطق الأخرى التي يسكنها السود في القارة الإفريقية. ويرى بعض الباحثين عموماً أن السودان يقسم إلى ثلاثة أقسام، هي:

أ ـ السودان الغربي: ويشمل حوض نهر السنغال، ونهر غمبيا، والمجرى الأعلى لنهر فولتا، والحوض الأوسط لنهر النيجر.

ب ـ السودان الأوسط: ويشمل حوض بحيرة تشاد.

ج ـ السودان الشرقي، أو السودان المصري، أو الإنكليزي المصري: ويشمل الحوض الأعلى لنهر النيل فقط[3].

وستتناول بالحديث منطقتي السودان الغربي والأوسط فقط؛ أي غربي إفريقية إلى الجنوب من الصحراء الكبرى وصحراء ليبيا، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى الحدود الغربية للحبشة

---

(1) زكي، عبد الرحمن، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية، القاهرة ـ 1961، ص 7.

(2) شقير، نعوم، جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، 1967، ص 9.

(3) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سودان، م 12، ص 327 ـ 328.

شرقاً، دون السودان الشرقي [السودان المصري]، وتساير حدوده الجنوبيه بصفة عامة خط عرض 10° شمالاً، وهذا ما اتفق عليه أغلب المؤرخين القدامى والمحدثين.

تبلغ مساحة غربي إفريقية أو السودان الغربي نحو 2.4 مليون ميل مربع؛ أي حوالي 25 مرة من مساحة بريطانيا، ونحو 6/ 5 من مساحة الولايات المتحدة، وتقدر المسافة بين طرفيه بنحو المسافة بين موسكو ولندن[1].

مما هو جدير بالذكر أن الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين اكتفوا بذكر بلاد السودان فقط، ويعنون به بلاد السودان الغربي، واتفقوا على تحديد حدوده، فصاحب كتاب «حدود العالم» يقول: إن الصحارى تحدها من جهاتها الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية، ومن الغرب بحر الإقيانوس المغربي [المحيط الأطلسي][2].

ويضع الإدريسي بلاد السودان الغربي في الإقليم الأول الذي يبتدئ من البحر الغربي المسمى بحر الظلمات الذي لا يعرف ما خلفه، ويقسم هذا الإقليم إلى ثلاثة أجزاء، ويتكلم عن المدن المشهورة في كل جزء واحدة واحدة، فذكر 22 مدينة في عموم الإقليم: 6 منها في الجزء الأول، و8 منها في الجزء الثاني، و8 منها أيضاً في الجزء الثالث[3].

أما القزويني فيقول: إن شمال بلاد السودان أراضي البربر، وشرقيها الحبشة، وغربها البحر المحيط[4].

وينحى ابن سعيد الأندلسي منحى الإدريسي في تقسيم بلاد السودان الغربي التي تقع في الإقليم الأول إلى ثلاثة أجزاء، ويتكلم عن أحوال كل جزء بشيء من التفصيل في عصره[5].

أما ابن خلدون فيحدد السودان بغربه وشرقه، فيقول: إن أمم السودان متصلون ما بين

---

(1) طرخان، إبراهيم علي، دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص 5.
(2) مجهول، حدود العالم، ص 147.
(3) صفة المغرب وأرض السودان، ص 2ـ 14.
(4) آثار البلاد، دار صادر، ص 24.
(5) بسط الأرض في الطول والعرض، ص 22ـ 28.

المغرب والمشرق: فيجاورهم بلاد البربر بالمغرب وإفريقية، وبلاد اليمن والحجاز في الوسط، والبصرة وما وراءها من بلاد المشرق[1].

ويحدد القلقشندي السودان بغربه وشرقه، شأنه شأن ابن خلدون، لكنه أكثر وضوحاً منه، فيقول إن المحيط الغربي يحدها من الغرب، ومن الجنوب الخراب الذي يلي خط الاستواء، ومن الشرق البحر القلزم مما يقابل اليمن والأمكنة المجهولة شرقي بلاد الزنج في جنوبي البحر الهندي، ومن الشمال الصحارى الممتدة من مصر إلى البحر المحيط، مروراً بأرض برقة وبلاد البربر من جنوبي المغرب[2].

وتحدّث الباحثون المحدثون عن جغرافيّة غربي إفريقية، فقالوا: يقصد بغربي إفريقية، أو السودان، أو السودان الغربي، أو إفريقية الغربية السوداء المناطق المحصورة ما بين الصحراء الكبرى من الشمال والمنطقة شبه الاستوائية من الجنوب، وتطل على المحيط الأطلسي غرباً[3]، ومن الشرق خط يكاد يمر بالحدود الشرقية لنيجيريا. وليس من السهل تحديد الحدود الشمالية والشرقية لغربي إفريقية تحديداً دقيقاً بالمصطلحات الجغرافية التقليدية، فليس هناك في الشرق أو في الشمال حواجز جغرافية طبيعية تشكل علامات بارزة تحدد بوضوح الأقاليم التي تضمها إفريقية الغربية. ولم تكن الصحراء الكبرى أو النهران الكبيران؛ النيجر والسنغال، اللذان يجريان بمحاذاة الحافة الجنوبية للصحراء في يوم ما لتمنع أو تعطل انتقال الشعوب المختلفه أو تعرقل تجارتها[4]. وعموماً فإن هذه المناطق ارتبطت بعلاقة وثيقة مع المغرب العربي على مرّ التاريخ[5].

وإذا تقدمنا إلى غربي إفريقية من الجهة الشمالية يمكن ملاحظة التغيير الجغرافي المتدرج الذي

---

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1654.

(2) صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، ج5، ص 263.

(3) الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، 1982، ص 23.

(4) زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 7.

(5) الغربي، بداية الحكم المغربي، ص 23.

يطرأ خلال الانتقال من الصحراء إلى الأماكن المأهولة بالسكان. كما يلاحظ أن بعض المناطق الصحراوية ليست خالية تماماً من السكان، وأنه ليس بشرقيها حواجز جغرافية طبيعية حتى نصل إلى مستنقعات النيل الاستوائية، أو المرتفعات الحبشية. ومن دون شك فإن ذلك الواقع الجغرافي أثّر تأثيراً واضحاً في تاريخ غربي إفريقية وحضارتها عبر العصور[1].

وإذا ما أردنا أن نتعرف إلى علاقة إقليم السودان الغربي بالعالم الخارجي في مختلف العصور فسنجد أنها كانت في الأغلب تتم عن طريق الصحراء الكبرى، بينما كانت تلك العلاقات قليلة في الجهات الساحلية للمحيط الأطلسي. ولم يكن هنالك عائق أو حاجز يمنع انتقال الإنسان والحيوان من مكان إلى آخر، لكن المشكلة تكمن في اختراق الإقليم من الجنوب والجنوب الغربي بسبب المستنقعات والغابات الاستوائية الكثيفة التي لم تمسها يد الإنسان من قبل. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إن ذبابة التسي تسي[2] كانت تقضي عليه وعلى ما يصحبه من حيوانات، لذلك اقتصرت التجارة من هذه الجهة على السلع النفيسة فقط؛ كالذهب والعاج[3].

أما مدلول إفريقية الغربية اليوم فهو يضم الدول التالية القائمة حالياً: موريتانيا السنغال، غمبيا، غينيا البرتغالية، مالي، سيراليون، ليبيريا، ساحل العاج، غانا، فلتا، داهومي، بوغو، نيجيريا، النيجر، الكاميرون، جزء من تشاد[4].

2 ـ جغرافية الصحراء الكبرى:

المقصود بالصحراء الكبرى المنطقة الممتدة من موريتانيا غرباً حتى السودان شرقاً، وتبلغ مساحتها حوالي 6,700,000 كـم2. وتقع على حافتها الجنوبية مناطق يصعب فيها تحديد

---

(1) زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 7 ـ 8.

(2) يبدو أن ذبابة التسي تسي التي تؤدي إلى مرض النوم كانت منتشرة في السودان الغربي، وفي ذلك يقول القلقشندي إن سلطان مملكة مالي المدعو ماري جاطة (761 ـ 775هـ/ 1330 ـ 1344م) أصابته (علّة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد، لاسيما الرؤساء منهم، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفيق، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس سبعين وسبعمائة). صبح الأعشى، ج5، ص 297.

(3) زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 80.

(4) الشيخلي، صباح إبراهيم وعادل محي الدين الألوسي، تاريخ الإسلام في إفريقية وجنوب شرق آسيا، مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1989، ص 50.

الصحراء وغير الصحراء، تتخللها هضاب وجبال ووديان متباينة الارتفاع، وتتراوح ما بين 100 ـ 6000 قدم فوق سطح البحر. وتتناثر فيها كثبان الرمال والواحات الكبيرة؛ مثل: توجور، وغرداية، وادرار، ولانوت، وبني عباس، ووات. الأمطار فيها قليلة ونادرة، ولكن الآبار توجد في بعض أنحائها، ولاسيما في الواحات، حيث حفر العرب آباراً كثيرة هناك، واستوطنوا بالقرب من مزروعاتهم. تنمو فيها بعض النباتات؛ مثل: الصبار، والصمغ، والنخيل التي نمت قرب مصادر المياه، وفي المناطق شبه الصحراوية وبالقرب من الواحات تنمو الحشائش التي ترعاها الجمال والأغنام والماعز[1].

ورد وصف الصحراء الكبرى في كثير من المصادر العربية، فقد قال عنها ابن حوقل: (وبين المغرب.... وبلد السودان مفاوز وبراري متقطعة، قليلة المياه، متعذّرة المراعي، لا تسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصل السفر، دائم الورود والصَدَر))[2].

وقد أسهب البكري في وصفها[3]، ووصف السودان الغربي[4]، أما ابن سعيد فيقول: (وأول ما يلقاك من هذا الجزء صحار يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانا، وهي طويلة عريضة، يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحرّ. وربما هبت ريح جنوبية ونشفت المياه التي بالقِرَبْ، فهم يعيدون إليها المياه التي في بطون الإبل، ويجعلون على أفواهها الكمائم لئلا تأكل شيئاً، فإذا نشّفت الريح مياههم نحروها جملاً جملاً، وشربوا ما في بطنها. وليس في هذا الجزء مدينة مذكورة غير أوداغُسْت)[5]. أما الإدريسي فعند حديثه عن تلك الأراضي يذكر أنها (صحراء خالية لا عمارة فيها، وهذه الصحارى فيها مجابات مياه، وذلك أن الماء لا يوجد فيها إلا بعد يومين وأربعة وخمسة وستة واثني عشر يوماً، مثل مجابة تيسر التي في طريق سجلماسة إلى غانة، وهي أربعة عشر يوماً لا يوجد فيها ماء، وأن القوافل تتزود بالماء لسلوك هذه المجابات في

(1) زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 9.
(2) صورة الأرض، دار مكتبة حياة، بيروت، 1979، ص 100.
(3) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، الجزائر، 1857، ص 163 ـ 172.
(4) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 172 ـ 184.
(5) الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1970، ص 113.

الأوعية على ظهور الجمال)[1]. ولذلك أصبح من الطبيعي وجود أدلاء للقوافل في الصحراء من أفراد بعض القبائل الصحراوية، يسمي ابن بطوطة الواحد منهم (التكشيف)، فيقول: (التكشيف اسم لكل رجل من قبيلة مسوفة يكتريه أهل القافلة)[2]، مهمته حمل ما يكتبه من في القافلة إلى أصحابهم في مدينة أيوالاتن[3] ليكتروا لهم البيوت، وليخرجوا للقائهم بالماء لمسيرة أربعة أيام. وربما يموت هذا التكشيف في هذه الصحراء، ولا يعلم أهل أيوالاتن بالقافلة، فيموت من فيها أو كثير منهم. وفي الغالب يكون سبب موت التكشيف هذا هو خروجه لوحده، فيضل الطريق، فيموت، إذ لا يظهر الطريق أو لا أثر له، بسبب الرمال التي تسفيها الريح، فترى جبالاً من الرمال في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى مكان آخر. والدليل عموماً يأخذ خبرته من كثرة تردده في هذه الصحراء، ويجب أن يتصف بالذكاء. وكانت أجرته في سفرة ابن بطوطة في الصحراء 100 مثقال من الذهب[4].

أما الحسن الوزان فيقسم إفريقية إلى أربعة أجزاء أفقياً، هي:

1 ـ بلاد البربر: تقع شمال جبال الأطلس من حدود مصر شرقاً إلى المحيط غرباً.

2 ـ بلاد الجريد (نوميديا): وتقع جنوب جبال الأطلس.

3 ـ الصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد.

4 ـ بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء.

ثم يقسم الصحراء الكبرى التي يسميها (صحراء ليبيا) إلى خمسة أقسام بحسب القبائل التي تسكنها، ويسميها (شعوب)، وهي: صحراء صنهاجة، ونزيكة، وتاركة، ولمطة، وبرداوة.

---

(1) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي ـ روما، 1970، ص 17 ـ 18.

(2) الرحلة، دار صادر، بيروت ـ 1960، ص 675.

(3) أيوالاتن الواردة في رحلة ابن بطوطة هي مدينة والاتا، أنشأها المسلمون من أهل غانا. ينظر: طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 16.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ص 675، ويعتبر ابن بطوطة مدينة أيوالاتن أول بلاد السودان، وقد استغرقت سفرته من سجلماسة إليها مدة شهرين. الرحلة، ص 676.

ويبدأ بصحراء صنهاجة التي يقول فيها: (إن هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة، تبتدئ عند المحيط غرباً، وتمتد شرقاً إلى ملاحات تغرة، وتنتهي شمالاً في تخوم نوميديا؛ أي إقليم سوس عند أقا ودرعة. وتسير جنوباً حتى أرض السودان عند مملكتي ولاته وتمبكتو. لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة كل مائة أو مائتي ميل، بالإضافة إلى أنه مالح مر في آبار عميقة جداً، خصوصاً في الطريق المؤدية من سجلماسة إلى تمبكتو. وفي هذه الصحراء عدد كبير من الوحوش والحيّات.... وفي هذه المنطقة فلاة خاصة وعرة جداً، لا تسلك إلا بمشقة عظمى، تسمى أزواد، لا ماء فيها ولا منزل طول مسافة مائتي ميل بين بئر أوزاد وبئر أروان الذي هو على بعد مائة وخمسين ميلاً من تمبكتو، يموت فيها كثير من الناس حرّاً وعطشاً)[1].

والصحراء الثانية من صحارى ليبيا هي الصحراء التي يسكنها شعب وَنْزيكَة، وتمتد من تخوم تغزة غرباً إلى الأير، وهي البلاد الخالية التي يسكنها شعب تاركة شرقاً وتتاخم شمالاً صحراء سجلماسة وتبلبلت وبني كومي، وجنوباً صحراء كير. وصحراء شعب ونَزْيكة (أكثر من السابقة وعورةً ووحشةً، يمر بها التجار الذاهبون من تلمسان إلى تمبكتو...، فتؤدي صعوبة المرور إلى موت العديد من الناس والدواب لفقدان الماء...)[2].

والصحراء الثالثة هي التي يسكنها شعب تاركة[3]، وتبتدئ عند تخوم الأير غرباً، حتى قفر إيغيدي شرقاً، وتتاخم شمالاً مفازات توت ونيكورارين ومزاب، وجنوباً المفازات القريبة من مملكة أكدز، (وهي ليست وعرة وخطيرة مثل سابقتيها، إذ يوجد فيها ماء جيد من آبار عميقة جداً...... وتمتد هذه الصحراء من الشمال إلى الجنوب على طول ثلاثمائة ميل)[4].

---

(1) الوزان، وصف إفريقية، ترجمهُ عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2، ص 148 ـ 149.

(2) الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 150.

(3) تاركة: قبيلة من قبائل صنهاجة بالصحراء، ينسب إليها بلفظ تاركي، والجمع توارك، حُرف على لسان المشارقة إلى طوارق ـ بالطاء بدل التاء ـ ومنه حي تواركة المعروف بجوار القصر الملكي بالرباط؛ لاختصاصهم بخدمة القصر منذ أجيال. وشعب تاركة مذكور في النصوص العربية منذ القرن الرابع الهجري، و(تاركة) كلمة بربرية معناها قناة؛ وأطلق العرب هذا الاسم على السكان الملثمين. ينظر: الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 150، حاشية رقم 70، ص 152، حاشية رقم 73.

(4) الوزان، وصف إفريقية، جـ2، ص 151 ـ 152.

وتبتدئ الصحراء الرابعة التي يسكنها شعب لمطة عند إيغيدي المذكورة سابقاً، حتى القفر الذي يسكنه شعب برداوة، وتتاخم شمالاً قفار تكُّرت ووركلة وغدامس، وجنوباً المفازات الممتدة إلى كانو مملكة بلاد السودان، وهي (جافة وخطيرة على التجار الذي يجتازونها، كحال الذين يذهبون من قسنطينة إلى بلاد السودان. ويدعي سكان هذه الصحراء فعلاً أن إمارة وركلة تنتهك حرمة إقليمهم، ويعلنون العداء ضد أمير وركلة، ويسلبون جميع التجار الذين يلاقونهم في الصحراء، لكن أهل وركلة يقتلونهم بلا شفقة ولا رحمة)[1].

أما الصحراء الخامسة التي يسكنها شعب برداوة فتبتدئ غرباً من حيث تنتهي السابقة، وشرقاً إلى قفر أوجلة، وتتاخم شمالاً مفازات فزان وبرقة، وجنوباً مفازة بورنو. و(الأرض شديدة الجفاف في هذه الناحية، ولا يمكن اختراق هذه البلاد بسلام؛ فأهل غدامس وحدهم يستطيعون ذلك لأنهم أصدقاء لبرداوة، يأخذون من فزان المؤن والثياب، وغير ذلك مما هو ضروري للسفر)[2].

أما باقي صحارى ليبيا التي تمتد من أوجلة إلى النيل فيسكنها الأعراب، وشعب يدعى لواتة، وهو إفريقي أيضاً[3].

ويقول البكري إن بني جدالة هم آخر بلاد المسلمين قرباً ومحاددة لبلاد السودان، (وإن أقرب بلاد السودان صنغانة، وبين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام)[4].

وتنتشر في الصحراء مناجم الملح الذي يوجد تحت سطح الأرض بحوالي 3.5 متر، ويستخرج بعد حفره على هيئة كتل وألواح، ثم يقطع كما تقطع الحجارة، ليحمل على ظهور الجمال إلى كل من سجلماسة ومدن السودان الغربي؛ مثل غانة وغيرها[5].

---

(1) الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 153 ـ 154.
(2) الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 154.
(3) الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 154.
(4) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 172.
(5) البكري، المغرب، ص 171؛ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، 1986، ص 214؛ ابن بطوطة، رحلة، ص 674.

ثانياً ـ أصول السكان:

1 ـ سكان الصحراء الكبرى:

هم أساساً من الجنس الأبيض، ويعتقد أن أصولهم عربية، وغالبيتهم بصفة عامة من البدو الرحّل. ويشير ابن خلدون إلى أن قبيلة صنهاجة المغربية التي تُعد من القبائل الكبيرة تركت الأراضي الزراعية واختارت الصحراء سكناً لها، معتمدةً على ألبان الأغنام ولحومها في المنطقة المحصورة بين المغرب العربي شمالاً والحبشة شرقاً وبلاد السودان الغربي جنوباً، وقد حدث ذلك قبل حركات التحرير العربية للمغرب العربي. وعدّد ابن خلدون القبائل والبطون التي تتفرع من قبيلة صنهاجة، وهي: كذالة، ولمتونة، ومسوفة، وتريكة، وناوكا، وزغاوة، ثم لمطة، واتخذوا اللثام علامة تميّزوا بها عن غيرهم. وفي البداية كانوا وثنيين، ثم أسلموا بعد فتح الأندلس؛ أي بعد سنة 92هـ، وكانت الرئاسة لقبيلة لمتونة، وذلك منذ الوقت المعاصر للأمير الأموي عبد الرحمن الداخل في الأندلس، حيث تزعّمت حركة الجهاد في بلاد السودان الغربي، وعملت على نشر الإسلام هناك[1].

وعدّ الجغرافيون العرب قبيلة لمتونة ـ التي هي فرع من صنهاجة ـ أهم القبائل التي تسكن الصحراء الكبرى، ووصفوهم بأنهم (رحالة لا يستقر بهم موضع، ولا يعرفون الحرث ولا الزرع ولا الخبز، وإنما لهم الأغنام الكثيرة، فيعيشون من لبنها ولحمها، فهم يجففون اللحم ويطحنونه، ويصبون عليه الشحم المذاب والسمن، ويأكلونه، ويشربون عليه اللبن، قد غنوا به عن الماء، فيبقى الرجل منهم الشهر لا يشرب ولا يأكل خبزاً ولا يعرفونه، وصحتهم مع ذلك متمكنة، ربما مرت بهم قوافل فيتحفون ملوكهم ورؤساءهم بالخبز والدقيق)[2].

وعنها يقول السعدي: إن (لمتون ينتمون إلى لمتونة، وهم من أولاد لمت، ولمت وجدال ولمط ومسطوف ينسبون إلى صنهاجة. فلمت جد لمتونة، وجدال جد جدالة، ولمط جد لمطة،

---

(1) تاريخ، ج6، ص 181.

(2) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 213 ـ 214. يُنظر ما يشابه هذا النص في البكري، المغرب، ص 164، ص 170.

ومسطوف جد مسوفة. وهم ظواعن في الصحراء رحّالة، لا يطمئن بهم منزل، ليس لهم مدينة يأوون إليها. ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم على دين الإسلام وأتباع السنة، وهم يجاهدون السودان وصنهاجة، يرفعون أنسابهم إلى حمير...... وأنهم خرجوا من اليمن، وارتحلوا إلى الصحراء، وطنهم بالمغرب.....))[1]، وكانوا قد تلثموا قبل خروجهم من اليمن (وتفرقوا في الأقطار أيادي سبأ، فكان خروج الملثمين عن اليمن ماذكر، وكانوا أول من تلثم، ثم انتقلوا من قطر إلى قطر، ومن مكان إلى مكان بانتقال الأيام والأزمان، حتى صاروا بالمغرب الأقصى..... فاحتلوا بها واستوطنوا، وصار اللثام زيهم الذي أكرمهم الله به، ونجاهم لأجله من عدوهم، فاستحسنوه ولازموه، وصار زيّاً لهم ولأعقابهم، لا يفارقونه إلى هذا العهد)[2].

أما الحسن الوزّان فيقسم الصحراء الغربية ـ والتي يسميها صحارى ليبيا ـ إلى خمسة أقسام بحسب القبائل المنتسبة إلى صنهاجة والتي تسكنها؛ فيبدأ بصحراء صنهاجة، والثانية التي تسكنها قبيلة ونْزيكه، والثالثة تسكنها قبيلة تاركه أو الطوارق[3]. وتشغل قبائل الطوارق نحو نصف الصحراء الكبرى، وهم أقوام ينزلون الجهات الوسطى من الصحراء الغربية، وينقسمون إلى أربعة أقسام سياسية كبرى، كل منها يقيم في أمكنه وأصقاع خاصّة به، وهي:

1 ـ قبائل أزقر، وهي في الشمال الشرقي.

2 ـ قبائل حجاز في الشمال الغربي.

3 ـ قبائل أيراواسين.

4 ـ قبائل أولميدن في الجنوب الغربي. وبعض بلادها جبليٌّ هو بلاد أدرار، وبعضه سهل[4].

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 25.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 26.

(3) وصف إفريقية، ج2، ص 148 ـ 152.

(4) زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 10 ـ 11.

أما الصحراء الرابعة بحسب تقسيم الحسن الوزان فهي التي تسكنها قبيلة لمطة، ثم الصحراء الخامسة التي تسكنها قبيلة برداوة، أو كما تسمى بشعب تيدة أو تبو[1]. و(برداوة) اسم أطلق على سكان برداي في تبستي، ثم شمل تدة. وشعب التبو يعيش في تبستي ـ وهي هضبة تقع شمال غربي تشاد وشمال مالي ـ لكن مع ذلك فإن التبو موزعون في منطقة واسعة بين صحراء ليبيا في الشرق، وصحراء حجار في الغرب، وفزان في الشمال، وإقليم تشاد في الجنوب. ويختلف التبو اختلافاً واضحاً عن الزنوج، وأهم مواردهم من زراعتهم للنخيل والحبوب في الوديان الرطبه، وتربية الماعز، ويعمل البعض أدلاّء للقوافل وتأجير الإبل، ولا تدل تقاطيع وجوههم وسماتهم على أنهم من أصل سوداني، ولا يعرف متى دخلت في الإسلام بلادهم، ويظهر أنهم اعتنقوا الإسلام حديثاً، وتأثّروا إلى حد كبير بالسنوسية، وقاوموا التوغل الأوربي في مواطنهم[2].

2 ـ سكان السودان الغربي:

الهجرات البربرية المغربية إلى السودان الغربي:

في حدود القرن الثاني الميلادي خرجت جماعة من سكان المغرب منحدرة جنوباً، حيث استقرت بين شعوب الماندي الزنجية، وخصوصاً بين شعب السونِنْكي، ولا يعرف أصلهم على وجه التحقيق، كما يبدو أنهم وصلوا سلمياً دون غزو[3].

وعندما صار المغرب العربي بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين تحت الحكم الروماني ثم الفندالي حدثت ثورات متواصلة فيه؛ نتيجة لاضطهاد الحكام المحتلين، وظلمهم لسكان المغرب، وفرضهم أعمال السخرة، بل إن الفندال صادروا الأراضي الخصبة، وطاردوا سكان القرى والواحات إلى المناطق الصحراوية والجبلية. فحدثت هجرات منتظمة واسعة إلى

(1) وصف إفريقية، ص 153 ـ 154 وحاشية ص 154.

(2) زكي، تاريخ الدول الإسلامية، ص 11.

(3) حسن، حسن إبراهيم، انتشار الإسلام في القارّة الإفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984، ص 97.

الجنوب والصحراء وما وراءها، وهكذا وصلت موجات متلاحقة من قبائل المغرب البربرية، فسكنت الصحراء ووسط النيجر وشمال غانا.

وهناك ثلاث مجموعات من أولئك المهاجرين المغاربة:

المجموعة الأولى ضمت أفخاذاً من صنهاجة مثل لمطة ولمتونة، وقد سكنت الواحات الصحراوية شمال نهر النيجر، وسُميت بالطوارك.

واتجهت المجموعة الثانية ـ وهي صنهاجية أيضاً ـ نحو الجنوب الغربي، موغلة في السودان الغربي، واستقرت في منطقة مياه ومراعٍ، وأسست مدينة أودغشت، وجعلتها عاصمة لها، مما دفع الزعماء السود إلى تأسيس مدن على غرار أودغشت، فظهرت لاحقاً مدينة غانا في أواسط القرن 4هـ/ 10م. ونالت تلك القبائل الصنهاجية التي انطلقت في توسعها إلى ضفاف نهر السنغال احترام الحكام الأفارقة، ولقيت حماية من غانا لتجارتها التي كانت تصل حتى نهر النيجر شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، وحواضر المغرب العربي شمالاً. ويبدو أن هذه القبائل كانوا طيلة وجود دولة غانا هم عماد الحكم والجيش والتجارة. ومما يدل على أهمية صنهاجة أن تسمية بلاد الزنوج، أو بلاد الزناجة، واسم نهر السنغال مشتقان من صنهاجة.

أما المجموعة الثالثة التي نزحت في أعقاب احتلال الفندال للمغرب في بداية القرن الخامس الميلادي، وهي موجة صنهاجية أيضاً، فقد اتجهت إلى طريق الواحات الوسطى، باحثة عن منطقة ملائمة للإقامة الدائمة، وقد وجدتها في منطقة كوكيا الواقعة جنوب مدينة غاو، حيث التربة الخصبة، والأسماك الوفيرة، والمكان الملائم للتجارة، فاستقرت بها. وكان رئيس هذه المجموعة يتخذ لقب ذا أو زا، أما اسمه فكان أليمن أو أيمن، وهو اسم حمل بعض المؤرخين السودانيين من أمثال السعدي على القول بأنه وأتباعه قدموا من بلاد اليمن[1]، وإن ذي اليمن أو زا اليمن هذا هو أحد أبناء سيف بن ذي يزن، أتى من اليمن، واستقر على ضفاف النيجر بين

(1) ينظر النص في السعدي، تاريخ السودان، ص 4.

الوثنيين في مدينة كوليا التي أصبحت عاصمة لتجارة الذهب[1].

وفي القرن الرابع الميلادي حكم المهاجرون المغاربة زنوج هذه المناطق، وكونوا أسرة حاكمة ظلت تحكم في مدينة أوكور (AUKUR) حتى منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، حيث سقطت سنة 153هـ/ 770م حين ثار عليهم حكام السوننكي الذين حكموا غانا حتى سقوطها سنة 1240م[2].

وقد اختلطت دماء سكان غانا البيض بدماء السوننكي عن طريق التزاوج. وهاجر هؤلاء البيض بعد سقوط دولتهم إلى بلاد التكرور التي تمتد شمال السنغال إلى منطقة فوتا التي تقطنها شعوب ثلاثة هم: التوكولور(TUCOLOR) وكانوا يكونون الطبقة الحاكمة، والولوف (WOLOFF)، والسيرير. وقد أصهر هؤلاء البيض إلى طبقة التوكولور، واستطاعوا بذلك السيطرة على الأحوال السياسية في هذه البلاد حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حين استطاع التوكولور أن يتخلصوا منهم. وفي هذا الوقت كان هؤلاء البيض قد أصبحوا أفارقة شكلاً وموضوعاً، وهم يسمون الآن الفلاني (FULANI)[3].

ثالثاً ـ علاقة العرب القدماء بغربي إفريقية (السودان الغربي):

إن الصلات بين إفريقية الشمالية وبلاد السودان الغربي عبر الصحراء قديمة؛ فقد كانت القوافل التجارية تعبر الصحراء إلى بلاد السودان الغربي التي عرفت بوفرة الذهب، حاملة الملح ومواد أخرى، وتعود بالذهب من الجنوب[4]. وكان البربر منذ قرون قبل الفتح الإسلامي للمغرب على اتصال بأهل السودان؛ متعاونين حيناً، ومتنافرين أحياناً، ومختلطين

(1) الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص 28ـ30.

(2) حسن، انتشار الاسلام في القارة الإفريقية، ص 97.

(3) حسن، انتشار الاسلام في القارة الإفريقية، ص 97.

(4) الحاج، محمد أحمد، الشيخ عثمان بن فودي والحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الاتحادية، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية الخرطوم، 28 ـ 30 تموز، 1983)، من إصدارات معهد البحوث والدراسات العربية، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر في الصفاة بالكويت، بغداد 1985، ص 336.

في كل الأحوال، واستمر ذلك طوال العصور الإسلامية[1].

أما الطرق التي سلكها الإسلام من إفريقية الشمالية إلى غربي القارة الإفريقية فهما طريقان؛ ساحلي وصحراوي: فالطريق الساحلي يمر من خلال حوض نهر السنغال، وهو الذي سلكه المرابطون. والثاني هو الطريق التجاري الذي يبدأ من إفريقية الشمالية متجهاً إلى الجنوب من خلال واحات الصحراء إلى المدن الكبرى في السودان، وأهمها في المغرب العربي في العصور الوسطى كانت القيروان وتونس وطرابلس، أما في غرب إفريقية فاشتهرت مدن غانا، ومالي، وجِني، وتمبكتو أو تنبكت، وكانو.

وكانت التجارة من خلال هذا الطريق الصحراوي تسلك ثلاث طرق رئيسية، هي:

أ ـ الطريق من مراكش إلى منحنى نهر النيجر والمناطق الواقعة جنوباً.

ب ـ الطريق من تونس إلى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة شاد.

ج ـ الطريق من طرابلس إلى المنطقة المحيطة ببحيرة شاد[2].

---

(1) موسى، عز الدين عمر، انتشار الإسلام في غرب إفريقية حتى القرن السادس عشر، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، ص 53.

(2) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 11 ـ 12.

رابعاً ـ وسائل انتشار الإسلام في غربي إفريقية:

انتشر الإسلام في غربي إفريقية بتأثير عدة وسائل، ساهمت كلها بشكل أو بآخر في تعرف الأهلين إلى مبادئ الإسلام الراقية والإنسانية، ونظمه العادلة، وفكره المنفتح والمرن، بعضها كان جهادياً، والآخر سلمياً، وسنعرض الآن إليها بنوع من التفصيل:

1 ـ إسلام السكان الأصليين:

حدث ذلك تدريجياً نتيجة احتكاكهم بالتجار المسلمين، أو العلماء الوافدين إليهم، أو بنتيجة الهجرات البشرية من خارج البلاد السودانية، أو هجرات جماعات سودانية مسلمة من مناطقها إلى هنا لأسباب مختلفة سياسية أو اقتصادية أو طبيعية كالتصحّر وطول موجة الجفاف لسنوات متصلة في مكان معين. وتعدّ هذه الهجرات من أهم وسائل انتشار الإسلام في المدن والأرياف، بسبب اختلاط البربر والعرب بالسكان السودانيين الأصليين اختلاط مجاورة ومعايشة ومعاملة ومصاهرة، فامتزجت الدماء والثقافات. فقد اختلطت قبائل السننكي السودانية بقبائل صنهاجة الصحراء، إضافة إلى هجرات القبائل العربية الهلالية إلى الصحراء الكبرى وتعريبها للصحراء. وفي القرن 10هـ/ 16م كان هناك وجود قوي لقبائل عربية هلالية من بني حسان في منعطف نهر النيجر، ومن عرب الشوا حول المناطق الشمالية لبحيرة شاد[1].

كما كان لجماعات سودانية مسلمة متاجرة متنقلة أثر في نشر الإسلام ودخوله إلى المجتمعات السودانية، كالسننكي والونقارا والديولا، ثم هجرات جماعات واسعة من السننكي والمالنطي بعد سقوط دولتي غانا ومالي على التوالي[2].

ومن الجدير بالذكر أنه كانت للتجار المصريين مساهمة في نشر الإسلام في بلاد السودان

(1) موسى، انتشار الإسلام، ص 52 ـ 53.
(2) موسى، انتشار الإسلام، ص 53.

الغربي؛ فقد وصلوها حاملين الملح والزجاج والرصاص، وكانوا يشترون منها أحجار الذهب، بينما يتوغل فريق منهم للبحث داخل تلك البلاد عن الذهب، فأينما وجدوه حلوا هناك[1].

2 ـ حركات الجهاد:

فتح عمرو بن العاص مصر سنة 21هـ ثم اتجه إلى فتح المغرب سنة 23هـ لتأمين حدود مصر الغربية، ففتح برقة وطرابلس. ثم توالت حركة الفتح من قبل عبد الله بن أبي سرح سنة 27هـ، ثم معاوية بن حديج الكندي سنة 45هـ وبعده عقبة بن نافع خلال ولايتيه للمغرب (50 ـ 55هـ و62 ـ 64هـ)، وزهير بن قيس، ثم حسان بن النعمان سنة 82هـ، ثم موسى بن نصير سنة 86هـ[2].

أما أول من غزى بلاد السودان فهو عبد الرحمن بن حبيب من قبل والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب في عهد هشام بن عبد الملك سنة 116هـ، وكان النصر حليفه. فقد وصلت غزواته إلى خلف غانا حيث معدن الذهب، ويؤكد كل من ابن خياط[3] وابن حزم[4] ذلك.

ويشير القلقشندي إلى أن أهل غانا أسلموا في أول الفتح الإسلامي[5]. ثم توالت على حكم المغرب العربي دول عديدة كدولتي الخوارج في سجلماسة وتيهرت، والأدراسة، والأغالبة، والفاطميين، وبني زيري، وبني حماد.

انتشر الإسلام في بلاد السودان كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لكن الحدث المهم هو ظهور عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين بين الملثمين، وإنشاؤه رباطه الذي اختلف الباحثون في مكانه، هل هو على ربوة في مصبّ نهر السنغال أو نهر النيجر، أم في أحد الأودية على حافة

---

(1) مؤلف مجهول، حدود العالم، ص 148.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987، ص 317 ـ 321؛ ابن خلدون، تاريخ، ص 1606 ـ 1610؛ السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ المغرب الغربي، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1988، ص 51 ـ 95.

(3) تاريخ خليفة بن خياط، ص 511.

(4) رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت ـ 1987، ج2، ص 74.

(5) صبح الأعشى، طبعة مطبعة كوتساتوماس، ج5، ص 284.

الصحراء الجنوبية في مضارب لمتونة[1]. بينما يقول أحد الباحثين: إن هذا الرباط ـ الذي هو عبارة عن قاعدة يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار ـ يقع في جزيرة هي الآن ميناء سان لويس بجمهورية السنغال[2]، وهذا هو الأرجح. وبقيام دولة المرابطين، وإسلام العديد من سكان مملكة غانا، وبقاء ملوكها على وثنيتهم، أرسلوا حملة عسكرية إلى غانا بقيادة الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر عام 469هـ/ 1076م، هدفها إحلال حكام من المسلمين البربر بدل ملوكها الوثنيين، وبذاك أصبحت مملكة غانا جزءاً من إمبراطورية المرابطين[3].

وهنا يمكن القول إن كثيراً من سكان غانا اعتنق الإسلام قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ومنذ فتح المرابطين لعاصمة غانا ازداد عدد الداخلين في الإسلام، كما أسلم ملوكها، وأصبحت الحكومة إسلامية من ذلك الوقت، وظلت غانا إسلامية حتى اختفاء دولة غانا من التاريخ في مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[4].

3 ـ أثر العلماء والفقهاء المالكية والإباضية:

بدأ دور العلماء والفقهاء والدعاة في إسلام سكان غرب إفريقية منذ وقت مبكر؛ فكان الداعية والتاجر يمثلان أحياناً شخصاً واحداً يصعب التفريق بينهما، أي إن دورهم ارتبط بالتجارة، فالقوافل التجارية كانت تضم أفراداً منهم، يؤهله علمه لمسك السجل التجاري، ولأنه عالم دين فإنه يضفي جواً روحياً وسط القافلة بدعواته ومواعظه وحكمه، حتى تقوى النفوس على مخاطر الطريق. وقد استقر بعضهم هناك وتزوج، وعن طريق هؤلاء العلماء والتجار انتشر الإسلام في زمن مبكر[5].

---

(1) دندش، عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 59 ـ 73؛ محمود، انتشار الإسلام في إفريقية، ص 73. ينظر أيضاً: ابن خلدون، تاريخ، ص 1645.

(2) شلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج6، ط4، القاهرة، 1983، ص 107.

(3) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ العبيدي، عبد العزيز بن راشد، وسائل انتشار الإسلام في إفريقية، دراسة تاريخية، مجلة دراسات إفريقية، 1985، العدد1، ص 41؛ طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص 46؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 109.

(4) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 47.

(5) أحمد، مهدي رزق الله، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، ط1، من

ومن المعروف أن المذهب الخارجي الصفري والإباضي انتشر في أرجاء كثيرة من المغرب العربي، وأدى ذلك إلى قيام دولتين لهم؛ الصفرية سنة 140هـ/ 758م في سجلماسة، والإباضية في تيهرت، في دولة الجزائر الحالية. وكان الإباضية حتى قبل قيام دولتهم يمارسون التجارة على نطاق واسع مع غرب إفريقية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وقد أدى استقرارهم على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس وواحات الجزائر منذ ذلك الوقت إلى ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء، وعزز من ذلك الارتباط اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة وزناتة للمذهب الإباضي، وممارسة كثير منهم التجارة عبر الصحراء[1].

ويشير أحد الباحثين إلى ما ذكره الشماخي من تمكن الإباضية من تجار وفقهاء من تقوية اتصالاتهم بغرب إفريقية منذ القرن 4هـ/ 8م. ولعل كثيراً من تلك المناطق اعتنقت الإسلام على يد الإباضية منذ ذلك الوقت، وما ذكره الشماخي من أن (بلادالسودان بغانة وما يليها كانت تدين بالمذهب الإباضي حتى تسامعت بهم المخالفون، فقصدوها من كل أوب، فردوهم إلى مذهبهم)[2]. ويشير الباحث نفسه إلى أن الإباضية هم أول من قام بتركيز الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية قبل وصول الأعداد الكبيرة من فقهاء المذاهب الأخرى.

أما انتشار المذهب المالكي ـ الواسع كما هو معروف في غرب إفريقية ـ فكان على حساب المذهب الإباضي الذي ساد في المنطقة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وارتبطت سيادته بحركة المرابطين في الصحراء الغربية، ومن ثم ضمهم أملاك مملكة غانة التي اسقطوها إلى دولتهم عام 469هـ/ 1076م[3].

ويشير ابن بطوطة في رحلته إلى اعتناق سكان زاغري من بلاد السودان ـ وهم من السودان

إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1998، ص 97 ـ 98.

(1) حسين، أحمد إلياس، دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، ص 94. ينظر أيضاً ابن خلدون، تاريخ، ص 1606 ـ 1610.

(2) حسين، دور فقهاء الإباضية، ص 95.

(3) حسين، دور فقهاء الإباضية، ص 95.

والبيضان ـ مذهب الإباضية والمذهب السنى المالكي[1].

ولما وصل ابن بطوطة إلى مالي وجد من الفقهاء المالكية البيضان، بعضهم مغاربة والآخر من المصريين، قد اكتروا له داراً في محلة البيضان بمالي، وهما كبير فقهاء البيضان محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النقويش المصري، وكذلك ابن محمد بن الفقيه، وصهره عبد الواحد، إضافةً إلى القاضي السوداني بمالي واسمه عبد الرحمن. وبلغت منزلة الفقهاء المالكية المغاربة مكانة كبيرة، إلى درجة أن الفقيه محمد بن الفقيه الجزولي كان متزوجاً ببنت عم السلطان التي كانت تتفقد ابن بطوطة وصحبه بالطعام[2].

وكان للفقهاء المغاربة والأندلسيين حظوة كبيرة لدى سلاطين مالي؛ فسلطان مالي منسا موسى كان يحب البيضان، ويحسن إليهم. فعلى سبيل المثال أعطى الفقيه والشاعر المفلق أبا الحق الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن في يوم واحد أربعة آلاف مثقال ذهب، وقبره في تنبكتو[3]، وأكرم الفقيه مدرك بن فقوص بثلاثة آلاف مثقال ذهب في يوم واحد. ومن الطريف الإشارة هنا إلى أن جد السلطان المذكور ـ واسمه سارق جاطة ـ قد أسلم على يد جد الفقيه مدرك هذا[4]، وأن فقيهاً مغربياً من أهل تلمسان ويعرف بابن شيخ اللبن أهدى إليه السلطان منسا موسى سبعين مثقالاً من الذهب، وكسوة، وعبيداً، وخدماً، وطلب منه أن لا ينقطع عنه[5].

وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود فقهاء مغاربة استضافوه في مدينة كوكو السودانية، وهم محمد بن عمر من أهل مكناسة، والحاج محمد الوجدي التونسي، والفقيه محمد الغيلاني إمام مسجد البيضان[6].

---

(1) يُنظر: ابن بطوطة، الرحلة، ص 680.
(2) ابن بطوطة، الرحلة، ص 681 ـ 782.
(3) ابن بطوطة، الرحلة، 689، 692.
(4) ابن بطوطة، الرحلة، ص 689.
(5) ابن بطوطة، الرحلة، ص 690.
(6) ابن بطوطة، الرحلة، ص 695 ـ 696.

ويبدو أن دور الفقهاء المالكية لم يقتصر على تعليم السودانيين الدين الإسلامي وفقهه، بل إن بعضهم كان يفد إلى مالي لدراسة الفقه على أيدي فقهائها؛ إذ ذكر ابن بطوطة أن من جملة من زاره في داره بمالي علي الزودي المراكشي الذي وصفه بأنه من الطلبة[1]، وأن بعض الطلبة المغاربة كان يجمع بين الدراسة وتعليم القرآن بمالي. فقد وجد ابن بطوطة ولداً لابن الفقيه التلمساني ابن شيخ اللبن المذكور سابقاً يجمع بينهما، فهو من الطلبة ويقوم أيضاً بتعليم القرآن بمالي[2].

ومن العلماء المغاربة الذين سكنوا مدينة يني في مملكة مالي مدة (35) سنة، وتحرك في أرجاء المملكة، أبو عثمان سعيد الدُكَّالي، على ما قاله العمري في مسالك الأبصار[3].

4 ـ إسلام الملوك والحكام السودانيين:

كانت سياسة الملوك والحكام السودانيين من أهم العوامل في نشر الإسلام في البلاد السودانية، فمع أن انتشار الإسلام بين الناس سبق إسلام الملوك والحكام كقاعدة عامة، لكن مما لا شك فيه أن هؤلاء الملوك قاموا بنصيب كبير في اتساع دائرة انتشار الإسلام بين الرعية. فهذا البكري الأندلسي يقول إن مدينة تكرور أهلها سودان، وثنيون، حتى تولى عليهم وارجابي بين رابيس (ت 432هـ/ 1041م) فأسلم، ثم أقام الشريعة الإسلامية، وأسلم على يده أهلها، فأهل تكرور على أيام البكري مسلمون[4]، وبالذات في سنة 460هـ/ 1068م عند تأليفه كتابه المسالك والممالك[5]. كما يشير البكري إلى أن أهل مدينة سلى السودانية ـ التي تقع بين تكرور وغانة ـ أسلموا على يد وارجابي نفسه[6].

ويشير عز الدين عمر موسى إلى ما قاله المؤرخ السعدي في كتابه تاريخ السودان أنه بإسلام سلطان جِنى أسلم أهلها، إلا أن السعدي نفسه يضيف قائلاً بأن السلطان نفسه عندما أراد

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ص 681.
(2) ابن بطوطة، الرحلة، ص 690.
(3) ج4، ص 60.
(4) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 172.
(5) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 174.
(6) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 172.

إشهار إسلامه (أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة، فحضر منهم أربعة آلاف ومئتا عالم، فأسلم على أيديهم)[1]. ويبدو أن الحكام كانوا لا يعلنون إسلامهم إلا إذا أمّنوا انقياد رعاياهم لهم، بدليل أن ملك ألكان كان مسلماً يخفي إسلامه، وأن ملك غانا إلى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان غير مسلم، مع وجود كثير من المسلمين في مدينته، ولهم سبع مساجد غير المسجد الجامع، ويتمتعون بنفوذ كبير في بلاطه[2].

أما سلاطين مملكة مالي فقد ساهموا مساهمة كبيرة في انتشار الإسلام وتثبيت الحكم الإسلامي؛ فهذا السلطان منسا موسى يقوم ببناء المساجد والجوامع والمآذن، وأقام بها الجُمع والجماعات والأذان، وجلب الفقهاء إلى بلاده، وتفقه هو نفسه بالدين[3]، مواظباً على الصلاة والقراءة والذكر، وقام بأداء فريضة الحج، وزار قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) وعاد إلى بلاده وفي نيته ترك السلطنة نهائياً إلى ابنه محمد، والعودة إلى مكة المعظمة، كي يقيم مجاوراً فيها، لكن المنية عاجلته دون تنفيذ مشروعه[4]. ويقول عنه والي مصر ابن أمير حاجب أنه رآه في مصر قبل توجهه إلى الحجاز، وكان يجيد التكلم باللغة العربية إجادة تامه[5].

وكان للمسجد ولدار الخطيب مكانة رفيعة عند سلاطين مملكة مالي، فكان المغضوب عليهم من قبل السلطان والذين يخافون قتلهم يستجيرون بالمسجد، وإن لم يكن فبدار الخطيب. وهذا ما حدث للملكة قاسا زوجة السلطان منسا سليمان المتآمرة عليه، ولبنات عمه اللواتي عفا عنهن[6].

وقد عُرف عن بعض ملوك مملكة سُنغى رعايتهم للعلماء؛ فالسلطان أسكيا الحاج محمد

(1) انتشار الإسلام، ص 49، 52. ينظر أيضاً: السعدي، تاريخ السودان، ص 12.

(2) موسى، انتشار الإسلام، ص 49.

(3) العمري، أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرون، ج4، من إصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2001م، ص 59.

(4) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 69.

(5) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 69.

(6) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 690.

بن بكر كان يأمر للقضاة في مجلسه (ببسط حصير الصلاة لهم، وجعل للمزامين أن يجلسوا عن يساره، ولا يقوم لأحد إلا للعالم والحجاج إذا قدموا من مكة، ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم)[1].

5 ـ الحج:

حرص كثير من الأفارقة عند اعتناقهم الإسلام على أداء فريضة الحج، وتحمسوا للسفر إلى البلاد المقدسة، على الرغم من المشقة الكبيرة التي تنالهم نتيجة ذلك السفر[2]، كتيهان السلطان منسا موسى عند عودته من الحج، وما تعرض له من شدائد كثيرة[3]، وتعرض سلطان سُنغى أسكيا محمد ـ الذي كان يلقب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين ـ إلى مشقة عظيمة حيث (هبت عليهم السموم بين مكة ومصر، ونشف جميع ما معهم من الماء، حتى كادوا أن يموتوا من الحر والعطش.......)[4]، ومع ذلك فإنه لم يخلُ موسم من مواسم الحج من ورود أعداد من الحجاج السودانيين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، متصلين بالمسلمين في الحجاز والمناطق التي مروا بها كمصر التي كانت تزخر بالعلماء وطلاب العلم، مما كان له الأثر الكبير عليهم. فكانوا يعودون لبلادهم وهم أشد تمسكاً ومعرفةً بإسلامهم، فيقومون بنشر الإسلام في بلادهم وفق الأسس الإسلامية الصحيحة[5]؛ فقد كانت تسود بين بعض المسلمين السودانيين ومنهم سلاطينهم عادات وتقاليد محرمة في الإسلام، ولم يعرفوا عن تحريمها سابقاً، ولكن صِلاتهم بالمسلمين في بلاد الحجاز ومصر، ومعرفتهم بمحرمات الإسلام، دفعتهم لنبذها نهائياً، وهذا ما حدث للسلطان منسا موسى في مصر عندما كان في طريقه إلى الحج سنة 724هـ، فمن عاداتهم القديمة أنه إذا كانت لأحدهم ابنة جميلة فعليه تقديمها للسلطان، فيملكها بغير تزويج، مثل ما ملكت اليمين. وعندما نبّه والي مصر ابن أمير حاجب السلطان منسا موسى الذي كان في طريقهِ للحج

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(2) العبيدي، وسائل انتشار الإسلام في إفريقية، ص 54.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(5) العبيدي، وسائل انتشار الإسلام في إفريقية، ص 54.

إلى أن الإسلام يحرّم هذا الأمر، ردّ بأنه وأهل مملكته لم يعلموا بمثل هذا التحريم، وتم تجاوزه كليةً[1].

ويشير ابن بطوطة إلى كثرة الحجاج من أهل السودان، وقضاتهم، وسلاطينهم، فأينما كانوا يحلّون من مدن السودان يجدون كثيراً من المسلمين الحجاج فيها. ويذكر مثلاً أنه أُضيف في مدينة كوكو من قبل الحاج محمد الوجدي التازي[2]، كما أصبحت كلمة الحاج مرادفة لبعض سلاطينهم بعد حجهم، مثل الأسكيا الحاج محمد سلطان مملكة سُنغى[3].

ومن الأمثلة الأخرى على من قام بالحج أحمد بن أحمد والد أحمد بابا التنبكتي، وكانت رحلته للحج سنة 956هـ حيث التقى بجملة من علماء المشرق الإسلامي، وخاصةً علماء مصر ومكة والمدينة[4]. وممن رحل للشرق فحج وجاور عم المؤلف أحمد بابا التنبكتي، وهو أبو بكر بن أحمد التنبكتي[5]، وهذا والد محمود كعت مؤلف تاريخ الفتاش، واسمه الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي[6].

وقد ذكرت المصادر أسماء سلاطين للدول الإسلامية في غرب إفريقية قاموا بأداء فريضة الحج إلى مكة، وتدل رحلاتهم هذه على أثر الحج في انتشار الإسلام في إفريقية. فأول من حج من سلاطين مالي هو برمندار [أو برمندانه] الذي أصبح قدوة لسلاطينهم من بعده، ثم حج منهم السلطان منسا ولي بن ماري جاطة أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (625 ـ 676هـ/ 1228 ـ 1277م)، وحج بعد منهم السلطان صاكوره أيام السلطان المملوكي محمد بن قلاوون (648 ـ 741هـ/ 1285 ـ 1341م)، وهو الذي فتح مدينة كوكو السودانية

---

(1) مسالك الأبصار، ج4، ص 69.
(2) مسالك الأبصار، ص 695.
(3) مسالك الأبصار، ص 75.
(4) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 93 ـ 94؛ كفاية المحتاج، ص 79.
(5) التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 102؛ كفاية المحتاج، ص 112.
(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، غلاف الكتاب.

ونشر الإسلام فيها[1].

أما أشهر حجة ذكرتها المصادر لسلطان من سلاطين مملكة مالي فهي التي قام بها منسا موسى سنة 724هـ/ 1324م زمن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون؛ فقد تحدثت المصادر بإسهاب عنها، وعن مقابلته السلطان الناصر الذي احتفى به وأكرمه، وكيف أنفق جميع ما حمل من الأموال على سلطان مصر، وأهلها، وأهل مكة، قبل عودته إلى بلاده؛ فابن خلدون يشير أنه قد (أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر، في كل حمل ثلاثة قناطير، فنفذت كلها، وأعجزته النفقة، فاقترض من أعيان التجار)[2] في مصر، وقد اصطحب السلطان منسا موسى إلى بلاده الشاعر والمهندس الأندلسي أبا إسحاق الغرناطي من مكة، والقاضي أبا العباس الدكالي، كما جلب كثيراً من الكتب إلى بلاده من مصر والحجاز[3].

أما الحجة الشهيرة الثانية التي قام بها سلطان آخر من ممالك السودان فهي حجة الأسكيا الحاج محمد سلطان مملكة سُنغي سنة 902هـ[4]، فقد مر بمصر متوجهاً نحو مكة والمدينة، في رحلتي الذهاب والإياب، حاملاً لقب الخلافة، وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين[5].

ويذكر محمود كعت أنه كان معه في حجه هذا إضافةً إلى رجاله وجنده سبعة من كبار فقهاء تنبكت، أحدهم المؤلف محمود كعت نفسه. وقد حمل معه أكثر من ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب[6]، ولما وصل إلى الحجاز أقبل عليه أهل الحرمين الشريفين، واشترى في مكة المشّرفة أرضاً، وبنى عليها داراً أوقفها على الكعبة المشرّفة، كما التقى بالعلماء الأجلاء والصلحاء

---

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1484 ـ 1485.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1485؛ ينظر ما ذكره القلقشندي المشابه لقول ابن خلدون، صبح الأعشى، ح5، ص 296.

(3) للمزيد عن رحلة السلطان منسا موسى للحج ومروره بمصر وعودته إلى بلاد السودان ينظر: العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 71 ـ 75؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص 692 ـ 693؛ ابن خلدون، التاريخ، ص 1484 ـ 1485؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ح5، ص 289 ـ 296.

(4) للمزيد عن حجة سلطان مملكة سُنغي، ينظر: محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 34، 65 ـ 70؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 72؛ ينظر أيضاً محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 66.

(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 65.

المرضيين[1].

أما مسألة تلقبه بالإمام أو الخليفة فيشير محمود كعت إلى أن شريف مكة الحسني العباس اجلَسهُ (بمسجد البلدة الشريفة مكة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء، وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل مَن خالفه في تلك الأرض فقد خالف الله تعالى ورسوله)[2].

وبسبب استقامتة، وحسن سيرته، وتثبيته لأركان دولته، وتقريبه العلماء والفقهاء، واتباعه سيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإن علماء عصره أجمعوا على أنه خليفة، وممن أيد ذلك صراحة عبد الرحمن السيوطي عندما التقاه في مصر في أثناء عودته، وكذلك الشيخان العالمان السودانيان اللذان كانا معه: محمد بن عبد الكريم المغيلي، والشيخ شمهروش الجنّي[3]. وكانت رسائله مكتوبة باللغة العربية، وفي صدرها ألقاب الخلافة، كما يوردها محمود كعت (هذا كتاب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين السلطان العادل القائم بأمر الله أسكي الحاج محمد بن أبي بكر أدام الله عزه ونصره)[4]. ولابد من الإشارة هنا إلى أن مواكب السلاطين السودانيين الذاهبة للحج كانت كبيرة العدد، تضم الأمراء وأعيان القبائل والعلماء والنساء والخدم، إضافة إلى عدد كبير من الجنود لحراسة الموكب، قد يصل عددهم إلى 800 جندي[5].

أما الطريق الذي كان الحجاج السودانيون يسلكونه فكان من خلال الصحراء إلى مصر[6]، فالعمري يذكر أن (بلاد مالي وغانة وما معها يُسلك إليها من غربي صعيد مصر، على الواحات، في برٍّ مقفر يسكنه طوائف من العرب، ثم من البربر، إلى عمران يُتوصَّل منه إلى مالي وغانة، وهي

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 68.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 12.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 12، ص 13، ص 68.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 72.
(5) لزيادة المعلومات حول هذا الموضوع يُنظر: محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 32، ص 34، ص 35، ص 36؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 72؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 300 ـ 301.
(6) ابن خلدون، تاريخ، ص 1485.

مسامتة جبال البربر في جنوب مراكش، ما يليها في قفار طويلة، وصحار ممتدة موحشة)[1].

6 ـ الطرق الصوفية:

من العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقية الطرق الصوفية، التي زاد عدد اتباعها، ولاسيما بين المشتغلين بالتجارة، ومن العلماء والفقهاء. أقام أتباع هذه الطرق الزوايا للعبادة، ولإيواء الوافدين المحتاجين إلى المأوى والطعام، وللاعتكاف بعيداً عن زخرف الحياة وملذاتها، وللدرس والتفقه في شؤون الدين[2]، كالقادرية والتجانية والسنوسية[3]. والطريقة القادرية هي الأوسع انتشاراً في السودان الغربي، حيث تأسست في بغداد على يد عبد القادر الكيلاني (561هـ/ 1166م)، ودخلت إلى غربي إفريقية، على أيدي مهاجرين من قبيلة كونتا من توات، متخذين من مدينة ولاته أول مركز لطريقتهم، ثم لجؤوا إلى تمبكتو، وانتشر أتباعها من الفقهاء والمريدين من السنغال إلى مصب نهر النيجر، وكان جدهم محمد الكنتي قد جاء من توات في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وتعرف طريقتهم عادة بالطريقة البكايئية؛ نسبةً إلى ابنه أحمد البكاي (ت 910هـ/ 1504م)، لكن الفضل في نشر الطريقة ومبادئها يعود إلى عمر الشيخ ابن أحمد (ت 960هـ/ 1553م) الذي تلقى العلم على يد العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي، فقام عمر بإرسال أتباعه لنشر الإسلام في الصحراء وحوض النيجر وبلاد الهوسا[4].

وللتجانية دور مهم أيضاً في انتشار الإسلام في إفريقية، وقد أنشأها أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن سالم التِّجاني الذي ولد عام 1150هـ/ 1737م وتوفي عام 1230هـ/ 1815م، وهو من أهالي قرية عين ماضي بالجزائر، تنقل في البلاد الإسلامية، مثل تلمسان ومكة والمدينة

---

(1) مسالك الأبصار، ج5، ص 74.

(2) الجمل، شوقي عطا الله، الحضار الإسلامية العربية في غرب إفريقية، سماتها، ودور المغرب فيها، المناهل، العدد السابع، السنة الثالثة، 1976، ص 145 ـ 146.

(3) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 43؛ الجمل، الحضار الإسلامية العربية في غرب إفريقية، ص 146.

(4) الجمل، الحضارة الإسلامية العربية، ص 146؛ حسن، انتشار الإسلام، ص 43.

والقاهرة، وتتلمذ على يد شيوخها، ثم أسس طريقة صوفية جديدة. رحل إلى الصحراء عام 1140هـ/ 1727م، وعاد إلى فاس عام 1213هـ/ 1798م، واتخذها مركزاً لنشر دعوته، وقد قضى الشطر الأكبر من حياته متنقلاً لتنظيم شؤون طريقته، ويسمى أتباع الطريقة التجانية بالأحباب[1]. انتشرت التجانية بين رجال القوافل، وكثر أتباعها في حوض السنغال، وتمبكتو، وسيجو، وأسسوا زوايا في كل من كانو، وبرنو، وأداي، وشنقيط. واستمرت الطريقة التجانية في النمو والازدهار لتصبح من الطرق الصوفية المعروفة في السودان الغربي[2].

أما السنوسية فلها دورها المؤثر في نشر الإسلام في القارة الإفريقية عموماً، ومنها غربي إفريقية. مؤسسها الفقيه الجزائري سيدي محمد بن علي السنوسي (ت 1275هـ/ 1859م)، وقد تأثرت بالوهابية التي نشرها محمد بن عبد الوهاب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي في الجزيرة العربية[3]. كان مركزها واحة جغبوب في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس بداية، ثم انتقلت إلى كفرة سنة 1895م على عهد سيدي المهدي بن سيدي محمد السنوسي وخليفته[4].

أدت الطرق الصوفية دوراً هاماً في مقاومة الاستعمار، سواء ما قام به المقاومون أتباع الطريقة القادرية للاستعمار البرتغالي والإسباني للثغور المغربية، أو ما قامت به السنوسية في محاربة الاستعمار الإيطالي، أو ما قام به الحاج عمر التكروري في السودان في القرن التاسع عشر الذي جعل من التِّجانية وسيلة للوصول إلى أهدافه في طرد الفرنسيين من البلاد، ولذا كان يطلق على حركته بـ العمرية[5]، وكان قد حج إلى مكة عام 1236هـ/ 1820م، وخلع عليه في أثناء حجه لقب خليفة التجانية في السودان، وبدأ سنة 1244هـ/ 1828م بشن سلسلة من الحملات الدينية والحربية التي حققت له السيادة على كل من: ماندنكَ، وكآرته، وسيكو،

(1) حسن، انتشار الإسلام، ص 45.
(2) الجمل، الحضارة الإسلامية العربية، ص 147.
(3) حسن، انتشار الإسلام، ص 47.
(4) حسن، انتشار الإسلام، ص 48، 49.
(5) الجمل، الحضارة الإسلامية العربية، ص 147.

وماسينا. وقد ترك الحاج عمر بعد وفاته سنة 1281هـ/ 1864م إمبراطورية واسعة الأرجاء، لكنها انهارت أمام الاستعمار الفرنسي (1890 ـ 1893م)[1].

(1) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة السودان، م12، 331 ـ 332؛ ليفتزيون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، مادة: مالي، ج27، ص 8432.

الفصل الثالث

إمبراطورية غانا الإسلامية

مقدمة:

قامت في غربي إفريقية أو السودان الغربي إمبراطوريات ذات أصول وثنية، ارتبطت بعلاقات سياسية وتجارية مع الدولة العربية الإسلامية، وقد تطورت بانتشار الإسلام وحضارته في غربي إفريقية، وقيام الإمبراطوريات الإسلامية. ناهيك عن هجرة أعداد كبيرة من العرب والبربر إلى تلك المناطق واسقرارهم فيها، ثم اختلاطهم بسكان البلاد الأصليين.

وأبرز هذه الإمبراطوريات الإسلامية التي تأسست في غربي إفريقية: غانا، ومالي، وسنغاي، ثم إمبراطورية البرنو التي تأسست في كانم ثم في البرنو، تلتها إمبراطويات في العصر الحديث زالت على يد الاستعمار الأوربي. وفيما يلي أبرز تلك الإمبراطوريات الإسلامية:

1 ـ مملكة غانا الأولى الصنهاجية الأصل:

ليس في حوزة المؤرخين أية وثائق مكتوبة عن بدايات هذه المملكة[1]، ولم تمدنا المصادر العربية الأولى بتفصيلات عن نشأتها، واكتفت بالإشارة إلى بلاد غانا، وما فيها من ذهب، وطعام، ولباس أهلها[2]، ومعظم المعلومات التي وردتنا كانت من كتب الرحالة والجغرافيين العرب المسلمين.

وأول جغرافي عربي رحل إلى مملكة غانا وكتب ما شاهده عنها هو ابن حوقل المتوفى بعد 367هـ/ 978م، وهو شيء ضئيل يتناول العلاقة والمخالطة بين ملك أدغست البربري وملك غانا الزنجي، وأن ملك غانة هو أغنى رجل على وجه الأرض، بسبب الأموال التي يملكها والذهب المتجمع والموروث من ملوك غانا السابقين. وأن سعر حمل الملح المستورد من مملكة

(1) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 27.

(2) ابن الفقيه، مختصر أخبار البلدان، ص 81. يُنظر: محمود كعت، تاريخ الفناش، ص 42.

أودغست يصل سعره في غانة إلى ما بين 200 ـ 300 دينار[1]. وأن القبائل البربرية المتلثمة من صنهاجة التي تعيش في البوادي كانوا يفرضون ضريبة على المجتازين عليهم من التجار إلى بلاد السودان، والراجعين بالتبر من تلك البلاد[2]، وأن المفاوز والبراري الفاصلة بين بلاد المغرب والسودان قليلة المياه، ولا تسلك إلا في الشتاء[3].

ويقول ابن خلدون إن العرب المسلمين لما فتحوا إفريقية، دخل التجار المغرب، فلم يجدوا أعظم من ملوك غانا [ويسميهم غانية] المجاورين للبحر المحيط، وعاصمة مملكتهم غانة[4].

وكلمة: غانة ـ على ما ذكر البكري ـ كانت صفة من صفات ملوكهم، ثم أصبحت اسماً لعاصمتهم التي هي عبارة عن مدينتين على ضفتي نهر النيجر، إحداهما يسكنها المسلمون، والثانية يسكنها ملكهم الوثني وحاشيته[5]. لكن سكان مدينة غانا وحاكمها كانوا مسلمين على أيام الإدريسي، فملكها من ذرية صالح الحسني [أخو إدريس مؤسس دولة الأدارسة في المغرب]، وهو مطيع لأمير المؤمنين الخليفة العباسي المستظهر بالله، وذكر أن ملك مملكة غانا كان قائماً على عرشه سنة 510هـ/ 1116م[6]. ويشكك ابن خلدون في نَسب هذا الملك، مشيراً إلى أن صالح الحسني المذكور مجهول، وإن أهل غانا ينكرون أن يكون عليهم ملك من غير أمة صوصو[7].

تُعد مدينة غانا من أكبر مدن السودان الغربي في العصور الوسطى[8]، ويذكر القلقشندي أنها

(1) صورة الأرض، ص 98.
(2) صورة الأرض، ص 99.
(3) صورة الأرض، ص 100.
(4) تاريخ، ص 1655.
(5) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 174 ـ 175؛ ينظر أيضاً: ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.
(6) الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص 6؛ وينظر أيضاً: ابن سعيد، بسط الأرض، ص 24 ـ 28.
(7) تاريخ، ص 1484.
(8) البكري، المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب، ص 175؛ الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص 6؛ الشريشي، شرح مقالات الحريري، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، جمع صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1982، ص 11.

تقع غرب إقليم صَوْصَوْ، وتجاور البحر المحيط الغربي[1]، وقد تلاشت من الوجود حالياً[2].

تأسست إمبراطورية غانا الأولى في وقت غير معلوم، على يد أمراء يقال إنهم من الجنس الأبيض، حيث نمت وازدهرت في السودان الغربي[3]، بينما يرى آخرون أن أول حكومة قامت في غانا ترجع إلى حوالي القرن الأول الميلادي[4]، وكانت (خاضعة لأسرة من أصل ليبي)[5].

ويؤكد المؤرخان السودانيان السعدي ومحمود كعت أصولهم البيضاء، فيقول الأول: (وهم بيضان في الأصل)[6]، بل إن محمود كعت يرجح كونهم من صنهاجة، وليسوا بيضان فحسب، والأصح أنهم ليسوا من السودانيين[7]. فالمرجح إذن أن الذي أسس أول مملكة في غانا هم من سكان المغرب العربي والصحراء البيض، وبالذات من قبيلة صنهاجة البربرية.

وأول ملوكها هو قَيَمغَ، ودار إمارته غانا، وهي مدينة عظيمة في أرض باغَن[8]، ولم يذكر اسم ملك آخر غيره. أما محمود كعت فيذكر أن هذا السلطان ـ ويسميه كيمع ـ هو سلطان المغرب كله بلا استثناء، وهو سلطان عظيم، وأنه من الملوك الأوائل[9]. ولم يُشْرِ إلى أنه مؤسس المملكة، ويقول إن اسمه بلغة السودانيين من أهل وعكرى ملك الذهب[10]، ثم يذكر اسم آخر ملوكها البيض؛ وهو كَنِسَعَي، الذي كان معاصراً للرسول محمد صلى الله عليه وسلم[11].

ويقول أحد الباحثين: ولم يعرف حتى الآن من ملوك الحكومة الأولى التي قامت في غانا سوى ثلاثة أسماء أو اسمين ولقب، وهما الاسمان السابقان قيمع أو كيمع وكَنِسَعَيْ، والثالث

---

(1) صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، ح5، ص 248، مطبعة دار الكتب، ح5، ص 273 ـ 274.
(2) يفر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: غانة، ح23، ص 7062.
(3) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السودان، م12، ص 329.
(4) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 21.
(5) الوزان، وصف إفريقية، ح2، ص 162.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 9.
(7) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 42.
(8) السعدي، تاريخ السودان، ص 9.
(9) تاريخ الفتاش، ص 41.
(10) تاريخ الفتاش، ص 41.
(11) تاريخ الفتاش، ص 41.

هو كارا، ويذكر تواريخ حكمهم بالقرون هكذا:

1 ـ كيمَع كان يحكم في وقت ما قبل القرن الرابع الميلادي.

2 ـ كارا حكم خلال القرن الرابع الميلادي.

3 ـ كَنِسَعَيْ كان يحكم في القرن الرابع الميلادي[1].

أما عدد ملوكها فهو 44 ملكاً؛ تملك 22 ملكاً منهم قبل البعثة النبوية، و22 ملكاً بعد البعثة، على حد قول السعدي[2]. لكن محمود كعت يذكر أن 20 ملكاً منهم حكموا قبل ظهور رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر عدد الملوك الذي حكموا بعد ظهوره، واكتفى بذكر آخرهم وهو كَنِسَعَيْ المعاصر للرسول الكريم[3]. لكن انقراض مملكة غانا الأولى البيضاء في عام 174هـ/ 790م؛ وقيام مملكة غانا الثانية السودانية السوداء[4] لا يتفق مع ما قاله محمود كعت من أن انقراضها كان في القرن الأول الهجري[5].

لعب الذهب في مملكة غانا دوراً كبيراً في قوتها وثرائها، فما من جغرافي أو مؤرخ عربي إلا وذكر توافر الذهب فيها[6]، أو أنها متصلة ببلاد التبر في بلاد السودان الغربي، التي هي أيضاً بلد من بلدانه[7]. بل إن ابن حوقل يقول: (وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها، بما لديه من الأموال والمدّخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم وله)[8].

ولم يقتصر هذا الغنى على ملوك مملكة غانا الأولى، بل استمر ذلك لدى ملوك مملكة غانا

(1) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 24.
(2) تاريخ السودان، ص 9.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 41.
(4) يقر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة غانة، ح23، ص 7063؛ طرخان، إمبرطورية غانة الإسلامية، ص 25.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 41.
(6) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 81، مجهول، حدود العالم، ص 148.
(7) الشريشي، شرح مقامات الحريري، في كتاب مملكة مالي، ص 11 ـ 12؛ ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، مادة: تبر، م2، ص 12 ـ 13 ومادة: غانة، م4، ص 184؛ القزويني، آثار البلاد، ص 18، 57؛ ابن سعيد، كتاب بسط الأرض، ص 26.
(8) صورة الأرض، ص 98.

السودانية الزنجية الثانية الوثنية، وعلى جميع ملوك الممالك التالية؛ مثل ملوك مالي وسنغي. فقد أفاض البكري في وصف ترف وبذخ ملكها وشعبه، والذي تولى الحكم سنة 455هـ/ 1063م، قبيل فتح المرابطين لغانا بثلاث عشرة سنة على يد أبي بكر بن عمر المرابطي سنة 469هـ/ 1076م[1]. وذكر الإدريسي ما كان عليه ملك غانا المسلم الحسني في العام 510هـ من الرخاء والترف، مشيراً إلى إحكام بنيان قصره، ونقوشه، وادهانه، وشمسيات زجاجه، وقطعة الذهب التي يمتلكها والتي يصل وزنها إلى 30 رطلاً قطعة واحدة من غير أن تُسبك أو تُطرق، ولا توجد عند أي أحد آخر من الملوك لا قبله ولا بعده[2]، وقد أكد ابن سعيد وجود هذه التبرة لدى الملك المذكور فقال: (وله تبره كبيرة، فيها نَصْب يربط فيه فَرَسَه، ويفخر بذلك على سائر ملوك السودان)[3].

ويبدو أن ملوك مملكة غانا الأولى البيض أو أسرة حكومة كيمَع اتسموا بالظلم والتعسف، بدليل ما ذكره محمود كعت حول سقوط دولتهم على يد مؤسس مملكة غانا الثانية من أسرة السوننك من أن الله تعالى أفنى (ملكهم، وسلط أراذلهم على كبرائهم من قومهم، واستصالهم، وقتلوا جميع أولاد ملوكهم، حتى يقروا بطون نسائهم، ويخرجوا الأجنة ويقتلوهم))[4].

2 ـ مملكة غانا الثانية السودانية السُّوننكية (174 ـ 599هـ/ 1076 ـ 1203م):

وتدخل غانا مرحلة جديدة بقيام حكومة غانية ثانية، وتُعد أول مملكة زنجية ظهرت في غرب إفريقية[5] من قبل أمراء من قبيلة سركلّه السُّوننكية الوثنية الزنجية السودانية، الذين كانوا يعيشون مع الأمراء البيض في الجنوب الغربي من والته، في إقليم يعرف باسم وغَدوَ أوغانا، وكانوا يتخذون الألقاب: تونكا، وكيمغا، وغانا. واللقب الأخير كما سبقت الإشارة

(1) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 76، 174.
(2) صفة المغرب وأرض السودان، ص 6 ـ 7.
(3) كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، ص 26.
(4) تاريخ الفتاش، ص 42.
(5) يفر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: غانة، ح23، ص 7062 ـ 7063.

توسع فيه، فأصبح يطلق على المدينة أيضاً، وهو الذي ورد عند الجغرافيين والمؤرخين العرب[1].

وأول ملوكها هو كايا ماغان سسي kaya maghan cisse، الذي طرد العناصر البيضاء من غانا حوالي سنة 174هـ/ 790م[2]، مسقطاً بذلك مملكة غانا الأولى البيضاء، ثم مدّ سلطانه إلى ما وراء حدود مملكته الأصلية، فشمل الجزء الأكبر من السودان الغربي، وخاصة مناجم الذهب التي على الضفة اليسرى لنهر السنغال الأعلى، ومعظم قبائل البربر الصحراوية، وخاصة لمتونة، وقصبتهم أودغست[3].

وقد أورد البكري اسم ملك آخر من ملوك مملكة غانا الثانية، وهو الملك بسي الذي انتهى حكمه عام 455هـ/ 1063م ـ والذي كان على الرغم من وثنيته محباً للمسلمين ـ فتولاها ابن أخته تنكامنين في العام المذكور، والذي كان على عرش المملكة سنة 460هـ/ 1068م أيام الجغرافي الأندلسي البكري[4].

3 ـ فترة الفتح المرابطي لغانا (469 ـ 480هـ/ 1076 ـ 1087م)، وقيام إمبراطورية غانة الإسلامية (469 ـ 599هـ/ 1076 ـ 1203م):

دبّ الضعف في مملكة غانا الثانية، في الوقت الذي اشتد فيه أمر المرابطين الملثمين في الشمال المغربي[5]، وقامت دولتهم التي بدأ الدعوة لقيامها عبد الله بن ياسين في رباط بجزيرة في مجرى السنغال الأعلى، وبعد فترة من الزمن ترك ذلك الرباط، وأخذ يتجول داعياً إلى الإسلام بين بربر أدرار وتاكّنت، وسودانيي تكرور، فنالت دعوته تأييداً؛ لأنه توجه بها إلى الجماهير من السود والبيض الذين كانو يتطلعون إلى الخلاص من نير حكم أسرة سركلة السوننكية حصن الوثنية

(1) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السودان، م12، ص 329، يفر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة غانة، ح23، ص 7063.

(2) يفر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة غانة، ح23، ص 7063.

(3) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السودان، م12، ص 329.

(4) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 174.

(5) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.

الحصين، فأسلم ملك التكرور وأهل بيته الذين هم أول من دخل إلى الإسلام من السودانيين، بل زودوا الجيش المرابطي بالمحاربين، وسرعان ما أسلم ملك مالي، وملك سنغاي.

أما أودغست البربرية التي ظلت على ولائها لمملكة غانا الثانية الوثنية فقد هاجمها عبد الله بن ياسين، وفتحها سنة 446هـ/ 1054م. وفي الوقت الذي توجه فيه يوسف بن تاشفين للسيطرة على المغرب الأقصى استطاع ابن عمه أبو بكر بن عمر اللمتوني فتح غانا سنة 469هـ/ 1076م، ودخل أهلها في الإسلام بأعداد كثيرة، وبدؤوا ينشرونه في المالك المختلفة التي لا يزالون يحكمونها، والتي استغلت سقوط مملكة غانا أمام المرابطين لإعلان استقلالها؛ مثل ممالك جاره، وكومبو، وجخا. لكن أبا بكر بن عمر اللمتوني توفي بعد 11 سنة من حكمه، وذلك عام 480هـ/ 1087م، ثم تبعتها مغادرة جيوش المرابطين لبلاد السودان الغربي. إلا أن تلك المغادرة لم تحل دون انتشار الإسلام؛ ففي نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي استطاع أحد المسلمين واسمه جُلا، والذي كان قد أسلم على يد سركلّه جخا، نشر الدين الإسلامي إلى غابات ساحل الذهب، حيث اعتاد هو وقومه الذهاب إليها لشراء جوز الكولا[1].

ويبدو أن الملك الغاني عند دخول أبي بكر بن عمر اللمتوني المرابطي غانا هو تنكامنين نفسه الذي أشار إليه البكري بأنه تولى الحكم سنة 455هـ/ 1063م، والذي كان على عرشه سنة 460هـ/ 1068م[2]، أي بعد 14 سنة من توليه الحكم، وبعد تسع سنوات من كونه على عرش المملكة.

ولا يعرف من ملوك حكومة غانا الثانية السوننكية سوى خمسة أسماء، هم:

1 ـ بنتجوي دو كوري كان يحكم سنة 173هـ/ 790م، وهو معاصر للخليفة العباسي

---

(1) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السودان، م12، ص 330 ـ 331؛ يفر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة غانة، ح23، ص 7064 ـ 7065.

(2) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 174؛ وينظر أيضاً قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 30.

هارون الرشيد.

2 ـ تكلان: كان يحكم حوالي مطلع القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

3 ـ تلوتان أو بولاتن: وهو ابن السابق، حكم حوالي سنة 222هـ/ 837م، وهو معاصر للخليفة العباسي المعتصم بالله.

4 ـ بسي: توفي حوالي سنة 455هـ/ 1063م، وهو معاصر للخليفة العباسي القائم بأمر الله.

5 ـ تنكامنين: وهو ابن أخت السابق، تولى عرش المملكة عام 455هـ/ 1063م، وكان حياً سنة 460هـ/ 1068م، وهو الذي كان ملكاً عند فتح المرابطين لمملكة غانا عام 469هـ/ 1076م، وكان معاصراً أيضاً للخليفة العباسي القائم بأمر الله، وابنه المقتدي بالله[1]. وفي عهده يمكن اعتبار بدء تاريخ إمبراطورية غانة الإسلامية الفعلي في عام 469هـ/ 1076م؛ ففي هذا العام أصبحت حكومتها إسلامية بإسلام ملكها تنكامنين السوننكي الذي كان يحكم غانا عند فتح المرابطين لها، وبإسلامه دخل عدد كبير من سكان العاصمة غانا وغيرها من المدن الإسلام[2].

وخير من يحدد عام 469هـ لإسلام مملكة غانا الثانية السوننكية هو الجغرافي الأندلسي الغرناطي الزهري، المتوفى حوالي 532هـ/ 1137م، فيذكر أن (مدينة غانة........ وأهل هذه البلاد كانو يتمسكون بالكفر إلى عام [ورد خطأ العام 496هـ كتابةً ورقماً، ولم نعلم هل الخطأ جاء من ناسخ المخطوطة، أم من قراءة المحقق] 469هـ، وذلك عند خروج يحيى بن أبي بكر أمير مسوفة، [يقصد به ابن أبي بكر بن عمر فاتح غانا]، فأسلموا، وحسن إسلامهم، وهم اليوم مسلمون، وعندهم العلماء والفقهاء والقراء، وسادوا في ذلك. وأتى منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم، وساروا إلى مكة، وحجوا، وزاروا، وانصرفوا إلى بلادهم، وأنفقوا أموالاً

(1) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 27 ـ 28.

(2) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 47؛ دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، ص 114.

كثيرة في الجهاد)[1]. إن غزو المرابطين لم يؤد إلى اختفاء إمبراطورية غانا، بل إلى تحول حكومتها إلى الإسلام[2].

ومن الجدير بالذكر أن حركة المرابطين ليست هي التي أدخلت الإسلام لأول مرة في الممالك السودانية؛ لأن الإسلام وصل إليها منذ عهد عقبة بن نافع والأدارسة، فالمؤرخون والجغرافيون العرب المسلمون يؤكدون تغلغل الإسلام في السودان الغربي منذ بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[3]. فالبكري يذكر أن غانا مدينتان سهليتان، أحداهما (المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً، أحدها يجتمعون فيه، ولها الأئمة، والمؤذنون، والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم..... ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه............. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك)[4]. إن يؤكد هذا النص أن انتشار الإسلام في غانا لم يحدث بين عشية وضحاها، وليس هذا فحسب، بل إن تراجمة الملك كانوا من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله، وأكثر وزرائه[5]، وذلك على أيام الملك السوننكي تنكامنين. أما خاله الملك السابق له يسي، والذي انتهى عهده عام 455هـ/ 1063م، فقد وصفه البكري بأنه (كان محمود السيرة، محباً للعدل، موثراً للمسلمين)[6]. وعلى الرغم من أن سيادة المرابطين على غانا انتهت بوفاة أبي بكر أمير المرابطين، فإن حركتهم كانت بعيدة الأثر في زيادة انتشار الإسلام، وتقوية العقيدة الإسلامية في السودان الغربي[7].

ولم تكن العاصمة غانا هي الوحيدة من مدن مملكة غانا التي تغلغل فيها الإسلام قبل

(1) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، دمشق، 1968، ص 125.
(2) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 51 ـ 52.
(3) صالح، عمر محمد، الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، مؤسسة الرسالة، 1993، ص 29.
(4) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 175.
(5) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 175.
(6) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 174.
(7) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 47.

دخول المرابطين لها؛ ففي مدينة غيارو التي تبعد 12 ميلاً عن نهر النيجر كثير من المسلمين[1]، وفي غربها مدينة أخرى على نهر النيجر هي يرسني (يسكنها المسلمون، وما حولها مشركون)[2].

ولم تذكر المصادر أسماء ملوك مملكة غانا المسلمين غير الملك تنكامين، إلا أن هناك إشارات تفيد أن ملك بلد اسمه (ملل) من بلاد السودان الغربي يعرف بالمسلماني، كان قد أسلم على يد ضيف من المسلمين كان عنده يقرأ القرآن ويعلّم السنة[3]. ومن الطبيعي أن إسلام هذا الملك كان قبل سيطرة المرابطين على مملكة غانة؛ لأن البكري الذي كتب كتابه سنة 460هـ/ 1068م لم يتطرق للسيطرة المرابطية على مملكة غانا.

وفي سنة 1939م تم العثور في مدينة ساني [ولعلها المدينة نفسها التي ذكرها البكري وهي يرسني التي سكنها المسلمون قبل السيطرة المرابطية على مملكة غانة][4] والتي تبعد 4 أميال عن مدينة جوا الحالية، على شواهد قبور ملكية، يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كتب على إحداها ما يلي: (هنا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله، ويرقد الآن في رعايته، أبو عبد الله محمد سنة 494هـ)[5]، ووفاة هذا الملك كانت بعد انتهاء سيطرة المرابطين على غانا بـ 14 عام.

إضافة إلى ما مرّ يذكر الإدريسي أن ملك مملكة غانا الإسلامية هو من ذرية صالح، أخو إدريس الأول ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وذلك في سنة 510هـ/ 1116م، وأنه يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي، دون أن يذكر اسمه، وأن أهل غانا مسلمون[6]، وأن نسب سلطان غانا العلوي الذي ذكره الإدريسي قد

(1) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 177.
(2) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 177.
(3) البكري، المُغرب، ص 178.
(4) البكري، المُغرب، ص 177.
(5) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، 1983، ص 124.
(6) صفة المغرب وأرض السودان، ص 6.

شكك فيه ابن خلدون[1]، علماً أن ابن سعيد يشير أيضاً إلى أن سلطان غانا هو من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما[2]. ومن البديهي إن النسبة إلى البيت العلوي أمر مألوف ومشهور عند كثير من ملوك ممالك السودان، فقد ادعاها ملك مملكة مالي وارث مملكة غانا، إضافة لادعاء ملوك مملكة برنو السودانية أنهم من سلالة الملك سيف بن ذي يزن العربية اليمنية[3].

وعلى كل حال فالجغرافي الأندلسي أبو حامد الغرناطي (ت 565هـ/ 1170م) يذكر أن أهل غانا (أحسن السودان سيرة، وأجملهم صوراً، سبط الشعور، ولهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة)[4]. وأعطانا الشريف الإدريسي وصفاً لسيرة حياة ملك غانا المسلم الحسني، الذي لم يذكر اسمه ـ والذي يلتقي الإدريسي نفسه به في النسب بعبد الله بن الحسن المثنى ـ فأظهر غناه، وأبهة حكمه وعدله، وسيرته الحسنة بين الناس، وأنه كان يخطب في يوم الجمعة لنفسه، لكنه يدين بالطاعة لأمير المؤمنين الخليفة العباسي[5]، وأن له قصراً على ضفة نهر النيجر، بناه سنة 510هـ/ 1116م، امتاز بمتانته، وإتقان بنائه، مزيناً بأنواع من النقوش والأدهان، وشمسيات الزجاج، وتتصل مملكته ببلاد التبر، وهي [أرض ونقارة] المشهورة بكثرة ذهبها وجودة نوعيته. وعُرف عنه أنه أعدل الناس في حسن سيرته معهم، فكان يخرج من قصره مرتين في اليوم صباحاً وبعد العصر، فيتمشى في أزقة المدينة، مستجيباً لمظالم الناس، ولا يرجع إلى قصره إلا بعد أن يرد حقوق المظلومين، وذلك بإحضار الظالم والمظلوم بين يديه[6]. وعادة ما كان يرتدي إزار حرير يتوشح به، أو بردة يلتف بها، وسراويل في وسطه، و في قدمه نعل شركي، ويخرج في موكب على الخيول بأحسن حال وأكمل زيّ بمناسبات الأعياد، وله أعلام كبيرة كثيرة، وراية واحدة، وتمشي أمام الموكب الفيلة والزرافيّ والحيوانات الوحشية التي في بلاد السودان. أما لباس عامة

---

(1) تاريخ، ص 1484.

(2) ابن سعيد، بسط الأرض في الطول والعرض، ص 26.

(3) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 49.

(4) تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: إسماعيل العربي، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1993، ص 39 ـ 40.

(5) صفة المغرب وأرض السودان، ص 76.

(6) الإدريسي، ص 76.

أهل غانا فهي الأزر والفوط والأكسية، كل واحد على قدر إمكانيته[1].

4 ـ سقوط إمبراطورية غانا الإسلامية على يد الصوصو:

سقطت إمبراطورية غانا الثانية الإسلامية على يد قوم صُوصُو أو السُوسُو الوثنيين السودانيين[2] المجاورين لهم من الشرق في سنة 599هـ/ 1203م[3]. وقد سبقت الإشارة إلى أن ملوك غانا الأولى البيض ذوي الأصول الصنهاجية طردوا من قبل الملك الزنجي الأسود كايا ماغان سسي[4]، فاتجه أعضاء الأسرة الهاربة إلى تكرور، واختلطوا بالتكاررة. ويقال إن هؤلاء البيض الهاربين لم يعودوا بيضاً كما كانوا في الأصل؛ إذ تغيرت ألوانهم باختلاطهم وتزاوجهم مع الأهلين، حتى صاروا بمرور الزمن أشبه بالزنوج. وقد نجحوا في التحكم السياسي في منطقة تكرور حتى القرن الحادي عشر، عندما قام التكاررة بطردهم. هؤلاء البيض الصنهاجيون هم الذين اشتهروا فيما بعد باسم الفولانيين[5]. وقد قام هؤلاء المطرودون من بلاد التكرور بدور بارز في تكوين الطبقة الحاكمة التي ساعدت على استقلال كايناجا، وقيام مملكة جديدة عرفت بمملكة صوصو غربي إقليم مالي[6]. وكانت مملكة كانياجا بداية تابعة لإمبراطورية غانا، وظل حكامها الصُوصُو يدفعون الجزية لحكومة غانا لفترة طويلة، حتى حدث فتح المرابطين لغانا سنة 469هـ/ 1076م، عندها خرج الصوصو وأعلنوا استقلالهم عن غانا، وتوسعوا فيما حولهم، حتى انتزعوا إقليم ديارا من غانا الإسلامية في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[7].

(1) الإدريسي، ص 76.
(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص26، 51، 54.
(3) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ ديلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: غانة، م12، ص 378.
(4) ينظر: يفر، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: غانة، ج23، ص 7063.
(5) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 27.
(6) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 100.
(7) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية؛ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سوسو، م12، ص 378؛ طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 53.

استطاع سومانجورو أعظم ملوك الصوصو الوثني الاستيلاء على غانا سنة 599هـ/ 1203م، منهياً سيادة الملوك الغانيين المسلمين، وبذلك سقطت إمبراطورية غانا الإسلامية، وتفرق أعضاء الأسرة الملكية الغانية في البلاد، مع عدد كبير من المسلمين من سكان العاصمة غانا، واستطاع أحد زعمائهم واسمه إسماعيل من التوجه بهم إلى ولاته، حيث أقاموا مركزاً تجارياً لهم، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة، حتى صارت من أهم المراكز التجارية في السودان الغربي(1).

قام سوما نجورو بعد ضمه لديارا وانتصاره على مملكة غانا بمجابهة مملكة الماندنجو النامية في كانجابا، والتي اشتهرت فيما بعد باسم إمبراطورية مالي، وقتل أولاد الملك الماندنجي ناري فامغان الأحد عشر، ونجا أصغرهم، وهو الولد الثاني عشر الذي عُرف فيما بعد باسم ماري جاطة؛ أي الأمير الأسد(2).

5 ـ سقوط كل من دولة صوصو وبقايا إمبراطورية غانا الإسلامة على يد ملك مالي:

لم تدم إمبراطورية صوصو طويلاً، فقد كانت نهايتها ونهاية إمبراطورها سومانجورو نفسه النزّاع إلى سفك الدماء على يد ماري جاطة [ساندياتا كيتا] soundiata ketia، الذي ضم جميع أملاك الصوصو، بما فيها أراضي إمبراطورية غانا إلى إمبراطورية الماندنجو، بعد معركة حربية فاصلة سنة 633هـ/ 1235م(3). وعاد أهل صوصو إلى بلاد التكرور، وأسسوا حكومة فيها حتى سنة 760هـ/ 1350م تقريباً، حيث تغلب عليها شعب الولوف(4).

وبعد 5 سنوات من الحرب المذكورة أعلاه ـ أي في سنة 638هـ/ 1240م ـ قام ماري جاطة ملك مملكة مالي بتدمير عاصمة غانا تدميراً كاملاً(5)، ولم يهدأ لسلاطين مملكة مالي بال، ولم يتم

---

(1) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 54؛ حسن، انتشار الإسلام، ص 100.
(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.
(3) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 54؛ حسن، انتشار الإسلام، ص100؛ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سوسو، م12، ص 379؛ قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 31.
(4) حسن، انتشار الإسلام، ص 100.
(5) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سوسو، م12، ص 379؛ طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 55.

لدولتهم الاستقرار والثبات، إلا باستئصال شأفة إمبراطورية غانا الإسلامية، أينما كانوا[1].

وهكذا تضافرت دول ثلاث، في أزمان مختلفة، على إسقاط إمبراطورية غانا الإسلامية، كانت أولها دولة المرابطين التي غزتها سنة 469هـ/ 1076م، لكنها لم تسقطها، بل أدى ذلك إلى تحولها إلى الإسلام؛ ثم غزو دولة الصوصو الذي أنهى إمبراطورية غانا سنة 599هـ/ 1203م؛ والثالثة إمبراطورية مالي، التي قام ملكها ماري جاطة سنة 638هـ/ 1240م بتدمير عاصمة إمبراطورية غانا، والذي يمثل الحلقة الثالثة في سقوط إمبراطورية غانا[2].

ومما يجدر ذكره أن إمبراطورية غانا الإسلامية التي أكمل ماري جاطة إسقاطها وإزالتها من الوجود كانت هي المسيطرة في البداية على مالي، لكن الآية انقلبت الآن، فأصبح التابع متبوعاً، والمتبوع تابعاً، أي إن غانا عادت مملكة في القرن الثامن الهجري تابعة لإمبراطورية مالي، حسبما يذكر العمري المعاصر لهما، إذ قال عن مالي: (وليس في مملكة صاحب هذه المملكة من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة، وهو كالنائب له وإن كان ملكاً)[3].

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 41.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: غانة، م12، ص 378 ـ 379؛ طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 51 ـ 52 ـ 54.

(3) مسالك الأبصار، ص 61.

الفصل الرابع

إمبراطورية مالي الإسلامية

أولاً: أقاليم المملكة:

قامت إمبراطورية مالي في العصور الوسطى[1]، وتُعد أعظم ممالك السودان الغربي[2]. هذه الإمبراطورية اشتملت على خمسة أقاليم، كل إقليم منها يُعد مملكة بذاتها، وهي:

1 ـ مالي: تتوسط هذه المملكة أقاليم الدولة، يحدها من الغرب إقليم صوصو، وعاصمتها يني، والبعض يذكرها بنبي، لكن العمري يوضح أن يني هي العاصمة، أما بنبي فهي اسم مصطبة السلطان التي توضع على دكّة كبيرة من الأبنوس[3].

2 ـ صُوصُو: أو سوسو [ويسمونه أيضاً الأنكارية] ويقع هذا الإقليم غرب إقليم مالي[4].

3 ـ بلاد غانا: وهي غربي إقليم صُوصُو، وتمتد إلى البحر المحيط الغربي [المحيط الأطلسي]، وعاصمتها مدينة غانا[5].

4 ـ كَوْكَوْ: ويقع هذا الإقليم شرق إقليم مالي، وقاعدته مدينة كوكو، وهي مقر ملك تلك البلاد، وهو كافر، يقاتل من غربيه مسلمي غانا، ومن شرقيه مسلمي الكانم[6].

5 ـ بلاد تكْرور: وهي شرقي بلاد كوكو، وقاعدتها مدينة تكرور[7].

ويذكر كل من العمري والقلقشندي أن إمبراطورية مالي تحتوي على أعمال أربعة عشر، ويسميانها أقاليم، ويبدو أنهما يقصدان بهذه الأعمال أو الأقاليم الولايات[8].

---

(1) ليفتزيون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: مالي، ح27، ص 8425.
(2) العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 59؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 282.
(3) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ح4، ص 64 و59؛ وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة ماري، ص 43، 51؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 283، وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة ماري، ص 105.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 283.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ح5، ص 284.
(6) القلقشندي،صبح الأعشى، ح5، ص 285.
(7) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 286.
(8) العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 60؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 286.

عرف إمبراطور أو ملك مالي عند المصريين بملك التكرور، لكنه كان يأنف من هذه التسمية، لأن التكرور هو إقليم من مملكته، والأحبّ إليه أن يقال صاحب مالي، لأنه الاسم الأكبر، وهو به أشهر[1].

ويقول العمري المعاصر لمملكة مالي: (وحدّ صاحب مملكة مالي في الغرب البحر المحيط، وفي الشرق بلاد البرنو، وفي الشمال جبال البربر، وفي الجنوب الهمج[2]. أما الحسن الوزان فيذكر أنها كانت تمتد على طول أحد فروع نهر النيجر لمسافة 480 كم، متاخمة لإمبراطورية غانا من جهة الشمال، ويحدها من الجنوب صحارى وجبال وعرة، ومن الغرب غابات مهجورة حتى المحيط الأطلسي، ويحدها من الشرق إقليم كاغو، وفي هذه البلاد قرية كبيرة تسمى مالي، أطلق اسمها على سائر الإمبراطورية، وهي قصر الملك وحاشيته[3]. أما محمود كعت فيقول: (وأما ملّ فإقليم واسع وأراضٍ كبيرة عظيمة، مشتملة على المدن والقرى، ويد سلطان ملّ مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة)[4]. وأنه سمع من الناس يقولون إن السلاطين المسلمين في الدنيا أربعة: (السلطان الأعظم سلطان بغداد، وسلطان مصر، وسلطان برن، وسلطان ملّ)[5].

وإمبراطورية مالي الإسلامية هذه التي قامت في القرن السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين كانت تضم المناطق القائمة الآن: دولة مالي الحالية التي سميت على اسم إمبراطورية مالي، والسنغال، وغمبيا، والنيجر[6]. وفي رأي آخر أن مملكة مالي كانت تشمل الدول الحالية: مالي في الوسط، وموريتانيا الجنوبية في الشمال، والسنغال وغينيا في الغرب، وأراضي ساحل العاج الشمالية والفولتا في الجنوب، وجمهورية النيجر في الشرق[7].

(1) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ج4، ص 59.
(2) التعريف بالمصطلح الشريف، ص 35.
(3) وصف إفريقية، ج2، ص 164.
(4) تاريخ الفتاش، ص 38.
(5) تاريخ الفتاش، ص 38.
(6) ليفتزيون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: مالي، ج27، ص 4825.
(7) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 44.

ثانياً ـ ظهور إمبراطورية مالي:

يعود ظهور إمبراطورية مالي إلى الفترة التي قامت بها إمبراطورية غانا، أي قبل البعثة النبوية بزمن طويل. فدولة الماندنجو [مالي] كانت تتسع تدريجياً في إقليم كانجابا بأعالي النيجر، ولا توجد معلومات عن تاريخها قبل البعثة النبوية، والمعروف عنها يتضح منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وقد بلغت ذروة قوتها ومجدها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[1]. حكمت مالي ثمانية أُسرَ، الخمس الأولى لا تُعرف معلومات عنها عدا أسمائها، وهي: كوروما، ديارا، مركو، كامارا، باكايوكو. أما الأسر الثلاث الأخرى وبحسب تسلسلها الزمني فهي: أسرة الترووريين، وأسرة الكوناتيين، وأسرة كيتا. وحكمت أسرتا الترووريين والكوناتيين في القسم الشمالي من دولة مالي.

أما أول مَن أسلم من ملوك مالي فكان من أسرة الكوناتيين، وهو برمندانة الكوناتي، والمعرف أيضاً باسم جورماندا كوناتي[2]، وسيأتي الكلام عن إسلامه لاحقاً.

أما الأسرة الثامنة فهي أسرة كيتا، وتُعد من أهم الأسر التي حكمت دولة مالي، وهي صاحبة الفضل في تكوين إمبراطورية مالي الواسعة المترامية الأطراف، وعدَّ سانديانا الملقب ماري جاطة، المؤسس الحقيقي لدولة مالي بعد انتفاضته على ملك الصوصو، وقضائه قضاءً تاماً على ما بقي من إمبراطورية غانا[3].

أما أسماء ملوكها فلا يعرف اسم أحد من ملوكها الذين هم من الأسر الخمس الأولى سابقة الذكر، كما لا يعرف أحد من الأسرة السادسة، وهي أسرة الترووريين، سوى مؤسسها، وهو مانسا نوفن تراوري. ويعرف من أسماء ملوك الأسرة السابعة ـ وهي أسرة الكوناتيين ـ ثلاثة، هم: مؤسسها جبا كوناتي؛ وجورماندانا المحرف إلى برمندانة؛ وآخر ملوكها وهو مانسا ألو.

---

(1) طرخان، مملكة غانة الإسلامية، ص 32.
(2) طرخان، مملكة غانة الإسلامية، ص 32.
(3) طرخان، مملكة غانة الإسلامية، ص 35، 39.

أما الأسرة الثامنة ـ وهي أسرة كيتا ـ فقد توالى على حكمها 37 ملكاً منهم، كان آخرهم مامبي كيتا. علماً أن هذه الأسرة تولت الحكم حوالي منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وسقطت في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي[1].

والملاحَظ أن مدينة مالي يسميها كل من البكري[2] والإدريسي (ملل)[3]، وعند محمود كعت (ملّ)[4]، ويصفها الإدريسي بأنها تقع على تل أحمر التراب، منيع جوانبه، وأهلها متحصنون فيه عمن يستهدفهم من سائر بلاد السودان[5].

وأول من أسلم من ملوك مالي هو الملك المعروف بالمسلماني؛ أسلم على يد أحد ضيوفه من فقهاء المسلمين، كان يعلّم الناس قراءة القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وذلك بعد أن حل بالبلاد قحط وشقاء بسبب عدم سقوط الأمطار، فأقنع هذا الفقيه الملك الوثني بقيامهما معاً بصلاة الاستسقاء، فانهمر المطر، فأسلم الملك، وهدم الأصنام، وأخرج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام الملوك الذين جاؤوا من بعده على عرش مملكة مالي[6]. ويبدو أن إسلامه كان قبل سنة 460هـ/ 1068م وهي السنة التي كتب فيها البكري كتابه (المسالك والممالك)[7]، وقبل دخول المرابطين غانا سنة 469هـ/ 1076م.

والملاحَظ أن هناك اختلافاً حول اسمه، أهو بَرَمِنْدانَة الذي ذكره ابن خلدون على أنه أول من أسلم من ملوكهم، وحجّ واقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده؟[8]، وهنا نرى أن إبراهيم علي طرخان قارن بين شخصيتين لملكين، أحدهما برمندانة الكوناتي [الذي ينتسب إلى أسرة

---

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655 ـ 1657؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 293 ـ 298؛ طرخان، دولة مالي، ص 121 ـ 123.

(2) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 178.

(3) صفة المغرب وأرض السودان، ص 6.

(4) تاريخ الفتاش، ص 41.

(5) صفة المغرب وأرض السودان، ص 6.

(6) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 178.

(7) البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص 174.

(8) تاريخ، ص 1655. ينظر أيضاً، القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 293. ويبدو أن القلقشندي نقل ذلك عن ابن خلدون، ماعدا ضبط الاسم بالحركات، فقد اعتمد به على بعض علماء مالي.

الكوناتيين التي سبقت أسرة كيتا]، الذي أسلم، وحج حوالي سنة 441هـ/ 1050م، والثاني هو موسى ديجيو الذي اشتهر باسم الأكوي، وباسم سربندانة أيضاً الذي قد يكون محرفاً إلى برمندانة، وهو من أسرة كيتا التي تولت عرش مملكة مالي حوالي سنة 545هـ/ 1150م[1]، حيث يورد آراء بعض المستشرقين مثل: هنري لابوري وترمنجام، والسيدة لوجارد، ودولافوس. فقد أكد هنري لابوري على إسلام ملك مالي برمندانة، وحجه حوالي عام 441هـ/ 1050م؛ ويؤكد ترمنجام أنه حج في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ أما لوجارد فذكرت أن ملوك مالي كانوا مسلمين في نهاية القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأن أغلب الرعايا كانوا على الوثنية؛ في حين يذكر دولافوس أنه بعد حوالي قرن من إسلام برمندانة انتقل العرش في مالي إلى أسرة كيتا، وذلك حوالي 545هـ/ 1150م[2].

وأخيراً يكتفي طرخان بالقول: (أن المعني باسم برمندانة في روايات ابن خلدون والقلقشندي هو برمندانة الأول من أسرة الكوناتيين)[3].

وبناء على ما تقدم يمكن القول إن من المؤكد أن أول من أسلم هو برمندانة الأول الكوناتي، الذي ورد عند ابن خلدون والقلقشندي، وذلك لأن البكري الذي ذكر أن أول من أسلم من ملوك مالي والذي كان يلقب بالمسلماني دون ذكر اسمه لا يتعارض مع أقوالهما، ولا مع أقوال المستشرقين الواردة أعلاه. وهذا التأكيد قد بني على أن البكري المتوفى عام 487هـ/ 1094م والذي ألّف كتابه عام 460هـ/ 1068م، والذي ذكر إسلام أول ملك من ملوك مالي، لا يمكن أن يكون قد قصد به شخصية برمندانة من أسرة كيتا التي تولت عرش مملكة مالي عام 545هـ/ 1150م؛ أي بعد 82 سنة من تأليفهِ (المسالك والممالك).

أما المؤسس الحقيقي لدولة مالي فهو ماري جاطة، أو سندياتا كيتا (627 ـ 653هـ/

(1) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 52 ـ 53.

(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 53.

(3) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 53.

1230 ـ 1255)[1]. وهنالك رواية تقول إن إمبراطور الصوصو سومانجرو بعد أن استولى على غانا اتجه لغزو مالي، وسيطر عليها، ثم قتل أحد عشر أميراً من الأسرة الحاكمة في أقل من سنة، وهم أخوة، ونجا الصبي الثاني عشر، وهو سندياتا [المعروف بهذا الاسم في السودان الغربي] والملقب ماري جاطة، وقد تمكن هذا الأخير من الوقوف في وجه إمبراطور الصوصو سفّاك الدماء، فأعدّ جيشاً، والتقى الجيشان في معركة قرب نهر النيجر عند كيرينا قرب كوكيلورو سنة 633هـ/ 1235م، كانت نتيجتها مقتل إمبراطور الصوصو، وانتصار ماري جاطة، وتحرير مالي من سيطرته. ثم قام بتوسيع حدود دولته شمالاً حتى بلغ مدينة غانا عاصمة إمبراطورية غانا، فدمرها تدميراً كاملاً، وأصبحت ضمن مملكة مالي سنة 638هـ/ 1240م، وزال حكم إمبراطورية الصوصو عليها سريعاً[2].

وعلى الرغم من الرواية الشفوية حول مقتل الأبناء الأحد عشر، ونجاة الابن الثاني عشر الصبيّ ماري جاطة أو سندياتا كيتا، واتخاذها وجهاً أسطورياً، فإنه قدر لهذا الصبي أن يكون المؤسس الحقيقي لدولة مالي[3]. ويقول أحد الباحثين: إنه على الرغم من وجود ملحمة شهيرة تدور حول شخصية ماري جاطة أو سونداياتا كيتا تصدح بها شعوب ماندين تخليداً لذكراه، إلا أن حياته الحقيقية غير معروفة، وبالأخص فيما يتعلق بإسلامه[4]. وعلى أية حال فقد استطاع أن يحوّل مملكته الصغيرة إلى إمبراطورية مالي العظيمة، التي احتلت مكان إمبراطورية غانا كأغنى مركز تجاري في السودان الغربي، وبدأ التجار في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي يفدون إليها من المغرب العربي، ويقيمون فيها[5]، فأصبحت التجارة عبر الصحراء الكبرى مزدهرة في مجتمعات المسلمين، وبصورة خاصة بعد توسع إمبراطورية مالي الجديدة

(1) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 39؛ سلا، عبد القادر محمد، المسلمون في السنغال، ص 56.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، ج5، ص 293؛ ديلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سوسو، م12، ص 379؛ قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 31.

(3) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 31.

(4) سلا، المسلمون في السنغال، ص 56 ـ 57.

(5) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 103؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 42.

شمالاً نحو منطقة السهول، وهكذا أصبح الماليون يشكلون همزة الوصل مع العالم الإسلامي شمال الصحراء[1].

ومن الجدير بالذكر أن دولة مالي التي ثبت أركانها في أول عهده هي التي اشتهرت في التاريخ باسم دولة مالي الجنوبية، وذلك بعد تدهور دولة مالي الشمالية الأولى على يد إمبراطور الصوصو، وفرار ماري جاطة أو سندياتا نحو الجنوب. وبمعنى آخر فإن الأسر السابقة لأسرة كيتا في حكم دولة مالي، وبخاصة أسرتي التوريين والكوناتيين، وكذلك بعض أوائل أسرة كيتا، قد حكمت دولة مالي الشمالية. أما التي تركها ماري جاطة بعد وفاته فهي إمبراطورية مالي الكبرى الشاملة، إذ استطاع ماري جاطة استرداد جميع الأقاليم الشمالية التي انتزعها إمبراطور الصوصو، ثم زاد عليها، فإليه يرجع الفضل في تحويل دولة مالي الشمالية الصغيرة في كانجابا إلى إمبراطورية كبرى[2].

لم يشترك ماري جاطة [سندياتا] في معارك حربية بعد سنة 638هـ/ 1240م، لكن قواده الذين دربهم على أساليب القتال واصلوا الفتح والغزو. وفي خلال الخمس عشرة سنة التي بقيت من حكمه (638 ـ 653هـ/ 1240 ـ 1255م) وفي عهد ابنه وخليفته منسا ولي (علي)، استولى هؤلاء القواد على منطقة وانْجارا الغنية بمناجم الذهب، كما استولوا على مدينتي بامْبوك وتَبْدو، علماً أن هاتين المدينتين لم تكونا جزءاً من إمبراطورية غانا، ولا من إمبراطورية صوصو[3].

وقد قام ماري جاطة بنقل عاصمة ملكه سنة 638هـ/ 1240م، التي كانت بعيدة عن مركز الدولة من جارب في كانجابا إلى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجير، هي مدينة نياني Niani التي تقع قرب اتصال نهر النيجر بفرعه سانكاراني، ونياني هذه هي التي اشتهرت باسم مالي أو

(1) ليفتزيون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: مالي، ج27، ص 8426.
(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 43.
(3) حسن، انتشار الإسلام، ص 103 ـ 104؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، 43 ـ 44.

ملّ أو ملل أو ملي، وصار اسمها علماً لإمبراطورية مالي[1].

توفي ماري جاطة سنة 668هـ/ 1255م بسبب تناوله طعاماً فاسداً في أحد الأعياد بعاصمته الجديدة، وكانت دولته قد امتدت عند وفاته من بلاد الجلق غرباً عند المحيط الأطلسي إلى أواسط النيجر شرقاً، ومن فوتا جالون جنوباً إلى عاصمة غانا السابقة شمالاً، وقدرت مساحتها بما يزيد على نصف مساحة قارة أوربا[2].

وكما سبقت الإشارة عند الكلام عن سقوط إمبراطورية غانا فإن ماري جاطة المسلم، وبطل مالي الوطني، يشهد له التاريخ بأنه لم يتابع المسلمين وعلماءهم الذين فروا من غانا إلى ولاته أمام بطش إمبراطور الصوصو عند احتلاله غانا عام/ 1203م، فتركهم وشأنهم[3]. ولم تذكر المصادر أنه قام بتأدية فريضة الحج على الرغم من اهتمام سلاطين مالي السابقين له واللاحقين الكبير بتأديتها.

ثالثاً ـ إمبراطورية مالي الإسلامية (653 ـ 712هـ/ 1255 ـ 1312م):

وليَ في هذه الفترة التي تزيد على النصف قرن ثمانية سلاطين، كلهم من أسرة كيتا، باستثناء المغتصب ساكورة. كان أولهم منسا ولي (علي) ابن ماري جاطة (653 ـ 668هـ/ 1255 ـ 1270م). ومعنى منسا بلغتهم، (السلطان)، ومعنى ولي: (علي).

كان منسا ولي من أعظم ملوكهم، وسّع فتوحات أبيه ماري جاطة، وحج سنة 658هـ/ 1260م، أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (65 ـ 6هـ/ 12 ـ 12)[4] وزار مصر في طريقة إلى الحج. عرف بالتقوى والصلاح[5]، واستطاع بسط نفوذ مالي على دولة سنغى الناشئة في

(1) حسن، انتشار الإسلام، ص 103؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 42.

(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 43.

(3) طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 55؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 55.

(4) ابن خلدون، تاريخ، ص 1484 ـ 1485؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 293؛ ليفتزيون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: مالي، ح27، ص 8426.

(5) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 63 ـ 64.

حوض نهر النيجر الأوسط، إلا أن جاو [كاغو] العاصمة صمدت، ولم يستطع دخولها، وضماناً لخضوعها فقد عمد إلى أخذ رهائن من أهلها، من ضمنهم علي كُلن وأخوه غير الشقيق سلمان نار ولدي ملك سنغي زاياسبي[1]. وسنغي هذه هي التي أصبحت إمبراطورية كبيرة فيما بعد، زادت مساحتها على مساحة إمبراطورية مالي[2].

وقد أشار محمود كعت إلى سعة إمبراطورية مالي، وعظمة سلطانها، ورفاهية أهلها بسبب توافر معدن الذهب في أرضها، فقال: (وأما مِلّ [يعني مالي] فإقليم واسع، وأرض كبيرة عظيمة، مشتملة على المدن والقرى، ويد سلطان مل مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة، وكنا نسمع من عوام عصرنا يقولون: سلاطين الدنيا أربعة، ماخلا السلطان الأعظم سلطان بغداد، وسلطان مصر، وسلطان برن، وسلطان ملّ...... قيل أن مَلّ تشتمل على نحو أربعمائة مدن، وأرضها كثيرة الخير، ليس في مملكة سلاطين الدنيا غير الشام أحسن منها، وأهلها ذوو ثروة ورفاهة عيش، وحسبك بمعدن الذهب في أرضه)[3].

وبوفاة منسا ولي تقلد السلطنة أخوه منسا واتي[4] أو والي[5] (668ـ672هـ/ 1270ـ1274م)، ولا يُعرف عنه شيء؛ لأن المصادر لا تمدنا بأية معلومات عن حكمه أو سيرته أو أعماله. وبوفاته عام 672هـ/ 1274م ولي العرش أخوه خليفة، وهو الابن الثالث لماري جاطة. ولما لم يكن مؤهلاً للحكم فقدْ وثب به أهل مملكته، فقتلوه بعد سنة من توليه الحكم، وذلك عام 673هـ/ 1275م، وولوا عليهم سبطاً من أسباط ماري جاطة يدعى أبو بكر، وهو ابن بنت ماري جاطة[6] (673ـ684هـ/ 1275ـ1285م)، ولا يُعرف اسم والده أو نسبه[7].

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 5.
(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 64.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 38ـ39.
(4) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.
(5) القلقشندي، صبح الأعشى. المؤسسة المصرية، ح5، ص 293.
(6) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 293ـ294.
(7) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 293ـ294.

ويلاحظ أنه خلال الفتنة التي وقعت في مالي، وما رافقها من اضطراب وانعدام الأمن، تمكن الرهينتان اللذان أخذهما سلطان مالي الأسبق منسا ولي (علي) - وهما علي كُلن وأخوه سلمان نار ابنا ملك دولة سنغى - من الهرب إلى بلادهما سنة 673هـ/ 1275م. ولم يتمكن سلطان مالي أبو بكر من قتلهما، على الرغم من تتبعه لأثرهما، وكلما جرى قتال بين الجانبين انتصر الأخوان الهاربان على رجال سلطان مالي. وقد أعلن علي كلن نفسه سلطاناً على سنغى، وتلقب بلقب سن، واستقل عن سلطان مالي، وتولى بعده أخوه غير الشقيق سلمان نار، ولكن مملكة علي كلن ومن بعده سلمان نار لم تتجاوز سنغي وأحوازها فقط[1].

كانت نهاية السلطان أبي بكر سبط ماري جاطة على يد مغتصب للعرش، كان مولى من موالي سلاطين إمبراطورية مالي سنة 684هـ/ 1285م، وقد ورد اسمه بعدة صيغ، فذكر ابن خلدون أن اسمه ساكورة، وبلسان السودانيين سبكرة[2]، أما القلقشندي فقد ذكر أن اسمه ساكَبُورة ويقال سيكُرُه[3].

وعلى الرغم من أنه مغتصب للعرش فإنه يعد من مشاهير سلاطين هذه الفترة، فقد استطاع توسيع نطاق الإمبراطورية بانتصاره على بلاد كوكو، وأضافها إلى مملكته التي امتدت من المحيط الأطلسي إلى بلاد التكرور، واستطاع أن يعيد هيبتها بين الأمم السودانية. وبهدوء الوضع السياسي في مالي بدأت مظاهر الحياة تعود إلى وضعها الطبيعي، ونشطت الحركة التجارية فيها بوفود التجار من بلاد المغرب وإفريقية[4]. وقد حج أيام السلطان المملوكي في مصر الناصر محمد بن قلاوون سنة 699هـ/ 1300م[5]، إلا أنه قُتل في أثناء عودته بتاجورا[6].

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 6.
(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655، 1485.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 294، وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي، ص 122.
(4) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 294، وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي، ص 122.
(5) ابن خلدون، تاريخ، ص 1484، 1655.
(6) ابن خلدون، تاريخ، ص 1655.

ويذكر أن رحلته للحج هي الأولى التي يُعرف عنها بعض التفاصيل، فقد اتخذ طريق القوافل الشرقي عبر النيجر إلى تيبستي، ومنها إلى واحات مصر، ومنها إلى مصر. وخلال عودته قتل، لكن رجاله حملوا جثته معهم، وأودعوها عند ماي البرنو، وهو بيري إبراهيم بن دوناما (697 ـ 705هـ/ 1288 ـ 1306م)، فبعث ماي البرنو بخبر وفاته إلى مالي، وقام ولي الأمر بإرسال بعثة حملت جثته إلى مالي[1].

تقلد حكم إمبراطورية مالي بعد مقتل ساكورة الابن الرابع من أبناء ماري جاطة، واسمه قو[2]، وبتقلده السلطنة عادت أسرة كيتا إلى حكم إمبراطورية مالي. ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن الأحداث التي حدثت مدة ولايته التي دامت خمس سنوات. تولى بعده ابنه محمد بن قو بن ماري جاطة[3] (704 ـ 710هـ/ 1305 ـ 1310م)، لم تمدنا مصادرنا أيضاً بشيء عن عهده. وبوفاته عام 710هـ/ 1310م اعتلى عرش المملكة ابن أبي بكر، وهو ابن أخ ماري جاطة[4]، ولم يدم حكمه سوى سنتين، ولا يعرف عنه شيء أيضاً. ويعلق طرخان عن عهودهم فيقول: ليس في عهود هؤلاء السلاطين ما يستحق الذكر، فهي فترة اضطرابات وفتن، وانتقال مابين عهدين لسلطانين عظيمين، هما: عهد ماري جاطة السابق، وعهد منسا موسى[5].

ويبدو أن السلطان ابن أبي بكر هو نفسه الوارد في جواب السلطان منسا موسى على سؤال والي مصر ابن أمير حاجب، في أثناء مروره بمصر للحج، عن انتقال السلطنة إليه، والتي أوردها العمري وأعادها القلقشندي، إذ أجاب أن سلطان مالي الذي قبله كان مولعاً بوجود نهاية للمحيط الأطلسي، فجهز مئات السفن، وملأها بالرجال والمؤن ما تكفيهم سنين، وأمرهم أن لا يعودوا حتى يصلوا إلى نهاية المحيط الأطلسي، أو تنفد مؤونتهم، فغابوا مدة طويلة، ثم

(1) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 69.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 294، وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي، ص 123.
(3) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 294.
(4) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 294، وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي، ص 123.
(5) دولة مالي الإسلامية، ص 70.

عادت سفينة واحدة منها، فسأل السلطان كبير ربابنتها عن أخبارهم، وما حدث لهم، فأجاب:

لقد سارت السفن زماناً طويلاً، وعندما وصلوا إلى أعماق المحيط الأطلسي تعرضت السفن إلى تيار بحري قوي (ربما يكون ذلك مثلث برمودا الذي عرف في التاريخ الحديث) فابتلع السفن، أما أنا فكانت سفينتي آخر السفن، فعدت من ذلك المكان، ولم أدخل ذلك التيار القوي [والذي سماه وادٍ له جرية عميقة]، فأنكر السلطان عليه هذا الكلام، ولم يصدقه[1].

واستمر السلطان منسا موسى في حديثه: ثم قرر السلطان المذكور صاحب فكرة الاستكشاف أن يقوم هو بنفسه باستكشاف نهاية المحيط الأطلسي، فأعد ألفي سفينة؛ ألفاً له ولمن معه من الرجال الذين استصحبهم، وألفاً للزاد والماء، واستخلف منسا موسى على عرش سلطنة مالي، وركب بمن معه البحر المحيط [المحيط الأطلسي]. وكان ذلك آخر العهد به، وبمن معه، وأصبح منسا موسى ملكاً بدله[2].

وبناءً على ما تقدم من القصة التي أوردها سلطان مالي عن تقلده العرش، وبناءً أيضاً على ما جاء عند ابن خلدون والقلقشندي، اللذين ذكرا أن عرش المملكة قد انتقل من أولاد ماري جاطة إلى أولاد أخيه أبي بكر، وليس إلى أخيه أبي بكر، ومنهم هذا السلطان صاحب محاولة استكشاف العالم الجديد، وأخوه منسا موسى الذي تقلد الحكم بعده بسبب عدم عودته. أي إن صاحب محاولة الاستكشاف لم يكن أبا بكر والد منسا موسى، إذ لو كان هو لقال منسا موسى إن والدي أبا بكر هو بطل محاولة استكشاف نهاية المحيط الأطلسي، ومما يؤكد ذلك أن القلقشندي يذكر أن المُلك انتقل (من ولد ماري جاطة إلى ولد أخيه أبي بكر، فولي منهم منسا موسى ابن أبي بكر)[3].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 7؛ القلقشندي، طبعة المؤسسة، المصرية، ج5، ص 294ـ 295.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 70؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 295.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 295. يُنظر: العمري، مسالك الأبصار، ج4، تحقيق: خريسات، ص 59، وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي، ص 43.

تقلد منسا موسى عرش إمبراطورية مالي سنة 712هـ/ 1312م[1]، بعد فقدان الأمل بعودة سلفه المغامر، فوصلت الإمبراطورية أوج قوتها في عهده. فهو من بين كل ملوك مالي التي أفاضت المصادر العربية في الكتابة عن سيرة حياته، ورسوم سلطنته، وأحوال بلاد السودان الغربي في عهده، وأعماله، وحجه، وما جرى له في طريق الحج، وبخاصة في مصر. وقد نال إعجاب من التقى به، ومن كتب عنه من المؤرخين، فهذا والي مصر علي بن أمير حاجب (ت 739هـ/ 1339م) الذي كُلف من قبل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بمرافقته، يقول عنه: (ورأيت هذا السلطان موسى محباً للخير وأهله)[2]، ويصفه ابن خلدون بأنه (كان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه)[3]، أما السعدي فيذكر أنه (صالح عادل، لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل)[4]. وقد بلغت عظمة مملكته الغاية في السعة، فقد فتح بسيفه وجيشه 24 مدينة تتبع لها أعمال وقرى وضياع، وذلك ما تحدث به هو نفسه لابن أمير حاجب المذكور[5].

أما رسوم سلطنة مالي المسلمة فقد أفاضت المصادر في ذكرها، ويبدو أن بعضها استُورثت من سلاطين بلاد السودان الغربي القدماء غير المسلمين. وفي هذا يقول ابن بطوطة: (وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام، فاستمروا عليه)[6]، فبعضها يثير العجب والاستغراب، والبعض الآخر لا يتفق مع روح الإسلام وخُلقه؛ فقد ذكر والي مصر ابن أمير حاجب الذي كان كثير الاجتماع به أنه رأى بالمشاهدة والعيان أن (شعار هذا السلطان أصفر في أرض حمراء تنشر عليه الأعلام، حيث يركب، وهي ألوية كبار جداً)[7]، وأن على القادم عليه

---

(1) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ضبطه وصححه عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، م2، ح4، ص 234.

(2) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ح4، ص 69.

(3) تاريخ، ص 1656.

(4) تاريخ السودان، ص 7.

(5) العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 68؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 294.

(6) الرحلة، دار صادر، ص 687.

(7) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ح4، ص 68.

أو المنعم إليه أن يكشف مقدمة رأسه، ويضرب بيده اليمنى الأرض، وإذا كان محتاجاً فعليه أن يتمرغ بالأرض بين يديه[1]، ومن عادته أن لا يأكل بحضور أحد من الناس كائناً من كان، بل يأكل لوحده دائماً[2].

عمل السلطان منسا موسى على نشر الإسلام في جميع المدن في مملكته، وبنى المساجد والجوامع، وأقام بها الجمع، وجلب إليه فقهاء المالكية، وثبت في بلاده سلطان المسلمين، وتفقه في الدين[3]، ويبدو أنه من شدة تدينه أراد المسير إلى بيت الله الحرام ماشياً، فمنعه وجع أصاب قدمه[4]. ويقول العمري نقلًا عن والي مصر ابن أمير حاجب أنه كان قبل توجهه للحج وبعد عودته (على نمط واحد من العبادة، والتوجه إلى الله عز وجل، كأنه بين يديه، لكثرة حضوره، وكان كل من معه على مثل هذا)[5]، بل إنه أراد أن يترك السلطنة إلى ابنه ويعود مجاوراً إلى مكة، لكن القدر حال دون ذلك بوفاته[6].

عرف عنه اعتزازه بالعلماء والشعراء، وتقريبه لهم، وقد سنَ بهذا سنة استنها للسلاطين الذين جاؤوا من بعده، فقد استصحب إلى بلاده شاعر الأندلس المهندس أبا إسحاق إبراهيم الساحلي، المعروف بالطويجن، الذي لقيه في موسم الحج في أثناء تأديته الفريضة سنة 724هـ/1324م. وبما أن الطويجن كان يجيد فن العمارة فقد قام ببناء قصرٍ للسلطان محكم البناء، تعلوه قبة مربعة الشكل، وضع الطويجن كل مهارته في بنائها، وبخاصة استعماله الكلس الذي لم يعرف استعماله عند أهل مالي، إضافة إلى الأصباغ الجميلة التي استُخدمت في طلائها، فجاءت بصورة جميلة بديعة، نالت إعجاب السلطان، فأغدق عليه العطايا، ووصله باثني عشر مثقالاً

(1) العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 69.
(2) العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 69.
(3) العمري، مسالك الأبصار، ح4، ص 59؛ يُنظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، م2، ح4، ص 234؛ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 32.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.
(5) مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ح4، ص 71.
(6) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ح4، ص 69.

من الذهب، وقربه إليه[1].

وكان يلبي طلب من يستغيث به، فقد حدث أن شخصاً من الموحدين يدعى أبا عبد الله بن خديجة الكومي، عبر الصحراء للوصول إلى منسا موسى طالباً معونته ضد أعدائه، فعلم بسفر السلطان للحج، فانتظره في مدينة غدامس، لحين عودته، والتقاه فعلاً، وقد رحب السلطان به، وأكرمه[2].

ومما يوثر من صفاته الحسنة اعترافه بالجميل لمن أحسن إليه، فمما يُذكر عنه أن رجلاً من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن، كان قد أحسن إلى منسا موسى في صغره، فأعطاه سبعة مثاقيل من الذهب، ولم يكن الصبي منسا موسى عندئذ ذا اعتبار، وعندما التقاه وهو سلطان أجلسه بجنبه على المصطبة الملكية، مغدقاً عليه بـ 700 مثقال ذهب، وكسوة، وعبيد، وخدم، وأمره أن لا ينقطع عنه. وقد أخبر ابن بطوطة بهذه القصة أكثر من واحد، منهم ابن شيخ اللبن المذكور الذي سكن في مالي[3].

وعلى الرغم من أن سلاطين مالي السابقين له كانوا يقومون بالحج إلى مكة المكرمة، فإن حج منسا موسى سنة 724هـ/ 1312م كان له صدى عميق لدى المصريين والحجازيين، فأرخ (أهل المشرق مجيئه ذلك، وتعجبوا من قوته في ملكه)[4]، ووصفوا مقابلته للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، واجتماعه ببعض كبار رجال دولته، وما جرى له في طريقه، وفي مصر، ومكة والمدينة، وحديثه عن مملكته، وكيفية تقلده العرش، والرسوم والعادات المتبعة في سلطنته، وأحوال بلاد السودان الغربي، والأمم المجاورة لها. كما وصفوا الأمور المتعلقة بضخامة حاشيته، ومقادير الذهب الذي جلبه معه من بلاده، ووزع أكثره بصورة هدايا وصدقات. ولكثرة ما أنفقه احتاج إلى الاقتراض من أحد كبار تجار الإسكندرية، وهو سراج

---

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656.
(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656.
(3) ابن بطوطة، الرحلة، ص 690.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.

الدين بن الكويك، وتسلف أمراؤه أيضاً، ثم توجه سراج الدين مع ابنه لتسلم استحقاقات ديونه، لكن سراج الدين توفي في تنبكتو، وقبره هناك، ووصل الابن إلى مالي، وتسلم ديونه، وعاد إلى مصر[1].

وقد اصطحب منسا موسى في موكبه للحج (قوة عظيمة، وجماعة كثيرة، والجند منهم ستون ألفاً رجالاً، ويسعى بين يديه إذا ركب خمسمائة من العبيد، في يد كل منهم عصى من ذهب، وزن كل منها خمسمائة مثقال ذهب)[2].

أما مقادير الذهب التي حملت معه من بلاده فالبعض يذكر ـ نقلاً عن والي مصر ابن أمير حاجب ـ أنها 100 حمل، في حين يقول ابن خلدون نقلاً عن الحاج يونس ترجمان التكرور أو ترجمان الماليين بمصر، والمرافق له: أنه جلب معه 80 حملاً من الذهب، والبعض يقدرها بحمل أربعين بغلة من الذهب[3]، كل حمل ثلاثة قناطير.

وقد عُرف بكرمه وجوده وكثرة تصدقه؛ فعندما قدم العمري إلى مصر، وأقام بها، سمع حديث وصول السلطان موسى حاجاً، فقال: (ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة إنفاقهم)[4]، وقد أيد الأمير أحمد بن الحاكي المهمندار للعمري تلك السعة في الإنفاق[5].

وقد قدّم إلى الخزانة السلطانية المملوكية مقادير كثيرة من الذهب التبر الذي لم يصغ، إضافة إلى الهدايا التي جلبها من الحجاز الشريف، والتي قدمها للسلطان المملوكي تبركاً[6]، كما أكرم المهمندار إكراما بليغاً في أثناء خروجه لتلقيه مبعوثاً من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون[7]: مما جعله يصف فعل السلطان أنه أفاض بمصر فيض الإحسان، ولم يدع أميراً

(1) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق خريسات، ح4، ص 71؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص 694؛ ابن خلدون، تاريخ، ص 1485؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 296.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.
(3) يُنظر: ابن خلدون، التاريخ، ص 1656؛ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 36.
(4) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 71.
(5) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 71.
(6) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 72.
(7) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 71.

مقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب. ولقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء والعطاء والأخذ ما لا يحصر، وبذلوا من الذهب في مصر حتى أرخصوا سعره)[1]. وعندما توفي المهمندار وجد الديوان المملوكي فيما تركه آلافاً من قطع الذهب الخالص الذي منحه منسى موسى، باقياً على حاله في ترابه لم يصغ[2].

ونتيجة لذلك، فقد حقق التجار المصريون أرباحاً ومكاسب كبيرة حصلوا عليها؛ فالرجل السوداني كان يشتري القميص أو الثوب أو الإزار بخمسة دنانير وهو لا يسوى ديناراً واحداً، وكانوا في غاية سلامة الصدور والطمأنينة[3]، وكذا في بلاد الحرمَين الشريفَين، فقد أفاض السلطان منسا موسى على الحجاج وأهل الحرمين مكة والمدينة بكثير من الإحسان، وتصدق عليهم بمال كثير[4].

وقد أدت زيارة منسا موسى إلى مصر إلى انخفاض أسعار الذهب بسبب ما جلبه منه هو ومن معه، وأنفقوه فيها، فقد كان المثقال لا ينخفض عن 25 درهماً، فنزلت قيمته بعد هذه الزيارة، ورخص سعره، واستمر على هذا الرخص لا يتعدى ثمن المثقال 22 درهماً أو أقل، مدة 12 سنة بعد تلك الزيارة أي إلى سنة 736هـ/ 1336م[5]. وفي السنة التالية لحجه أرسل أحد خواصه للحج، ومعه رسالة سلام وهدية قدرها خمسة آلاف مثقال من الذهب[6].

وعلى الرغم من هذا الإنفاق والتصدق الذي قام به منسا موسى في حجه فإن السعدي يذكر أن مجموع ما تصدق به السلطان منسا موسى في الحرمين الشريفين لم يزد عن عشرين ألف مثقال ذهب، قياساً إلى ما تصدق به ملك مملكة سنغي أسكيا الحاج محمد فيها عند حجه، وهو

(1) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 72.
(2) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 73.
(3) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 73.
(4) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 73.
(5) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 74؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، م2، ح4، ص 234.
(6) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 74؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، م، ح4، ص 234.

مئتا ألف مثقال ذهباً سنة 902هـ/ 1497م[1].

وكان منسا موسى أبياً ومعتداً بنفسه، فعندما حاول المهمندار مبعوث السلطان المملوكي أن يقنعه بالطلوع إلى القلعة ومقابلة السلطان المملوكي أبى وامتنع، بحجة أنه جاء ليحج وليس لشيء آخر، ولا يريد أن يخلط حجه بشيء آخر كي لا يضطر إلى تقبيل الأرض أو يده. وحتى بعد أن رضي بالمقابلة أعلن منسا موسى أنه سيسجد، ولكن لله تعالى فقط لا غير، ثم رحب به السلطان المملوكي وأكرمه[2]، ومع إجادة السلطان منسا موسى للغة العربية إلا أنه كان يتكلم بواسطة الترجمان[3].

وكانت صلاته حسنة مع الدولة المرينية في عهد سلطانها أبي الحسن، وتبودلت بينهما سفارات وهدايا بواسطة أعلام من رجال الدولتين، وتوارثت الدولتان تلك العلاقة الحسنة في عهود سلاطينهما اللاحقين[4]. كما كانت علاقة ملوك مالي ـ ولاسيما في عهد منسى موسى ـ مع سلاطين المماليك علاقة ودية، نستدل على ذلك من طبيعة المراسلات الرسمية بين الطرفين، ولاسيما تلك الصادرة من الديوان المصري إلى السلطان منسا موسى، والتي وُصف بها بالسلطان الجليل، العالِم العادل، المجاهد، عز الإسلام، ذخر الإسلام والمسلمين، ركن الأمة، وعماد الملة، وغيرها كثير[5].

من ناحية أخرى خاضت إمبراطورية مالي بقيادة منسا موسى حروباً طاحنة ضد عدو سوداني شديد القوة والبأس، وهم قوم يُدعَوْن بالدمادم، ويُشبَّهون بالتتر في المشرق[6] لقساوتهم المفرطة، ومن المصادفة خروج الدمادم والتتر في عصر واحد[7].

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.
(2) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ج4، ص 71 ـ 72؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، م2، ج4؛ ص 234.
(3) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ج4، ص 71.
(4) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656، 1968.
(5) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 36؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة دار الفكر، ج8، ص 9، وطبعة دار الكتب العلمية، ج8، ص 9.
(6) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق خريسات، ج4، ص 69 ـ 70.
(7) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ج4، ص 70.

في سنة 737هـ/ 1337م تقلد العرش منسا مغا، بعد وفاة والده منسا موسى. ومعنى (مغا) عند السودانيين هو محمد[1]، وكان أبوه قد عينه في منصب نائب السلطان عندما خرج لتأدية فريضة الحج إلى مكة[2]، ولم تذكر المصادر شيئاً يستحق الذكر عن حكمه، وتوفي بعد 4 سنوات من حكمه[3]، في عام 742هـ/ 1341م، فتسنم العرش بعده أخوه منسا سليمان[4]. ومن أهم المصادر العربية التي تكلمت عن حياة منسا سليمان وحكمه الجغرافيان الشهيران المعاصران له: العمري، والرحالة ابن بطوطة الذي قام برحلته إلى السودان الغربي في عهد هذا السلطان.

ورث منسا سليمان إمبراطورية قوية، ويُعد من أعظم ملوك (السودان المسلمين، وأوسعهم بلاداً، وأكثرهم عسكراً، وأشدهم بأساً، وأعظمهم مالاً، وأحسنهم حالاً، وأقهرهم للأعداء، وأقدرهم على إفاضة النعماء)[5].

وتشتمل إمبراطوريته على 14 عملاً أو ولاية، وتسمى أقاليم، منها غانا، وتكرور، وكوكو[6]، إضافة إلى سيطرته على القبائل البربرية في شمال البلاد، وهم: ينتصر، ووشغراسن، ومديونة ولمتونة، والثلاثة الأخيرة لهم أشياخ يحكمونهم، أما ينتصر فلهم ملوك منهم[7]. وفي طاعة هذا السلطان أيضاً بلاد مفازة التبر، يحملون إليه التبر كل سنة، وهم كفار همج.

عاصمة إمبراطورية مالي مدينة يني، وهي مدينة كبيرة تمتد لـ 12 ميلاً أو 19 كم، وكذلك عرضها، لا يحيط بها سور، وأكثر بنائها متفرق، وللسلطان عدة قصور يستدير بها سور يحيطها. وأحد فروع نهر النيجر يستدير بالمدينة من جهاتها الأربع، وفي بعضها يخاض ويمشي فيه عند

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ح5، ص 296؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، م2، ح4، ص 235.
(2) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق خريسات، ح4، ص 69.
(3) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية ، ح5، ص 296؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، م2، ح4، ص 235.
(4) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 682؛ ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ح5، ص 297.
(5) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق خريسات، ح4، ص 59ـ60.
(6) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 61.
(7) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 61.

قلة الماء، وفي بعضها لا يعبر إلا بالمراكب. وبناء هذه المدينة من الطين؛ فالجدران تبنى بمقدار ثلثي ذراع بالطين، ثم يترك حتى يجف، ثم يبنى عليه مثله، ثم يترك حتى يجف، ثم يبنى عليه مثله، وهكذا حتى يكمل. أما سقوفها فهي من الأخشاب والقصب، وغالب تلك السقوف على شكل قباب أو جملونات كالأقباء[1].

وتتحدث بعض المصادر عن رسوم سلطنة مالي، وعادات مجالس سلاطينهم، بإفاضة؛ فالسلطان يجلس في قصره على مصطبة كبيرة تسمى بَنْبى، على دكة كبيرة من خشب الأبنوس بحجم مصطبة الجلوس، وعنده سلاحه كله من الذهب: السيف والرمح والكنانة التي توضع فيها السهام وقوس ونشاب، لابساً سروالاً كبيراً يتكون من عشرين قطعة لا يلبسه غيره. ويقف خلفه ثلاثون مملوكاً تركياً، يُشتَرون له من مصر، بيد واحد منهم مظلة حرير يحملها، وفي يده اليسرى صقراً من ذهب. وأمراء السلطان جلوس حوله يميناً ويساراً، ثم دونهم كبار فرسان جيشه جلوسٌ أيضاً، وبين يديه شخص يغني له، وهو سيافةُ، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وحولهم أناس بأيديهم طبول يدقون بها، وآخرون يرقصون، وهو يتفرج عليهم، وخلفه علمان مرفوعان، وأمامهُ فَرَسَان جاهزتان لركوبه متى شاء[2].

وبعض مراسم هذا البلاط يثير الاستغراب؛ إذ كان لا يسمح لأحد أن يعطس في مجلسه، فإذا عطس ضُرب ضرباً شديداً، وإذا جاءت أحدهم العطسة انبطح على الأرض وعطس حتى لا يعلم به أحد، أما إذا عطس الملك فيقوم الحاضرون بالضرب على صدورهم[3]، ولا يدخل أحد دار السلطان إلا حافياً، كائناً من كان، فإذا لم يخلع نعليه سهواً كان أم عمداً كان مصيره القتل[4].

وإذا قدم القادم على هذا الملك من أمرائه أو غيرهم أوقفه فترة أمامه، ثم يومىء القادم

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 61.
(2) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 64 ـ 65.
(3) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 65.
(4) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 66.

بيده اليمنى. وإذا أنعم السلطان على أحد إنعاماً، أو وعده بجميل، أو شكره على عمل عمله، فعلى ذلك الشخص المنعم عليه التمرغ على الأرض من أول المكان إلى آخره. فإذا وصل إلى آخر ذلك المكان قام غلمان ذلك المنعم عليه بأخذ رماد يكون موجوداً في آخر مجلس الملك مُعداً لمثل هذه الحالات، فيُنثر على رأس المنعم عليه، ثم يعود متمرغاً إلى أن يصل إلى بين يدي السلطان[1].

وقد ذكر لنا ابن بطوطة ـ الذي زار منسا سليمان في مقره ـ رسوم جلوسه بالقبة، وبالمشور، وفي العيدين الأضحى والفطر، وعادات كان أهل مملكته يعملونها بحضرته، وتذللهم له، وهي رسوم وطقوس وعادت استورثت من ملوكهم قبل الإسلام، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

فالرسوم والعادات التي كانت متبعة عند جلوسه بقبته المرتفعة لها ـ من جهة مجلس المشور ـ ستة طيقان: ثلاثة منها من الخشب المغلف بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغلفة بصفائح الذهب، أو هي صفائح فضة مذهبة، وعلى هذه الطيقان الستة ستائر. فإذا كان يوم جلوس السلطان بالقبة رفعت الستائر، فيعرف الناس أنه جالس. وإذا رأوا خروج منديل من أحد الشبابيك ضربت الطبول، ونفخ في الأبواق، فيخرج من باب القصر 300 من العبيد، حاملاً بعضهم القسي، والبعض الآخر الرماح القصار والدرق. ويقف أصحاب الرماح على يمين السلطان ويساره، بينما يجلس أصحاب القسي أيضاً على اليمين واليسار. ثم يؤتى بفرسين، ومعهما كبشان، يعتقدون بأنهما ينفعان من حسد العين. وعند جلوس السلطان يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين، فيدعون نائبه وهو قنجا موسى، ثم يأتي الأمراء، ثم الخطيب والفقهاء، فيجلسون على اليمين واليسار في المشْوَر. أما بقية الجند والولاة فيجلسون خارج المشور في شارع. ثم ينفخ في الأبواق المصنوعة من أنياب الفيلة، وتعزف آلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع، وتضرب الطبول. وهنالك رجل واقف بداخل المشور تحت الطيقان، فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا الترجمان، فيكلم دوغا بدوره ذلك الواقف، فيكلم الواقف

(1) العمري، مسالك الأبصار، تحقق خريسات، ح4، ص 66.

السلطان[1].

وفي بعض الأيام يحب السلطان أن يجلس في المشور، حيث هنالك مصطبة تحت شجرة، ولهذا المصطبة التي تسمى البَنْبى ثلاث درجات مفروشة بالحرير، وعليها الوسائد، وترفع عليها شبه قبة من الحرير، وعليها طائر من ذهب بحجم الصقر. فيخرج السلطان من باب القصر، حاملاً قوسه بيده، وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رقاق، طول الواحدة أكثر من شبر. ويرتدي جبة حمراء من الثياب الرومية. ويخرج المغنون، وخلفه حوالي 300 من العبيد المسلحين، ويمشي مشياً متأنياً بطيئاً، مع توقف أحياناً. فإذا وصل إلى المصطبة ينظر إلى الناس واقفاً، ثم يصعد إلى المصطبة، كما يصعد الخطيب المنبر، وعند جلوسه عليها تضرب الطبول، وتنفخ الأبواق، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب والأمراء، فيجلسون، ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما، ويقف دوغا الترجمان على الباب، وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار، على غرار ما كان يجلس بالقبة في قصره كما سبقت الإشارة أعلاه[2].

ومن العادات التي ورثها السودان من سابقيهم غير المسلمين هو شدة تذللهم لملكهم منسى سليمان، وحلفهم باسمه، فيقولون: منسى سليمان كي. وإذا حضر أحد لمقابلته قام بحركات غريبة؛ كتبديل الثياب، ورفع السراويل إلى نصف الساق، وضرب الأرض، ورمي التراب على الرأس والظهر، كما يفعل المغتسل بالماء. وقد تعجب ابن بطوطة من الذين يقومون بهذا العمل كيف لا تعمى أعينهم[3].

وإذا تكلم السلطان أنصتوا لكلامه، وربما قام أحدهم فيذكر أعماله التي قام بها في خدمة السلطان والمملكة، فيصدقه من علم بتلك الإنجازات من الحاضرين، فإذا قال له السلطان

(1) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 683 ـ 684.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، ص 684 ـ 685.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ص 685.

صدقت أو شكره، تترّب ذلك الشخص، وكان يُعد ذلك عندهم من حسن الأدب[1].

وقد حضر ابن بطوطة بمالي صلاة عيدي الأضحى والفطر، ورأى الناس يخرجون إلى المصلى بمقربة من قصر السلطان، مرتدين الثياب البيض الحسان، ويخرج السلطان راكباً، ولابساً على رأسه الطيلسان. ومن عادة أهل السودان أنهم لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد، ماعدا القاضي والخطيب والفقهاء، فإذا انتهوا من الصلاة وألقيت الخطبة نزل الخطيب وجلس بين يدي السلطان، ويتكلم معه بكلام كثير من مواعظ وحكم، إضافة إلى الثناء على السلطان ووجوب طاعته[2].

ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على مصطبته، كعادته في الجلوس في الأيام الأخرى، بحضور المسلحين بالأسلحة من سيوف ورماح محلاة بالذهب والفضة. ويقف على رأس السلطان أربعة من الأمراء يطردون الذباب عنه، ويجلس بقية الأمراء والقاضي والخطيب كالعادة. عندها تُعزف الموسيقى ويضرب على الطبول، فيغني دوغا بشعر بمدح السلطان، ويشيد بغزواته، ويشاركنه النساء والجواري بالغناء، ويلعبن بالقسي. ويخرج معهنّ ثلاثون من الغلمان يضربون الطبول، وآخرون يلعبون ألعاباً في الهواء تتسم بالرشاقة والخفة، ويلعبون ومعهم دوغا بالسيوف ألعاباً جميلة بديعة. ثم يأمر السلطان بإعطائه مثاقيل الذهب ونثرها على رؤوس الحاضرين، وتوزع مثاقيل الذهب في اليوم التالي على الأمراء الذين حضروا، وهذا المجلس كان يتكرر كل يوم جمعة بعد صلاة العصر[3].

أما المجلس المقام يوم العيد فإنه بعد الانتهاء من الفعاليات السابقة يأتي دور الشعراء الذين يرتدون أزياء مضحكة، فيقفون بين يدي السلطان بتلك الصورة لإنشاده أشعارهم. ويبدو أن شعرهم هذا هو نوع من الوعظ يسردون فيه للسلطان سير الملوك الذين سبقوه والذين جلسوا على هذه المصطبة، وما قاموا به من أعمال الخير، والقصد منها أن يقتدي السلطان الحالي بمَن

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ص 685.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، ص 686.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ص 686 ـ 687.

سبقه؛ لأنها ستُذكر من بعده. وكل هذه الممارسات موروثة من سلاطينهم الوثنيين قبل أن يعتنقوا الإسلام، فاستمر هؤلاء السلاطين المسلمون عليها[1].

وقد أشادت المصادر بعده بالعدل، واستتباب الأمن في مملكته، فالشكاوي والمظالم تصل إليه، فيفصلها بنفسه[2]. ومن عادته أن لا يكتب شيئاً في أغلب الأحيان، بل يأمر بالقول شفاهاً[3]. ودائمًا ما يذكر براءته من الظلم، وأنه سيُعاقب من يظلم (ومن علم بظالم ولم يُعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله)[4]. وسار بهذه السيرة بقية أمرائه وموظفيه، فقلّ الظلم في البلاد إلى حد كبير[5]، وكان من نتائجه استتباب الأمن في البلاد، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. كما عُرفوا بعدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه[6]. ويقصد بالبيضان الناس الوافدين من بلاد المغرب العربي أو غيرها إلى بلاد السودان، كما أن خلو البلاد من السراق والمحتالين كان سائداً منذ أيام أخيه منسا موسى[7].

وكان من عادة أهل السودان أن من ارتكب جرماً، وخاف العقاب، يستجير بالمسجد، وإذا لم يكن فبدار الخطيب، وينطبق هذا على أسرة السلطان، وهذا ما حدث؛ فقد ارتكبت الملكة (وتسمى قاسا) زوجة منسا سليمان وبنت عمه ذنباً كبيراً بتآمرها مع ابن عمه على خلعه، فاستحقت القتل، لكنها استجارت بدار الخطيب فأُجيرت[8].

واستمرت العلاقات الحسنة بين إمبراطورية مالي والدولة المرينية في عهد منسا سليمان كما كانت عليها في عهد منسا موسى، واختار السلطان المريني أبو الحسن هدايا طريفة مغربية

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ص 687.

(2) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق خريسات، ج4، ص 67؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 300.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 300.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 688.

(5) ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 688.

(6) ابن بطوطة، الرحلة، ص 690.

(7) ابن بطوطة، الرحلة، ص 692 ـ 693.

(8) ابن بطوطة، الرحلة، ص 688 ـ 690.

وسلعاً ثمينة، مع وفد من كبار أعيان دولته، منهم كاتب ديوانه، أوفده إلى منسا سليمان، وأوعز إلى أعراب الصحراء بالسير مع الوفد ذهاباً وإياباً، فصحبهم فعلاً شيخ منهم، امتثالاً لأمر السلطان المريني أبي الحسن، وتوغل الركب في الصحراء، فوصلوا إلى مالي بعد جهد ومشقة، فأحسن سلطان مالي إليهم، وأكرمهم عند وصولهم، وعند رجوعهم أرسل السلطان وفداً معهم، يضم كبار رجال المملكة، تعظيماً للسلطان المريني، وطاعة له، ونيلاً لمرضاته، فأدى الوفد مهمته على أحسن وجه[1].

رابعاً ـ تدهور إمبراطورية مالي، وسقوطها، وعودتها مملكة:

بلغت إمبراطورية مالي ذروة مجدها في عهد منسا موسى، وهو أول من ضم مملكة سنغى إلى إمبراطوريته[2]، لكن بوادر الضعف والانحدار ابتدأت فيها منذ عهد ابنه منسا مغا [محمد] عندما منح الرهينتين الأخوين غير الشقيقين من أمراء سُنغى مزيداً من الحرية، وهما علي كُلن وسليمان نار. وكان والده قد أخذهما رهينتين لتأكيد طاعة سُنغى له (على عادتهم لأولاد الملوك الذين في طاعتهم، وتلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم إلى الآن [لزمان المؤرخ السعدي])[3]. وبسبب سوء تدبير وقصر نظر السلطان منسا مغا [محمد] تمكن الأميران الرهينتان من الفرار إلى سنغى[4]، وأعلن الأمير علي كُلن استقلالها عن مالي[5]، مما شكل نكسة كبيرة لدولة مالي، ومصيرها برمته[6]، ثم جاءت النكسة الثانية في عهد منسا مغا أيضاً، وهي المتمثلة بهجوم كاسح مدمر قاده رئيس قبائل الموسِّي [الموش] الوثنية عام 740هـ/ 1339م، فخربها، وحرقها، وقتل أهلها، واستولى على الأموال[7].

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1968.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 5 ـ 6.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 6؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 94؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 110.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 6.
(6) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 94.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 8 ـ 9.

ولما تولى منسا سليمان عرش إمبراطورية مالي حاول استرداد هيبة الدولة التي كانت عليها أيام أخيه منسا موسى، ويبدو أنه استطاع ذلك، فتمكن من استرجاع بعض المناطق التي فقدت من إمبراطورية مالي، وقد سبقت الإشارة إلى قوة ملكه، واستتباب الأمن في مملكته[1]، لكنه فشل في استرجاع جاو عاصمة سُنغى[2].

ثم تعرضت الإمبراطورية إلى نكسة ثالثة على أيام منسا سليمان نفسه، وهي الفتنة التي نشبت بين أفراد الأسرة المالكة، والخلافات التي أدت إلى ضعف الإمبراطورية. وبطلة هذه الفتنة هي زوجة منسا موسى الكبرى، ابنة عمه، والتي كانت ملكة مشاركة له في الحكم، ويخطب باسمها مع اسمه على المنابر. فقد تآمرت مع جاطل ابن عم السلطان الهارب، لخلع زوجها منسا سليمان وتنصيبه بدله، وادعائها بأنها وجميع العساكر تحت طوعه. إلا أن منسا سليمان تمكن من القضاء على المؤامرة، وسجن الملكة، لكنها استطاعت الفرار، فلاذت بدار الخطيب، ويبدو أن السبب في تآمرها هو زواجه بأخرى من عامة الناس، وليست من بنات الملوك، وتوليتها ملكة بدلها[3].

تولى عرش مالي قنبتا بعد وفاة أبيه منسا سليمان سنة 761هـ/ 1360م، ولم تذكر المصادر شيئاً عن حكمه سوى أنه توفي بعد تسعة أشهر من حكمه[4]، فحلّ بعده ماري جاطة الثاني بن منسا مغا بن منسا موسى، ودام حكمه 14 سنة (761 ـ 775هـ/ 1360 ـ 1374م)، وكان أسوأ سلاطين مالي على الإطلاق؛ فقد أساء السيرة، وأفسد الملك، وبدد الأموال، ووُصف بأنه (أشر وال عليهم، بما سامهم من النكال والعسف، وإفساد الحرم)[5]، وكادت أعماله أن تؤدي إلى سقوط إمبراطورية مالي الإسلامية. وقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً منقولاً من المعدن من غير علاج بالصناعة، ولا تصفية بالنار، وكانوا يعتبرونه من أنفس الذخائر والغرائب، لندرة

---

(1) يُنظر: العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: خريسات، ج4، ص 59 ـ 60؛ ابن بطوطة، الرحلة، دار صادر، ص 690.

(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 94.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ص 688 ـ 689.

(4) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 297.

(5) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656. ينظر أيضاً ابن حجر، الدرر الكامنة، م2، ج3، ص 167.

مثله في المعدن، (فعرضه هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين إلى بلده، فابتاعوه منه بأبخس ثمن، إذ استهلك من ذخائر ملوكهم سرفاً وتبذيراً، في سبيل الفسوق والتخلف)[1]. وقد أصابت جاطة هذا في السنتين الأخيرتين من حياته علة النوم المنتشرة بين السكان هناك، والتي ما إن تصيب الشخص حتى لا يكاد يفيق، وتوفي سنة 775هـ/ 1374م[2].

تقلد العرش بعده ابنه موسى الثاني سنة 775هـ/ 1374م، وقد وصف بأنه كان عادلاً مخالفاً لسيرة أبيه السيئة، ولكنه كان ضعيفاً، ومسيطَراً عليه من قبل وزيره ماري جاطة، الذي حَجَر عليه، واستبد بإدارة شؤون الدولة، وقيادة الجيش، ولم يبق للسلطان سوى الاسم. إلا أن هذا الوزير الذي أصبح الحاكم بأمره استطاع أن يقيل الإمبراطورية من عثرتها، ويعيد إليها مجدها، فأعادت نفوذها على كل من كوكو غاو وتكرت ثانية[3]، وقد وُصف بأنه آخر حاكم قوي للمملكة، حيث ظلت مالي بعده، لمدة قرن آخر، دولة قوية[4].

تولى العرش بعد وفاة موسى الثاني أخوه منسا مغا الثاني سنة 789هـ/ 1387م، لكنه قتل بعد حكم سنة أو نحوها[5]، بسبب وقوع الإمبراطورية تحت رحمة القادة العسكريين المتنافسين، مما أدى إلى حالة من الحرب الأهلية، أدت إلى خلع منسا مغا الثاني، ثم قتله[6].

استولى على العرش بعد مقتل منسا مغا الثاني مغتصب له، هو الوزير [صندكي بلغتهم]، وهو ليس من أفراد الأسرة المالكة، لكنه كان زوج أم موسى الثاني، ولم يحكم سوى بضعة أشهر[7]، إذ خرج عليه سنة 792هـ/ 1390م رجل يدّعي أنه ينتسب إلى سلالة الأسرة المالكة [أسرة ماري جاطة، أو سندياتا] اسمه محمود منسا قو بن منسا ولي [علي] بن ماري جاطة

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 297.
(2) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656؛ القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية، ج5، ص 297.
(3) ابن خلدون، تاريخ، ص 1656 ـ 1657.
(4) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 115.
(5) ابن خلدون، تاريخ، ص 1657؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 297.
(6) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 115.
(7) ابن خلدون، تاريخ، ص 1657؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 298.

الأول، وكان خروجه من بلاد الكفرة [الوثنية]، وتلقب بمنسا مغا [الثالث][1]. ولم تذكر المصادر العربية أحداثاً وقعت في عهده سوى انتزاعه الحكم من الوزير، على الرغم من أن بعض المؤرخين كان معاصراً له، كابن خلدون والقلقشندي وقفا عند هذا الحد فقط في ذكر سلاطين مالي. وحتى المؤرخان السودانيان محمود كعت والسعدي لم يذكرا شيئاً عن أسماء سلاطين مالي في هذه الفترة، مما أدى إلى فترة من الغموض في تاريخ مالي منذ بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

ويذكر البعض اعتماداً على بعض المعلومات النادرة والمراجع الأجنبية أن هنالك خمسة من سلاطين مالي، حكموا في هذه الفترة، الثلاثة الأول يحملون اسم محمد، كان الأول حياً سنة 886هـ/ 1481م، والثاني كان حياً سنة 941هـ/ 1534م، والثالث كان حياً سنة 998هـ/ 1590م عند دخول القائد السعدي جودر وإسقاط إمبراطورية سُنغى. والرابع اسمه ماما مغا وهو طرده من مالي ملك سيجو سنة 1081هـ/ 1670م، أما الخامس الذي هو آخر السلاطين المعروفين من سلالة ماري جاطة فهو مامبي كيتا الذي حكم في كانجابا حوالي 15 سنة[2].

ضعفت إمبراطورية مالي في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بسبب التنافس على الحكم الذي أفقدها السيطرة على بعض مقاطعاتها[3]، كما تعرضت إلى أخطار من جهات عدة أدت إلى زيادة ضعفها، ففقدت في البداية مقاطعاتها الشرقية، في حين ظلت قوية في الغرب[4]، وتتمثل تلك الأخطار بقبائل الموسّي الوثنية [موش]، وسُنغي صاحبة الدور الكبير في تحطيم مالي، والطوارق، والفولانيين، والتكارره[5].

(1) ابن خلدون، تاريخ، ص 1657؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 298.
(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 110.
(3) ليفتزيون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: مالي، ج27، ص 8428.
(4) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 115؛ حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 109.
(5) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 111؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 115 ـ 116.

دأبت قبائل الموسّي الوثنية على القيام بعمليات الغزو والنهب والتخريب، ومقاومة الإسلام والمسلمين، واستفادوا من الضعف الذي وصلت إليه إمبراطورية مالي نتيجة النزاعات والحرب الأهلية والفوضى التي أعقبتها، فقاموا بالتمرد في منطقة بحيرة ديبو Debo عند منحنى نهر النيجر[1]، ثم غزوها، وسيطروا عليها في عام 802هـ/ 400م[2]، كما سبق لهم أن هاجموا مدينة تنبكت في عز قوة إمبراطورية مالي في عهد أعظم سلاطينها منسا موسى، وخربوها ونهبوها[3].

أما طوارق مغشرن فهاجموا بدورهم المقاطعات الشمالية، وهي: أرون، وولاته، وتمبكت، وسيطروا عليها في عام 837هـ/ 1434م[4]، وبقيت تحت سيطرتهم أربعين عاماً[5]، إلى أن طردهم سُن علي ملك مملكة سُنغي عام 873هـ/ 1468م.

ولاحقاً تعرضت مملكة مالي لغزوات الفولانيين، ومعهم التكاررة حوالي سنة 937هـ/ 1530م، فهاجموا بعض الأقاليم التابعة لها في أعالي نهر السنغال، ورافده الأعلى فاليم، حيث أحدثوا مذبحة كبرى بين قبائل الماندنجو التي كانت مستقرة في حوض هذا الرافد[6].

وأخيراً أدت مملكة سُنغي دوراً خطيراً وحاسماً في مصير إمبراطورية مالي كدولة كبرى في غربي إفريقية، بحيث أعاد هذا الخطر مالي في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إلى الوضع الذي كانت عليه عند قيامها ونموها في إقليم كانجابا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[7]، فقد قام ملك سُنغي ـ واسمه ماداو ـ بمهاجمة مالي، ونهب عاصمتها، وعاد بالغنائم والأسلاب والرقيق[8].

وجذور خطر مملكة سُنغي تعود إلى فرار أميريها الأخوين غير الشقيقين علي كُلن وسليمان

(1) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 116.
(2) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 116.
(3) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 112.
(4) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 116؛ حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 108.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 9.
(6) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 112.
(7) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 112.
(8) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 116.

نار ابني زايا سبي ملك سنغي من سجنهما في مالي إلى جاو في عهد إمبراطور مالي منسا مغا الأول بن منسا موسى، وإعلان انفصال مملكة سُنغي عن إمبراطورية مالي من قِبل علي كُلن الذي تولى عرش مملكة سنغي[1]، وأخذت هذه المملكة تعمل على بناء إمبراطوريتها على حساب الجارة الغربية الكبرى مالي[2].

وفي حين لم يتجاوز ملك سُنغى سن الأول علي كُلن ومن بعده أخوه سليمان نار مدينة جاو وما حولها، فإن خلفاءهما داوموا الهجوم على إمبراطورية مالي وانتزاع أملاكها تدريجياً؛ فقام الملك العاشر من سلسلة ملوك سنغي من أسرة سن ـ واسمه سن محمد داع، أو مادعو ـ بمهاجمة مالي، وتخريب عاصمتها، وأسر كثيراً من أهلها. وواصل ملوك سُنغي من بعده سياسته، فاستولى الملك السابع عشر من ملوك سُنغي سليمان دام أو شي سلمان دام على بلاد ميم الخاضعة لمالي وخربها[3]. ثم جاء الملك الثامن عشر، والمؤسس الحقيقي لإمبراطورية سُنغي، واسمه أيضاً سن علي فاستولى سنة 873هـ/ 1468م على مدينة تنبكت، وطرد طوارق مغشرن منها[4]. ويُوصف هذا السلطان (بالظالم الأكبر، والفاجر الأشهر، والفاسق والمتعدي والمتسلط، سفاك الدماء، والذي قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى)[5]، ودام حكمه 28سنة. ومنذ هذا الوقت ـ أي سنة 885هـ/ 1480م ـ خضعت مالي لسيادة سُنغي، دافعة لها الجزية، وإن احتفظت باستقلالها الاسمي[6].

ولما واصلت مملكة سُنغي مهاجمة مالي طلب محمد الأول منسا مالي العون من الخارج[7]، فاستغاث في البداية عام 885هـ/ 1480م بالعثمانيين الذين استقروا في المغرب طالباً حمايتهم، فلما

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 5 ـ 6.
(2) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 112 ـ 113.
(3) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 113.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 65.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 64.
(6) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 114؛ يُنظر: بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 117.
(7) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 114.

لم يغيثوه[1] طلب العون من البرتغاليين الذين كانوا قد أنشؤوا مستعمرة لهم على ساحل إفريقية الغربي فيما يعرف بساحل الذهب في جمهورية غانا الحالية[2]. ولما كان ملك البرتغال يخشى من امتداد نفوذ العثمانيين المسلمين إلى غرب إفريقية فقد أسرع في الاستجابة إلى استغاثة منسا مالي، فبعث بسفارتين إليها، لم يعرف شيء عن السفارة الأولى التي توجهت عن طريق نهر غمبيا، أما السفارة الثانية التي توجهت عن طريق المينا [وهو الحصن الذي بناه البرتغاليون في ساحل دولة غانا الحالية، والذي يعرف بحصن القديس جورج مينا] في عام سنة 888هـ/ 1483م، فلم يعد منها سوى شخص واحد من ثمانية هم أعضاء الوفد، وهو بطرس رينل الذي خبر الطريق في السفارة الأولى، حاملاً رسالة من منسا مالي إلى ملك البرتغال، يوضح فيها مدى إعجابه بقوة ملك البرتغال وشهرته، متحدثاً عن عظمة مالي، على الرغم مما طرأ عليها من ضعف، لكن هذا التقارب لم يؤد إلى النتيجة التي توخاها منسا مالي[3].

خامساً ـ مملكة مالي الإسلامية في عصورها المتأخرة:

لا تمدنا المصادر بمعلومات واضحة عن تاريخ مالي في عصورها المتأخرة، لكننا نستطيع الاستنتاج أن سلاطين سنغاي، ولاسيما سن علي المعروف بطغيانه، وأسكيا الحاج محمد الذي تلاه، واصلا حروبهما ضد مالي. ويحتمل أن العاصمة مالي قد خربت أكثر من مرة، بدليل إقامة ملكها في مدن أخرى خلال تلك الحروب؛ ففي عام 907هـ/ 1510م قاد أسكيا الحاج محمد سلطان سنغاي حملة عسكرية بنفسه على مدينة زلن، مقر إقامة سلطان مالي، والواقعة في أعالي السنغال، فانتصر عليه، ودّمر زلن التي كانت آنذاك العاصمة الجنوبية لمالي، ونهبها، لكنه أبقى المنسا حاكماً عليها، شرط ولائه ودفع الجزية له. ومنذ ذلك الوقت أصبح منسا مالي يدعى كي

(1) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 114.

(2) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 109.

(3) طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 114 ـ 115؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 117؛ حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 109.

مل؛ أي حاكم مالي[1]، وكان مُثقلًا بالضرائب الواجب تأديتها لسلطان السنغاي، إلى درجة (أنه لا يستطيع إطعام أسرته))[2].

في هذه الفترة استقبل منسا مالي أو حاكم مالي محمد الثاني البعثة البرتغالية الثالثة في تاريخ العلاقات بين البلدين، لم يكن هدفها مساعدته ضد أعدائه دولة السنغاي، بل للبحث في القضايا التجارية وتطويرها بينهما، مما يؤكد أنها كانت لا تزال قوية، رغم خضوعها لمملكة السنغاي، كما أنها كانت تسيطر على مسافات واسعة جنوبي السنغال حتى المحيط الأطلسي[3].

وعندما قام محمد الثاني منسا مالي بثورة ضد سُنغي للتخلص من سيطرتها سنة 942هـ/ 1535 أرسل أسكيا اسحق ملك سُنغي جيشاً بقيادة أخيه داوود، فتمكن من دخول مدينة مالي، ونهبها وخرّبها. فهرب محمد الثاني، وبعد أسبوع خرج داوود منها، فعاد منسا مالي إلى عاصمته. وعندما أصبح أسكيا داود ملكاً على سنغي سنة 955هـ/ 1548م قام بعدة غزوات على مالي وأقاليمها، وآخرها في عام 978هـ/ 1570م[4].

في هذه الفترات اختلت أمور مالي بسبب الفتن والاقتتال، لكن منسا مالي محمد الثالث انتهز فرصة الغزو المراكشي في عهد سلطان السعديين أحمد المنصور الذهبي، بقيادة جودر باشا سنة 998هـ/ 1590م لإمبراطورية سُنغي، فتمكن من التحرر من سيطرة إمبراطورية سنغي بعد زوالها. بل إن محمد الثالث طمع في الاستيلاء على جِنّي التي كانت في طاعة السعديين، التي استعصت على إمبراطورية مالي من قبل في عز قوتها. فهاجمها سنة 1007هـ/ 1598م، لكنه انهزم أمام الجيش السعدي الذي أباد قواته، وكاد أن يقع أسيراً لديهم، لكنه تمكن من الفرار بشق الأنفس[5]. وبهذا الحدث تختفي دولة مالي كعامل مؤثر في تاريخ غربي إفريقية، كما أصبحت

(1) دولة مالي الإسلامية، ص 117.
(2) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ح2، ص 165.
(3) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ح2، ص 118.
(4) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ح2، ص 118.
(5) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ح2، ص 119 ـ 120.

المعلومات عنها نادرة جداً أو مفقودة، ولم ترد أخبارها إلا عرضاً من خلال الاستكشافات الجغرافية، وحركة الاستعمار الأوربي. لكن ليس معنى هذا أنها فنيت أو ذابت نهائياً، فقد ورد اسم ملك من ملوكها هو ما مغان كان لا يزال يحكم في عاصمته مالي سنة 1081هـ/ 1670م، وانهزم أمام ملك سيجو، وهو ملك أحد فروع الماندنجو. وجاء بعده منسا آخر لمالي اسمه مامبي كيتا، حكم مدة 15 سنة، واقتسم أبناؤه السلطة من بعده، وتفرقوا، واستقر آخرهم في باماكو[1].

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 120.

الفصل الخامس

إمبراطورية سُنْغاي الإسلامية

حظي تاريخ دولة سُنْغاي ـ من دون بقية ممالك السودان ـ بمصادر تاريخية عربية سودانية لمؤلفين سودانيين معاصرين لتلك الدولة، وهي: تاريخ الفتاش لمحمود كعت، وتاريخ السودان للسعدي، ونيل الابتهاج، وكفاية المحتاج لأحمد بابا التنبكتي، إضافة إلى مؤلف مغربي معاصر لها أيضاً هو الحسن الوزان الفاسي، وإنْ كان هذا قد ركز على جوانبها التجارية والاجتماعية والعمرانية، مع نبذة مختصرة عن قصر السلطان وكبار موظفيه.

ويكتب اسم الدولة هذه بصيغ متقاربة وهي: سُنْغاي[1]، أو سُنْغوي[2]، أو سُنْغي[3]، أو سغي[4]، أو صُنْغاي[5]، أو صُنْغي[6]. وأول ما أطلق اسم سُنغاي أو سُنغوي كان على جزء من وادي النيجر، بين بوريم وساي، وعلى الشعب الذي يسكن هذه المنطقة، وعلى المملكة التي أقامها هذا الشعب[7]. وكانت عاصمتها مدينة كوكيا على نهر النيجر، وتبعد 140 كم جنوب غاو التي أصبحت العاصمة الرئيسية حتى نهاية إمبراطورية سنغاي[8].

قامت مملكة سنغاي شأنها شأن بقية ممالك السودان الغربي منذ حوالي سنة 300م، وعاصرت كلاً من إمبراطورية غانا وإمبراطورية مالي، ثم توسعت على حساب الممالك المجاورة، وأصبحت إمبراطورية، بعد أن كانت تحت ظل إمبراطورية مالي. وبسقوط إمبراطوريتي غانا ومالي استمرت سنغاي مملكة، ثم إمبراطورية حتى سنة 1002هـ/ 1594م، حيث انتهت بالاحتلال المراكشي لها[9]. ومن الممكن تقسيم المراحل التي مرت بها دولة سنغاي إلى الآتي:

---

(1) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سُنْغاي، م12، ص 265؛ فليجة، أحمد نجم الدين، إفريقية، دراسة عامة وإقليمية، ص 42؛ زباديه عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر، 2003؛ يـفر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: جنى، م7، ص 145.

(2) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سُنْغاي، م12، ص 265.

(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 75؛ محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص 226.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(5) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 109؛ باري، المسلمون في غرب إفريقية، ص 122 ـ 123.

(6) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 257؛ طرخان، دولة مالي، ص 113.

(7) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سُنغاي، م12، ص 565.

(8) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 122؛ طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 98.

(9) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 121.

1 ـ الفترة القديمة: (300 قبل الهجرة ـ القرن الأول الهجري/ 300م ـ القرن السابع الميلادي).

2 ـ عصر الأزواء [جمع زا]: (من القرن الأول الهجري ـ 735هـ/ القرن السابع الميلادي ـ 1335م). وهذا العصر بدوره من الممكن تقسيمه إلى:

أـ عصر الملوك الوثنيين الأزواء، من القرن الأول الهجري ـ 400هـ/ السابع الميلادي ـ 1010م حكم فيه 14 ملكاً.

ب ـ عصر ملوك سنغاي المسلمين: (400 ـ 735هـ/ 1010 ـ 1335م) حكم فيه 17 ملكاً.

3 ـ عصر الملوك الملقبين بـ سُنِّ (735 ـ 898هـ/ 1335 ـ 1493م).

4 ـ إمبراطورية سنغاي في عصر الأسيقيين أو الأساكي [جمع أسكيا]: (898 ـ 1002هـ/ 1493 ـ 1594م).

1 ـ الفترة القديمة: (300 قبل الهجرة ـ القرن الأول الهجري/ 300م ـ القرن السابع الهجري):

هي الفترة الأولى من تاريخ سنغاي، وتسبق تقلد أول ملوك الأزواء، وهو زا الأيمن، ولا يعرف عن ملوكها شيء سوى أن السلطة كانت موزعة بين زعماء صيادي السمك أو سادة المياه، والفلاحين أو سادة الأرض[1]، وقد دأب الصيادون على الاعتداء على الفلاحين. مما دفع بهؤلاء إلى التجمع والتكتل، واختاروا من بينهم ملوكاً لهم، وذلك في حوالي 300م، لكن هؤلاء لم يحققوا الحماية لرعاياهم[2].

ولا يعرف اسم أحد من زعماء الصيادين والفلاحين، عدا اسم واحد هو من زعماء صيادي

(1) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الأداب، جامعة الرياض، 1981، م8، ص 76؛ شلبي، التاريخ الإسلامي، ج6، ص 121.
(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 76.

السمك أو سادة المياه، ويدعى فاران ماكا بوتو، وينسب إليه تأسيس مدينة غاو، التي أصبحت فيها بعد عاصمة إمبراطورية سُنغاي، وقد أطلق على هذه الفترة القديمة بالفترة الأسطورية(1).

2 ـ عصر الأزواء [جمع زا]: (من القرن الأول الهجري ـ 735هـ/ القرن السابع الميلادي ـ 1335م)، ويقسم هذا العصر إلى:

أ ـ عصر الملوك الوثنيين الأزواء: (من القرن الأول الهجري ـ 400هـ/ القرن السابع الميلادي ـ 1010م):

أول من أسس مملكة سنغاي الوثنية هو الملك زا الأيمن، ثم من بعده زا زكي، حتى وصل عددهم إلى أربعة عشر ملكاً. والذي أسلم منهم هو الملك الخامس عشر، واسمه زا كُسُي [أو مسلم دَمْ في لغة أهل سنغاي، ومعناه أسلم طوعاً بلا إكراه] سنة 400هـ/ 1010م، ومنذ هذا التاريخ أصبحت مملكة سنغاي مسلمة(2).

والمعتقد بأن زا الأيمن مؤسس دولة سنغاي قدم مع أخيه من اليمن، ونزلا في مدينة كوكيا من أرض سنغاي، فلما سألهما أهلها من أين جاءا، قال الكبير منهما أنهما قدما من اليمن، (وبقوا لا يقولون إلا زايا الأيمن، فغيروا اللفظ لتعسر النطق به على لسانهم، لأجل ثقله من العجمة)(3)، فإذن أصل لفظ (زا الأيمن) جاء من اليمين، أي إن (جاء) نطقت لفظاً (زا)، و(اليمن) حُرفت إلى (الأيمن). ولا يعرف اسم هذا الملك، وأصبحت (زا) لقباً له ولكل من تولى بعده من ملوك سنغاي الـ 31 ملكاً(4). وفي رواية أخرى أن مؤسس دولة سنغاي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي رجل بربري من قبيلة لمطه من الطوارق، أنشأها في مدينة كوكيا أول الأمر، ثم أصبح أمراء هذه الأسرة يلقبون بـ (زا)(5). وفي رواية ثالثة تشير إلى أن ثلاثة أخوة من أسباط

---

(1) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، م8، ص 76.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 2 ـ 3.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 4.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 5.
(5) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سُنْغاي، م12، ص 265؛ طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 9.

الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري من المدينة المنورة (ت 78هـ/ 697م) وصلوا إلى بلاد سنغى، والرواية مليئة بالأخبار الأسطورية[1].

ويبدو إن إرجاع ملوك أسرة الأزواء إلى أصول عربية أو شرقية كثيراً ما انتحله ملوك غربي إفريقية المسلمون[2]، لكن المرجح أصلهم البربري[3]. ومع اختلاف الروايات السابقة في تحديد أصولهم، إلّا أنها تتفق على أن النظام الملكي في سنغاي ابتدأ من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وكان على يد البيض، سواء كانوا وافدين من اليمن أم من طرابلس أو من المدينة المنورة[4].

وتعود جذور الصراع بين مملكة سنغاي ومالي إلى عهد ملك سنغاي الوثني العاشر زايم كوري، الذي انتصر على مالي، وقتل أبناء السلطان جميعاً. ثم دارت الأيام دورتها، واستعادت مالي مكانتها، وأصبحت إمبراطورية، وسيطرت على سنغاي التي أصبحت جزءاً من إمبراطوريتها[5]، على ما سيأتي الكلام عليه لاحقاً في العصر الإسلامي لكل من مالي وسنغاي.

ب ـ عصر ملوك سنغاي المسلمين الأزواء: (400 ـ 735هـ/ 1010 ـ 1335م):

حكم 17 ملكاً مسلماً من ملوك سنغاي الملقبين بـ (زا)، وذلك اعتباراً من الرقم 15 ـ 31 من مجموع ملوك الأزواء الوثنين والمسلمين بصورة عامة البالغ عددهم 31 ملكاً.

فقد اعتنق الملك الخامس عشر من الأزواء الإسلام، وهو زا كسي، وذلك في سنة أربعمئة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم[6]، ثم قام بنقل عاصمة المملكة من كوليا إلى غاو[7] التي

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 29 ـ 30.
(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 8.
(3) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 9.
(4) ينظر أيضاً شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 123.
(5) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 257؛ باري، المسلمون في غرب إفريقية ، ص 127؛ أحمد، حركة التجارة والإسلام، ص 226.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 3.
(7) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 122.

تقع على نهر النيجر في جمهورية مالي الحالية[1].

لكن هنالك رواية أخرى حول الملك الأول الذي اعتنق الإسلام من ملوك سنغاي، تفيد أنه ضياء بن قس سنة 400هـ/ 1010م[2]، واتخذ من غاو عاصمة له[3]. وعلى أية حال فإن اعتناق أول ملك من ملوك سنغاي الإسلام قد تم قبل اجتياح المرابطين لغرب إفريقية سنة 469هـ/ 1077م.

ومما يجدر ذكر أنه تم العثور سنة 1939م في بلدة ساني على بعد 4 أميال من مدينة غوا الحالية على شواهد قبور ملكية يعود تاريخها إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كُتب على إحداها: (هذا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله، ويرقد الآن في رعايته، أبو عبد الله محمد المتوفى عام 494هـ)[4] (1100م). ومما يثير الانتباه هو هل أن هذا الملك أحد ملوك سنغاي، وهو المرجح، أم هو أحد ملوك غانا التي كانت سنغاي جزءاً من إمبراطوريتها. وإذا كان هو أحد ملوك سنغاي لماذا لم يذكره السعدي في قائمته الدقيقة والمتسلسلة للملوك، أم أن ملك سنغاي أبا عبد الله محمد، وكذلك الملك الأسبق الذي هو أول من اعتنق الإسلام ضياء بن قس، هما اسمان عربيان للملوك كان لهم اسمان؛ أحدهما عربي، والآخر بلغة أهل سنغاي.

وعلى العموم فقد سبقت الإشارة إلى أن ملك سنغاي زايم كوري الوثني استطاع أن يمد نفوذه إلى مملكة مالي، ويقتل أبناء السلطان جميعاً. لكن الحال انقلب، فأصبحت مملكة سنغاي الإسلامية تحت نفوذ إمبراطورية مالي الإسلامية، وأصبح منسا موسى بعد استقلاله عن مالي (أول من ملك سغي من سلاطين ملي)[5]، فقد استطاع في طريق عودته من مكة سنة 725/ 1325م أن يثأر من سنغاي، فاحتل عاصمتها غاو، وأخذ ولدي ملك سنغاي السابق زايا سبي

---

(1) فليجة، إفريقية، حاشية ص 42.

(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 123.

(3) فليجة، إفريقية، ص 42.

(4) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 124؛ فليجة، إفريقية، ص 42؛ طرخان إمبراطورية صنغي الإسلامية، م8، ص 14.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 7.

رهينة، وهما: علي كلن وسليمان نار (لأنهم في طاعته حينئذٍ، وللخدمة على عاداتهم لأولاد الملوك الذين في طاعتهم، وتلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم إلى الآن، فمنهمْ من يرجع بعد الخدمة إلى بلادهم، ومنهم من يبقى فيها إلى أن يموت)[1]. وسيأتي الكلام عن فرار هاتين الرهينتين الأخوين عند الكلام عن عصر ملوك سنغاي المسلمين الذين يحملون لقب سُنّ. وقد دامت سيطرة إمبراطورية مالي على مملكة سُنغاي عشر سنوات 725ـ735هـ/ 1325ـ1335م.

3ـ عصر الملوك الملقبين بـ سُنٍّ: (735ـ898هـ/ 1335ـ1493):

استطاع الأميران الأخوان الرهينتان لدى سلطان مالي من الفرار إلى سنغي، وهما علي كُلن وسليمان نار، وذلك بتدبير من الأول الذي عرف بذكائه. ولم تنفع قوات سلطان مالي التي أرسلت في أثرهما لأسرهما أو لقتلهما، على الرغم من القتال الذي حدث بين الطرفين. ولما وصلا إلى بلادهما أعلن علي كُلن نفسه ملكاً على سنغاي، وتلقب بلقب سُنٍّ[2]، وهو الملك الثاني والثلاثون من ملوك سنغاي، واستمر هذا اللقب حتى الملك الخمسين من مجموع ملوك سنغاي والتاسع عشر ممن يحملون لقب سُنٍّ. ويُكتب لقب سُنٍّ هذا بصورة شي، ومعناها هو (خليفة السلطان) أو (بدله) أو (عوضه)[3]، وبوفاته تولى أخوه سليمان نار عرش المملكة التي لم تتجاوز حدود سنغاي وأحوازها[4].

ولم تظهر سنغاي كقوة كبيرة إلا في عهد ملكها سن العاشر، المسمى (مادع)، الذي حرر 24 منطقة كانت تسيطر عليها مالي[5]. وعلى الرغم من ذلك لم تتوسع سنغاي بصورة سريعة، ودارت بينها وبين مالي عدة حروب[6].

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 5ـ6.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 6.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 43.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 6.
(5) پانيكار، الوثنية والإسلام، ص 123؛ بلبع، عبد الرحمن السعدي، عصره، م20، ص 78.
(6) سلي، التاريخ الإسلامي، ح6، ص 258.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الفترة من 868 ـ 1002هـ/ 1464 ـ 1594م شهدت تسنم سلطانين الحكم، عملا على تحويل سنغاي إلى إمبراطورية قوية مرهوبة الجانب، هما السلطان سن علي وابنه سن بار. ارتقى العرش أولاً سنّ علي، ويسمى سن علي الكبير؛ تمييزاً له عن سُنّ علي الأول السابق الذكر. وقد صفته المصادر بسوء السيرة والقساوة والظلم الفاحش، إضافة إلى تلاعبه بالدين الإسلامي، وقد يكون لأمه الوثنية أثر فيما عُرف عنه[1]، وقد قتل من الناس ما لا يحصى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال[2].

ومع ذلك فهو يُعد المؤسس الحقيقي لإمبراطورية سنغاي، فقد تقلد الحكم سنة 869هـ/ 1464م بعد سن سليمان دام، واستمر في الحكم إلى سنة 897هـ/ 1492م. وهذا العام الأخير شهد أحداثاً عالمية كما هو معروف، منها: سقوط غرناطة على يد الملكين الكاثوليكيين فرديناند وأيزابلا، واكتشاف العالم الجديد من قبل كرستوفر كولمبس.

سار سن علي على خطى سابقيه في توسيع حدود مملكة سنغاي وجعلها إمبراطورية، وهو الملك الثامن عشر من ملوك سنغاي الذين يحملون لقب سن، والتاسع والأربعون من مجموع ملوك سنغاي. أنغمس طيلة فترة حكمه البالغة 28 سنة بالحروب والتوسعات في بلاد السودان، حتى إن غزواته لا تعد لكثرتها، وكان النصر حليفه دائماً فما (قابل أرضاً قصده إلا خربه، وما كسر له جيش كان فيه قط غالباً غير مغلوب. لم يترك بلداً ولا مدينة ولا قرية من أرض كنت إلى شبر دُكُ إلا وقد جرى خيله فيه، وحارب أهله، وغار عليهم)[3].

وكان يرتكب بعد انتصاراته الكثير من أعمال العنف والهمجية والوحشية مع سكان البلاد المحتلة، فبعد أربع سنوات من توليه الحكم ـ أي في سنة 873هـ/ 1468م ـ هاجم مدينة تنبكت التي سبق أن أنشأها طوارق مغشرن في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي،

---

(1) يُنظر: محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 43 ـ 44؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 64.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 64.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 43.

وسيطرت عليها إمبراطورية مالي، ثم انتزعها الطوارق من مالي سنة 836هـ/ 1433م[1]، وذلك في عهد حاكمها عمر بن الشيخ محمد نضر الصنهاجي، الذي وقف متحدياً سن علي، على عكس أبيه الشيخ محمد الذي كان يداريه، وطلب منه عدم مهاجمة تنبكت، وبخاصة أنهم ينتمون إلى أصل واحد، وهو قبيلة صنهاجة[2]. وقد اعتاد حاكم تنبكت أن يدفع للملك الطوارق جزية مقدارها 1/ 3 من موارد المدينة[3]، لكن سن علي لم يأبه له، فاجتاح المدينة، وانتزعها من حكامها الطوارق، ثم نكب سكانها، وعمل بهم الفظائع والشنائع[4]. ولم يكتف بكل ما فعله، بل أمر بإحضار ثلاثين بنتاً من بنات العلماء مشياً على الأقدام لمسافة طويلة، وهن من المحصنات المخدرات اللواتي لم يخرجن في عمرهن، وذلك ليُتخذهن جواري له، ولما أعياهن التعب، ولم يتمكن من الوصول إليه، أمر بقتلهن جميعاً، وصار المكان الذي قتلن فيه يعرف بـ (فناء قدر الأبكار)[5]. أما ملك الطوارق في تنبكت؛ واسمه آكل، فقد استطاع الهروب ومعه فقهاء المدينة وصلحائها[6].

وبعد إكماله إخضاع تنبكت توجه إلى مدينة جني، ففتحها بعد حصار دام أكثر من سبع سنين، بعد أن أبدى أهلها مقاومة عظيمة، علماً أن المدينة لم تخضع لأحد سابقاً من ملوك السودان الغربي. فقد شاور ملك جني الشاب كبار رجاله وقياديي جيشه بالتسليم لسن علي فوافقوه على ذلك، وتم تسليم المدينة صلحاً سنة 882هـ/ 1477م، وأكرم السلطان ملك جني الشاب، وأجلسه بجنبه فوق بساطه، ثم تزوج أمه، وأقام فيها سنة واحدة وشهراً، ثم عاد إلى سنغاي[7] بعد تأكيد تبعية حاكم جني له[8]. عامل سن علي مدينة جني على نقيض معاملته

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 2؛ يفر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: تمبكتو، م5، ص 466؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 263.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 64 ـ 65؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص 263 ـ 264.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 65، بانكيار، الوثنية والإسلام، ص 62.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 65.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 65 ـ 66.

(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 65.

(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 14 ـ 16.

(8) بانيكار الوثنية والإسلام، ص 129.

لمدينة تنبكت، فلم يرتكب فيها فظائع، ولم ينكل بأحد[1]، وباستيلائه على جني أصبحت جميع ولايات النيجر الأوسط تحت سيطرة إمبراطورية سنغاي[2].

أما دولة مالي المجاورة فقد تعرضت لأكثر من غزو من جانب سنغاي، قبل مجيء سن علي إلى الحكم. وبعد استقلال سنغاي وتخلصها من سيادة إمبراطورية مالي، وانتقاماً من سابق سيادتها على سنغاي، هوجمت مالي، في عهدي سابقيه السلطان العاشر، وهو سن محمد داع، أو [شي مادعو]، والسلطان السابع عشر من الأسرة نفسها، وهو سن سليمان دم والد سن علي. وفي عهد سن علي خضعت مالي لسنغاي، وصارت تدفع الجزية، مما حمل الملك محمد الأول على الاستغاثة بالعثمانيين في شمالي إفريقية سنة 886هـ/ 1481م، وكذلك بالبرتغاليين[3].

هاجم سن علي الفولانيين في ماسنة شمالي جني، وتمكن من إخضاعهم، وسبى كثيراً من نسائهم. ومن الغريب أنه بعث سبايا النساء الفولانيات إلى كبار مدينة تنبكت لاتخاذهن جواري أو زوجات[4]، وهو الذي أساء لأهل تنبكت الإساءات الشنيعة سابقة الذكر.

وفي سنة 885هـ/ 1472م هاجم مملكة موسّي [موش] الوثنية، التي تمتد من ياتنجا جنوبي النيجر حتى ساحل المحيط الأطلسي، واستمر في شن هجماته عليها حتى عام 892هـ/ 1486. إلا أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً أكثر من وقف هجوماتها ونهبها المتكرر. وبلغ من خطورة مملكة موش الوثنية وغاراتهم المتكررة أن فكر سن علي بشق قناة من بحيرة فاجيبين لربط مدينة تنبكت بولاته [أو ولاتن أويير]، وذلك لتسهيل وصول قواته على وجه السرعة؛ لإيقاف غارات الموشي [الموس]. لكن المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ، لأن حركة الموسّي كانت بطيئة وهم في طريق العودة، بسبب ضخامة الأسلاب والرقيق، فهاجمهم سن علي أكثر من مرة،

---

(1) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 129؛ طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، م8، ص 19.

(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، م8، ص 19.

(3) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، م8، ص 19 ـ 20.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 67؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 129؛ طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، م8، ص 20.

وأرغمهم على الفرار[1].

توفي سن علي في 15 محرم من سنة 898هـ/ 1493م، غرقاً في سيل جارف في أثناء عودته من غزوة كُرَم، بعدما حارب الطوارق [الزغزانيين] والفولانيين[2].

تولى بعده ابنه أبو بكر الملقب بشي [سن] بار[3]. ولم يمض على ولايته إلا أربعة أشهر، حتى ثار عليه أشهر قادة أبيه، ووزيره، الذي تذرع بضعف إسلام سن بار. وجرت بينهما معركة حامية الوطيس في جمادى الآخر سنة 898هـ/ 1493م، وصفها محمود كعت بقوله: (حتى ظن الناس إن الفناء نزل بهم)[4]. وعلى الرغم من أن جميع القادة وملوك التكرور وإمبراطورية سنغاي كانوا بجانب سن بار عدا واحد كان بجانب الثائر أسكي محمد بن أبي بكر، فإن النصر كان لأسكي محمد، وهرب سن بار إلى زاغ، وتوقفت الحرب بين الجانبين. وحاول أسكي محمد محاولات ثلاث متتالية من أجل إقناعه بالالتزام بالإسلام، فأرسل إليه كبار العلماء، إلا أنه فسر ذلك بضياع ملكه، فأبى وامتنع (وأغلظ لذلك العالم، وارتكب معه أمراً عظيماً، حتى همّ بقتله.... ورجع إلى أسكي محمد وبلغه الخبر من إباية سن بار)[5]. ثم أرسل أسكي محمد ثانية عالماً صالحاً تقيّاً مشهوراً إلى سن بار (وأتاه وبلغه رسالة أمير أسكي محمد، فما ازداد إلا عتواً وإباية وامتناعاً وتجبراً، وأتى بأشد من فعلته الأولى)[6]. وحلف أحد وزراء سن بار أن يقتل هذا العالم المبعوث، وقال لسن بار: إذا لم تقتل هذا العالم لا تنقطع رسل أسكيا محمد إليك، لكن سن بار لم يسمح بقتله وقال: (ارجع إلى مرسلك، فإن رجع إليّ بعدُ رسول منه فَدمه في عنقك، وقل لمرسلك أسكي فليتجهز للقتال بيني وبينه، ما قبلت كلامه، ولا أقبل)[7]، ورجع العالم المرسل إلى الأمير محمد، وأخبره بكلام سن بار، وما رأى منه من الامتناع عن الإسلام. لكن الأمير

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 69ـ70؛ طرخان، إمبراطورية صنغي، م8، ص 20؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 129ـ130.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 71؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص 262.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 52.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 52.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 52.
(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 53ـ54.
(7) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 54.

أسكي محمد جمع كبار مستشاريه وأصحاب الرأي من العلماء وكبار قادة جيشه، وشاورهم فيما يفعل، هل يقاتل سن بار أم يرسل إليه مرة ثالثة؟ فاتفقوا على إرسال من يداريه ويلين له الكلام، لعل الله يهديه إلى الإسلام ووقع الاختيار على مؤلف كتاب تاريخ الفتاش الفع محمود كعت، فرحل إليه، ووجده في بلد اسمه (أنفع) بقرب كاغ، فبلّغ (رسالة أمير المؤمنين أسكي الحاج محمد، وتلطفت له رغبةً في أن يهديه الله، وأبى وامتنع وتغيظ، وأمر بضرب الطبول ساعتئذ... ورعد وبرق... ثم اجتمع جيشه، فرقة ساعتئذ كالجبال، وسطع الغبار، حتى صار النهار كالليل، وأقبلوا على الصياح، ويحلفون ليسيلن الدماء كالسيول)[1]. ثم عاد محمود كعت وأخبر أسكي محمد بالخبر، فاستعد للقتال، والتقى الجمعان، وانتصر أسكي محمد على سن بار (وهزم جيشه، وقتلهم قتلاً ذريعاً، حتى ظن الناس أن الفناء نزل بهم، وأن هذا خراب الدنيا)[2]، وهرب سن بار إلى اير، فبقي هناك إلى أن توفي[3].

4- إمبراطورية سنغاي في عصر الأسيقين أو الأساكي [جمع أسكيا] (898-1002هـ/ 1493-1594م):

تقلد أسكيا الحاج محمد سلطنة إمبراطورية سنغاي (898-935هـ/ 1493-1529م) بعد انتصاره على آخر سلاطين الإمبراطورية من أسرة سن بار، ثم وفاته، وكان ذلك في جمادى الأخرى سنة 898هـ/ نيسان 1493م[4]، تلقب بأسكيا، وتعليله أنه (لما بلغ الخبر بنات سن علي قلن أسكيا، ومعناه في كلامهم: لا يكون إياه، فلما سمعه أمر أن لا يلقب إلا به، فقالوا أسكيا محمد)[5].

وقد أشاد مؤرخا السودان محمود كعت والسعدي بنصر أسكيا محمد، وتقلده العرش،

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 54-55.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 55.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 55.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 55؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 71-72.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

واعتبروه نصراً لأمة الإسلام، وإصلاحاً لأمور الناس[1]، وأن الله تعالى فرّج (به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة ملة الإسلام، وإصلاح أمور الأنام، وصاحب العلماء، واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد)[2].

عدت فترة حكم أسكيا محمد أزهى عصور التاريخ الإسلامي في بلاد السودان الغربي[3]. وهو من قبيلة السوننك؛ إحدى فروع الماندنجو، ولد بإحدى جزر النيجر، وهو زنجي من أسرة عريقة، اشتهر بالنبوغ في الفنون العسكرية، ويُعّد صاحب الفضل في انتصارات سن علي، وامتدت صداقتهما نحو 30 سنة[4].

أمضى أسكيا محمد السنوات الأربع الأولى من حكمه (898ـ902هـ/ 1493ـ1497م) في تدعيم سلطته، وإخضاع الثائرين، والإصلاح الداخلي. فعين حكاماً من قبله على مختلف أجزاء الإمبراطورية، وأمر بإطلاق سراح المسجونين[5]، علمًا بأنه عند اعتلائه العرش (وجد في ملكه يومئذ أربعاً وعشرين قبيلة أرقاء له لا أحرار)[6].

أما حجه إلى الديار المقدسة فقد تناوله مؤرخا السودان محمود كعت والسعدي بكثير من التفصيل، وحجه هذا هو ثاني أشهر حج لملك سوداني غربي بعد منسى موسى سلطان مالي سابق الذكر. ويبدو أن أفضل وسيلة وجدها الأسكيا محمد لحل المشكلة التي واجهته؛ وهي إضفاء الصفة الشرعية على اغتصابه السلطة، هي أن يقوم بأداء فريضة الحج، والحصول على اعتراف الخليفة العباسي المتوكل على الله به سلطاناً[7]. لكن آخرين يشيرون إلى أنه بعد أن ثبت أركان دولته، عزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام للحج، وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 55.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 72.

(3) منصور، علي فاي، أسكيا الحاج محمد، وإحياء دولة السنغاي الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى، طرابلس، ص 6.

(4) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 24.

(5) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 24.

(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 55.

(7) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 134.

شكراً لله تعالى[1].

خرج للحج في صفر902هـ/ تشرين الأول 1496[2]، ومعه في موكبه 1500 عسكري، و500 فارس، و1000 من المشاة. إضافة إلى كبار القادة والأمراء وزعماء القبائل؛ ومنهم ابنه أسكي موسى[3]، وسبعة من كبار علماء سنغاي؛ منهم محمود كعت مؤلف كتاب: تاريخ الفتاش[4]، و800 من العبيد الخدام[5]. حمل معه 300.000 مثقال[6]، تصدق منها بـ 100.000 مثقال على فقراء الحرمين مكة والمدينة[7]. واشترى بـ 100.000 مثقال أخرى حدائق وبيوتاً في المدينة المنورة، أوقفها (على الفقراء والعلماء والمساكين)[8]، بينما يقول السعدي إنه: (حبسها على أهل التكرور)[9]، و(اشترى في مكة المشرفة بقعة، وبناها داراً، وحبس الدار على الكعبة الشريفة)[10].

ومن الأمور المهمة التي يجدر الإشارة إليها هو موضوع تلقب أسكيا الحاج محمد بلقب (أمير المؤمنين) و(خليفة المسلمين)؛ فالبعض يذكر أن الذي منحه اللقب هو أمير مكة الشريف الحسني مولاي العباس [أو الشريف العباسي]؛ (فقد كانا جالسَيْن بإزاء الكعبة يتحادثان، فقال له الشريف مولاي العباس: يا هذا، أنت الحادي عشر من الخلفاء.... ودخل مولاي العباس في الخلوة ثلاثة أيام، ثم خرج يوم الجمعة، ونادى أسكي الحاج محمد وأجلسه بمسجد البلدة الشريفة مكة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه في تلك الأرض فقد خالف الله تعالى

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 16.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 16؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 72.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 16.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(7) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 16؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(8) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 16.
(9) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(10) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 68. يُنظر: السعدي، تاريخ السودان، ص 73.

ورسوله)[1].

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن أسكيا الحاج محمد التقى الخليفة العباسي المتوكل على الله بمصر في أثناء مروره بها بقصد الحج، عدا المؤرخ الوفراني الذي قال اعتماداً على كتاب: (نصيحة أهل السودان) للإمام التكروري: (وكان الحاج محمد المذكور رحل... بقصد حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فلقي بمصر الخليفة العباسي، فطلب منه أن يأذن له في إمارة السودان، وأن يكون خليفة له هناك، ففوض له الخليفة العباسي النظر في أمور تلك الأقاليم، وجعله نائباً عنه على ما وراءه من المسلمين)[2].

وسواء كان الذي قلده اللقب الخليفة العباسي المتوكل على الله الثاني بمصر (حكم 884ـ903/ 1478ـ1497م) في عهد السلطان المملوكي محمد بن قايتباي (901ـ904هـ/ 1496ـ1498م) أم الشريف الحسني أمير مكة، فإن الأقرب إلى المنطق أن أسكيا الحاج محمد قد قُلد أميراً للسودان الغربي ونائباً للخليفة العباسي، وليس خليفة، ولأنه لم يحدث في تاريخ الخلافة الإسلامية، وعلى مر العصور أن اعترف خليفة بوجود خليفة ثانٍ في العالم الإسلامي، حتى لو كان بعيداً في أرض التكرور، إلا في حالات الغصب والقهر السياسي، كما حدث عند إعلان الخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة الأموية في الأندلس. ولا يمكن لأمير مكة الشّريف الحسني أن ينصب خليفة في العالم الإسلامي، والخليفة العباسي لا يزال في خلافته في دولة المماليك، وأمير مكة خاضعاً لدولة المماليك. ويبقى الاحتمال الأقوى وهو أن الشريف الأكبر مولاي العباس خلع عليه في مكة المشرفة لقب خليفة بلاد التكرور؛ (أي السودان)، بإيحاء من الخليفة العباسي المتوكل على الله في مصر[3].

ومن الغريب أنه لا يوجد أمير لمكة باسم العباس، وأن أمير مكة آنئذ هو محمد بن بركات

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 12.

(2) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية هوداس، ط2، مكتبة الطالب، الرباط، د. ت، ص 89.

(3) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سنغاي، م12، ص 266.

جمال الدين الحسني (859 ـ 903هـ/ 1455 ـ 1497م)، والذي يسمى ملك الحجاز[1]. علمًا بأن موضوع تلقب أسكيا الحاج محمد خليفة كان قبل سقوط الخلافة العباسية ودولة المماليك بـ 20 سنة على يد السلطان العثماني سليم الأول.

ويعلق طرخان على روايات السعدي ومحمود كعت غير الدقيقة حول حج أسكيا محمد وحصوله على لقب الخلافة، فيشير إلى أن رواية السعدي جاءت متأخرة؛ لأنه متأخر عن زمن محمود كعت. أما محمود كعت فعلى الرغم من أنه صاحب أسكيا محمد في حجه، ومن المفترض أن يكون قد شهد هذا الحدث، فإن روايته تبدو غير مقبولة. ولعل السبب يكمن في أنه يعيش في كنف السلطان، فأراد أن يرفع من قدر سيده، وربما خانته الذاكرة، أو فُقدت بعض مدوناته عن الحج، لأنه بدأ تأليف كتابه سنة 925هـ/ 1519م؛ أي بعد 23 سنة من قيامهما بالحج سنة 902هـ/ 1497م[2].

ويؤكد محمود كعت أن جلال الدين السيوطي التقى أسكيا الحاج محمد الكبير في مصر بعد عودته من الحج، وبارك له بالخلافة، وأكد حقه بها، وكذلك اتفق (جميع علماء عصره على أنه خليفة، وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطي، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، والشيخ شمهروش الجِنّي، والشريف الحسني مولاي العباس أمير مكة...)[3]. ويؤكد السعدي الأمر[4]، بل إن المؤرخ الوفراني يشير إلى أن أسكيا الحاج محمد بعد أن رجع إلى السودان (نصر السنة، وأحيا طريق العدل، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه، وسائر أموره، ومال للسيرة العربية، وعدل عن سيرة العجم، فصلحت الأحوال.... وكان الحاج محمد المذكور.... شديد التعظيم لأئمة المسلمين، محباً للعلماء، مكرماً لهم غاية الإكرام.....

(1) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، م4، ج7، ص 150 ـ 153.
(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 27.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 12 ـ 13، 68.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.

وزعم أنه ما فعل ذلك حتى استشار فيه الإمام السيوطي)[1]. ولا نعلم هل استشارة السيوطي كانت في مصر فقط، أم في بلاد التكرور التي زارها السيوطي[2]، أم في كلا البلدين، وهل كان غرض رحلة السيوطي إلى إمبراطور سنغاي الاطمئنان على مدى تطبيق أسكيا الحاج محمد للسياسة العادلة، وبخاصة رعاية العلماء، وسيادة الأمن، وارتفاع مستوى معيشة الرعية، وتخفيف الضرائب[3].

يبدو أن لقب الخلافة الإسلامية، أو نيابة الخلافة، أو الإمارة الشرعية التي تلقب بها أسكيا الحاج محمد قد سرت على الأساكي الذين جاؤوا من بعده، حتى إن سلطان مراكش أحمد المنصور السعدي وبعد قرن من الزمان عندما أمر باقتحام دولة سنغاي في عهد أسكيا إسحق، تحجج بأن أسكيا إسحاق معزول شرعاً، لأنه (ليس بقرشي، ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى)[4].

ولم يكتف أسكيا الحاج محمد بما ناله من تأميره خليفة على أرض التكرور [السودان الغربي] من قبل شريف مكة الحسني، بل طلب منه أيضاً أن يعطيه واحداً من أقربائه الشرفاء؛ إما أخاه أو ابنه، ليتبركوا به هناك في بلادهم، فأجابه بعدم استطاعته تلبية طلبه الآن، ولكنه سيرسل ابن أخيه الشريف أحمد الصقلي، وفعلاً أرسله، فوصل إلى تنبكت سنة 925هـ/ 1519م، ووافق قدومه قيام محمود كعت بالبدء بتأليف كتاب (تاريخ الفتاش). ولما أُعلم أسكيا محمد بقدومه ترك عاصمته ورحل إلى تنبكت، وأغرق عليه العطايا، ونال منه ضيافة ومنزلة رفيعة[5].

وفي السنة التالية؛ أي 903هـ/ 1498م[6]، بدأ بتوسيع المملكة، والتي امتدت من أرض

---

(1) الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 90.

(2) السيوطي، عبد الرحمن، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر، 1321هـ ص 157، وطبعة ثانية، = = وضع حواشيه خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 290.

(3) تنظر تفصيلات سياسته العادلة في الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 90.

(4) الوفراني، نزهة الهادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ص 91.

(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 17 ـ 18.

(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.

(كَنتَ إلى البحر المالح في المغرب وأحوازها، ومن حد أرض بنُدكُ إلى تغاز وأحوازهما)[1].

فقد توجه في أولى غزواته إلى مملكة الموسّى [الموشي] الوثنية، وسلطانها آنئذ نعسر. وكان السلطان أسكيا الحاج محمد قد أرسل أحد أشهر علماء السودان؛ وهو مور صالح جور ليبلغه رسالة الأسكيا في الدخول في الإسلام. وبعد مشاورات قرر رفضها، قائلاً للعالم المذكور: (ارجع وقل له ما بيننا وبينه إلا الحرب والقتال)[2]. فقامت الحرب بين الجانبين، كان النصر فيها لأسكيا محمد. ويقول السعدي: (ولم يكن في هذا الإقليم جهاد في سبيل الله إلا هذه الغزوة وحدها)[3]، ويعني هذا أن سكان مملكة الموسيّ [الموش] قد تركوا الوثنية ودخلوا في الإسلام.

ثم توالت توسعات وغزوات أسكيا الحاج محمد؛ ففي سنة 905هـ/ 1500م سيطر على باغن، وقتل حاكمها الفولاني دنَبَ دُنب[4]، وفي سنة 906هـ/ 1501م غزا اير وأقصى حاكمها تلظَ عن الحكم[5]، وفي سنة 907هـ/ 1502م استولى بنفسه على زلن وتنفرن؛ وهما من بقايا مملكة مالي، بعد أن فشل أخوه في السيطرة عليهما[6].

أما جِنّي، فقد دخلت سلماً وطوعاً ضمن إمبراطورية السنغاي دون قتال سنة 907هـ/ 1502م[7]. وتوقفت غزواته ثلاث سنوات ما بين 908 ـ 910هـ/ 1503 ـ 1505م[8]، عاود بعدها الفتح في سنة 911هـ/ 1506م متوجهاً إلى برك أو بربو، ولكنه خسر الكثير من جيشه، ووقعت بعض نسائه في الأسر، حتى قال له أخوه عمر: (أفنيت سنغي)[9].

استمر حكم أسكيا الحاج محمد حتى سنة 935هـ/ 1529م، وكان قد فقد بصره بعد حكم

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 73.
(2) السعدي، تاريخ السوادن، ص 74.
(3) السعدي، تاريخ السوادن، ص 74.
(4) السعدي، تاريخ السوادن، ص 75.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 75.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 75.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 75.
(8) السعدي، تاريخ السودان، ص 75 ـ 76.
(9) السعدي، تاريخ السودان، ص 76.

دام حوالي 37 سنة[1]، فعزله ابنه موسى، بعد أن بلغت سنغاي أقصى اتساع لها، لم تبلغه قبله ولا بعده؛ فكانت حدودها قد امتدت غرباً إلى قرب سواحل المحيط الأطلسي [البحر المالح]، وشرقاً إلى قرب الشواطئ الغربية لبحيرة شاد، وجنوباً إلى إقليم برجو [بركو]، وبلاد الموسي [الموشي]، أي إلى المنطقة الفاصلة بين مرتفعات الداخل والغابات الساحلية، وشمالاً إلى مناجم الملح في تغازة جنوب مراكش، وشمالاً بشرق إلى فزان جنوبي طرابلس[2].

وبقياس الكيلو مترات فإن عرض هذه الإمبراطورية 3600 كلم، وطولها من الشمال إلى الجنوب 1600 كلم. وبهذه السعة مساحةً ونفوذاً تحكمت سنغاي في طرق القوافل والتجارة الرئيسة بين بلاد السودان الغربي وشمال شرقي إفريقية[3]، وتزيد هذه المساحة على مساحة إمبراطورية مالي التي قدرت بمثل مساحة كل دول غربي أوربا مجتمعة[4].

كان عهد أسكيا الحاج محمد من أزهى عهود إمبراطورية سنغاي، إلا أن نهايته كانت محزنة؛ إذ عزله ابنه موسى، بعد تنافس بين أبناء الأسرة الحاكمة على السلطة، والذي دبر مؤامرة ضد أبيه أسكيا الحاج محمد، دفعه في ذلك حقده على المودة والإخلاص بين أبيه وخادمه الناصح علي فلن، وزاعماً أن أباه لا يعمل شيئاً إلا بأمر هذا الخادم. كان الأب في العاصمة الجديدة كاغ، بينما كان الابن موسى في العاصمة القديمة كوكيا، ومنها ابتدأ بتهديد خادم والده علي فلن، الذي اضطر إلى الهرب إلى تندرم. ولما علم السلطان أسكيا الحاج محمد بما آل إليه الأمر، أمر أخاه فاري يحيى ـ وكان في تندرم ـ أن يذهب إلى كوليا لإخماد الفتنة. وفي القتال الذي جرى بين العم فاري يحيى وأولاد أخيه برئاسة موسى، قتل العم. ثم اتجه موسى إلى كاغ العاصمة الجديدة، حيث مقر أبيه أسكيا الحاج، فعزله يوم الأحد، وهو يوم عيد الأضحى سنة 935هـ/ 1529م، قبل الصلاة، والسلطان الأب أسكيا محمد في المصلى، فحلف الابن موسى: أن لا يصلي أحد من الناس حتى يتولى هو السلطنة، فاضطر الوالد إلى التسليم بالأمر الواقع، فسلم

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 77 ـ 81.
(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 31.
(3) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 31.
(4) طرخان، إمبراطورية سنغي الإسلامية، ص 31.

السلطة إلى ابنه موسى، الذي صلى بالناس صلاة العيد[1].

ولما كان تصرف الأسكيا موسى مع والده بعيداً تماماً عن الأخلاق واللياقة، فدعا عليه والده، إذ لما (ركب في غده، مع كافة جيشه، وحّرك فرسه ليجريه، سقط عن فرسه، وقطع حبل سراويله، وعليه أربع قمصان، وانقلب القمصان إلى رأسه، وبقي عرياناً، ولم يبق في الجيش أحد لم ير عورته)[2].

وقد علل موسى سبب خلعه لأبيه عندما صد عنه شيخ الإسلام القاضي محمود بن عمر، ولم يستقبله، فلما (لم يقابله بوجهه، فقال [موسى] له لِمَ تستدبر عنّي، قال: لا أستقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين من إمرته، فقال له: ما فعلت ذلك إلا خوفاً على نفسي. وكم من سنين لا يعمل إلا بما أمر به علي فلن، خفت من أن يأمر عليّ يوماً بسوء، ولهذا خلعته)[3].

وقد عاش أسكيا الحاج محمد بعد عزله حتى سنة 944هـ/ 1538م في عهد ابنه أسكيا إسماعيل، فمات عن عمر بلغ الـ 97 سنة[4].

5 ـ إمبراطورية سُنغاي بعد أسكيا الحاج محمد حتى السيطرة المراكشية السعدية (935ـ 1002هـ/ 1529 ـ 1594م):

حكم إمبراطورية سنغاي منذ عزل أسكيا الحاج محمد سنة 935هـ/ 1529م حتى الاجتياح المراكشي السعدي لإمبراطورية سنغاي ثمانية سلاطين، كلهم أولاد أو أحفاد أسكيا الحاج محمد، عدا واحد هو ابن أخيه عمر كمزاغ، وهو أسكيا محمد الثاني بنكن بن عمر كمزاغ، الذي عد مغتصباً للعرش. وقد حكم الثلاثة الأوائل من هؤلاء الثمانية في الفترة مابين عزل أسكيا الحاج محمد، وبعد وفاته بسنتين.

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 80 ـ 81. ينظر أيضاً محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 78، 82.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 83.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 82.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 78، 87.

ويقول دلافوس: ومما يؤسف له أن خلفاء هذا الملك القادر كانوا رجالاً من أواسط الناس، بل كانوا مكروهين من قبلهم في أغلب الأحيان. كان غالبيتهم يتصفون بالقسوة والأنانية والفجور، وراحوا يقتل بعضهم البعض، ويشبعون مطامعهم وشهواتهم، وسرعان ما تركوا العمل العظيم الذي حققه مؤسس أسرتهم أسكيا الحاج محمد تتقوض أركانه[1].

ولم يستطع أحد من خلفائه أن يبلغ ما بلغه مؤسس الأسرة من قوة وحزم واستقامة، ماعدا ابنه أسكيا داود الذي يعد آخر الأساكي العظام[2]، فحاول أن يوقف الاضمحلال الذي بدأ يستشري في الإمبراطورية في عهد إخوته وابن عمه، بيد أن محاولته لم تعط ثمارها في عهود الأساكي اللاحقين له، فلم يزدد هذا الاضمحلال إلا سرعة بعد انتهاء حكمه[3].

سبقت الإشارة إلى تقلد أسكيا موسى عرش إمبراطورية سنغاي بعد عزله لأبيه سنة 935هـ/ 1529م، لكنه بدلاً من أن يسير على خطى أبيه، والحفاظ على وحدة الكلمة مع أخوته وأبناء عمومته، امتلأ عهده بالدماء والقتل الوحشي، وبخاصة مع أخوته، ثم سقط قتيلاً، واستولى على عرش الإمبراطورية ابن عمه محمد بنكن بن عمر كمزاغ سنة 937هـ/ 1531م[4]. ووصف بأنه (لم يتولى سلطنة سنغي أخف وأرذل منه، والسلطنة أكبر منه ومن سفاهته)[5]. ووصفت عداوته مع أخوته وقرابته بأنها (أكبر مصائب الدنيا، وهي عداوة أبدية لا تحول ولا تزول، وهو في كل ساعة في مكايدة النفس، وشغل الخاطر بالهم والغم والاحتراس، وأخذ الحذر، حتى مضى لسبيله)[6].

أما مغتصب العرش أسكيا محمد بنكن الذي تولى السلطة بعد مقتل ابن عمه أسكيا موسى

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سُنغاي، م12، ص 266ـ 267.
(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 35.
(3) دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سُنغاي، م12، ص 267.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 83؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 86.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 83.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 88.

بن أسكيا محمد الحاج، فكان لا يقال له إلّا (مَر بنكن) أي (قاطع الرحم)[1]، كما وصف أيضاً بأنه كان (رجلاً حروقاً قليل الصبر)[2]. ابتدأ حكمه بإجلاء عمه الأكبر أسكيا الحاج محمد من العاصمة كاغ غوا إلى جزيرة كَنكَاك، فسجنه فيها، علماً أن أسكيا موسى أبقى أباه في العاصمة المذكورة عندما تولى عرش الإمبراطورية[3].

ومع ذلك فقد عُرف هذا الأسكيا بالشجاعة والفروسية، فإذا حضر قتالاً ما (واشتد البأس نزل عن فرسه، ويقاتل على الرِّجل)[4]. كما نال استحسان المؤرخين السودانيين محمود كعت والسعدي، باعتباره قد أقال الإمبراطورية من عثرتها التي حدثت في عهد سابقه أسكيا موسى[5]، فعمل على تقوية الجيش، وأضاف إليه (ألفاً وسبعمائة رجل)[6].

أما السعدي فقد ذكر ما وصلت إليه الإمبراطورية من سعة وتقدم حضاري ورفاه، فقال: (فقام بتلك السلطنة أحسن قيام، فوسعها، وزينّها، وأجملها بالرجال زيادة على ما كانوا قبل، وبالملابس الفاخرة، وأنواع آلات الطرب، وبالقينين والقينات، وكثرة العطايا والمنائح، فنزلت البركات في أيامه، وانفتح فيها أبواب الأرزاق، وانصبت، لأن أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد ما فتح صدره للدنيا خشية العين)[7].

حكم أسكيا محمد بنكن الثاني ست سنوات وشهراً؛ فقد خرج غازياً، فلما وصل قرية منصور ـ وهي نفس المكان الذي تولى فيه السلطنة ـ ثار ضده ابن عمه أسكيا إسماعيل بن أسكيا الحاج محمد الأول، وتولى السلطنة خارج العاصمة كاغ [غوا]، فلما وصل الخبر إلى أسكيا محمد الثاني بعزله خرج هارباً في البداية إلى تنبكت، فتبعته خيالة إسماعيل، فهرب إلى تندرم، ثم إلى

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 83.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 84.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 83؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 87.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 85.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 84.
(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 85.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 87.

مالي، إلى أن استقر في مدينة تعب، حتى مات، وكان عزله في سنة 944هـ/ 1537م[1]، ووفاته سنة 946هـ/ 1539م في بداية عهد أسكيا إسحق[2].

تولى أسكيا إسماعيل بن أسكيا الحاج محمد الأول وعمره 27 سنة[3]، بعد عزله ابن عمه أسكيا محمد بنكن الثاني. وقد عزا إسماعيل نفسه سبب ثورته على ابن عمه إلى ثلاثة أمور، هي: الأول نفيه لأبيه أسكيا الحاج محمد الأول من العاصمة كاغ [غاو] إلى جزيرة كنكاك، والسبب الثاني هو لإرجاع بنات أسكيا الحاج محمد الأول أخوات إسماعيل إلى الحجاب، بعد أن أجبرهن أسكيا محمد بنكن على الحضور إلى مجلسه كاشفات رؤوسهن، والسبب الثالث هو قيام أولئك البنات بتحديه والصياح بحضرته، وقول واحدة منهن مخاطبة أسكيا محمد بنكن كلما رأته: (فرخ نعامة واحد خير من مائة فروخ دجاجة)[4]، مستنهضة ومنادية أخاها إسماعيل عن بعد بأنه أولى بالسلطنة؛ لأنه أبن أسكيا الحاج محمد الأول الكبير، ومقللة من شأن مغتصب العرش محمد بنكن الذي هو أقل درجة و أقل خيراً من أخيها إسماعيل.

وفعلاً قام أسكيا إسماعيل حال توليه العرش بإخراج أبيه من سجنه في الجزيرة، وأرجعه إلى العاصمة كاغ [غاو]، وأسكنه في بعض بيوت المملكة و(أتى [الأب] بشكارة له، وحل ربط فمها، وأخرج منها قميصاً وشاشية خضراء وعمامة بيضاء، وأدخل القميص في عنق أسكي إسماعيل، وأدخل القلنسوة الخضراء في رأسه، وعممه بتلك العمامة، وأدخل في عنقه سيفاً، وقال: هذا قميص قمصني به شريف مكة المشرفة الذي هو أميرها حينئذ، وأدخل هذه القلنسوة على رأسي، وعممني هكذا بيده المباركة، في حضرة جمع غفير من قومه من أهالي مكة وغيرهم، وقلدني هذا السيف، وقال: أنت أميري ونائبي وخليفتي في إقليمك، وأنت أمير المؤمنين، وأنا خليفته وأميره ونائبه، وولاني ومَلكني، وغصب الملك مني ولدي الفاسق

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 85؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 90 ـ 91، 93 ـ 94.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 88.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 95.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 87، 94.

موسى، ثم غصبه منه محمد بنكن، وكلاهما خارجان. وقد وليتك أنا، ورددت الخلافة التي قلدني بها الشريف لك، وأنت خليفة خليفة الشريف الذي هو السلطان الأعظم العثماني)[1].

وهكذا أراد أسكيا الحاج محمد الكبير أن يضفي الصفة الشرعية على ابنه إسماعيل، ويجعله كما كان هو خليفة وأمير المؤمنين، وأن يندد بسابقي إسماعيل: الفاسق ابنه موسى، والمغتصب للعرش محمد بنكن ابن أخيه.

والذي يلاحظ من النص السابق أن إسماعيل الذي أصبح خليفة خليفة شريف مكة، الذي هو خليفة السلطان العثماني، وليس خليفة الخليفة العباسي كما كان عند حج سلطان سنغاي أسكيا الحاج محمد الأول، إذ إن الخلافة العباسية في مصر ومعها دولة المماليك قد سقطت بدخول السلطان العثماني سليم الأول مصر سنة 923هـ/ 1517م.

توفي أسكيا الحاج محمد في السنة نفسها التي أخرجه ابنه إسماعيل من سجنه، بعد أن بلغ من العمر عتيّاً، وكانت وفاته ليلة عيد الفطر من سنة 944هـ/ 1537م، وهو في أتم الرضا عن ابنه إسماعيل[2].

ومن أهم الأحداث التي حدثت في عهد أسكيا إسماعيل القحط والجوع الذي حل بإمبراطورية سنغاي[3]، وتفشي مرض الطاعون سنة 942هـ/ 1535م الذي ذهب ضحيته الكثير[4]، وكذلك قيامه بغزو الوثنيين في أرض كرم. وقد توفي وهو خارج في إحدى غزواته في 4 شعبان سنة 946هـ/ 1539م، بعد حكم دام سنتين وستة أشهر، أو تسعة أشهر[5].

تولى بعده عرش الإمبراطورية أخوه أسكيا إسحق بن أسكيا الحاج محمد، بعد يومين من

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 86.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 87؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 94.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 87.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 93.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 87؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 95.

وفاة إسماعيل؛ أي في 6 شعبان سنة 946هـ/ 1539م[1]، بمبايعة من عسكره[2]. ومع أنه وُصف بأنه كان (مرضياً صالحاً مباركاً، كثير الصدقات، ملازماً لصلاة الجماعة، عاقلاً فطناً ذا دهاء)[3]، وأنه كان (أجلّ من دخل في تلك السلطنة، وأعظمهم خوفاً وهيبة)[4]، إلا أنه قتل من جنده عدداً كثيراً، (فإذا خال من أحد أدنى شيء من التعرض للسلطنة، لا بد أن يقتله، أو يخرجه من أرضه، هذا دأبه وعادته)[5].

وإزداد اعتداء حاشيته وخدمه على أموال التجار، فكان مقدار ما يؤخذ غصباً وظلماً من تجار تنبكت (70.000) سبعين ألف مثقال ذهب على يد خديمه محمود يز الذي كان يتردد بين العاصمة كاغ [غوا] وتنبكت، ويأخذ من كل تاجر حسب مقدرته، ومع هذا لم يستطع أحد التكلم بذلك خوفاً من سطوة أسكيا إسحق[6]. ويبدو أن هذا كان يجرى دون علمه؛ فعندما زار مدينة جنّي عقد مجلساً في المسجد الكبير، غص بالعامة والخاصة، وحضره كبار أعيان جيشه وموظفيه، ذاكراً أنه ما حضر إلا من أجل الإصلاح، وتحقيق مصالح الناس، وطلب من الحاضرين أن يعلموه بمن يوقع الأذى على المسلمين وبمن يظلم الناس، ومن لم يعلمه، فحق عباد الله المظلومين في عنقه. فلم يجبه أحد إلا الفقيه الجريء القاضي محمود بن بغُيغ الذي عرف عنه أنه لا تأخذه في الحق لومة لائم، إذ رد عليه قائلاً: (أحق ما تقول يا إسحق؟ فقال: والله الحق، فقال: إن علمناك بذلك الظالم، فماذا تفعل له؟ فقال: أفعل له ما يستحق من قتل أو ضرب أو سجن أو إجلاء، أو رد ما أتلفه من المال وغرّمه، فأجابه الفقيه: ما عرفنا أظلم منك، أنت أبو كل المظالم وسببه، ولا يغصب غاصب هنا مغصوباً إلا لك، و بأمرك وقوتك. إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك، وبادر به. وهذا المال الذي يجلبه إليك من هنا، وتترى إليك، ألك،

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 88.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 95.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 87.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 95.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 95.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 100.

أوَ لك هنا عبيد يحرثون لك، أو مال يتّجر به لك؟ فلما سمع بذلك تحير، وتدهش، وتنفس الصعداء، وبكى، وندم على قوله، حتى رحمه الناس، ثم قال: صدقت والله، وأنا تائب لله)[1]، وكانت وفاته سنة 956هـ/ 1549م في كوكيا [كيكي] العاصمة القديمة لإمبراطورية سنغاي، ودفن فيها[2].

تقلد أسكيا داوود بن أسكيا الحاج محمد العرش بعد وفاة أخيه إسحق سنة 956هـ/ 1549م، على الرغم من أن أسكيا إسحق قد قلد ابنه عبد الملك، ذلك أن أهل سنغاي لم يرضوا أن يكون عليهم سلطاناً غير أسكي داوود[3]، فتولى الحكم في العاصمة القديمة كوكيا، ثم رجع إلى العاصمة الجديدة كاغ[4].

دام حكمه أكثر من 34 سنة (956ـ990هـ/ 1548ـ1582م)[5]. وكان والده أسكيا الحاج محمد وأخوته قد بذلوا جهوداً في توسيع وتثبيت حكم إمبراطورية سنغاي، فتسلمها ممهدة الطريق. كان سلطاناً مهيباً فصيحاً خليقاً للرياسة، كريماً جواداً مبسوطاً، فرحاً ذا مزاح، وسع الله عليه في دنياه. وهو أول من اتخذ خزائن المال، وخزائن الكتب، وله نساخ ينسخونها له، وربما يهادي العلماء،....... حافظ القرآن، وله شيخ يأتيه بعد الزوال، ويقريه إلى الظهر)[6]. وكان يردد دائماً (لولا العلماء لكنا من الهالكين، فجزاك الله عنا خيراً)[7]. وأخبار مناقبه، وإحسانه مع طلبة العلم، وحميد سيرته مع الرعية، وتوقيره للعلماء والصالحين، كثيرة[8]، وعلى سبيل المثل أنه (كان يرسل للقاضي العاقب بن محمود كل عام أربعة آلاف صنية، ليقسمها على مساكين

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 88ـ89.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 93؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 100.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 93.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 100.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 93.
(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 94.
(7) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 113.
(8) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 113، ص 115.

تنبكت، وأقام لمساكين تنبكت جناناً، فيها ثلاثون عبداً، اسمه جنان المساكين)[1].

وعلى خطى الأساكي السابقين، قام بغزوات كثيرة على أعداء إمبراطورية سنغاي التقليديين، وكان النصر حيلفه فيها[2]. وأولى غزواته إلى الموسيّ [الموش] في السنة التي تقلد فيها الحكم؛ أي 956هـ/ 1549م[3]، وفي سنة 957هـ/ 1550م توجه إلى مكان يسمى تع اسم من أرض باغن، وأسر كثيراً من القينين والقينات، وجعل لهم حارة في العاصمة كاغ [غوا]، مثلما عمل أبوه أسكيا الحاج بالموسّي [الموش] سابقاً[4]. وفي سنة 959هـ/ 1552م وقعت خصومه بين أسكيا داود وبين كنت سلطان ليك، ثم اصطلحا في سنة 960هـ/ 553م[5]. وفي سنة 966هـ/ 1559م غزا مملكة مالي، وانتصر على سلطانها، وأسر ابنته، ثم تزوجها، وأخذها معه إلى سنغاي[6]. إلا أن أسكيا داوود فشل في حملته الثانية على الموسِّي [الموش] سنة 969هـ/ 1562م، وعاد هارباً مع من تبقى من جيشه، بعد أن قتل الكثير من قادته وجنده[7].

أما الهجوم الذي قام به ابنه فرن محمد بنكن على ماسنة دون علم ورضا أبيه أسكي داوود، فسببهُ أنه في سنة 990هـ/ 1582م تعرض قطاع طرق من فولانيين ماسنة على قارب يعود لسنغاي، فقام الابن المذكور، دون استشارة أحد، بالهجوم على ماسنة ودمرها تدميراً كبيراً، وقتل كثيراً من العلماء وطلبتهم وصلحائهم[8].

ومات أسكيا داود سنة 990هـ/ 1582م في مزرعته القريبة من العاصمة كاغ [غوا]، فجهز، وحمل في قارب إلى العاصمة المذكورة ودفن فيها[9].

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 113، ص 115.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 115 ـ 116.
(3) السعدي، تاريخ، السودان، ص 102.
(4) السعدي، تاريخ، السودان، ص 102.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 103.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 103 ـ 104.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 106.
(8) السعدي، تاريخ السودان، ص 113.
(9) السعدي، تاريخ السودان، ص 113.

تقلد حكم الإمبراطورية الحاج محمد الثاني بن أسكيا داوود بعد وفاة أبيه سنة 990هـ/ 1582م دون معارضة من إخوته، ودام حكمه حوالي أربع سنوات ونصف. اتصف بالهيبة والمروءة[1]، وليس له مثيل يومئذٍ في أهل سنغاي في النجدة والشجاعة. ولصفاته الجميلة رشحه حكماء وعقلاء المملكة أنه يصلح أن يكون أميراً حتى في بغداد[2]. وشهدت المملكة في أيامه رخاءً واسعاً[3]، وفي التقييم الذي وضعه السعدي في كتابه تاريخ السودان لسلاطين سنغاي جاء السلطانان محمد الأول وحفيده هذا الحاج محمد الثاني في المرتبتين الأولى والثانية[4].

ومن غزواته المهمة غزوته أهل وكد [وغد]، فكان النصر حليفه، فقتل حاكمها، وسبى أولاده، واستولى على كل أموالهم والذهب الموجود بها، ونقل كل هذه لعاصمته[5].

دبَّ الخلاف بين أبناء الأسكيا داوود الثلاثة؛ أسكيا الحاج محمد الثاني، وأخويه محمد بان ومحمد الصادق. وكان للوالد الأسكيا داوود أكثر من 27 ابناً؛ ستة منهم يحمل اسم محمد[6]. واستطاع أحد الأخوة، وهو أسكيا محمد بان أن يعزل أخاه أسكيا الحاج محمد الثاني عن العرش سنة 995هـ/ 1586م، وينفيه إلى تنديبي شمالي العاصمة غوا، حيث مات هناك[7].

وبتولي أسكيا محمد بان العرش سنة 995هـ/ 1586م بادر إلى قتل أخويه: فرن محمد بنكن وفرن الهادي، فلما سمع أخ آخر لهم (تعجب، وقال: قبح الله العجلة، أحمق من خرج من صلب والدنا يتولى السلطنة، وأما الحاج [محمد الثاني] فما قتل أحداً من إخوته، حتى انقرضت أيامه)[8].

لم يمكث أسكيا محمد بان في السلطنة سوى سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام، حيث توفي سنة

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 113. يقول صاحب تاريخ الفتاش أنه توفي في رجب 991هـ/ 1583م. ينظر ص 119.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 119.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 119.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 114.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 119.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 136.
(7) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 125 ـ 126؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 121.
(8) السعدي، تاريخ السودان، ص 121 ـ 122.

996هـ/ 1588م في أثناء قيامه بحملة على تنبكت، بعد أن اندلعت فيها حروب أهلية[1]. ولاسيما النزاع الذي جرى بينه وبين أخيه بلمع محمد صادق[2]، والذي أدى إلى اضطراب أحوال إمبراطورية سنغاي وضعفها، ومن ثم وقوعها لقمة سائغة بيد الاحتلال المراكشي السعدي[3]. ومات أسكيا محمد بان بموت الفجأة، فقد نام إلى قرب الظهر، فلما جاء غلمانه لإيقاظه وجدوه ميتاً، فأخفى كبار قادة الجيش موته على إخوته أولاد أسكيا داود[4].

دامت الفتنة والحروب الأهلية بين أبناء أسكيا داوود أربعة أشهر؛ قبل وبعد وفاة أسكيا محمد بان، وانتهت بتقلد أسكيا إسحق الثاني بن داود العرش، بعد رجوعه من قتال أخيه بلمع محمد الصادق الذي كان قد أعلن نفسه سلطاناً، ثم هرب أمام قوات أخيه إسحق إلى العاصمة كاغ [غاو]، حيث اتفق قادة الجيش على تنصيبه سلطاناً، وأطاعوه سنة 996هـ/ 1588م[5].

بالغ أسكيا إسحق الثاني بن داود في التنكيل بإخوته وأنصارهم؛ فعندما انتصر على أخيه بلمع محمد الصادق، جيء إليه بشخص من أنصار أخيه اسمه هنبركي، فأمر كما يذكر السعدي أن يُخاط (عليه جلد بقر، وجعله في حفرة في أصطبلة طولها قامتان، ودفنه حياً)[6]. ويقول صاحب كتاب تاريخ الفتاش: إنه (قبض على كل من تبع بلمع صادق.... وأسر من أسر، وقتل من قتل، وضرب من ضرب، ومات أكثر المضروبين، وعزل من عزل، ولم يبق بأرض بر بلد لم يبلغه شره ... وسجنَ ما لا يُحصى)[7]. ويبدو أن نتيجة هذه الفتن كانت وخيمة، واعتبرت بداية لسقوط دولتهم على يد جيش سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي السعدي، فهي (أول خسارتهم وهلاكهم وفنائهم، قبل مجيء جيش مولاي أحمد الذهبي، وهي سبب خرابة بلد

(1) عن تلك الحروب الأهلية ينظر محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 126 ـ 136.

(2) بلمع: هو منصب معناه (أمين المملكة العام) عينه به أخوه أسكيا محمد بان، وهو منصب مستحدث. ينظر: الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، ص 62 ـ 63.

(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 126.

(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 131 ـ 132، 135.

(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 135 ـ 140، 142؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 125.

(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 128 ـ 129.

(7) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 143.

تندرم)[1].

ومن الغريب أنه مع كل هذه الأعمال الوحشية التي قام بها ضد إخوته ومناصريهم فإن صاحب كتاب الفتاش يذكر أنه (كان كريماً سماحاً جواداً جميل الوجه، بلغ غاية في التصدق والعطاء. وكان محباً للعلماء مكرماً لهم)[2].

وكان أسكيا إسحق الثاني بن داود آخر سلاطين إمبراطورية سنغاي، حيث تعرضت الإمبراطورية إلى هجومَين لجيوش السعديين؛ كان الأول بقيادة الباشا جودر سنة 999هـ/ 1591م، والثاني بقيادة الباشا محمود بن زرقون عام 1002هـ/ 1594م، وانهزم أسكيا إسحاق الثاني في الهجومَين. فعزله جيشه، وولى مكانه شقيقه محمد كاغ عام 1000هـ/ 1592م، لكنه قُتل بعد أربعين يوماً فقط[3] من قبل الباشا محمود بن زرقون قائد الجيش السعدي في رجب 1000هـ/ 1592م، فصعد في نفس ا لتاريخ أسكيا نوح الذي توفي في نفس السنة أيضاً، ثم جاء سقوط إمبراطورية سنغاي بعدها.

6 ـ الاحتلال المراكشي وسقوط إمبراطورية سنغاي:

يعزو البعض سبب سقوط إمبراطورية سنغاي وزوالها إلى ارتكاب السلاطين المتأخرين المعاصي بعد أن كانت إمبراطورية قوية مهابة مصانة لا يتمكن أحد من ملوك السودان الاعتداء عليها منذ أن تولى عرشها أسكيا الحاج محمد الأول، فهم (بدلوا نعم الله كفراً، وما تركوا أشياء من معاصي الله تعالى إلا وارتكبوها جهراً... ولهذا انتقم الله سبحانه منهم بهذه الحملة المنصورة [يقصد بها حملة المنصور الذهبي]، فرماهم بها من مسافة بعيدة ومكابدة شديدة، فاجتث عروقهم من أصلها، ولحقوا بأصحاب العبرة و أهلها)[4].

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 143.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 143.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 132 ـ 133.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 143 ـ 144.

ويؤكد هذه الحالة صاحب تاريخ الفتاش، فهو قد ذم أساكي العصر المتأخر من سلطنة سنغاي لسوء أعمالهم وتدبيرهم، وبما ضيعوه من حقوق الله وظلم العباد، مع التكبر وإظهار الفسوق والكبائر والمنكرات[1].

وقد وُصفت فترة الحكم السعدي لدولة السنغاي ـ التي سقطت على أيديهم ـ بأنها فترة خير عم الناس، فازدهرت الحياة الاقتصادية والثقافية، وانطفأت نيران الفتن بينهم، (فكثر قراؤها وأدباؤها، من كُوكي إلى جِنّ، وجمع شملها، وأقامها أتم قيام، وعمرها، وأفاض الله البركة في برها وبحرها، في أوائل جيش مولانا أحمد، و أكثر الخير فيها، حتى كاد الناس ينسون دولة سنغي... ورخص الطعام من كل جانب ومكان، وأطفأ الله نيران الفتن بين الناس)[2].

تعود جذور العلاقات بين الدولة السعدية وبين إمبراطورية سنغاي إلى العهود الأولى لشرفاء مراكش الحسنيين السعديين الذين كانوا يتطلعون إلى ثروات السودان الغربي، وبخاصة مناجم الملح في تغاز، التي تقع بين مراكش وإمبراطورية سنغاي. وكانت تلك العلاقات بين مد وجزر، فأحياناً يكون ظاهرها المودة والاحترام وتبادل الهدايا، و أحياناً أخرى تصل إلى تبادل رسائل التهديد بينهما، بل إلى الاعتداءات أحياناً.

وتعود البداية إلى عهد السلطان الثاني من سلاطين شرفاء مراكش السعديين، وهو أبو العباس أحمد الكبير الأعرج (923 ـ 946هـ/ 1517 ـ 1539م) الذي عاصر الأساكي الخمسة الأوائل الأقوياء، والتي وصلت إمبراطورية سنغاي ذروة مجدها وقوتها، وبخاصة في عهد أسكيا الحاج الأول. لم يحرك أحمد الأعرج ساكناً أو يطالب بشيء خلال عهود الأساكي الأربعة الأوائل، لكنه بعث رسالة إلى الأسكيا الخامس إسحق بن أسكيا الحاج محمد، يطلب فيها التنازل عن مناجم تغاز، فكان رد إسحق رافضاً قاسياً ولاذعاً، ولم يكتف به، بل أرسل قوة من الفرسان الطوارق تتكون من ألفي فارس إلى درعة التابعة لسلطان مراكش، فعاثت بها فساداً،

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 152.

(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 181.

ثم عادوا بعد أن حملوا منها كل أنواع الأموال التي وجدوها، فكان الهدف منها استعراض قوته لسلطان مراكش أحمد الأعرج[1].

هنا يمكن القول إن هذا الحدث هو أول احتكاك بين شرفاء مراكش السعديين وسلاطين سنغاي، وكانت نتيجته الظاهرية في صالح سلطان سنغاي، سواء بالرد القاسي الذي رد به، أم بالهجوم العسكري الذي قام به على درعة التي تقع ضمن دولة السعديين. والأمر الآخر أن هذه الحادثة وقعت سنة 946هـ/ 1539م، وليس سنة 956هـ/ 1548م كما ذكر الأستاذ طرخان[2]، وذلك بدليلين: الأول هو ما أورده السعدي من أن طلب التنازل عن ممالح تغاز الذي طلبه احمد الأعرج من أسكيا إسحق الأول كان في أيام قوة إسحق الأول، وهي سنة 946هـ/ 1539م والدليل الثاني هو أن السلطانين أحمد الأعرج وإسحق الأول لم يتعاصرا إلا سنة واحدة؛ وهي سنة 946هـ/ 1539م، وذلك لأن الشريف أحمد الأعرج عُزل ثم قُتل في هذه السنة.

أما العلاقات بين دولتي السعديين و سنغاي في عهد شريف مراكش الثالث محمد الشيخ الكبير المهدي (946ـ964هـ/ 1539ـ1557م) وسلطان سنغاي أسكيا داوود (956ـ990هـ/ 1548 ـ 1582م) فكانت متوترة أيضاً؛ فالمهدي المذكور أرسل حملة إلى مناجم الملح في تغاز في آخر سنة من حكمه، وهي سنة 964هـ/ 1557م، استطاعت قتل حاكمها، وقتلت معه الطوارق الذين يتولون استخراج الملح، ومن بقي منهم على قيد الحياة عادوا إلى أسكيا داوود، وأخبروه بأنهم لا يستطيعون ترك مهنتهم التي تدر عليهم أرباحاً طائلة، وأنهم يعرفون مناجم أخرى غير مناجم تغاز الكبيرة، يستطيعون أن يستخرجوا منها الملح، فأذن لهم باستخراجه، وفعلاً تمكنوا من استخراجه في السنة نفسها[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى واقعة حدثت في الدولة السعدية، أدت إلى اعتلاء السلطان السابع

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 99ـ 100.
(2) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 39.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 106 ـ 107.

أحمد المنصور الذهبي عرشها (986 ـ 1012هـ/ 1578 ـ 1603م) والذي قام فيها بعد بإرسال حملتين عسكريتين إلى سنغاي: الأولى بقيادة الباشا جودر، والثانية بقيادة الباشا محمود بن زرقون، واللتين أدتا إلى سقوط إمبراطورية سنغاي. ففي هذه الفترة تولى محمد المتوكل على الله بن عبد الله الغالب بالله سلطنة الدولة السعدية بعد وفاة والده سنة 982هـ/ 1574م. وبسبب المنازعات، ووجود أكثر من مرشح للسلطة تمكن عمه عبد الملك الغازي المعتصم بالله بن أحمد الأعرج من طرده في سنة 984هـ/ 1576م بمؤازرة العثمانيين، وتولى عرش مراكش. فالتجأ محمد المتوكل على الله إلى سباستيان ملك البرتغال الذي رحب به، و أعد حملة لإرجاعه إلى السلطة، ومد النفوذ البرتغالي على الإقليم. وقد حارب المتوكل على الله في صفوف سباستيان، ومات غرقاً، وقتل ملك البرتغال سباستيان عند وادي المخازن قرب القصر الكبير، وذلك في 986هـ/ أغسطس 1578م، بعد أن نزلت القوة البرتغالية في منطقة أصيلة. دارت المعركة عند وادي المخازن قرب القصر الكبير، وسميت بموقعة القصر الكبير في الشمال الغربي لمراكش، وفيها حقق عبد الملك انتصاراً مدوياً، لكنه كان مريضاً، فمات يوم انتصاره، فصار الفخر كله لأخيه أحمد المنصور الذهبي الذي أُعلن سلطاناً على مراكش في اليوم نفسه، وبذلك يكون قد سقط في هذه المعركة ثلاثة ملوك، هم: سباستيان والمتوكل وعبد الملك، لذا اشتهرت باسم (معركة الملوك الثلاثة). ولم تفقد البرتغال جيشها وملكها فقط، بل فقدت استقلالها أيضاً، لأنه لم يكن هنالك وريث للعرش البرتغالي، فمد فيليب الثاني ملك إسبانيا نفوذه إلى البرتغال وممتلكاتها[1].

سادت العلاقات الطيبة بين الدولتين في عهدي شريف مراكش أحمد المنصور الذهبي (985 ـ 1012هـ/ 1577 ـ 1603م) وأسكيا داود بن أسكيا الحاج محمد (956 ـ 990هـ/ 1548 ـ 1582م)، على الرغم من أن أحمد الذهبي طلب من أسكيا داود أن يسلم إليه خراج معدن تغاز عاماً واحداً في سنة 985هـ/ 1577م. ويبدو أن أسكيا داود وافق على ذلك، بل

(1) بانيكار، الوثنية والإسلام، حاشيه 67 من ص 155؛ طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 92.

بعث له عشرة آلاف مثقال من الذهب، فتعجب الذهبي من سخائه وجوده، فكان ذلك سبب المحبة والعلاقة الطيبة بين الاثنين، حتى إن الذهبي عندما بلغته أنباء وفاة أسكيا داوود سنة 990هـ/ 1582م حزن عليه، وجلس للتعزية، وتقبل عزاء كبار قادة جيشه[1].

لكن هذه العلاقة الحسنة والصداقة لم تدم طويلاً بعد وفاة أسكيا داود وتولي ابنه أسكيا الحاج محمد الثاني عرش الإمبراطورية، (990 ـ 995هـ/ 1582 ـ 1586م)، إذ ظهرت نوايا أحمد الذهبي للسيطرة على بلاد السودان الغربي، وأخذها من سنغاي، فقام بعملٍ ظاهره سلم وصداقة، وباطنه ـ وهو قصده الحقيقي ـ الاطلاع على أحوال بلاد التكرور [أي أحوال إمبراطورية سنغاي]. إذ أرسل إلى أسكيا الحاج الثاني هدايا عجيبة، بعثها بواسطة رسوله إلى كاغ [غوا] عاصمة سنغاي، فتلقى أسكيا الحاج الثاني الرسول بالإكرام، وبالمقابل أرسل مع هذا الرسول عند عودته إلى مراكش أضعافاً مضاعفة من الهدايا التي أرسلها أحمد الذهبي[2].

ولكن هذه العلاقات التي كان ظاهرها السلم والصداقة سرعان ما انقلبت إلى عداء شديد، فقد وردت الأنباء بأن أحمد الذهبي أرسل جيشاً قوامه عشرون ألفاً سنة 993هـ/ 1585م، وجهته في البداية ودان، وأمرهم باجتياح البلدان الواقعة على شاطئ نهر النيجر الشمالي حتى يصلوا إلى بلاد تنبكت. إلا أن هذا الجيش تشتت بسبب الجوع والعطش، فتفرق شذر مذر، ورجعت فلوله إلى مراكش، وهكذا كان الفشل مصير هذه الحملة[3].

لم يكتف أحمد المنصور السعدي بما حدث للحملة الأولى على سنغاي، فأرسل حملة صغيرة في السنة التالية 994هـ/ 1586م، تتكون من مائتي رامٍ للاستيلاء على تغاز، وما إن سمع الأهالي بها حتى هربوا إلى الحمدية وتوات، فوجدها الجيش السعدي خالية من سكانها، إلا عدداً قليلاً. ووصل أعيانهم إلى أسكيا الحاج الثاني، وأخبروه بذلك، فاتفق معهم على عدم استخراج الملح، وأمرهم بعدم العودة إلى تغاز، وحذر من أراد الذهاب بهدر ماله. ولما كانوا في

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 111.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 120.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 120.

حاجة إلى الملح ولا يستطيعون الاستغناء عنه اتجهوا إلى تنورد، واستخرجوا منها الملح في السنة نفسها. أما القائد السعدي ومن معه من الرماة فقد رجعوا إلى مراكش، وهكذا كان الفشل نصيب هذه الحملة كسابقتها[1].

ومع أن الفشل كان نصيب هاتين الحملتين، إلا أنهما كانتا بمثابة جس نبض واستطلاع لمواقف سنغاي، فمهدتا للحملة الثالثة إلى بلاد السودان. ففي عام 999هـ/ 1591م أرسل السلطان أحمد الذهبي السعدي حملة بقيادة جودر باشا إلى بلاد السودان في عهد سلطانها أسكيا إسحاق الثاني بن داوود (996 ـ 999هـ/ 1588 ـ 1591م). وكان العامل الأساس المحفز لإرسال هذه الحملة هروب أحد خدام الأسكيا إسحاق الثاني المدعو ابن كرنفل والمغضوب عليه من سجنه في تغاز، منطقة مناجم الملح المتنازع عليها بين دولتي السعديين وسنغاي، فوصل إلى مراكش عاصمة السعديين، ولما لم يجد شريفها أحمد الذهبي الذي كان وقتذاك في مدينة فاس، عندها أرسل رسالة إلى الشريف السعدي يخبره بأوضاع سنغاي المتدهورة والضعيفة، ويحثه على إرسال حملة للسيطرة على أراضيها. فقام السلطان أحمد الذهبي بإرسال رسالة إلى أسكيا إسحق الثاني يخبره بفرار ابن كرنفل ومجيئه إليهم، ووضع طيها رسالة ابن كرنفل. ومما تضمنته رسالة أحمد الذهبي هو تكرار الطلب القديم، وهو تسليم خراج مناجم ملح تغاز، لأنه أولى به من إسحق الثاني، كي يستخدم تلك الأموال في الجهاد، ولأن أحمد الذهبي هو الحاجز والمانع لهم من الكفرة. وأرسلها مع رسول إلى كاغ [غوا] عاصمة سنغاي سنة 998هـ/ 1590م[2]. لكن أسكيا إسحق الثاني رفض طلبه، ورده رداً قاسياً، (وبعث له صحبة جوابه حرشاناً[3]، ونعلين من حديد)[4].

ويشير الوفراني إلى أن استيلاء أحمد المنصور الذهبي على بلاد توات وتيكرارير وأعمالها

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 120 ـ 121.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 137 ـ 138.

(3) حرشان جمع حريش، وهي حراب يضعها الفارس على سرج حصانه، ويرمي بها الأعداء. ينظر: طرخان، إمبراطورية صنغاي الإسلامية، حاشية 146، ص 11؛ پانيكار، الوثنية والإسلام، حاشية 11، ص 157.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 138.

جعله يرغب بالسيطرة على بلاد السودان، لكون تلك البلاد مجاورة لبلاد السودان. ولما قرر ذلك رأى أن يبدأ بمراسلة ملوك السودان، ودعوتهم إلى طاعته، فإن أذعنوا كان ذلك هو المطلوب، وكفى الله المؤمنين القتال، وإن امتنعوا فلا بد من قتالهم. فكتب إلى سلطانهم أسكيا إسحق الثاني حول معدن الملح الكائن في تغاز، والذي منه يجلب لسائر بلاد السودان، وطلب منه أن يدفع ضريبة للذهبي على كل حمل مثقالاً من الذهب عوناً لجيوش الإسلام، ويقصد بها جيوش الدولة السعدية، فرفض أسكيا إسحق، وأبى أن يقبل ذلك. وكان الذهبي قد استفتى علماء وشيوخ الفتوى في دولته قبل أن يكتب الرسالة، فأفتوه اعتماداً على نصوص العلماء من أن النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه[1]. واحتج الذهبي بأنه هو السلطان الشرعي، وأن ملك سنغاي معزول عن السلطنة شرعاً، لأنه ليس قرشياً، ولا تتوافر فيه شروط السلطنة العظمى[2].

والأمر الآخر الذي ذكره الوفراني هو حول استشارة السلطان أحمد المنصور الذهبي أصحابه في مسألة غزو أسكيا إسحق، واقتحام بلاد السودان، وتحديداً بعد وصول جواب أسكيا إسحق إلى الذهبي، الرافض لطلبه، واحتجاجه بأنه أمير ناحيته، وأنه لا تجب عليه طاعة المنصور. عندها عقد المنصور مجلساً لأصحاب الرأي والمشورة، وبيّن لهم عزمه على محاربة سلطان كاغ [يقصد به سلطان سنغاي]، وإرسال الجيوش إليهم، لتجتمع كلمة الإسلام، وتتفق، على حد قوله، ولأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال، والتي يجب أن تنفق على جيش المسلمين (أي جيشه) ويشتد ساعده. وذكر لهم ما ذكرناه سابقاً بأن ملك سنغاي ليس سلطاناً شرعياً لأنه ليس بقرشي. فأجاب المستشارون بأن هذه الفكرة بعيدة عن الصواب وسداد الرأي، وأنها لا تخطر ببال السراق، فكيف بالملوك. وعندما سألهم عن السبب، أجابوه بأن بلاد السودان بعيدة، وأن بينهم وبينها صحارى قاحلة، ليس فيها ماء ولا كلأ، وأن دولة المغرب السابقة من مرابطين وموحدين ومرينيين لم يقدموا على ذلك. فأجابهم إن قولكم أن بيننا وبينهم صحارى

---

(1) الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 88.
(2) الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 91.

مخوفة قاحلة، بينما نرى التجار يقطعونها بصورة دائمة، وأن للجيش همة وهيبة لا تتوافر في القوافل التجارية، أما دول المغرب السابقة القوية فإن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقاتلة الإسبان، وأن الموحدين عملوا نفس عمل المرابطين زيادة على حربهم لابن غاينة، وأن المرينيين كانت أكثر حروبهم مع بني عبد الواد بتلمسان، وأننا لا نستطيع التوسع لأن أبواب الأندلس قد انسدت بسبب استيلاء الأسبان عليها، وكذلك استيلاء العثمانيين على تلمسان والجزائر. وأن هذه الدول المذكورة لم يكن لديها من سلاح غير الرماح والنشاب، ولم يكن عندهم هذا البارود والمدافع التي عندنا الآن، وإن الرماح والسيوف التي هي سلاح أهل السودان لا تقاوم المدافع المستحدثة، فمقاتلتهم سهلة، كما أن بلاد السودان أنفع من إفريقية [تونس الحالية وما حولها]، والاتجاه إلى بلاد السودان أفضل من مقاتلة الأتراك، لأنه تعب كثير في نفع قليل، فنال كلام الذهبي استحسان الحاضرين، ووافقوا على إرسال الحملة العسكرية إلى بلاد السودان[1].

ولدى الوفراني تحفظان على أقوال أحمد المنصور الذهبي: الأول هو قوله إن الملثمين المرابطين لم يغزوا بلاد السودان. فمن المعروف ـ وكما ذكره المؤرخون ومنهم ابن خلدون ـ أن المرابطين غزوا مملكة غانا في بلاد السودان. والتحفظ الثاني حول اكتشاف البارود، وأنه تم اكتشافه قبل زمن السعديين في سنة 768هـ/ 1367م من قبل كيماوي حكيم في مدينة فاس[2]. ويبدو أنه حتى لو كان قد اكتشف منذ تلك السنة إلا أنه لم يستخدم في الحروب في المغرب العربي آنذاك.

وبعد كل هذا، قرر سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي إرسال حملة لاحتلال سنغاي، بقيادة جودر باشا في المحرم من سنة 999هـ/ تشرين الأول 1591م، ضمت 3.000 رامٍ [رامي مدفع أو بندقية] من الفرسان والمشاة، وضعف هذا العدد من الأتباع، وأعداداً من المهندسين والأطباء.

(1) الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 90 ـ 92.
(2) الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 92.

وكان مع الحملة عشرة من كبار قواد الجيش، منهم قائد اسمه علي بن المصطفى العلجي الذي عين أول حاكم لكاغ [غوا] عاصمة سنغاي[1]. ويبدو أن معظم هؤلاء القواد هم من الأسرى البرتغاليين الذين وقعوا في أيدي أحمد المنصور وأخيه عبد الملك في معركة وادي المخازن، أو القصر الكبير، ثم اعتنقوا الإسلام؛ لأن ستة منهم يحملون لقب العلجي أو الأندلسي، والمقصود بالعلجي هو النصراني، والمقصود بالأندلسي آنذاك هو الإسباني أو البرتغالي، وربما يكون الباقون من القواد كلهم أو أكثرهم كذلك من الإسبان والبرتغاليين، ماعدا واحد يحمل لقب التركي، ومما لاشك فيه أن هذا القائد التركي هو من القواد العثمانيين الذين ساندوا الأخوين عبد الملك وأحمد الذهبي في المعركة المذكورة ضد البرتغاليين. وحتى قائد الحملة جودر باشا الذي وصفه السعدي بأنه: (فتى قصير أزرق)[2]، فقد كان خصياً إسبانياً، وكان يعمل قبل ذلك جابياً للضرائب[3].

لما وصلت أخبار تقدم جيش جودر في أراضي السنغاي، وأنه استطاع عبور الصحراء والوصول إلى شواطىء نهر النيجر، عقد أسكيا إسحق الثاني مجلساً استشارياً ضم كبار رجال دولته وقادة جيشه، للنظر في اتخاذ قرار سديد لمواجهة هذا التقدم. لكن الآراء مهما كانت سديدة فإن نوعية سلاح جيش الأسكيا من السهام والحراب والسيوف والرماح لن تتمكن من مواجهة حملة البنادق والمسلحين بالأسلحة النارية[4]، ومع ذلك اتُخذ قرار المقاومة.

توجهت حملة جودر باشا تجاه العاصمة كاغ [غوا]، فالتقى بها جيش أسكيا إسحق الثاني بجيشه المؤلف من اثني عشر ألفاً، إضافة إلى 500 فارس، و30.000 من المشاة، وقد فوجئ أهل سنغاي بوصول الحملة إلى شواطئ نهر النيجر. التقى الجمعان في موقع يسمى تنكُندبُع بالقرب من تندبي شمال العاصمة كاغ [غوا] في 17 جمادى الأخرى سنة 999هـ/ 2 نيسان سنة 1591م،

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 138.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 137.

(3) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 158 ـ 159.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 138 ـ 139؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 160 ـ 161؛ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سنغاي، م12، ص 267.

وكان النصر حليفاً سريعاً لجيش جودر، وانهزم جيش أسكيا الثاني في (طرفة عين)[1] وقتل الكثير من أعيان الفرسان، ومن أمراء الأسرة المالكة. أما الرجالة فإنه (لما انكسر العسكر طرحوا دروقهم على الأرض، وقعدوا عليهن متربعين، حتى وصلهم جيش جودر فقتلوهم صبراً على تلك الحال؛ لأن من شأنهم عدم الفرار عند الانكسار، وأخرجوا أسورة الذهب التي في أيديهم)[2]، عند ذلك صاح أصحاب جودر (لا إله إلا الله، اشكروا الله الدائم)[3].

ووصف صاحب تاريخ الفتاش أحداث المعركة بشيء من التفصيل[4]، وكيف أن جنود أسكيا إسحق قاتلوا قتال الأبطال، لكن ذلك لم يجدِ شيئاً حيال انهار الرصاص والنار من المدافع التي كان يطلقها جنود جودر الرجالة والرماة، فقال: (فلما دنا منهم رجيلة الرماة جثوا على ركبهم يرمون بالرصاص. وقد ساق [أسكيا إسحق الثاني] ألف بقرات معه، حين صف قتالهم، وجعلها بينه وبين القوم، وينزل عليهم الرصاص، ويتبع رجاله البقرات، حتى تخالطوا بهم، فلما أحس البقرات بأصوات مدافعهم، ولوا على أصحاب أسكي حازمين متحيرين، وصدم منهم كثيراً، ومات أكثرهم)[5].

ومع كل هذا أراد أسكيا إسحق الثاني الصمود والقتال وعدم الهروب، وعندما أخذ أحد الفقهاء بلجام فرس أسكيا الثاني (وقال له: اتق الله يا أسكي، فقال له: كأنك تأمرنا بالهروب والهزيمة، فحاشَ، فلست ممن يولّي ظهره، ومن أراد أن يفر بروحه فليهرب.. وقد علق بسيفه وترسه، يريد وسط القوم، ودار بهم خيول الرماة، وأرادوا أن يحاطوا بهم. عاود الفقيه المذكور قوله: اتق الله، ولا تقتل نفسك، وتقتل أخوانك، وتهلك سنغي كلها مرة واحدة في موضع واحد، ومن هلك هنا اليوم يحاسبك الله بأرواحهم، لأنك سبب هلاكهم إن لم تهرب بهم، ولا نأمرك بالهروب، وإنما نقول لك أن تخرج بهم من مقابلة هذه النار اليوم، ثم ننتظر في الرأي ما

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 140.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 140.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 148.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 146 ـ 155. ينظر أيضاً حول تفاصيل المعركة، الوفراني، نزهة الحادي، ص 91.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 147.

نفعل، ونرجع إليهم غداً بعزم وحزم إن شاء الله، فاتق الله. وهو ومن معه من شجعانه ورؤساء قومه يأبون إلا القتال والهجوم فيهم، والمخالطة معهم، ويموت من تم أجله، وينجو من لم يقرب أجله)[1]. وتحت إلحاح الفقيه المذكور، انصاع لكلامه واقتنع بالهرب[2].

هرب أسكيا إسحق الثاني مع فلول جيشه المنهزم عابراً نهر النيجر إلى جهة كُرمَ، وأبلغ سكان العاصمة كاغ [غوا] وأهل تنبكت بالخروج والهرب إلى المكان المذكور الذي هرب إليه، فعسكر هو هناك ولم يدخل العاصمة، فكان بكاء ونواح فيها، وارتفعت الأصوات بذلك ارتفاعاً عظيماً، وشرعوا في الخروج، واقتطاع البحر في القوارب بالمشقة والازدحام، فغرق كثير من الناس في ذلك البحر، وماتوا، وضاع من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه[3]. أما أهل تنبكت فلم يتمكنوا من الخروج والهرب إلى ما وراء نهر النيجر، بسبب مشقة العبور وثقل الحال[4].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الباحثين يسمي الاحتلال المراكشي لبلاد السودان بالفتح المراكشي[5]، وهذا لا ينطبق على المفهوم السليم من أن احتلال بلاد مسلمة تسمى فتحاً، وهذا ما كان في المعركة؛ (فأهل السودان ينادون نحن مسلمون، نحن إخوانكم في الدين، والسيوف عاملة فيهم)[6].

دخل جودر العاصمة كاغ [غوا] دون إراقة دماء[7]، ولم يتخذ دار أسكيا إسحق الثاني مقراً له، لأنه رآها بسيطة، فاستصغرها[8]. ولم يبق فيها سوى خمسة عشر يوماً [عند السعدي 17

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 147 ـ 148.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 148.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 140 ـ 141. ينظر أيضاً محمود كعت، تاريخ الفتاش، ض 148.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 141.
(5) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 38.
(6) الوفراني، نزهة الحادي، ص 94.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 141؛ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سنغاي، م12، ص 267.
(8) السعدي، تاريخ السودان، ص 141.

يوماً]، فتركها متوجهاً إلى تنبكت، فاحتلها في رجب من سنة 999هـ/ 1591م[1]، واتخذ عمارة اسمها حومة الغدامسيين مقراً لحكمه[2].

ثم أعد أسكيا إسحق الثاني جيشاً يتكون من ألف فارس، و قلد قيادته إلى أخيه بلمع [يعني الأمين العام للدولة] محمد كاغ، لمقاومة جيش جودر، إلا أن هذا الجيش خلع أسكيا إسحق الثاني من السلطنة، وعين بدله أخاه محمد كاغ لعرش سلطنة سنغاي[3].

ولما يأس أسكيا إسحق الثاني من مجابهة جيش جودر المتسلح بالمدافع، وحيث إن أخاه محمد كاغ أعلن سلطاناً على عرش سنغاي، راسل أسكيا إسحق الثاني بصورة سرية جودر – وكان جودر آنئذ في كاغ [غوا]، وقبل توجهه إلى تنبكت – وعرض عليه المصالحة بتقديم (100،000) مائة ألف مثقال ذهب، وألف عبد خادم، تعطى لسلطان مراكش أحمد المنصور السعدي، ويدفع له جزية سنوية مقابل جلاء الجيش المراكشي عن أراضي سنغاي، وعودته إلى مراكش، ويترك أسكيا إسحق الثاني في دار ملكِه. فأجابه جودر أنه عبد مأمور، ولا يستطيع البت بذلك، وأنه غير مخول بالتفاوض إلا بما يأمر به مولاه السلطان الذهبي[4]. ومع ذلك فقد أعجب جودر باشا بهذا العرض، فكتب رسالة إلى السلطان الذهبي يستشيره في ذلك كما تضمنت التقليل من أهمية بلاد السودان، وأن دار شيخ الحمّارة في الغرب [يعني في مراكش] خير من دار أسكيا إسحق التي رأوها بأم أعينهم، وبعثوها مع البشوظ[5]، على العجمي. وذهب جودر مع جيشه إلى تنبكت منتظراً جواب السلطان أحمد منصور الذهبي[6]، وتاركاً العاصمة كاغ [غوا] (حين طال عليه الحصار بكاغ، وسئم من طول الإقامة، وشكى إليه الجيش وخامة تلك البلاد، واستيلاء الأسقام عليهم، فرحل عنها راجعاً إلى تنبكت، ريثما يأتيه جواب المنصور عن ذلك

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 155.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 142.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 152 ـ 153.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 155؛ السعدي، تاريخ السودان ص 141؛ الوفراني، نزهة الحادي، ص 92.
(5) يبدو أن البشوظ وجمعه بشوظات، منصب ربما يكون عسكرياً. ينظر السعدي، تاريخ السودان، ص 145.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 141.

الصلح الذي طالبه به إسحق)[1].

لكن السلطان أحمد منصور الذهبي رفض عرض الأسكيا إسحق رفضاً باتاً[2]، ﴿وكتب على ظهر رسالته بخط يده، أتمدونني بمال، فما أتاني الله خير مما أتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم، فلنأتيهم بجنود لا قِبَل لهم، ولنُخرجهم منها أذلة، وهم صاغرون﴾[3]، وغضب غضباً شديداً، ثم عزل جودر عن قيادة الجيش، وأرسل الباشا محمود بن زرقون لقيادته، على رأس قوة تتكون من ثمانين رامي مدفع، وأبقى جودر تحت إمرتِهِ، وأمره بطرد أسكيا إسحق من أرض السودان، وقتل أحمد بن الحداد العمري القائد الذي اتفق مع جودر على ذلك الصلح، ثم عفى عن العمري[4]. والباشا محمود بن زرقون إسباني أو برتغالي آخر، اعتنق الإسلام، شأنه شأن جودر[5].

وصل الباشا محمود بن زرقون مدينة تنبكت في شوال 999هـ/ آب 1591م، فعزل جودر عن قيادة الجيش ساعتئذٍ، وتحولت قيادته له، وبالغ في ملامته وجحوده، وعدم مطاردة الأسكيا إسحق، فتحجج جودر بعدم توفر القوارب لعبور نهر النيجر. وبدأ الباشا محمود بن زرقون بصنع القوارب، وإصلاح القديم منها؛ لأن صاحب المرسى هرب بجميع القوارب إلى ناحية أخرى[6].

تمكن المراكشيون من الانتصار على جيش أسكيا إسحق للمرة الثانية، عند مكان يسمى نبكة زَرزَن في ذي الحجة من سنة 999هـ/ تشرين ثاني 1591م[7]. هرب الأسكيا في البداية إلى العاصمة كاغ، فتابعته القوات المراكشية، ولما تخوف من استيلائهم عليها أمر بنقل الأقوات،

---

(1) الوفراني، نزهة الحادي، ص 94.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 144؛ الوفراني، نزهة الحادي، ص 94.
(3) الوفراني، نزهة الحادي، ص 94.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 144؛ الوفراني، نزهة الحادي، ص 94.
(5) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 162؛ شلبي، التاريخ الإسلامي، ج6، ص 273.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 145.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 145 ـ 146.

وإخلائها، وخرج هارباً منها، وظن أنهم لا يتبعونه، فوصل إلى العاصمة القديمة كوكيا، وعبر نهر النيجر، فعبروا وراءه[1]، فهرب إلى كُرمَ الوثنية، وكان قد غزاها في السنة الماضية، وهنالك قتله سكانها وابنه وجميع من معه، وكان مقتله في جمادى الآخر سنة 100هـ/ 1592م[2]. ويعد مقتله السقوط الحقيقي لإمبراطورية سنغاي، لأنه آخر سلطان مستقل لها، حيث لم يقبل الخضوع للنفوذ المراكشي، على الرغم من اعتلاء أساكي آخرين بعده.

ويقول الوفراني عن حدود الممالك السودانية التي أصبحت منضوية تحت حكم أحمد المنصور الذهبي السعدي، بعد الانتصار على آخر سلطان مستقل من سلاطين سنغاي إسحق الثاني، ومقتله: إنها انتظمت (في سلك طاعة المنصور، ما بين المحيط من أقصى أرض المغرب، إلى بلاد كَنو المتضامّة لبلاد برنو، فأذعن صاحب برنو، وتنتهي مملكة برنو إلى بلاد النوبة المتضامّة لصعيد مصر، فكلمة المنصور إذن نافذة فيما بين النوبة والبحر المحيط من ناحية المغرب، وهذا ملك ضخم، وسلطان فخم، لم يكن لمن قبله)[3].

كانت أولى النتائج الحتمية لهذا الانتصار كميات الذهب الهائلة التي حصل عليها أحمد المنصور، حتى لقب بالذهبي، ومصداق ذلك ما يذكره الوفراني من أنه (لما فتح عليه ممالیك البلاد السودانية، حمل له من التبر ما يغير الحاسدين، ويحيّر الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النُّضَار [الذهب] الصافي والدينار الوافي. وكان ببابه كل يوم أربعة عشر مائه مطرقة تضرب الدينار، دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلي وشبه ذلك، ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه)[4].

ولما وصلت إلى أحمد المنصور الذهبي وفود البشائر بالانتصار، سُرّ سروراً عظيماً، وأمر بإقامة المفرحات، وتزيين الأسواق مدة ثلاثة أيام، وأتته الوفود من كل مكان يهنئونه بالنصر

(1) الوفراني، نزهة الحادي، ص 94 ـ 95.
(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 146 ـ 149.
(3) الوفراني، نزهة الحادي، ص 95.
(4) الوافراني، نزهة الحادي، ص 95.

الكبير، وألقيت قصائد الشعراء وخطب الخطباء احتفالاً بذلك[1].

وكان القائد محمود بن زرقون قد (بعث نصف جيشه مع هدية للمنصور فيها من الذخائر ما لا يحصى، وهي: اثنتا عشر ماية مملوك من الجواري والغلمان، وأربعون حملاً من التبر، وأربعة سروج من الذهب الخالص، وأحمال كثيرة من اليابلوز، وكوز من الغالية، وقطوط الغالية، وغير ذلك من الأشياء النفيسة ذات الأثمان الغالية)[2].

أما جيش أسكيا إسحق فلم يرضَ عن هذه الهزيمة الثانية التي ألحقها الباشا محمود بن زرقون به، فقام بعزل إسحق الثاني، وتولية أخيه محمد كاغ بدله[3]، والذي كان قد أصيب بالرصاص خلال المعركة[4].

وأدت الصراعات بين أسرة الأساكي وخيانة بعض كبار موظفي إسحق إلى اضطرار الأسكيا الجديد محمد كاغ إلى أن يراسل الباشا محمود بن زرقون يطلب الصلح، ويدخل في طاعة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي. وقد صادف أن المجاعة قد حلت بين جند الباشا محمود، حتى اضطروا إلى أكل دوابهم. فوافق محمود على ذلك في الظاهر، لكنه كان يبطن الغدر. وكان سليمان بن داود أخو أسكيا محمد كاغ قد هرب سراً إلى محمود طالباً اللجوء والدخول في طاعة السعديين[5].

كان القائد السابق جودر والباشا محمود وأسكيا محمد كاغ كل في مكان مختلف عن الآخر؛ فجودر في العاصمة كاغ [غوا]، والباشا محمود في تنشِ القريبة من العاصمة القديمة كوكيا، وأسكيا محمد كاغ في مكان يسمى برهة. فوافق محمود على طلب أسكيا محمد كاغ الصلح، على أن يأتي محمد كاغ بنفسه إليه في تَنشِ للتداول حول تفاصيل الصلح[6].

(1) الوافراني، نزهة الحادي، ص 95.
(2) الوافراني، نزهة الحادي، ص 96 ـ 97.
(3) السعدي، تاريخ السودان، ص 149.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 146.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 158 ـ 159؛ السعدي، تاريخ السودان. ص 150.
(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 158 ـ 159.

بعد مشاورات أجراها أسكيا محمد كاغ مع كبار رجال دولته قرر إرسال مبعوثَيْنِ إلى محمود، هما: كاتبه أسكي الفع وهيكى. لكن محمود استطاع أن يستميل الأول كي يغدر بصاحبه أسكيا محمد كاغ مقابل وعود ومكافآت وعده بها، إن استطاع استدراج صاحبه إليه[1].

شك أصحاب ومستشارو أسكيا محمد كاغ، وعلى رأسهم هيكى، في صدق محمود، ونصحوه بعدم التوجه إليه خوفاً من الخديعة والغدر، وقال هيكى: (أنت ما رأيت محموداً وما عرفته، وما رآه إلا أنا وأسكي الفع، وإنا ما نظن منه إلا الشر، وما ترك لنا من التعظيم والتملق شيئاً، وأنه يقبل رأسنا، ويحمل لنا المأكول بنفسه، ويخدمنا، ويأتينا بالماء، ويقف بها على رؤوسنا حتى نفرغ من الأكل. وحين رأيت ذلك تحققت أن له مراداً، إياك إياك ثم إياك، فلا تذهب، فإن خالفت وذهبت، والله لا ترجع أبداً، هذا ما ذكرت لك)[2]. لكن كاتبه الخائن أسكيا الفع قال: والله ما نرجو من محمود إلا الخير والأمان التام، وأنه صادق بعهوده ومواثيقه، فأخذ أسكيا محمد كاغ بالرأي الثاني، وقرر الذهاب إلى محمود[3]. فقبض عليه مع أصحابه وجنده، وبعثهم إلى كاغ العاصمة، فأمر محمود بن زرقون جودر باشا بسجنهم في دار سلطنتهم، ثم أمره بعد ذلك بقتلهم بصورة بشعة، إذ هدمت عليهم تلك الدار، فكانت قبرهم[4]. وكان ذلك في رجب سنة 1000هـ/ 1592م، ولم يعش بعد مقتل أخيه إسحق الثاني سوى أربعين يوماً[5].

اختار الجيش أسكيا نوح بن داود سلطاناً بعد أن قتل أخوه محمد كاغ[6] سنة 1000هـ/ 1592م. واشتبك نوح مع جيش الباشا محمود في معارك شديدة كثيرة، استطاع نوح أن يحقق في بعضها انتصاراً مع قلة أتباعه، وذلك في معركة تسمى بُرني، حيث قُتل فيها ثمانون رجلاً من كبار قادة الباشا محمود[7]. كما مات الكثير من جنده بسبب طول مكوثهم بتلك

---

(1) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 159؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 150.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 159 ـ 160.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 160؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 150.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 167؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 151.
(5) السعدي، تاريخ السودان، ص 152.
(6) السعدي، تاريخ السودان، ص 153.
(7) السعدي، تاريخ السودان، ص 154.

الأرض، وتضرروا ضرراً فادحاً عظيماً من كثرة التعب والجوع والمرض، ووخامة مناخ تلك المنطقة[1]. لكن الباشا محمود استطاع مباغتتهم والانتصار عليهم انتصاراً ساحقاً، وتشتيت شملهم، وتفريق جمعهم في مكان يسمى وام[2]. وكان سليمان بن داوود أخو نوح يقاتل ضد أخيه مع المراكشيين[3].

مات الباشا محمود بن زرقون في غزوته للجبل سنة 1003هـ/ 1595م[4]، إلا أن أسكيا نوح استمر حتى وفاته سنة 1018هـ/ 1609م في محاربة جيش السعديين، ابتداءً من محمود بن زرقون حتى محمود لنك (ت 1020هـ/ 1611م) الذي كان نوح قد هزمه شر هزيمة[5].

7 ـ نكبة تنبكت ومحنة علمائها على يد محمود بن زرقون:

تعرضت مدينة تنبكت وعلماؤها إلى نكبة كبيرة على يد قائد السعديين الباشا محمود بن زرقون في شهر محرم سنة 1002هـ/ 1594م، حيث أخذوا أسرى مكبلين بالقيود، ومعهم نساؤهم، إلى مراكش عاصمة السعديين، بعد أن نُهبت أموالهم وكتبهم وذخائرهم. فوصلوها في أول رمضان من السنة المذكورة، وأبرز من أجلوا عن تنبكت من العلماء هم أسرة أقيت، وعلى رأسهم قاضي تنبكت عمر بن محمود والعالم الشهير أحمد بابا التنبكتي. فسجنوا في مراكش، حتى أطلق سراحهم السلطان أحمد الذهبي من سجنهم في 21 رمضان 1004هـ/ 1596م[6]، بشرط البقاء في مراكش. ولما توفي أحمد المنصور الذهبي أذن لهم ابنه زيدان بالعودة إلى بلادهم[7]، فعاد أحمد بابا التنبكتي بعد أن مكث في مراكش 19 سنة وستة أشهر[8]، وكان يذكر أن كتبه التي

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 155.
(2) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 168 ـ 169.
(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 168 ـ 169.
(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 183.
(5) طرخان، إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص 47.
(6) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 515؛ محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 173 ـ 174؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 173 ـ 174؛ الوفراني، نزهة الحادي، ص 97.
(7) الوفراني، نزهة الحادي، ص 97 ـ 98.
(8) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 174.

نهبت (تبلغ ستة عشر مائة مجلد)[1]. وقد عُرف عنه رباطة جأشه، وقوته في الحق، لا تأخذه فيه لومة لائم ـ وهي صفة عرف بها علماء السودان وقضاتهم ـ فلما أُطلق سراحه من سجنه، وأُدخل إلى أحمد المنصور الذهبي، وجده يكلم الناس من وراء الحجاب، فقال له: (إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وما كان لبشر أن يكلم الله إلا وحيا أو من وراء حجاب﴾، وأنت تشبهت برب الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا، وارفع الحجاب، فنزل المنصور الذهبي، ورفع الأستار، فقال له: لماذا وما الفائدة من نهب متاعي، وضياع كتبي، وتصفيدي بالحديد من مدينة تنبكت إلى هنا في مراكش، حتى أسقطت من فوق الجمل، وانكسرت ساقي؟ فأجابه المنصور الذهبي: عملنا ذلك لكي تجتمع الكلمة، وأنتم في بلدكم من أعيانها، وكلمتكم نافذة بين الناس، فإن أذعنتم أذعن غيركم.فأفحمه أحمد بابا التنبكتي بقوله: وهَل جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان التي كانت تحت سيطرة الأتراك العثمانيين، وهي أقرب إليك من بلاد السودان؟)[2].

قام أحمد بابا التنبكتي في الفترة ما بين إطلاق سراحه من السجن وعودته إلى تنبكت بنشر العلم في مراكش، وانهال عليه الناس للأخذ منه[3]. وانبرى للتدريس بجامع الشرفا في مراكش في مختلف العلوم الدينية كالحديث والفقه، وكذلك التاريخ. وقد ذكر هو الكتب الكثيرة التي قام بتدريسها في المسجد المذكور، منها: مختصر خليل، وتسهيل ابن مالك، وألفية العراقي، وجمع الجوامع للسبكي، والجامع الصغير للسيوطي، والصحيحان، وشمائل الترمذي، والاكتفاء للكلاعي وغيرها[4].

ويؤكد التنبكتي نفسه في ترجمته الذاتية أن أعيان المغرب وطلبة العلم بها، بل وقضاتها أيضاً، طلبوه لأخذ العلم منه، وكان بعضهم أكبر سناً، مثل: قاضي الجماعة الغساني بفاس، وقاضي

(1) الوفراني، نزهة الحادي، ص 97.
(2) الوفراني، نزهة الحادي، ص 97.
(3) الوفراني، نزهة الحادي، ص 97.
(4) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 515.

مسكانة الرحالة ابن القاضي المكناسي[1]. وعُين للفتوى[2]، بحيث أصبحت لا تُوجه إلا إليه، واشتهر اسمه في البلاد من السوس الأقصى إلى بجاية والجزائر[3].

وكان سبب نكبة مدينة تنبكت وعلمائها من قبل الباشا محمود بن زرقون أن وقعت فتنة بين أهل تنبكت والقائد المصطفى التركي حاكم تنبكت ونائب محمود عليها[4]، وسالت الدماء بين الجانبين. ولما بلغ الباشا محمود ما جرى وأن الأهالي حاصروا نائبه في مقر حكمه في القصبة بتنبكت أرسل القائد مامي لنجدة القائد المصطفى التركي، وتمكن مامي هذا من إبرام الصلح بين القائد المصطفى وأهل تنبكت، فكان فرحاً عظيماً للناس، وعاد إلى تنبكت كل من خرج هارباً منها، طائعين لسلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي[5].

إلا أن الباشا محمود بن زرقون عندما فشل في ملاحقة أسكيا نوح بعد حروب دامت عامين، رجع إلى تنبكت في شهر محرم من عام 1002هـ/ 1594م، وطلب من أهلها تجديد البيعة للسلطان أحمد المنصور الذهبي في مسجد سنكرى، فجمع أهل تنبكت في المسجد المذكور، وأحضروا المصحف وصحيحي البخاري ومسلم للقسم في تجديد البيعة، إلا أنه لما اجتمع الناس أُغلقت أبواب المسجد، ووقف الرماة على الأبواب والسطوح منعاً لفرار أحد، وقبض على قاضي تنبكت عمر بن محمود، وأخذوه من المسجد إلى مقر حكم المراكشيين في القصبة بتنبكت مشياً على الأقدام، بعد أن قتلوا أربعة عشر شخصاً كان بينهم كبار علماء تنبكت. وبعث الباشا محمود بن زرقون جماعة تزيد على السبعين شخصاً، ومعهم أولادهم ومواليهم من الناس والرجال إلى مراكش، بينهم قاضي تنبكت عمر بن محمود والعالم الشهير أحمد بابا التنبكتي، ولم يعد أحد منهم، حيث ماتوا في مراكش، عدا أحمد بابا التنبكتي[6]، وقد عُدت هذه

---

(1) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 516.
(2) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 516.
(3) التنبكتي، كفاية المحتاج، ص 516.
(4) السعدي، تاريخ السودان، ص 155.
(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 172؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 157.
(6) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 173 ـ 174؛ السعدي، تاريخ السودان، ص 168 ـ 170.

النكبة (أعظم رزءٍ عمت الإسلام)[1].

إضافة إلى ما مرّ، فقد نُهبت الأموال والمتاع والأثاث من الدور، واعتدوا على الأهالي، وأُخذ الرجال والنساء إلى القصبة، وسُجنوا فيها ستة أشهر. وأفسد الباشا محمود بن زرقون (الأموال، وشتتها شذر مذر، وتكرم بها للرماة، ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد إلا مائة ألف ذهباً)[2].

(1) تاريخ الفتاش، ص 173.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص 171.

الباب الثالث
تاريخ المسلمين في السودان الأوسط

الفصل الأول

مصادر دراسة تاريخ المسلمين في السودان الأوسط (تشاد)

هناك العديد من المصادر التي كتبها مؤرخون وجغرافيون عرب وأفارقة تناولت تاريخ العرب والمسلمين في السودان الأوسط، أو تشاد، كاليعقوبي، والمسعودي، وابن حوقل، والبكري، والإدريسي، وأبو حامد الغرناطي، وياقوت الحموي، وابن سعيد الأندلسي، والعمري في كتابيه التعريف بالمصطلح الشريف، ومسالك الأبصار، وابن بطوطة، وابن خلدون، والقلقشندي، والمقريزي، والحسن الوزان، والفشتالي، ومحمود كعت، والناصري السلاوي[1].

ومن هذه المصادر أيضاً ما كتبه الإمام أحمد بن فرتوا مؤرخ بلاط برنو زمن الماي إدريس ألوما، والذي ما زالت الكثير من كتاباته باقية حتى اليوم، ومنها جزآن من التاريخ الذي ألفّه في عهد الماي المذكور، يتناولان أحداث وحروب الاثنيّ عشرة سنة الأولى من حكم الماي إدريس ألوما؛ أي من سنة 978ـ989هـ/ 1570ـ1581م، ويقع الجزء الأول في 77 صفحة، والثاني في 145 صفحة. كما توجد وثيقة عربية مختصرة عن السفارات التي أرسلت إلى طرابلس من قبل بعض مايات برنو، وقد نشرت هذه الوثيقة في مجلة الجمعية الجغرافية في باريس سنة 1849[2].

ومن المصادر الأصيلة في تاريخ برنو ديوان مايات برنو، تأليف الشيخ سفرمة عمر بن عثمان، الذي يعتبر من الوثائق الهامة، ويضم قائمة بأسماء المايات من الأسرة السيفية، وقد ألف أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكان الرحالة بارث الألماني قد عثر على إحدى نسخ الديوان حوالي سنة 1270هـ/ 1853م[3].

وهنالك الوثائق العربية المعروفة باسم (المحارم)، التي أصدرها مايات برنو في العهود

---

(1) تنظر هذه المصادر وكذلك بحث الطيبي، أمين توفيق، كانم ـ برنو بالسودان الأوسط في العصر الوسيط، علاقات تاريخية عريقة بالعرب والمسلمين، مجلة المؤرخ العربي، 1988، العدد 37، ص 117.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، 1975، ص 10؛ يفر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة البرنو، م3، ص 585.

(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 10.

المختلفة. تتناول هذه المحارم الامتيازات التي منحت لبعض العلماء المسلمين والأسر، إضافة إلى المعلومات المختلفة بأحوال ونظم برنو الداخلية. وقد ترجم پالمر (palmer) إلى اللغة الإنكليزية 20 محرماً منها في كتابه المطبوع في لندن 1936 بعنوان صحارى برنو والسودان the bornu sahara and sudan.، كما ترجم عدداً من الرسائل العربية والمعاهدات وبعض القصائد الشعرية العربية، ومنها قصيدة ضمت أسماء بعض المايات. كما ترجم إلى اللغة الإنكليزية أيضاً في كتابه الآخر المعنون مذكرات سودانية Sudanese memoirs المطبوع في لاغوس سنة 1982م في ثلاثة أجزاء، عدداً من الوثائق والمؤلفات الخاصة بتاريخ برنو وجيرانها. فترجم في الجزء الأول حروب برنو ضد كانم لمؤلفها أحمد بن فرتوا، وترجم في الجزء الثاني 44 مخطوطة عربية، منها: قوائم بأسماء ملوك البولالا، ومنها أحداث وقعت بين البولالا ومايات برنو والحرب ضد الصو، ثم تاريخ بعض المايات أمثال: دونمة وبالبمي، وإدريس وداود. وترجم في الجزء الثالث 17 مخطوطة، منها بعض المحارم الخاصة بدخول الإسلام إلى البرنو، وشجرة الأسرة السيفية[1].

ومن المصادر التاريخية الهامة كتاب (إنفاق الميسور في فتح بلاد التكرور) تأليف السلطان محمد بللو سلطان سوكوتو الفولاني، الذي ألفه ما بين 1225 و1241هـ/ 1810 و1825م وأورد فيه خلاصة وافية عن تاريخ البرنو وأصولها، وأشار إلى انتشار الإسلام فيها، وإلى كثرة العلماء المسلمين، وتقدم العلوم العربية والقرآنية. وقام وتنج whitting الأستاذ بمدرسة العلوم العربية في كانو بتحقيق هذا الكتاب ونشره في لندن سنة 1951م و1957م[2].

ومن الوثائق العربية الهامة في تاريخ البرنو ما كتبه الشيخ محمد أمين الكانمي، منها: رسالة عربية بعث بها إلى جورج الرابع ملك انكلترا بواسطة الرحالة الضابط الإنكليزي المستعمر دنهام (Denham)، وهناك رسالة عربية كتبها شيخ برنو إلى الرحالة الإنكليزي كلابرتون. وقد

(1) ينظر: طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 10 ـ 11.
(2) ينظر: طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 11، 223.

ترجمت هذه الرسائل وغيرها في الكتاب الذي ألفه الرحالتان الإنكليزيان دنهام وكلابرتون، والذي طبع في لندن سنة 1826م بعنوان (قصة الرحلات والاستكشافات في شمالي إفريقية ووسطها في السنوات 1822 ـ 1823 و1824). Narrative of Travels and Discoveris In Northern and Central Africa In The Years 1822 - 1823 and 1824, London, 1826[1].

وممن كتبوا في تاريخ البرنو الرحالة الأوربيون الذين زاروا تلك البلاد، وأولهم بارث (Barrth) الذي أطلق عليه سلطان أهير (أغاديس) عبد القادر اسم الرحالة عبد الكريم، الذي كان يقوم برحلته وعمله لحساب الحكومة الإنكليزية. فقد زار السودان الأوسط والغربي في الفترة ما بين 1849 و1855م، وجمع عدداً كبيراً من المخطوطات والوثائق العربية، ناقلاً الكثير من المعلومات منها عن تاريخ البرنو وغيرها من بلاد السودان الأوسط، منها: ديوان سلاطين البرنو، حيث أرسلها فوراً من كوكا عاصمة شيوخ البرنو المعاصرين لرحلته إلى جمعية ليبزك للدراسات الشرقية سنة 1852م، كما عثر على التاريخ الذي كتبه أحمد بن فرتوا، وأرسله إلى ملكة إنكلترا فكتوريا (1838 ـ 1901م)، إضافة إلى مخطوطة أخرى لمؤلف مجهول في تاريخ البرنو. وقد اعتمد بارث على هذه الوثائق والمخطوطات في تأليفه لكتابه الذي نشره باللغة الإنكليزية في لندن 1875م بعنوان (رحلات واستكشافات في شمالي إفريقية ووسطها (1849 ـ 1855). Travels and Discoveries In North and Central Africa (1849 - 1855), London, 1875[2].

وقام رحالة أوربيون آخرون بالتذييل على كتاب بارث (Barth)، أمثال فوجل (Vogel) (1854 – 1856م)، وبيرمان (Beurman) سنة 1860م، ورولف (Rolef) سنة 1866م، وناچتيچال (Nachtigal) سنة 1871م. وكان الأخير قد حمل إلى الشيخ عمر شيخ برنو (1251 ـ 1230هـ/ 1835 ـ 1880م) هدية من قبل وليام ملك بروسيا، وكذلك الرحالة

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 11، 223.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 13، 179، 226؛ يفر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة البرنو، م3، ص 585.

الفرنسي شارل مونتي (1)Monteil.

ثم ظهرت مؤلفات كثيرة لموظفين أوربيين مستعمرين في نيجيريا والكمرون والكونغو الفرنسية حينئذٍ وغربي إفريقية بصورة عامة، ثم أخذت بحوث البعثات العلمية الفرنسية في الظهور[2]. فقد كتب جوزيف زيربو كتاباً ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (تاريخ إفريقية السوداء)، تضمن كلاماً عن مملكة كانم: أصولها وتطورها وتنظيماتها[3]. كما ألف مادهو پانيكار كتاباً بعنوان (الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية) وترجمه إلى العربية أحمد فؤاد بلبع، تضمن الفصل السادس منه إمبراطورية البرنو كانم[4].

وقد كتب المستشرق يفر (Yver) مادتين في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الأولى، والمقالتان هما: البرنو (Bornu) وكانم (Kanem)، وقد ترجمت مادة (البرنو) ضمن الطبعة العربية القديمة لدائرة المعارف الإسلامية[5]. بينما لم تترجم مادة (كانم)[6] حتى في طبعة الشارقة المختصرة، على الرغم من أن هذه الطبعة المختصرة قد غطت جميع مواد الطبعة الأصلية من حرف الألف إلى الياء. وستكون مادة (كانم) (Kanem) المترجمة إلى العربية أحد الملاحق في هذا الكتاب. وقد كتب يفر نفسه مادة (كانم) باللغة الإنكليزية في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية، ولم تترجم هي الأخرى[7].

وأخيراً انبرى كتّاب عرب بالكتابة عن (كانم) و(البرنو) إما بصورة كتب خاصة بهما، وإما ضمن كتبهم المختصة بتاريخ السودان الغربي أو ضمن كتبهم في التاريخ الإسلامي عموماً، إضافةً إلى البحوث المتعلقة بتاريخ كانم، أو البرنو، أو كليهما معاً. ومن أبرز وأهم

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 14.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 14.

(3) زيربو، تاريخ إفريقية السوداء، ق1، ص 255ـ 260.

(4) پانيكار، الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية، ترجمه وعلق عليه وحقق على مصادره أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1988، ص 177ـ 197.

(5) يفر، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: البرنو، م3، ص 576ـ 592.

(6) Yever, G, Kanem, The Encyclopaedia Of Islam,Vol. 11, PP. 712 - 715

(7) Yever, G, Kanem, The Encyclopaedia Of Islam, New Edition, Brill, 1975, Vol. IV, PP. 540 - 543

هذه الدراسات (إمبراطورية البرنو الإسلامية) لإبراهيم علي طرخان[1]. وتضمنت موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأحمد شلبي دراسة عن البرنو[2]، ثم كانم[3] قبل الإسلام، ثم إمبراطورية برنو في العصر الإسلامي[4]. وتناول الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه انتشار الإسلام في القارة الإفريقية كلاً من مملكة برنو ومملكة كانم بعنوانين مستقلين؛ الأول مملكة برنو شرقي نيجيريا[5]، والثاني مملكة كانم شمال شرقي بحيرة شاد[6]. كما تضمن كتاب حسن أحمد محمود (الإسلام والثقافة العربية في إفريقية) كلاً من كانم والبرنو بعنوان: سلطنة كانم وبرنو[7]. وتناول محمد المغربي إمبراطورية برنو ـ كانم في كتابه (بداية الحكم المغربي في السودان)[8].

وتناولت الدكتورة صباح إبراهيم الشيخلي إمبراطورية كانم ـ البرنو ضمن كتابها المشترك مع الدكتور عادل محي الدين الآلوسي المعنون (تاريخ الإسلام في إفريقية وجنوب شرق آسيا)[9]. أما أحمد نجم الدين فليجة فتحدث عن مملكة كانم في كتابه الجغرافي (إفريقية دراسة عامة وإقليمية)[10]. واحتوى كتاب نعيم قداح (إفريقية في ظل الإسلام) معلومات عن مملكة كانم وبرنو[11]. وفي كتاب (تاريخ الأدب العربي) تناول عمر فروخ عنواناً باسم: كانم ـ برنو[12]. وهنالك كلام عن بلاد كانم ـ برنو في كتاب (الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية) تأليف أحمد

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

(2) شلبي، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1983، ج6، ص 136 ـ 137.

(3) شلبي، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، ج6، ص 138 ـ 139.

(4) شلبي، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، ج6، ص 289 ـ 299.

(5) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط3، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984، ص 128 ـ 130.

(6) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 130 ـ 131.

(7) محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، ص 233 ـ 239.

(8) المغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، ص 67 ـ 69.

(9) الشيخلي والآلوسي، تاريخ الإسلام في إفريقية وجنوب شرق آسيا، مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1987، ص 110 ـ 123.

(10) فليجة، إفريقية دراسة عامة وإقليمية، بغداد، ص 44 ـ 45.

(11) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكيم، من إصدارات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، سلسلة الثقافة الشعبية رقم ـ 6 ـ ص 84 ـ 85.

(12) فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ص 45 ـ 47.

محمد كاني[1]. وتطرق نقولا زيادة لكانم ـ برنو في كتابه (إفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي)[2]. وتكلم المؤلفان محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية عن دخول الإسلام إلى كانم، وعن تاريخ كانم والبرنو في العصرين الكانمي والبرنوي حتى نهاية سلطنة البرنو[3]. إضافة إلى بحث كانم ـ برنو، السودان في العصر الوسيط، علاقات تاريخية عريقة بالعرب والمسلمين لأمين توفيق الطيبي[4].

(1) كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، القاهرة، 1987، ص 13 ـ 15.

(2) زيادة، نقولا، إفريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ص 346.

(3) باري، علي وسعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقية، تاريخ وحضارة، دار الرشاد، بيروت، 2006، ص151 ـ 161.

(4) الطيبي، كانم ـ برنو بالسودان الأوسط في العصر الوسيط، علاقات تاريخية عريقة بالعرب والمسلمين، مجلة المؤرخ العربي، 1988، العدد 37، ص 115 ـ 127.

الفصل الثاني

إمبراطورية كانم

المقدمة:

اختلف المؤرخون القدامى والمحدثون في تناول تاريخ هاتين المملكتين كانم والبرنو، فمنهم من أفرد لكل منهما عنواناً مستقلاً[1]، بينما دمج آخرون تاريخهما معاً بعنوان كانم ـ والبرنو. فياقوت الحموي تحدث عن كانم ولم يتطرق للبرنو[2]، وكذلك ابن سعيد الذي تحدث عن سلطانها وسكانها المسلمين[3]، والعمري أيضاً[4]. بينما ذكر الحسن الوزان مملكة البرنو، ولا يذكر مملكة كانم[5]، وذكرها القلقشندي على هيئة مملكتين سماها المملكة الثالثة بلاد البرنو[6]، والمملكة الرابعة بلاد الكانم[7]. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن المؤرخين القدامى لم يدمجوا هاتين المملكتين.

وربما يعود سبب الاختلاف حول تناول تاريخ كانم والبرنو معاً أو كل واحدة على حدة إلى أن الأسرة السيفية التي حكمت كانم اضطرت إلى الهرب إلى البرنو التي كانت تابعة لها إثر غزو قبائل البولالا لها في عهد السلطان عمر بن إدريس (789 ـ 793هـ/ 1387 ـ 1391م) وإعادة تأسيس الدولة في البرنو غرب بحيرة تشاد[8]، أي إن قبائل البولالا سَلخت منطقة كانم من إمبراطورية كانم البرنو في عهد السلطان عمر بن إدريس المذكور، وبقيت منطقة كانم تحت حكم قبائل البولالا مدة مائة وخمسة وعشرين عاماً من دون أن يكون لمملكة برنو

(1) ينظر على سبيل المثال: يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 576؛ Yver, G, Kanem, THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM, first edition, VOL. II, PP. 710 – 715; طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

(2) معجم البلدان، مادة: كانم، دار صادر، بيروت، 1979.

(3) بسط الأرض في الطول والعرض، ص 26 ـ 28، 36.

(4) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ح4، ص 53.

(5) وصف إفريقية، ح2، ص 175 ـ 177.

(6) صبح الأعشى، ح5، ص 268 ـ 269، وطبعة القاهرة، ح5، ص 279.

(7) صبح الأعشى، ح5، ص 269 ـ 271، وطبعة القاهرة، ح5، ص 280 ـ 281.

(8) محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص 236؛ الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، ص 236.

التي قامت في برنو غرب بحيرة تشاد أي سيطرة عليها، ثم قيام السلطان إدريس الثالث سنة 913هـ/ 1507م[1] بغزو كانم، ودخول العاصمة القديمة جيمي، وضمها من جديد فيما يعرف بالوحدة الثانية؛ أي إن برنو التي كانت تابعة إلى كانم أصبحت كانم الآن تابعة لها[2].

لا بد من التنويه هنا إلى أن منهجيتنا في بحث هذا الموضوع ستكون قائمة على الفصل بينهما، وتناول كل من كانم والبرنو على حدة، مع الإشارة إلى الترابط السياسي القوي والمتواصل بين هاتين المملكتين، وسنبدأ البحث في هذا الفصل عن إمبراطورية الكانم.

أولاً - الموقع الجغرافي:

تشكل الكانم جزءاً من بلاد المغرب الأقصى في بلاد السودان[3]، وبينها وبين زويلة أربعون مرحلة، وديارهم تقع وراء صحراء زمالة[4]. ويقول العمري إن أول أرض الكانم مدينة تسمى زلا، وآخرها طولاً مدينة كاكاو، وبينهما مسير ثلاثة أشهر[5].

وصلت حدود مملكة كانم في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى الصحراء الليبية شمالاً، وإلى كانو غرباً، وإلى واداي (Ouadai) شرقاً، وإلى الباغيرمي (Baguirmi) جنوباً[6]، ويقول كاني إن عاصمتها تقع في البداية في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة شاد، قبل أن تنتقل إلى الجزء الغربي للبحيرة[7].

ويقول المستشرق يفر إن كانم تقع في أواسط السودان، شرق وشمال شرق بحيرة شاد، يحدها شمالاً طريق القوافل القادمة من كاوار إلى بحيرة شاد، ومن الجنوب يحدها بحر الغزال، ومن الشرق منخفض إگويّ (Egueï)، وبحيرة شاد من الغرب. وتقع بين خطي عرض

---

(1) الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، حاشية ص 236؛ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص 47.
(2) فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج6، ص 44.
(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة: كانم.
(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة: كانم.
(5) مسالك الأبصار، ج4، ص 54.
(6) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 84.
(7) الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، ينظر أيضاً: فليجة، إفريقية، ص 44؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 138.

14° ـ 16° شمالاً، وبين خطي طول 12° ـ 14° شرقاً، وتقدر مساحتها بحوالي 27000 ـ 30000 ميل مربع. لكن يفر يرى أن كانم في الواقع تشغل ربع هذه المنطقة الشاسعة فقط، فهي تقع بين بحيرة شاد غرباً، وبحر الغزال جنوباً، والجبال الضخمة في منطقة المنكا (Manga) التي تفصلها عن إيگويّ (Egueï) في الشرق[1].

إن أبرز ما يميز سطح كانم هو وجود العديد من الكثبان الرملية التي تنتقل بسرعة شمالاً وغرباً، وتمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والمفصولة بعضها عن بعض بمنخفضات أو أودية تمتد أحياناً لأربعة أو خمسة أميال طولاً، ولاسيما في الجزء الشمالي. أرضها قاحلة جافة، فيما عدا فصل الأمطار، حيث تتكون البرك في الأجزاء الأكثر عمقاً وانخفاضاً، وتحتها توجد على عمق 3 ـ 30 قدماً طبقات ضخمة من الماء، حيث كانت تحفر الآبار في قيعان الأودية. وبما يوحي أن كانم الحالية كانت بحيرة قديمة، يصلها الماء من بحر الغزال، ولكنها جافة الآن، وأن الأودية نفسها كانت قيعاناً متصلة بالبحر القديم في منطقة شاد، والشاطئ نفسه محاط ببحيرات صغيرة طويلة ممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، يصل عددها إلى 300، منها 80 بحيرة مأهولة بالسكان، وتقع على بعد 2 ـ 3 ميل من الشاطئ، وهي مقسمة إلى مجموعتين: أرخبيل كوري (Kūri) في الجنوب، وأرخبيل بدّوما (Budduma) في الشمال. لقد أدى الجفاف التدريجي لبحيرة تشاد في الجزء الجنوبي الشرقي منها إلى وجود عدد من البحيرات في المنطقة. وقد أدت شبه الجزيرة والخلجان التي امتدت داخل الشاطئ إلى جعل البحّارة يسيرون في منعطفات كثيرة حتى يصلوا إلى الجهة التي يقصدونها[2]، وهي تقع الآن ضمن جمهورية شاد[3].

وعلى الرغم من عدم سيطرة مملكة كانم على مناطق الذهب مثل مملكة غانا، فقد عوضت عنها بالسيطرة على أهم الطرق التجارية التي تربطها بساحل البحر المتوسط عند فزان، وبوادي

(1) Yver, Kanem, The ENCYCLOPAEDIA of Islam, First edition, Vol. 11, P. 712.
(2) Yver, Kanem, The Encyclopedia Of Islam, Vol. 11, P. 712 – 713.
(3) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 138.

النيل عن طريق دار فور[1]. وبسبب سيطرتها على طرق القوافل التي تؤدي إلى الشمال عبر صحراء فزان والشمال الشرقي إلى وادي النيل فإن حركة التجارة بين مناطق كانم والبرنو والشمال الإفريقي قد أنعشت الحياة الاقتصادية لهذه الدولة، وكذلك بين كانم ـ البرنو ووادي النيل. وقد شهدت مدن دولة كانم ـ البرنو حركة تجارية نشطة، إذ توافد إليها التجار العرب والمسلمون من أجل الحصول على منتجاتها من الجلود وريش النعام والعاج وغيرها، وجلب منتجات الشمال ووادي النيل إليها[2].

أما الزراعة فإن غالب عيشهم على الأرز، والقمح، والذرة، والدخن الذي يشكل المحصول الأكثر وفرة هناك، وببلادهم أيضاً التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب[3]، وتقتصر الزراعة على المناطق المحيطة بالقرى المقامة على المنحدرات من منطقة الغابات[4].

وتشكل تربية الخيول والماشية والأغنام والجمال مصدراً هاماً للدخل عند السكان، كما أن صيد الأسماك حول البحيرة، والصيد عموماً في منطقة الداخل يساهم في دعم سكان المنطقة. والحيوانات هناك كثيرة ومتنوعة، كوحيد القرن، وفرس النهر، والأسد، والجاموس، والنمر، والنعامة، والوعل، والغزال، والزرافة في السهوب الشمالية، لكن الفيلة نادرة لديهم[5]. ويتعاملون بقماش عندهم اسمه دندي، وبالودع والخرز والنحاس المكسور والوَرَق، وجميعها تُسعّر بذلك القماش[6]. ومع كل ما تقدم من وجود زراعة وتجارة وصناعة في منطقة كانم فإن العمري والقلقشندي يقولان إن بلاد كانم (بلاد قحط وشظف)[7].

---

(1) فليجة، إفريقية، ص 45؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 138.

(2) الشيخلي، تاريخ الإسلام في إفريقية، ص 122.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 53. ينظر أيضاً القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة مطبعة كوستا توماس، ج5، ص 280، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 270.

(4) Yver, Kanem, E. I, Vol. 11, P. 713.

(5) Yver, Kanem, E. I, Vol. 11, P. 713.

(6) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق محمد خريسات، ج4، ص 53 ـ 54؛ ينظر أيضاً القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة مطبعة كوستا توماس، ج5، ص 280، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 270.

(7) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 54؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 280.

ثانياً ـ أصول السكان:

سكنت المنطقة المحيطة ببحيرة شاد عناصر زنجية اختلطت بالطوارق والعرب، وُصفوا بأنهم على زي العرب وأحوالهم[8]، إضافة إلى الشعوب القادمة من غرب إفريقية، لكن البعض الآخر يرى أن أكثر شعب كانم مهاجرون من الشرق في أعقاب الحروب التي هبت على وادي النيل في عهد الهكسوس إلى عهد الفتوحات العربية، وقد عُرفوا بشعب ساو. ويعلل هذا الارتباط بإجادة شعب الساو لصناعة الفخار والتماثيل البرونزية ذات الصلة الوثيقة بالحضارة المصرية[9].

والسكان هناك خليط من العناصر، فهم من الزنوج والعرب كثرة أو قلة. ويصنفون إلى ثلاثة مجموعات، الأولى من الزنوج وهم الكانمبو (Kanembu) والبودوما (Buddūma) والكوري (Kuri)، والثانية عرب هم أولاد سليمان والشوا (Shoa). أما المجموعة الثالثة فهم التندجور (Tundjur) والتوبو (TUBU) وهم موزعون بين الزنوج والعرب.

والكانمبو (kanembu) أحفاد المستوطنين الأوائل في كانم، وهم فئة السكان الأساسية، وبالتالي فرضوا لغتهم على المنطقة، ولونهم أسود بزرقة، طوال القامة، يغلب عليهم طابع المسالمة والجدية والعمل، ويكرسون وقتهم للزراعة، وهم مسلمون ملتزمون جداً. وهناك فئة منهم تسمى الهداد (Haddād)، وعلى الرغم من أنهم يختلفون عن الكانيمبو سواء في اللغة والشكل، فهم يعتبرون عنصراً مختلفاً ومتحضرين. وتميزوا عن الآخرين بأنواع أسلحتهم، وطريقة حياتهم، ويعيشون بصورة أساسية على الصيد، وهم ذوو نزعة حربية، ولعبوا دوراً كبيراً في الحروب الأهلية التي أدت إلى خراب ودمار البلاد.

أما البودوما والكوري فقد هاجروا من أواسط البلاد واستقروا في جزر بحيرة تشاد. فالبودوما يسكنون في منطقة الأرخبيل الشمالي، ويعتمدون في عيشتهم على الصيد وتربية

---

(8) فداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 84.
(9) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 138.

الماشية وزراعة الدخن. وكانوا قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة يمارسون القرصنة ضد جيرانهم من الكانم وعلى حساب سكان منطقة البرنو (Bornu)، وظلّوا لفترة طويلة ميّالين إلى الحروب والإيمان بمعتقدات مختلفة كالسحر والشعوذة. أما الكوري فمع أن نمط حياتهم كان يشبه البودوما، إلّا أنهم مسلمون.

وتضم المجموعة الثانية أولاد سليمان والشُوا، وهم من العرب القاطنين في كانم. والأوائل منهم جاؤوا من طرابلس الغرب وفزّان في منتصف القرن التاسع عشر، فهم ساميون، بَشْرتهم ناصعة، ويتكلمون اللهجة العربية لأهل طرابلس، ويلبسون الملابس العربية لأهل الشمال. أما الرُحّل، فتغلب عليهم اللصوصية وقطع الطرق، وعادة ما يكونون مسلحين بالبنادق، وبها يسيطرون على القبائل الزنجية، ويتاجرون بالعبيد والرقيق، والتحقت فئات منهم في خدمة الأوربيين عند الاحتلال الفرنسي للمنطقة، بينما التحق فريق منهم بخدمة السنوسيين.

استقر هؤلاء في السودان، وهم وإنْ احتفظوا باللغة العربية التي يتكلمونها بطلاقة، إلا أن أشكالهم تغيرت بشكل ملحوظ نتيجة امتزاجهم بالسكان السود. وهم ملتزمون تماماً بالإسلام، خاصةً في مناطق الشمال، حيث لهم صلات أخوة ونسب مع سكان تجانيا (Tidjānīya). أما قبائل الجنوب فقد تلوث إيمانهم بعقائد السحر والشعوذة وعبادة الأصنام، مثل طائفة الكيردي (Kirdi). ويعتمد الشوا في معاشهم على تربية الأغنام والماشية، ويعيش البدو الرحل في المناطق الجافة الحارة قرب الصحراء، وفي أقاليم الجنوب الرطبة، أمّا من يقطن منهم في كانم فهم أولاد سرّار وبنو وائل والدنگا من بحر الغزال.

أما التوبو (Tubu) الذين جاؤوا من تبستي فهم كثير في كانم، ولاتصالهم بالزنوج فإنهم فقدوا سماتهم الأصلية، وهم أقل تعصّباً من أقاربهم وبني جلدتهم الذين ظلوا مقيمين في الجبال. والتوبو قبائل رُحّل، ويعتمدون في حياتهم على قطع الطرق، على عكس التوبو الذين هم بمعظمهم مستقرون ويعملون بالزراعة.

والتُنجور (Tundjur) هم أحفاد القبائل الهلالية العربية الذين كانوا مقيمين حول تونس

ودارفور في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ثم هاجروا إلى ودّاي (Wādaï)، ومنها إلى كانم، حيث استقروا فيها منتصف القرن العاشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. فاختلطوا بالزنوج كثيراً، وكونوا مجموعة توسطت العرب من قبيلة كانمبو (Kanembū) وقبيلة التوبو (Tubu). وكانت لغتهم العربية القديمة، كما كانوا يتكلمون لغة التوبو والكانمبو بطلاقة. وكانوا يقطنون على وجه الخصوص في منطقة موندو (Mondo)، ويرأسهم زعيم لهم يطلق عليه فوجبو (Fugbu)[1].

ثالثاً ـ مراحل تاريخ إمبراطورية كانم حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي:

مرت إمبراطورية كانم بعدة مراحل:

1 ـ مرحلة المايات الأوائل الوثنيين: ينتمون إلى سيف بن ذي يزن، وتسمى الأسرة الحاكمة بالأسرة السيفية. بدأ حكمهم قبيل البعثة النبوية في نهاية القرن السادس الميلادي، وينتهي حكم آخر ماي غير مسلم سنة 472هـ/ 1080م، وهو الماي الحادي عشر، واسمه جبيل، أوسالما، أو عبد الجليل.

2 ـ مرحلة العصر الإسلامي أو حكم المايات: حيث حكموا من جمي عاصمة كانم، وبداية العصر الإسلامي للمملكة في زمن الماي الثاني عشر أوم بن جبيل، أو هيوم بن عبد الجليل، الذي يبدأ في سنة 483هـ/ 1090م، وينتهي في عهد عمر بن إدريس (789 ـ 793هـ/ 1387 ـ 1391م) عندما هاجمت قبيلة البولالا وهي إحدى قبائل الكانمبو سلاطين كانم، واستولت على بلادهم، وسقطت جمي (ndjimi) عاصمة الكانم على يدهم. وكانت قبيلة البولالا قد انسحبت في مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إلى جنوب شرق بحيرة تشاد، قبل غزوها مملكة كانم وعاصمتها. أما عمر بن إدريس فقد انسحب إلى غرب بحيرة تشاد، حيث أسس خلفاؤه مملكة برنو، وهكذا انتقلت الأسرة السيفية من كانم إلى برنو.

---

(1) Yver, Kanem, E. I, Vol. 11, PP. 713 - 714.

3 ـ حكم قبيلة البولالا لبلاد كانم: يبدأ هذا العهد بعد طردهم عمر بن إدريس (789ـ793هـ/ 1387 ـ 1391م) وينتهي في (910ـ912هـ/ 1504 ـ 1506م)، حيث استطاع إدريس كاتا كرمابي الانتصار على البولالا ودخول العاصمة السابقة جيمي في كانم.

4ـ تبعية كانم لإمبراطورية البرنو في عهد الأسرة السيفية (912ـ1226هـ/ 1506 ـ 1811م).

5 ـ عصر ضعف إمبراطورية كانم وتدهورها 1012 ـ 1223هـ/ 1603 ـ 1808م.

6 ـ ظهور أسرة الشيخ محمد الكانمي في برنو وانقطاع سلسلة الملوك السيفية، واستمرار تبعية كانم لبرنو، 1223 ـ 1262هـ/ 1808 ـ 1846م، وكان الشيخ محمد أمين الكانمي صاحب السلطة الفعلية في البرنو.

7 ـ حكم أسرة الشيخ محمد أمين الكانمي برنو (1809 ـ 1893)م واستمرار تبعية كانم لبرنو.

8 ـ حكم رابح الزبيدي الذي قتله الفرنسيون في 3 آذار 1900م.

9 ـ الاستعمار الأوربي وتقسيم إمبراطورية البرنو في عام 1894 بين إنكلترا وفرنسا وألمانيا.

رابعاً ـ انتشار الإسلام في كانم:

تذكر المصادر أن أول من بث الإسلام في بلاد كانم هو الهادي العثماني، الذي ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[1]. وهذا القول ينسجم مع قول البكري إن مهاجرين أمويين قدموا إلى كانم ليكونوا بمنأى عن الخليفة العباسي الذي يلاحقهم ويضطهدهم. ولكن متى هرب الهادي العثماني من اضطهاد الخليفة العباسي؟. لم تذكر المصادر ذلك التاريخ، ولكن من المحتمل أن يكون ذلك في بداية قيام الدولة العباسية، زمن الخليفة أبي العباس السفاح، أو أبي جعفر المنصور، وهذا يعني أن الإسلام قد دخل مبكراً إلى بلاد كانم. ويعتقد أن أول ملك من ملوكها اعتنق الإسلام هو محمد بن جبيل بن عبد الله بن عثمان بن محمد بن أمي[2]،

(1) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 54؛ البكري، المغرب، ص 11.

(2) بلبع، الوثنية والإسلام، حاشية (7)، ص 179 نقلاً عن حوليات إسلامية، م15، ص 192؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي،

وهو نفسه أومي بن جبيل (479ـ890هـ/ 1086ـ1097م)[1]، وذلك سنة 483هـ/ 1090م، والذي كان يُعرَف في الوثنية باسم حُمِي، أو هوميه جيلمة[2]، بينما يرى آخرون أن الإسلام دخل كانم سنة 500هـ/ 1107م[3].

كان ملك كانم يتخذ لقب (ماي) بمعنى ملك[4]، وقد ظل هذا اللقب مستعملًا من قبل الملوك بعد إسلامهم. كما اتسمّت الأسرة الحاكمة باسم (السيفية) نسبةً إلى سيف بن ذي يزن، مما يدل على ارتباطهم بالقحطانيين[5].

أما قصة النسبة إلى سيف بن ذي يزن الحميري فقد ادعاها مايات الأسرة السيفية في رسائلهم وكتبهم، كما جاء مثلاً في الرسالة التي أرسلها الماي عثمان بن إدريس (794ـ827هـ/ 1392ـ1424م) إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق سنة 794هـ/ 1392م، شاكياً إليه من أن[6] (الأعراب الذين يسمون جذاماً وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين....... ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم، ويختدمون ببعضهم، وقد قتلوا ملكنا عمر بن إدريس الشهيد، وهو أخونا ابن أبينا إدريس..... ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربي القرشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا......).

ومع أن سيف بن ذي يزن ليس قرشياً، إلّا أنهم يؤكدون انتسابهم هذا، ففي رسالة لأحد ملوك برنو أرسلها للسلطان المصري برقوق يذكر فيها أنه من ذرية سيف بن ذي يزن الذي هو من (أعقاب تبابعة اليمن من حمير)[7].

ج6، ص 139؛ يفر، البرنو، ص 586.

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 181؛ Yver, Kanem, E. I, vol. 11, P. 714

(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 139؛ الغربي، بداية الحكم، ص 68.

(3) مجهول، الاستبصار.

(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 51.

(5) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 139.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 116ـ118، ج8، ص 117.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة مطبعة كوستا توماس، ج5، ص 279، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 269.

ويعلق طرخان على قصة النسبة إلى سيف بن ذي يزن والصلة بقريش فيقول: إنها خرافة، وقد روّجها مؤرخو الأسرة السيفية، وهي جزء من عدد كبير من الأساطير التي احتفظت بها، وحرصت عليها لأنها تتعلق بأصولها[1].

والمعروف أن سيف بن ذي يزن الحميري هو آخر ملوك اليمن من القحطانيين الذي تمكن من طرد الأحباش من اليمن بمساعدة كسرى آنو شروان ملك الفرس، إلا أنه قتل على يد أحد حراسه من بقايا الأحباش الذين أبقاهم في خدمته، وذلك سنة 50 قبل الهجرة/ 574م[2]، أي إنه قتل بعد عام الفيل بثلاث سنوات، والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في عمر ثلاث سنوات.

وإضافة إلى هذه النسبة السيفية فقد ادعّى ملوك كانم والبرنو، أنهم (من بيت قديم في الإسلام، جاء منهم من ادَّعى النسب العلوي في بني الحسن)[3].

والخلاصة أن الأسرة الحاكمة في كانم ثم البرنو ـ والتي ادعت النسبة العربية السيفية ـ ترجع إلى البربر الطوارق، سواء أكانت من الزغاوة أم من الماغوميين، وإن السلطان محمد بللو سلطان سوكوتو الفولاني في القرن التاسع عشر يقول: (إن أول ملوك برنو من البربر أصلاً)[4]. ويطلق الهوسا على أهل برنو اسم البربر، وتسمي كل رجل من برنو بالبربري[5]، غير أن رجوع الأسرة الحاكمة إلى البربر الطوارق لا يمنع من بروز الأثر العربي والدماء العربية في منطقة تشاد[6].

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى المراحل التاريخية التي مرّت بها إمبراطورية كانم الإسلامية:

1 ـ مرحلة المايات الأوائل وهم ملوك الماغوميين: المعلومات عنهم أسطورية، حتى في أسماء

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 58.
(2) الزركلي، الأعلام، ص 15.
(3) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص 38؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ح8، ص 7.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 59.
(5) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 59.
(6) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 59.

ملوكهم وأعمالهم وعهود حكوماتهم. وهم أحد عشر ملكاً بحسب أساطير وسجلات برنو، وأولهم سيف بن ذي يزن[1]، على الرغم من أن سيف بن ذي يزن قتل على يد حراسه من الأحباش في اليمن سنة 50 قبل الهجرة/ 574م كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وآخرهم جبيل أو عبد الجليل بن شو، وعرف أيضاً باسم سالما أو سلماعه[2].

وتذكر سجلات برنو أبيرام (Biram) بن سيف؛ أي إبراهيم بن سيف، الذي خلف أباه في حكم الكانم برنو، وخلفه ابنه دوجو أو دوكو (Dugu–Duku)، وأمه من الزغاوة أو التوماغوري. ومنحته الأساطير البرنوية لقب ماي، ونسبت إليه السجلات أعمالاً حربية واسعة النطاق، ومغامرات أسطورية حملته إلى حوض نهر الكونغو، وكان يحكم في حدود سنة 30 من ولادة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) أو قبل الهجرة بـ 22 سنة/ 600م. حكم بعده ابنه فون، وفسرت المصادر اسمه بأنه يدل على أنه يلبس اللثام الذي اشتهر به الطوارق. وخلفه ابنه أرشو، أو أرسو؛ ثم بيوما، أو أيوما، أو أياما؛ ثم أرجي، أو أركي، أو أركو؛ ثم كادي شو بن أرجي (Kade–Shu). وآخر الملوك الذين اختلطت أخبارهم بالأساطير هو الماي جل بن شو، أو سالما، أو عبد الجليل الذي كان يحكم في حدود سنة 473هـ/ 1080م[3].

وتدل أماكن دفن المايات الثالث والرابع والخامس؛ دوجو وفون وأرشو في أماكن بعيدة مثل حوض نهر الكونغو وبعض واحات صحراء النوبة، على أن هؤلاء المايات توفوا في أثناء الحملات الحربية للغزو والتوسع[4].

2ـ مرحلة العصر الإسلامي (مرحلة حكم المايات): تبدأ هذه المرحلة من تاريخ كانم عام 483هـ/ 1090م، وتنتهي في عهد الماي عمر بن إدريس (789ـ 793هـ/ 1387ـ 1391م)؛ أي ما يقارب 300 سنة، ويشير أغلب الباحثين إلى أن الماي أوم (أومي) بن عبد الجليل الذي حكم

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 53.
(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 53.
(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 53ـ 54.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 54.

من (479 ـ 490هـ/ 1086 ـ 1097م) هو أول من اعتنق الإسلام من مايات كانم، وهو الماي الثاني عشر من سلسلة سلاطين كانم السيفيين. ويبدو أن القسم الشرقي من كانم قد اعتنق الإسلام قبل القسم الغربي؛ وهو (برنو). وإن هذا الماي قد أصدر (مَحْرَم) يوصي فيه بحرمة أموال ودماء الداعية المسلم الفقيه محمد بن ماني الذي قرأ الماي أوم على يده القرآن الكريم كله، واستحرم فيه عدداً من القبائل والأُسر، كما ورد فيه أيضاً أن الماي أوم قام بنشر الإسلام في كانم مع محمد بن ماني[1].

وكان لتحوله إلى الإسلام صدى كبير، ونتائج عظيمة[2]، وأهمية تاريخية كبرى. فعندما اعتنقت الأسرة الحاكمة الدين الإسلامي استطاع الإسلام أن يكسب لنفسه جبهة ثابتة في منطقة السودان الأوسط، فقد جاءت مع هذا الدين الجديد معرفة الكتابة التي أدت إلى إمكانية قيام دولة ضخمة أكثر تنظيماً وكفاءة في أساليب الحكم. ورفع هذا الدين مستويات شعوب هذه البلاد من الناحية الأخلاقية والإنسانية، وأدى إلى خلق علاقات حضارية بين هذه المناطق وجيرانها المسلمين[3].

كان عدد المايات الذين حكموا في العصر الكانمي من العاصمة جمي (18) ماياً[4]. ثم انتقلت الأسرة السيفية من كانم بعد طردهم من قبل قبائل البولالا في عهد الماي التاسع عشر من سلسلة المايات المسلمين في العصر الإسلامي الكانمي، والثلاثين في مجموع سلسلة مايات كانم وهو عمر بن إدريس.

ازدهرت إمبراطورية كانم في عهود ثلاثة من ماياتها وهم الماي الثاني من العصر الإسلامي دونمة الأول (491 ـ 545هـ/ 1098 ـ 1151م)، والماي الخامس سالما أو عبد الجليل بن

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 67 ـ 69؛ ينظر أيضاً: Yver, Kanem, E. I, Vol. 11, P. 714؛ زيربو، تاريخ إفريقية السوداء، ق1، ص 256.

(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 290.

(3) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 290.

(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 181 ـ 182؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 520 ـ 521.

بكر (590 ـ 618هـ/ 1194 ـ 1221م)، والماي السادس دونمة الثاني أو أحمد دونمة أو (دونمة بن دا بالا، وهو ابن سالما) ودا بالا اسم أمه، وسالما صفة لأبيه، ومعناها أسود أبيه (618 ـ 657هـ/ 1221 ـ 1259م)، حتى وصلت حدودها إلى مصر[1].

ازداد انتشار الإسلام بعد ذلك في المنطقة، وتمسك المايات به وبمظاهره، إضافةً إلى الدعاية له بشتى الوسائل. ففي زمن الماي دونمة الأول بن أوم ازداد عدد الداخلين إلى الإسلام، واستطاع أن يوسع حدود دولته وينشر الإسلام فيها. وقد اشتهر هذا الماي بتقواه، وتمسكه بالدين، وأداء فريضة الحج أكثر من مرة، وبنى أول مسجد في مدينة بالاك (Balak) شرقي كانم[2].

ازداد انتشار الإسلام، وازداد معتنقوه باضطراد[3]، كما ازداد بناء المساجد في زمن الماي سالما أو عبد الجليل بن بكر. وكان أحد علماء الدين قد قرأ حوالي 150 كتاباً دينياً مع ابن الماي سالما، وذكر المَحْرَم الذي أصدره الماي سالما إلى اسمه، وهو أبو عبد الله ديلي بن بدر الكانمبو، وقد كافأه بتعيينه إماماً في المسجد الذي بناه، ومنحه امتيازات كثيرة، منها إعفاؤه من الضرائب هو وسلالته من بعده، إضافة إلى اعفائهما من الخدمة العسكرية. ويلاحظ أن الاسم الإسلامي لهذا الماي عبد الجليل، وصفته سالما، لأنه كان شديد السواد على عكس مايات كانم الذين سبقوه، فجميعهم كانوا بيضاً أو سمراً مثل العرب[4].

ويعد عهد دونمة الثاني بن دا بالا من العهود الذهبية للدولة السيفية في كانم، إذ وُصف بأنه الشخصية العظيمة في تاريخ الدولة المبكر[5]، لما أدخله من إصلاحات دينية وتوطيده العلاقات الدبلوماسية والثقافية مع دول المشرق[6]، بل يُعتبر الذروة التي بلغتها إمبراطورية كانم البرنو

---

(1) Yver, Kanem, E. I, vol. 1, P. 714.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 69.

(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 69.؛ كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، ص 14.

(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 69 ـ 70.

(5) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 182.

(6) كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، ص 14.

في العصر الكانمي[1]. فقد قام بدور كبير في توسيع رقعة الإمبراطورية الإسلامية خلال تسلمه مقاليد الحكم، إذ امتدت رقعتها الجغرافية إلى نهر النيجر غرباً، ومن الشرق نهر النيل (المنطقة القريبة من منبعه)، ومن الشمال فزان، ومن الجنوب ديكوه. ويقال إن نفوذ دولة كانم وصل إلى حدود مصر وطرابلس، والجزء الشرقي من جمهورية نيجيريا الحالية[2]. وهو الذي حطم المعبد الوثني الضخم المعروف باسم مون، وكانت عبادته لا تزال قائمة في بعض أجزاء كانم. وهذا المعبد يقع في مكان سري غير معروف للعلن، ولا يحق لأحد أن يكشفه؛ لاعتقادهم بأنه يحتوي على قوى خارقة، وإن أحداً غير الله لا يستطيع أن يعرف ماهية مون هذا، وهو مقدس لدى الأسرة السيفية نفسها، ولدى الوثنيين، وخاصةً عند قبائل البولالا. وقد قام بعمله هذا ضمن حملته بإعادة الإسلام الصحيح إلى البلاد، بعد فترة التساهل التي أبداها من سبقه من المايات[3] مع معتقدات الوثنيين.

كان للماي دونمة الثاني علاقات طيبة مع الملك الحفصي المستنصر (647 ـ 675هـ/ 1249 ـ 1277م) في تونس، حيث تبادلا الوفود والهدايا؛ ففي عام 655هـ/ 1257م أرسل الماي دونمة الثاني وفداً وهدايا ثمينة إلى الملك المستنصر الحفصي، من بينها زرافة أثارت دهشة وإعجاب أهل تونس، (من حيث شكله وتباين نعوته، وأخذها من كل حيوان بشبه)(4).

ويعتقد أن الماي دونمة الثاني أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين أسوةً بالسلطان الحفصي المستنصر الذي كان يعاصره، والذي كان أول من تلقب بهذا اللقب من آل حفص في شمال إفريقية[5]. كما اشتهر المايات في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي باسم سلاطين كانم وسادات برنو[6].

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 83.

(2) كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، ص 14؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 586.

(3) باري وكريدية، المسلمون في غرب إفريقية، ص 154 ـ 155.

(4) ابن خلدون، العبر، طبعة بيت الأفكار الدولية، ص 1716؛ ينظر: زيربو، تاريخ إفريقية السوداء، ق1، ص 257؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص 46.

(5) ابن خلدون، العبر، ص 1711 ـ 1716؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 70، 86.

(6) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 87.

ثم مرت إمبراطورية كانم البرنو في العصر الكانمي بفتن وانقسامات بين أفراد الأسرة المالكة، والتي تعد من أخطر ما تعرضت له الإمبراطورية في ذلك العصر، إضافةً إلى خطر قبائل الصو، وهم من القبائل التي استقرت منذ القدم في كانم، ويعيشون بين نهر يئو وبحيرة شاد[1]. فقد قُتل الماي العشرون من سلسلة مايات كانم (التاسع من سلسلة المايات المسلمين) على يدهم[2].

وبمرور الوقت ازداد خطرهم أكثر، بحيث تمكنوا من قتل أربعة مايات من أبناء الماي الحادي والعشرين عبد الله خلال خمس سنوات، وهم: سالما أو تسليم (744 ـ 749هـ/ 1343 ـ 1348م)، وأخوه كور الصغير (749 ـ 750هـ/ 1348 ـ 1349م)، ثم أخوه كور الكبير (750 ـ 751هـ/ 1349 ـ 1350م)، وأخوهم الرابع محمد (751 ـ 754هـ/ 1350 ـ 1353م)[3].

وعلى الرغم من خطر الصو فإنهم لم يستطيعوا القضاء نهائياً على مايات كانم، فقد انبرى لهم الماي السادس والعشرون من سلسلة المايات (الخامس عشر من سلسلة المايات المسلمين) إدريس بن إبراهيم أو إدريس بن حفصة (أبوه إبراهيم وأمه حفصة) (754 ـ 778هـ/ 1353 ـ 1376م)، وتمكن من صد خطرهم، والانتصار عليهم، وبذا رجحت كفته عليهم[4].

من ناحية أخرى عني مايات كانم بأداء فريضة الحج، سالكين طريق الحج المألوف في بلاد السودان الأوسط والغربي عامة، وهو طريق مصر. وأول من حج من مايات كانم المسلمين الماي أوم سنة 490هـ/ 1097م لكنه مات في مصر وبها دفن، دون معرفة ما إذا كانت وفاته قبل أدائه فريضة الحج أو بعدها، وكان ذلك أيام الخليفة الفاطمي المستعلي (488 ـ 495هـ/ 1095 ـ 1101م). وأما الماي دونمة الأول بن أوم فقد حج أكثر من مرة، وبهرت مواكب حجه أهل مصر، وجاء في (ديوان) مايات برنو أن الماي المذكور ترك في مصر خلال

---

(1) يقر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 586؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 94 ـ 95.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 94.

(3) يقر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 586؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 95.

(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 95.

حجته الأولى (300) عبد، ومثلها في حجته الثانية. وقد غرق عند عيذاب أو عند السويس، وهو في طريقه إلى مكة في حجته الثالثة أو الرابعة سنة 546هـ/ 1151م. واتهمت مصادر برنو الدولة الفاطمية بتدبير غرقه خشية بطشه، أو لأنه انحاز إلى الأحزاب الداخلية المتصارعة في مصر، وكان ذلك في عهد الخليفة الظافر بأمر الله (511 ـ 549هـ/ 1149 ـ 1154م)[1].

لم يقتصر أداء فريضة الحج على مايات كانم، بل أدّاها كل من كان قادراً عليها من مسلمي كانم، فكثرت وفودهم إلى مصر في طريقهم إلى الحج، حتى احتاجت إلى مكان ينزلون فيه. ومن أجل ذلك بنوا مدرسة في فسطاط مصر، سميت باسم مدرسة ابن رشيق، نسبةً إلى القاضي علم الدين بن رشيق؛ إذ دفع له أهل كانم مالاً فبناها به في إحدى السنوات ما بين 643 ـ 649هـ/ 1245 ـ 1251م، فكانت وفودهم تنزل بها[2]، واتُخِذت أيضاً لتدريس المذهب المالكي[3]. ويذكر المقريزي[4] تفاصيل جميلة عنها، فهي مدرسة (للمالكية، وهي بخط حمام الريش من مدن مصر. كان الكانم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر في سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالاً بناها به، ودرس بها، فعرفت به، وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة، وكانوا يبعثون إليها في غالب السنين المال)[5]. ولما كانت إحدى هذه السنوات الست [البضع] التي أشار إليها المقريزي تعاصر حكم دونمة الثاني بن دا بالا سلطان كانم (618 ـ 657هـ/ 1221 ـ 1259م)، فإن هذه المدرسة قد بُنِيت في عهده في أواخر العصر الأيوبي، بل إن باري وكريدية يقولان إن الماي دونمة الثاني المذكور هو الذي بنى هذه المدرسة[6].

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 72 ـ 84.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة كوستا توماس، ج5، ص 281.

(3) العمري، مسالك الأبصار، تحقيق: محمد خريسات، ج4، ص 54 وحاشيتها رقم (8)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة كوستا توماس، ج5، ص 281، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 271.

(4) المواعظ والاعتبار، المعروف بالخطط المقريزية، ط2، القاهرة ـ 1987، ج2، ص 365.

(5) المواعظ والاعتبار، المعروف بالخطط المقريزية، ط2، القاهرة ـ 1987، ج2، ص 365.

(6) المسلمون في غرب إفريقية، ص 155.

3ـ فترة سيطرة قبائل البولالا[1] على كانم (789ـ 912هـ/ 1387ـ 1506م): تطرق الضعف إلى مملكة كانم قبل نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بعد أن أغارت عليها قبائل البولالا[2]، وتمكنت من قتل أربعة من مايات كانم في سنة واحدة هي 788هـ/ 1386م، وهم: داود تكالي بن إبراهيم (أو داود بن فاطمة، وفاطمة أمه)، وعثمان بن داود، وعثمان بن إدريس، ثم أبو بكر (لياتو) بن داود[3]. ثم تمكنت قبائل البولالا من الاستيلاء على بلاد كانم، وسقطت عاصمتها جمي أو نجيمي (Ndjimi)[4]، مما اضطر عمر بن إدريس ماي كانم إلى نقل عاصمته إلى غرب بحيرة شاد سنة 789هـ/ 1387م، وأقام في بلاد البرنو، وبذا تحول اسمها من مملكة كانم إلى مملكة البرنو منذ ذلك الحين[5].

أما البولالا فيقال إنهم فرع من الأسرة السيفية التي حكمت كانم؛ وهناك مَن يعتقد أنها تنتسب إلى الأسرة الماغومية الحاكمة لكانم[6]؛ ورأي ثالث يرى أن البولالا هم العناصر التي نتجت عن مصاهرة الشوا المقيمين في شاد مع الوطنيين الزنوج، أو عن المصاهرة التي تمت بين طوارق أوجيلا وفزان[7].

ويبدو أن جماعات البولالا قد قنعت بالسيادة على بلاد كانم، ولم تطمع في ألقاب الملك، بل اختارت بعض أفراد الأسرة السيفية الذين لم يغادروا كانم إلى البرنو، وعينتهم ملوكاً صوريين، ولا يكون لهم في الحكم الفعلي نصيب[8]. وبانسلاخ بلاد كانم من قبل البولالا بما يقارب الـ 122سنة (789 ـ 912هـ/ 1387 ـ 1506)[9]، انتهى العصر الكانمي لمملكة كانم، وحلّ مكانه العصر البرنوي، أو ما يسمى إمبراطورية البرنو، إلى أن استطاع الماي الثامن والأربعون

---

(1) تتكون كلمة بولالا من مقطعين هما: بو Bu أو بول Bul وايلالا Ilala، وتعني: أحرار الطوارق.

(2) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 130؛ .Yver, Kanem, E. I, Vol. 11, P. 714

(3) الغنيمي، عبد الفتاح مقلد، الإسلام وحضارته في وسط إفريقية، سلطنة البولالا، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1966، ص 43؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 100.

(4) Yever, Kanem, E. I, Vol. 11, P. 714؛ محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص 236.

(5) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 130 ـ 131؛ محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص 236.

(6) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 96.

(7) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 96.

(8) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج6، ص 291.

(9) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.

من الأسرة السيفية في إمبراطورية البرنو، أو السابع والثلاثون من المايات المسلمين إدريس كاتا حار مابي بن علي بن عائشة (909 ـ 932هـ/ 1503 ـ 1526م) سنة 912هـ/ 1506م) من الزحف على كانم، وضمها من جديد إلى حظيرة إمبراطورية البرنو، واستعاد سلطانه عليها. ولم تستطع قبائل البولالا الوقوف في وجهه، فدخل العاصمة جمي، وهرب البولالا إلى الشرق، وقبلوا أن يدفعوا الجزية إليه، وقنع إدريس الثاني هذا بذلك من دون أن يتابع الهجوم عليهم[1]. علمًا بأن استيلاء الماي إدريس الثاني هذا لم يؤد إلى نقل عاصمة البرنو إليها، بل ظلوا في عاصمتهم الجديدة[2].

---

(1) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 292؛ الشيخلي، تاريخ الإسلام في إفريقية، ص 116؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 115؛ پانيكار، الوثنية والإسلام، ص 192؛ باري وكريدية، المسلمون في غرب إفريقية، ص 157؛ الغنيمي، الإسلام وحضارته في وسط إفريقية، سلطنة البولالا، ص 109.

(2) طرخان، تاريخ إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 116.

الفصل الثالث

إمبراطورية البرنو الإسلامية

لا يعرف الكثير عن بلاد البرنو سوى الإشارات القليلة التي ذكرها المؤرخون والجغرافيون العرب، كابن سعيد والعمري وابن خلدون والمقريزي والحسن الوزان الذي استقر في تلك البلاد أمداً وجيزاً في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. أما الأوربيون فقد عرفوا هذه البلاد من خلال رحلات دنهام (Denham) وأودني (Oudney) وكلابرتون (Clapperton) الذين زاروا كوكا عام 1239هـ/ 1823م. ولم يبق من البعثة التي جهزها رچاردسن (Richarseon) سوى الرحالة الألماني برث، الذي استطاع الوصول إلى عدة أقاليم خلال الأعوام من 1851 إلى 1854م. وأقام ثلاث فترات طويلة في كوكا، وجمع من الأهلين الوثائق والأخبار التي مكنته من أن يصنف تاريخاً موجزاً لبرنو. وأكمل بحوثه كل من ڤوكّل (Vogel) 1854 ـ 1856م، وبيرمان (Beurmann) سنة 1860م، وروولفس (Rohlfs) سنة 1866، ونجتيجال الذي كلفهُ ملك بروسيا بإيصال هداياه إلى الشيخ عمر (1287 ـ 1289هـ/ 1870 ـ 1872)، وماثيوچي (Mathucci)، ومسّاري (Massari) 1880 ـ 1881، ومونتي (Montei)، وبما قام به حديثاً الضباط والولاة في نيجيريا والكمرون وإفريقية الغربية والكونغو الفرنسية[1].

أجمل الرحالة الألماني بارث تاريخ البرنو معتمداً إلى جانب الروايات التي جمعها بنفسه، على وثائق عدة مكتوبة، منها:

1 ـ تاريخ لا يعرف مؤلفه، وفيه بيان بأسماء السلاطين من العهود المتقدمة إلى عهد الماي السابع والستين (والسادس والخمسين من المايات المسلمين) إبراهيم بن أحمد (1232 ـ 1263هـ/ 1817 ـ 1847م). وفي عهده زار الرحالتان: دنهام (Denham) وكلابرتون (Clapperton) عاصمة البرنو كوكا.

2 ـ بيانان آخران بأسماء السلاطين.

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 577.

3ـ أخبار الاثني عشر عاماً من حكم الماي إدريس بن علي ألوما أو إدريس بن عائشة ألوما (978ـ1012هـ/ 1570ـ1603م) الذي يُعد أعظم سلاطين برنو على الإطلاق. جمعها الإمام أحمد بن فرتوا، رئيس العلماء، ومؤرخ بلاط برنو، زمن الماي إدريس ألوما المذكور، والذي له الفضل في تخليد أعمال الماي وتسجيلها[1].

وإلى جانب هذه الوثائق أخبر البرنويون بارث بأن هنالك تاريخاً آخر يعرف بتاريخ مَسفْرَمْا، غير أنه لم يستطع لاهو ولا الرحالة نجتيجال الحصول عليه. ومع ذلك فإن نجتيجال قد خالف ما رواه بارث في بعض المسائل، فهو يجعل عدد السلاطين الذين حكموا البرنو 64 سلطاناً بدلاً من 67، كما أنه غيَّر في تواريخ حكم عدد منهم، ومع ذلك لم يضف شيئاً إلى ما قاله بارث. ويكمّل المعلومات المستمدة من هذه التواريخ ما قدمه الحسن الوزان في وصف إفريقية، والأخبار التي جمعها كويلي (Koelle) فيما يتصل بظهور أسرة كانم[2].

---

(1) يفر، مادة: برنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 585.

(2) يفر، مادة: برنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 585.

أولاً ـ اسم البَرْنُو:

أطلق العرب الشوا الذين سكنوا في منطقة بحيرة شاد كلمة (برنو) على قبائل الكانوري، وهي تحريف لكلمة باران (Baran) أو بارام (Baram) في بعض اللغات الصحراوية. باران أو بارام هما صيغتا الجمع لكلمة بار (Bar)، التي تعني (رجل) أو (محارب) في تلك اللغات، فالبرنو تعني إذن الرجال المحاربون[1]. وقد أوردت المصادر العربية اسم البرنو عند ذكرها بلاد البرنو، أو ملك البرنو، أو صاحب البرنو، أو مملكة البرنو كالقلقشندي[2] والحسن الوزان[3].

ثانياً ـ الموقع الجغرافي وأثره:

يقول العمري: (صاحب البرنو بلاده تحد بلاد ملك التكرور في الشرق، ثم يكون حدها من الشمال بلاد صاحب إفريقية، ومن الجنوب اللمج)[4]. ويقول في مكان آخر: (وهذه البلاد بين إفريقية وبرقه ممتدة في الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط)[5].

والبرنو إحدى دول السودان الأوسط، تقع حول بحيرة تشاد، يحدها من الشمال الصحراء الليبية[6]، ومن الغرب بلاد الهوسا، ومن الجنوب أدموه، ومن الجنوب الشرقي باغرمي، ومن الشرق بحيرة تشاد[7]. وهذه الحدود ليست ثابتة، فهي تتغير من ناحية الصحراء وغيرها من الجوانب الأخرى بتغير الظروف السياسية[8]. وفي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 5 وص 209، نقلًا عن بالمر، صحارى البرنو والسودان، ص 6، ص 125.
(2) صبح الأعشى، طبعة مطبعة كوستا تسوماس، ج5، ص 279، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 268، وطبعة يوسف طويل، ج8، ص 7؛ الفشتالي، مناهل الصفا، ص 67 ـ 69.
(3) وصف إفريقية، ج2، ص 175.
(4) التعريف بالمصطلح الشريف، ص 37.
(5) مسالك الأبصار، ج4، ص 54.
(6) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 576.
(7) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 84.
(8) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 576.

وصلت حدودها إلى الصحراء الليبية شمالاً، وإلى كانو غرباً، وإلى واداي شرقاً، وإلى الباغيرمي جنوباً[1]، وتقدر مساحتها بـ 150,000 كيلو متر مربع[2]. وأرض البرنو في معظمها سهل شبه مستو[3]، وبما أنها تقع بين المنطقتين الحارة والمعتدلة فقد تمتعت بمناخ الأقاليم الوسطى من فصل معتدل لا تزيد درجة حرارته عن 25°، وفصل حار تصل درجته إلى 40°، مع فصل مطير جداً[4]، يسمح بتحول الكثير من المناطق الجرداء إلى سهوب خضراء. وبما أن الأهالي كانوا زراعاً مهرة فقد زرعوا الدخن، والسمسم، والقمح الذي يخصص للمايات، والأرز في الجهات التي تغمرها المياه في مواسم الفيضانات، أو الأراضي التي تتجمع المياه فيها بعد هطول الأمطار، إضافة إلى زراعة أشجار الليمون والتين والرمان. وهم يستوردون التمور من كانم وواحات الصحراء الكبرى، ويُعد من أغذيتهم الرئيسية[5].

ويسبب موقع البرنو الجغرافي المهم فقد نشطت التجارة، فالعاصمة والقرى العديدة مليئة بالتجار الأجانب من السود والبيض الذين يجيدون لغة أهل البلاد الأصليين[6]، ويقطن التجار في القسم الغربي من العاصمة كاكا، ولاسيما الثُرَوَه الذين قدموا من طرابلس وصاهروا الأسر الكبيرة في المدينة[7].

وقد أشاد الرحالة الأوروبيون بنشاط الحركة التجارية في كاكا العاصمة التي تعتبر بحق مركز التجارة بين إفريقية الوسطى وإفريقية الشمالية، فالقوافل الآتية من طرابلس محملة بالسلع الأوروبية تُستبدل في هذه المدينة بالجلود وريش النعام والعاج والعبيد[8]. وكان هنالك

---

(1) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 84.
(2) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 576.
(3) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 578.
(4) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 578.
(5) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 578.
(6) حسن الوزان، وصف إفريقية، ح2، ص 176.
(7) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 581.
(8) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 582.

ميدان فسيح يفصل بين شطري العاصمة كاكا الشرقي والغربي، يقام فيه السوق[1].

ثالثاً ـ أصول السكان:

يقول القلقشندي عن سكان بلاد البرنو بأنهم: (مسلمون، والغالب على ألوانهم السواد)[2]، ويتكون سكانها من أعراق مختلفة، وهم: الكنوري والسودان والعرب والبربر والغُلُبة.

1 ـ الكنوري: تُطلق تسمية الكنوري على خليط من الناس مختلفي الأصل، تمييزاً لهم عن العناصر الأصلية التي تألفت منها هذه الجماعة، والتي لايزال بعض منها يحتفظ بشخصيته المتميزة. وقد جاء أسلاف الكنوريين الحاليين من كانم في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويزعمون أنهم من أصل عربي، وقد صاهروا السودان، فنتج عن هذا جماعات مختلطة الدم.

ورجال الكنوري يشتركون مع النساء في الزراعة، ونسج قطع القماش، وصناعة الخزف والسلال، وأشغال اليد، ولاسيما نساؤهم اللواتي يزاولن التطريز. وهم أنشط الأجناس السوداء بلا منازع، ومركز المرأة عندهم يفضل نسبياً على مركزها عند معظم بلاد إفريقية. ويلاحظ المرء وجود خصائص هي من تأثير بعض العناصر البربرية التي تتألف منها أمة الكنوري، ومنها إكرام الضيف الذي يصل إلى حد المغالاة، كما هي الحال عند البربر[3].

2 ـ السودان: وهم القبائل الوطنية المختلفة عن الكنوري في العادات والتقاليد، ومنهم: المَكَّرِي الذين يعيشون في جنوب البرنو، قدموا من شاري الأوسط، وأخضعوا السكان الأصليين من السو قبل أن يتغلب عليهم الكنوري. والمكري أكثر سمرة من الكنوري، ويشتغلون بالزراعة وصيد السمك. ومن القبائل الوطنية أيضاً الكربنيه والمُبَّر والفيكه والمرغي والمُسْكَوَ وغيرها.

---

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 581.
(2) صبح الأعشى، طبعة كوستاتسوماس، ج5، ص 29، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 268.
(3) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 579 ـ 580.

3 ـ العرب: يطلق على العرب الذين استقروا في برنو اسم شُوه أو شُوا، تمييزاً لهم عن تجار العرب الوافدين الذين يمكثون فترات بسيطة في هذه المناطق، والذين يُسَمَوْن وَسِّلي. ويتفاوت لون بشرتهم تبعاً لدرجة اختلاطهم بالسكان الأصليين. وبعض قبائل هؤلاء الأعراب مثل أصيلة وجوعَمَة وسلامات نزحت من الشرق في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، والبعض الآخر مثل خُزَّام، وأولاد حامد تركوا كانم واستقروا في برنو في الأعوام الأولى من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. ولهم منازل يعيشون فيها خلال فصل الأمطار، بينما يعيشون عيشة البدو هم وقطعانهم أيام فصل الجفاف. ولما فتكت الأوبئة بمواشيهم هجروا حياة البدو إلى المدن.

4 ـ الغُلْبَة: وهم من الطوارق، ويعرفون باسم كِندين، استقروا منذ قرون على الحدود الشمالية لإقليم دوجي، ومنهم الفِلاتة، وهم الغُلْبَه أو اليول والهوسا الذين اختلطوا بالكنوري والفِلاته والطوارق[4].

وسكان برنو بصفة عامة متحضرون، يقطنون مدناً وقرى بعضها كبير. وكانت كاكا العاصمة أهم مدن البرنو إلى نهاية القرن التاسع عشر، وهي مقسمة إلى قسمين، يفصل أحدهما عن الآخر سور وميدان فسيح تقام فيه السوق. ويقطن القسم الغربي الطبقات الفقيرة والتجار، وخاصة الذين جاؤوا في الأصل من طرابلس، وصاهروا الأسر الكبيرة في المدينة، أما القسم الشرقي ففيه قصر السلطان وقصور علية القوم. وقد أشاد الرحالون الأوروبيون بنشاط الحركة التجارية في هذه المدينة الكبيرة التي تعتبر بحق مركز التجارة بين إفريقية الوسطى وإفريقية الشمالية[5].

رابعاً ـ بداية تأسيس إمبراطورية البرنو غرب بحيرة تشاد:

سبقت الإشارة إلى أن قبائل البولالا استطاعت احتلال بلاد كانم، وطرد الماي الثلاثين

(4) يـفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 580 ـ 581.
(5) يـفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 581 ـ 582.

من الأسرة السيفية (التاسع عشر من المايات المسلمين) عمر بن إدريس (789 ـ 793هـ/ 1387 ـ 1391م)، الذي هرب إلى إقليم برنو غرب بحيرة تشاد، ويمكن أن تعد هذه الانتقالة بداية تأسيس إمبراطورية البرنو. استقر عمر بن إدريس في العاصمة الجديدة كاغا (kagha) أو كاجا (Kaga)، والشائع في تسميتها: (كَاكَا) حسبما ذكره رسول الماي الثالث والثلاثين من الأسرة السيفية عثمان بن إدريس (الثاني والعشرين من المايات المسلمين) وأخو عمر بن إدريس المطرود من بلد كانم، الذي كان يحمل رسالة من الماي عثمان بن إدريس (794 ـ 828هـ/ 1392 ـ 1425م) إلى سلطان المماليك في مصر الظاهر برقوق في سنة 794هـ/ 1392م[1]. فبحسب ما يذكره القلقشندي فإن (قاعدتهم [أهل بلاد البرنو] مدينة (كَاكَا)، بكافين بعد كل منهما ألف، فيما ذكر لي رسول سلطانهم الواصل إلى الديار المصرية صحبة الحجيج في الدولة الظاهرية)[2].

مرت إمبراطورية البرنو كانم بفترة عصيبة دامت حوالي خمس وثمانين سنة (789 ـ 877هـ/ 1387 ـ 1472م)، منذ عهد عمر بن إدريس إلى حين تقلد الماي السابع والأربعين علي بن زينب، أو علي بن دونمة السلطنة سنة 877هـ/ 1472م حيث وضع حداً لمضايقات قبائل البولالا وصراعهم مع الأسرة السيفية، كما استطاع التغلب على الفتن الداخلية[3]. ففي تلك الفترة قتل عمر بن إدريس من قبل عرب جذام المناصرين لقبائل البولالا[4]، ثم تبعه مقتل الماي الحادي والثلاثين سعيد محمد مارا الذي جاء بعد عمر بن إدريس، في حربه مع قبائل البولالا، بعد حكم دام أقل من سنة، وذلك في عام 793/ 1391م، ولقي خليفته كادي أوجا المصير نفسه

(1) تنظر الرسالة في القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة كوستو تسوماس، ح8، ص 116 ـ 118. ينظر أيضاً طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 101 ـ 102.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة كوستو تسوماس، ح5، ص 279، وطبعة نبيل الخطيب، ح5، ص 269.
(3) يـفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة كوستا تسوماس، ح8، ص 117. ورد في القلقشندي أن أخا عثمان بن إدريس هو: عمرو بن إدريس، وليس عمر. ويبدو أن اسم عمرو جاء بدلاً من عمر تصحيفاً من قبل ناسخ مخطوطة القلقشندي، لأنه لا يوجد من ملوك البرنو من اسمه عمرو لا من أخوة عثمان إدريس ولا من غيره.

بعد حكم دام سنة واحدة أيضاً (793 ـ 794هـ/ 1391 ـ 1392م)[1].

وتعرضت البلاد في عهد خليفته الماي الثالث والثلاثين عثمان بن إدريس إلى حرب أهلية ضارية، إضافة إلى اعتداءات قبائل جذام العربية، والتي وردت في شكواه التي تضمنتها رسالته الشهيرة إلى سلطان المماليك في مصر الظاهر برقوق سنة 794هـ/ 1392م، يطلب فيها منه البحث عن الأسرى من أقرباء الماي والنساء والصبيان الذين أسرتهم قبائل جذام، وباعتهم لتجار مصر وبلاد الشام، وإطلاق حريتهم، وإعادتهم إلى بلادهم البرنو[2].

حكم في فترة الضعف الممتدة من (789 ـ 877هـ/ 1387 ـ 1472م) سبع عشرة من المايات، إلى أن تقلد الماي السابع والأربعون من سلسلة الأسرة السيفية (السادس والثلاثون من المايات المسلمين علي بن زينب (اسم والدته)، أو علي بن دونمة (والده دونمة الماي التاسع والثلاثون من سلسلة الأسرة السيفية الثامن والعشرون من المايات المسلمين). فقد استطاع هذا الماي أن يعيد هيبة الإمبراطورية وسلطانها، بعد فترة الضعف والصراعات والفتن. وكانت له غزوات موفقة جعلت الناس يلقبونه بالغازي[3]، ويعد المؤسس الحقيقي للدولة الجديدة، فقد استطاع أن يقضي على الحروب الداخلية، ويعيد الاستقرار للدولة، وأن ينشئ نظاماً إدارياً مستقلاً، ثم مدّ نفوذه إلى بلاد الهوسا، واضطرت كانو إلى أن تدفع له الجزية[4]. وبعد أن اطمأن إلى سلامة الأمن الداخلي قرر بناء عاصمة جديدة، فبعد أن كان المايات السابقون يقيمون في مدن مؤقتة، أو في معسكرات، أو خيام، أصبحت كاكا أول عاصمة للمايات في إقليم برنو، بعد أن طردوا من كانم على يد البولالا[5]، وكانت مستقر الماي عثمان بن إدريس، وتقع على بعد 64 كيلو

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 106.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص 117 ـ 118.

(3) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 292؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 189.

(4) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 292 وحاشية (31).

(5) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 111؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 292؛ زيربو، تاريخ إفريقية السوداء، ق1، ص 259.

متراً (أربعين ميلاً) عن جيمي[1]، وهي مدينة بيرني Birni، أو برنو [أي حصن برنو] لتكون العاصمة الكبرى للمايات، وتقع غرب مدينة كاكا على بعد مسيرة ثلاثة أيام منها، على نهر يئو، وتسمى أيضاً قصر إيكومو Kasr Eggomo[2].

سار الماي إدريس الكاتاكرمابي بن عائشة (909 ـ 932هـ/ 1503 ـ 1526م) على سياسة أبيه الغازي علي بن زينب، فقام بعمل جبار كان يؤرق المايات السابقين منذ أن طردوا من كانم من قبل البولالا، إذ تمكن من الانتصار عليهم، ودخل مدينة جيمي العاصمة السابقة للكانم، واستعادها إلى حظيرة إمبراطورية البرنو[3]. واندفع البولالا إلى الشرق، وقبلوا بدفع الجزية إليه، واكتفى الماي إدريس بذلك دون أن يتابع هجومه عليهم، (وكان جيشه من الحمر [أي من العرب في برنو]، والسود، فانتصر على السلطان دونمة بن سالما الذي هرب مع فلول جيشه إلى شيما Sima، وهي جمي الشهيرة عند الملوك السيفيين، وأقام فيها فترة)[4]. وكان ذلك حوالي سنة 910هـ ـ 1504م[5]، ثم عقد حلفاً مع برغوث باشا والي طرابلس العثماني[6].

أما أعظم مايات البرنو على الإطلاق فهو إدريس بن علي، أو إدريس بن عائشة ألوما (978 ـ 1012هـ/ 1570 ـ 1603م)، وهو الماي الثالث والخمسون من سلسلة الأسرة السيفية (الثاني والأربعون من المايات المسلمين)، وقد لقب بـ (ألوما) نسبة إلى (ألو) التي دُفن فيها[7].

اعتلى إدريس ألوما العرش سنة 978هـ/ 1570م، بعد أن انقضت الفترة التي كانت أمه

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 281، وطبعة نبيل الخطيب، ج5، ص 270.
(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 11، يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص 292؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص 47.
(3) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3،ص 587؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص 47.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 115؛ بلبع، الوثنية والإسلام، حاشية (39) ص 192.
(5) بلبع، الوثنية والإسلام، حاشية (39) ص 192.
(6) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.
(7) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.

الماجيرا عائشة وصية عليه فيها، ومدتها 17سنة (961 ـ 978هـ/ 1563 ـ 1570م)[1]، والتي كان لها الفضل في توجيه ابنها إدريس وإرشاده، وكانت تتمتع بسلطة واسعة، سواء أكانت وصية على العرش أم لم تكن[2]. وكان حكم إدريس ألوما قمة المجد للأسرة السيفية، وسبب شهرته تعود في الحقيقة إلى المعلومات الوفيرة التي خلدت أعماله والتي سجلها الإمام أحمد بن فرتوا رئيس العلماء ومؤرخ بلاط برنو، الذي كتب تاريخه، ودوّن حروبه في شرق بحيرة تشاد وغربها[3]. وكتاب الإمام أحمد مكتوب باللغة العربية، عثر الرحالة الألماني على مخطوطته خلال رحلته إلى السودان الأوسط والغربي ما بين سنة 1849 و1855م، وقد نشر الكتاب سنة 1930 على يد أمير كانو. وكان الإمام أحمد بن فرتوا قد كتب جزءاً من كتابه في عامي 990 و991/ 1582 و1583م في بيرني عاصمة إمبراطورية البرنو، ثم أكمل الجزء الأخير بعد ذلك بقليل. ومع أن النص العربي للكتاب مفقود الآن، فقد اعتمد الباحثون على الترجمة الإنكليزية للمخطوطة العربية، والتي أوردها بالمر في كتابيه باللغة الإنكليزية: (صحارى برنو والسودان) المنشور في لندن سنة 1936، و(مذكرات سودانية) بثلاثة أجزاء، المنشور في لاغوس سنة 1928[4].

وصف الإمام أحمد بن فرتوا نجاح الماي إدريس ألوما الباهر، وفتوحاته الناجحة، كما وصفه أيضاً بأنه عادل وحكيم. وفي طريقه للحج عرف قيمة الأسلحة النارية الجديدة، فاشترى كثيراً منها من الأتراك العثمانيين بهدف إعادة تنظيم وتدريب جيشه، فأعد فرقة من حملة البنادق، وأخرى من الفرسان[5]، كما استخدم كثيراً من العرب في جيشه[6]، إضافة إلى ذلك استخدم فصيلاً من حملة البنادق الأتراك تولت تدريب حرسه. وبفضل هذه الترتيبات

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.
(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 117.
(3) شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 292 ـ 293.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 118، وحاشية (2) ص 119، 231.
(5) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.
(6) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 293.

أصبح جيش برنو فريداً في السودان الغربي والأوسط. ثم أحدث تغييراً شاملاً في نظام النقل بالجيش بإحلال الإبل والخيل محل البغال والثيران، وطور الملاحة النهرية، فحلت القوارب الكبيرة محل الأشجار المجوفة، وبذلك اكتسب جيشه القدرة على الحركة السريعة والمباغتة التي كان يفتقر إليها، وظل هذا الجيش محتفظاً بقوته حتى حروب الفولاني[1].

وبهذه القوة العسكرية استطاع الماي إدريس أن يحقق انتصارات كبيرة، فهزم الطوارق في الشمال الغربي، وبربر أيِّر الذين كانوا ينهبون الأراضي الشمالية للسلطنة[2]، واستغرقت حملاته ضد الطوارق 12 سنة (978 ـ 990هـ/ 1570 ـ 1582م)[3]. وكان من نتائج هذه الانتصارات تأمين طرق القوافل التجارية، وتيسير الاتصالات بالشمال الإفريقي والتي كانت مضطربة بسبب اعتداءات قبائل التبو؛ وهم مجاميع من الطوارق[4].

وعلى الرغم من تبعية قبائل الصو لبرنو، إلّا أنهم كانوا يهاجمونها كلما لاحت لهم الفرصة، حتى غزاهم إدريس ألوما، وطردهم من حصونهم، وشتت شملهم[5].

أما في الجانب الغربي من إمبراطورية البرنو فكانت تقوم دولة الهوسا، وكانت مسرحاً لصراع مستمر بين مايات البرنو وسلاطين الهوسا. إلا أن الماي إدريس ألوما استطاع الاستيلاء على الكثير من مناطقهم، وأولها التي كانت أقوى مدن الهوسا، فهاجمها وانتصر عليها، ودمر عدداً كبيراً من معاقلها، لكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة الكبرى بيرني دالا التي تشكل الآن القسم الغربي من مدينة كانو الحالية في نيجيريا الشرقية[6].

كما استطاع إدريس ألوما إخضاع القبائل الوثنية مثل مرغي ومندرة في جزائر بحيرة تشاد في

---

(1) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 195 ـ 196.

(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 293؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.

(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 120.

(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 120.

(5) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 120؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.

(6) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 121؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص293؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.

الشرق والجنوب[1]، ومبعداً إياهم إلى مستنقعات شاد[2]. وكانت هذه القبائل شديدة التعصب لمعتقداتها، ولاسيما قبيلة تلاله، ويناصبون المسلمين العداء السافر، وبلغ من بغضهم للمسلمين أنهم كانوا لا يؤاكلون من يعجز منهم عن قتل أحد من المسلمين[3].

وقد سبقت الإشارة إلى أن الماي إدريس بن الغازي علي بن زينب الذي استعاد كانم من البولالا الذين اندفعوا إلى الشرق من دون متابعته إياهم. لكن إدريس ألوما شن عدة غارات عليهم، سببها أن مغتصباً من البيت البولالي اسمه عبد الجليل استولى على العرش، وطرد السلطان القائم محمد بن عبده اللاه، الذي هو خال ماي البرنو إدريس ألوما. فقام الماي إدريس سنة 1000هـ/ 1592م بالهجوم على السلطان المغتصب البولالي عبد الجليل، الذي لاذ بالهرب إلى الصحراء، ونجح إدريس في ضم القبائل البدوية إلى جانب السلطان محمد بن عبد اللاه، لتكون عضداً له ضد عبد الجليل. وأقام إدريس ثلاثة أيام أو أربعة هناك، وتم الاتفاق مع السلطان المعاد إلى عرشه على رسم حدود بينهما توضح معالم كانم والبرنو، وبمقتضى هذه الاتفاقية ضمت إلى برنو مناطق عدة كانت تابعة للبولاليين في كانم، ومنح إدريس بقية أجزاء كانم إلى السلطان محمد بن عبد اللاه. وأخذ عليه وعلى قومه قسماً على القرآن الكريم أن يظلوا على ولائهم للسلطان إدريس الذي عاد إلى برنو[4]. وهكذا استطاع محمد بن عبد اللاه ضمان السلم مقابل التضحية بأجزاء هامة من أراضيه[5].

ولم تكن حمية إدريس الدينية بأقل من حميته العسكرية، فقد تمسك بالشريعة الإسلامية وأحكام القرآن[6]، وسادت الشريعة الإسلامية في الإمبراطورية، وجعلت أساساً للمعاملات والسلوك[7].

---

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.
(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 121.
(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 121.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 118ـ119؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 193.
(5) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 193.
(6) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 196.
(7) زيادة، إفريقيات، ص 346.

وفي عهده حل القضاة محل زعماء القبائل في القضاء[1]. وقد بذل إدريس جهداً كبيراً ليجعل الإسلام دين الدولة، ونشره في جميع ربوع البلاد. ويقرر الإمام أحمد بن فرتوا في تاريخه بأن عهد إدريس حفل بانتشار الإسلام، وبخاصة الطبقة العليا التي أصبحت جميعها مسلمة[2]. وأكثر من بناء المساجد الضخمة في العاصمة بيرني [أو إكمّو][3]، والتي بُنيت من الطين والطابوق الأحمر بعد أن كانت تبنى بأخشاب الغابات[4].

قام إدريس ألوما بأداء فريضة الحج سنة 988هـ/ 1580م، وعاد باسم الحاج إدريس، ولم تشغله كثرة حروبه عن أداء هذه الفريضة[5]؛ لأنها كانت السنة العاشرة من بداية حملاته على الطوارق التي استمرت 12 سنة، كما بنى بمكة مقراً لحجاج برنو[6].

كان إدريس ألوما على علاقة طيبة مع كثير من الدول المعاصرة له، فصلاته الجيدة مع الدولة العثمانية جعلت السلطان العثماني مراداً الثالث (982ـ 1004هـ/ 1574 ـ 1595م) يرسل إليه بعثة دبلوماسية رفيعة الشأن[7]. ويبدو أن الحلف الذي عقده سابقاً الماي علي الغازي بن زينب مع برغوث باشا والي طرابلس العثماني[8] استمر في عهد الماي إدريس ألوما، بدليل أن الأسلحة النارية التي زُود بها إدريس كانت تأتيه من طرابلس[9]، كما أرسل بعثة تفاوضية إلى طرابلس تم بموجبها إرسال ثلة من الجنود العثمانيين من حملة البنادق إلى برنو حيث أدوا خدمات مهمة له خلال حروبه[10]. على الرغم من أن الفشتالي ذكر أن الرسول الذي أرسله الماي إدريس سنة 990هـ/ 1582م إلى المنصور السعدي، سبق وأن أرسل إلى السلطان العثماني مراد الثالث

---

(1) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 196.

(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 293.

(3) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 122.

(4) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 196.

(5) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 121.

(6) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 293.

(7) زيادة، إفريقيات، ص 346.

(8) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 587.

(9) قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 85.

(10) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 168.

(982 ـ 1004هـ/ 1574 ـ 1595م) طالباً المدد لإمبراطور البرنو لجهاد كفار السودان، لكنه أخفق في مسعاه[1].

كما كان الماي إدريس ألوما على صلات طيبة مع الدولة السعدية في عهد سلطانها المنصور السعدي المذكور أعلاه؛ فقد تبودلت الهدايا بين الطرفين بواسطة الرسول الذي أرسله إدريس ثلاث مرات. وعلى الرغم من الاستقبال الرائع الذي استقبل به الرسول، والمجاملات التي أبداها الرسول من الخضوع والتملق والطاعة للمنصور، من أجل الحصول على المساعدة والمدد لجهاد كفار السودان، فإن الماي إدريس على ما يبدو لم يبايع المنصور أميراً للمؤمنين ـ باعتباره شريفاً قرشياً من السلالة النبوية ـ كما طلب منه المنصور. إضافة إلى الاختلاف واللبس بين ما جاء في رسالة إدريس وبين ما قاله رسوله، هذا الاختلاف استغله المنصور لإخضاع صاحب البرنو.

وندرج في ما يأتي مقتطفات من أخبار وصول هدية الماي إدريس للمنصور، ومن نسخة البيعة المفترضة التي سيبايع فيها الماي إدريس السلطان السعدي المنصور، والتي كانت الشرط الأساسي لقيام المنصور بإمدادهم بالمساعدة. تلك البيعة التي تظاهر الرسول بقبول سلطانه إدريس بها، وإجابتها. ونسخة البيعة كتبها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي[2] بناء على طلب من الرسول، إذ ليس لديهم من يحسن الإنشاء، وحتى لا تخلو البيعة من الشرط الذي شارطهم عليه أمير المؤمنين المنصور السعدي[3]. وهذه مقتطفات من نص الفشتالي (وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان، وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإماء وكسا السودان وطُرَفِه، وكان ذلك عدد كثير يناهز المئين. فوافى المنصور بعسكره على رأس

(1) الفشتالي، مناهل الصفا، ص 68؛ السلاوي، الاستقصا، ج5، ص 105.

(2) نحيل القارئ إلى نص الفشتالي في ملاحق هذا الكتاب.

(3) الفشتالي، مناهل الصفا، ص 67 ـ 69. ينظر النص أيضاً: في السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، ص 104 ـ 111.

الماء من ساحة فاس، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة، جلس نصره الله تعالى بالقبتين التوءَمتين........، ثم جاء الإذن الكريم بإيصاله [إيصال الرسول] إلى مقر أمير المؤمنين بالتوءَمتين، فوقف بين يديه، وتشرف بالنظر إلى طلعته السعيدة، فأدى الرسالة، وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية، وأعرب عن مقاصد مرسله، واعترف للمملكة العظيمة بحقها، وأظهر الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله، وأدر عليه من الإنعام والإكرام ما لم يكن له في حساب.

وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار.........، فوجهه في هذه النوبة إلى ملك المغرب يطلب منه المدد، ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بيّن وتباين واضح، فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول........ وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطري: توات وتيكورارين، وأمل أن يجعلها ركاباً لبلاد السودان والاستيلاء عليها......، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو، ورجع الرسول إلى مرسله، بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسى من ملابس الخلافة وأسباب أخرى. ولما بلغ الرسول ثانية إلى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش، فأزال اللبس، وبين الغرض، وصرح بالمقصود، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء إلى التي هي أقوم، وطالبهم بالبيعة له، والدخول في دعوته النبوية......، لأن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه، ولا يكتب لهم عمله ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه، إذ هو الكافل لهذه الأمة، ووارث تراث النبوة، وقيضه الله لحماية بيضة الإسلام، وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة...... وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته، وعلق لهم ـ أيده الله ـ الإمداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط، فالتزمه الرسول، وزعم أيضاً عن سلطانه بالقبول والإجابة، وطلب من السلطان نسخة يتوجه

بها من صورة البيعة، إذ ليس ببلدهم من يحسن الإنشاء، ويوفي الغرض، لئلا يخلّوا بشيءمن الشروط التي شارطهم عليها أمير المؤمنين. فأنشأ كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها: ((الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق مناراً...... وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والإمامة الحسنية العلوية....... الرئيس أبو العلاء إدريس [يقصد الماي إدريس] أكرمه الله.....، إلى تقلد إمام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله....... أُشهد على نفسه بها فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء إدريس أسعده الله وأكرمه، وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية).

ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول، وأكرم، وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه، وتوجه إلى بلاده بجواب مرسله، ولم يلبث أن رجعه سلطانه ثالثة، ووجه معه هدية ورسالة، وخاض القفر إلى دار الخلافة، فوصل إلى بلاد تيكورارين، وهناك اعترضته منيته، فاعتل وهلك، فأشخص أولو الأمر الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه، فوصلوا إلى حضرة أمير المؤمنين بمراكش، وقدموا إليه رسالتهم وهديتهم، فتقبلها بقبول حسن، وتم السرور وعظم الحبور....)[1]. ولم يعرف ما جاء بهذه الرسالة الأخيرة من قبل الماي إدريس ألوما، وهل بايع المنصور بإمرة المؤمنين. وفي الغالب أنه لم يبايع، بدليل أن الإمام أحمد بن فرتوا كان يلقب في تاريخه الماي إدريس ألوما بأمير المؤمنين.

ويعلق أحد الباحثين على العلاقات السعدية البرنوية، فيقول: إن مصالح الدولتين قد التقت حينما كان الإمبراطور إدريس الثالث [ألوما] يرغب في الحصول على السلاح الناري من السعديين، بعد تردد العثمانيين في تسليمه إليه. وكان أحمد المنصور الذهبي السعدي يتطلع إلى تحييد إدريس في موضوع الحرب المقبلة مع دولة السنغاي، والوقوف في وجه السلاطين العثمانيين إن طمعوا في الإجلاب من المناطق التي صمم المنصور على إلحاقها بالدولة السعدية[2].

(1) الفشتالي، منهل الصفا، ص 67 ـ 69؛ السلاوي، الاستقصا، ج5، ص 104 ـ 111.
(2) الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، ص 69.

أما عن علاقات إدريس ألوما بدولة سنغاي إحدى أكبر دول السودان الغربي، فهي علاقات توتر واصطدام لابد منه، بسبب طمع كل من الدولتين في ضم الإمارات الصغيرة ببلاد الهوسا، لما تحفل به من ثروات زراعية وحيوانية. وكان مصدر الخطر الحقيقي على دولة السنغاي قبل حملة المنصور السعدي عليها هو المنطقة الشرقية؛ أي من البرنو التي ازداد توقع حدوث غزوها لسنغاي، وبخاصة ما حدث من تنازع خلفاء الأسكيا الحاج محمد[1].

قتل الماي الحاج إدريس ألوما سنة 1012هـ/ 1603م في إحدى المعارك الحربية مع قبيلة باغرمي الوثنية، إذ أصابه أحد الوثنيين بسهم في صدره. ترك دولة عظيمة منظمة قوية، بل أعظم دولة في السودان الأوسط[2]، وهكذا انتهى عهده بعد أن بلغت الإمبراطورية أوج قوتها في عصره[3]. ويشير بانكيار إلى أن القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي شكّل فترة عظمة إمبراطورية البرنو. ففي خلاله أعاد ثلاثة حكام عظام ـ هم: الإدريسيان، ومحمد بن إدريس [ويقصد به الماي التاسع والأربعين من سلسلة الأسرة السيفية، والثامن والثلاثين من المايات المسلمين، والذي حكم خلال (934 ـ 952هـ/ 1527 ـ 1545م)، وليس الماي الضعيف الرابع والخمسين من سلسلة الأسرة السيفية] ـ بناء قوة الدولة، واحتفظت برنو بسيادتها من دارفور إلى الحدود الغربية لبلاد الهوسا، وخضعت فزان مرة أخرى لسيادتها[4]. وعليه يمكن القول إن فترة عظمة البرنو وازدهارها بدأت منذ الربع الأخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وبلغت أوجها في القرن الذي تلاه، وتعد واحدة من أعظم أربع دول في العالم الإسلامي آنذاك، يؤيد ذلك ما كان متداولاً عند الناس بالسودان الغربي حول موضوع السلاطين العظام الأربعة، فهم (يقولون سلاطين أربعة، ما خلا السلطان الأعظم سلطان بغداد وسلطان مصر، وسلطان برن [برنو] وسلطان مَلِّ [مالي])[5].

---

(1) الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان، ص 69.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 122.

(3) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 195.

(4) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 195.

(5) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 38.

هذا الدور الذي أدته الإمبراطوريات الأربع غانا ومالي وسنغي والكانم ـ برنو، في تاريخ السودان الغربي والسودان الأوسط عظيم الأهمية والتأثير، (فقد قامت كانم وبرنو في السودان الأوسط بالدور نفسه الذي قامت به غانا ومالي وسنغي في السودان الغربي، فقد كان لها الفضل الأكبر في تطوير الحضارة السودانية ورقيها)[1].

خامساً ـ ضعف إمبراطورية البرنو وتدهورها (1012 ـ 1223هـ/ 1603 ـ 1808م):

دام هذا العصر حوالي قرنين من الزمان، تقلد فيه أحد عشر ماياً من محمد بن إدريس إلى أحمد بن علي. لم يطرأ وهن سريع على إمبراطورية البرنو، واستطاعت أن تقف على قدميها، وتدعم نفوذها، على الرغم من أن ماياتها الثلاث أبناء إدريس ألوما كانوا ضعافاً، وهم: محمد وإبراهيم والحاج عمر. لكن الشيخوخة أخذت رويداً رويداً تنخر عظام المملكة[2]، وبدأ الضعف يدب في أوصالها، بسبب ضعف السلاطين في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي الذين لم يهتموا بصالح الرعية، ولم يكن لأحد من السلاطين شأن هام في تدبير أمور الملك، ما عدا علي بن الحاج عمر (1055 ـ 1096هـ/ 1645 ـ 1685م) وهو رابع السلاطين بعد إدريس ألوما، الذي كان كجده في الكفاءة والبطولة، فقاتل سلطان أغاديس Agades [التي تقع الآن في جمهورية النيجر] قتالاً شديداً، وطرد الطوارق إلى الصحراء[3]، كما أدى فريضة الحج ثلاث مرات[4].

لكن خلفاء علي بن الحاج عمر عاشوا عيشة البذخ والخمول، فلم ينهضوا لدفع المغيرين على بلادهم، وتركوا الأهالي التعساء نهباً لقطاع الطرق وجماعات اللصوص، وأهملوا زراعة الأرض، وفتكت بهم الأوبئة والمجاعات[5].

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 123.
(2) بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 196.
(3) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588؛ بانيكار، الوثنية والإسلام، ص 196 ـ 197؛ باري وكريديه، المسلمون في غرب إفريقية، ص 158.
(4) باري وكريديه، المسلمون في غرب إفريقية، ص 158.
(5) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588.

على أن أخطر ما تعرضت له إمبراطورية البرنو في عهدها الأخير خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، هو خطر الفولانيين، أو الفلاتا[1]، ويسمون أيضاً البول، أو الغُلبة[2]. ويعتبرون أنفسهم من الشعوب البيضاء، ولاسيما الطبقة الحاكمة منهم، رغم تأثرهم بالدماء الزنجية بسبب الاندماج والمصاهرة. ومع الاختلاف في أصلهم، لكن المعروف أن أوائلهم هاجروا إلى ساحل المحيط الأطلسي، حيث استقر بعضهم هناك، واستمر البعض الآخر في الرحلة جنوباً، وكان ذلك حوالي القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فوصلوا بلاد الهوسا، فاستقروا، واختلطوا بهم، ثم اعتنقوا الإسلام. وبقوا مدة طويلة في بلاد الهوسا من الرعايا المعاندين، على أن الكثير منهم كان خاضعاً لنفوذ المايات البرنويين، كما أن الكثير من العلماء في البرنو كانوا من الفولانيين الذين كان لهم دور كبير في نشر الإسلام في البرنو، وفي تدريس العلوم الدينية الإسلامية والعربية، ونال كثير منهم امتيازات كبيرة من قبل مايات البرنو، وذلك بموجب المراسيم السلطانية التي تعرف بالمحارم، وهي مكتوبة باللغة العربية، وتعد من الوثائق المهمة التي يُعتَمد عليها في كتابة تاريخ إمبراطورية البرنو[3]، وتعني منح امتيازات لشخص أو أشخاص معينين، وينص في الوثيقة المكتوبة على أن هذه الامتيازات أو المنح محرمة على من يتعدى عليها[4]. ومن أمثلة هذه المحارم التي تضمنت امتيازات كبيرة للفولانيين المَحْرَم الذي أصدره الماي التاسع والخمسون من سلسلة الأسرة السيفية (الثامن والأربعون من المايات المسلمين) دونمة بن علي (1111 ـ 1129هـ/ 1699 ـ 1717م)، مكتوباً باللغة العربية، ومؤرخاً بالتاريخ الهجري ـ الأمر الذي يدل على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية لإمبراطورية البرنو، والتأريخ المعتمد فيها هو الهجري ـ سنة 1106هـ/ 1694م، وكان ذلك تجديداً لما منحه أسلافه منذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[5].

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 129، حاشية ص 130.

(2) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588.

(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 129 ـ 130.

(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 215 ـ 216.

(5) ينظر: طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 130. يُطلق على الفولانيين في السودان الشرقي اسم الفلاطى كما ورد في المحرم المخطوط ص 1، 5، 6 [ص 198،195 من طرخان] ونص المَحْرَم الذي حققه ونشره الدكتور إبراهيم طرخان ملحقاً في

وفي عهد الماي علي بن الحاج حمرون (1163 ـ 1206هـ/ 1750 ـ 1791م) أصبح الفولانيون عنصراً خطيراً، فقد انضموا إلى القبائل التي حاربها الماي، وبسبب مساعدة الفولانيين لهذه القبائل مني الماي بهزائم مشينة، ولذلك يعد عهد الماي علي بن الحاج حمدون البداية الفعلية لتدهور برنو وسقوطها النهائي، بل زوال الأسرة الماغومية السيفية[1].

ازدادت قوة الفولانيين بفضل ظهور زعيم ديني عظيم بينهم هو الشيخ عثمان دان فودي الفولاني، وهو فقيه عالم، حج إلى مكة، وله نفوذ روحي كبير بين أبناء قومه الفولانيين الذين التفوا حوله[2]. ففي مطلع القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي هب الزعيم عثمان دان فودي ليقود ثورة الفولانيين ويوسع سلطانه[3]، فحرر جميع الأقاليم التي كانت

كتابه إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 195 ـ 199، مع صور لمخطوطة نسخة المَحْرَم الأصلية، ص 201 ـ 204 من صفحات كتاب إمبراطور البرنو الإسلامية [والتي يقابلها الصفحات الثمانية لمخطوط المحرم ص 1 ـ 8]. ولنا عدة ملاحظات على هذا المَحْرَم، فالدكتور الفاضل ذكر أن هذا المحرم ورد في صبح الأعشى، ج8، ص 116 ـ 118، والصحيح أن ما ورد في الصفحات الثلاث 116 و117 و118 هو نص رسالة ماي البرنو عثمان بن إدريس إلى سلطان المماليك الظاهر برقوق سنة 794هـ/ 1392م، وليس نص المَحْرَم المذكور. كما لم يذكر لنا طرخان مكان النسخة الأصلية للمخطوطة التي صور منها نسخته، وربما يكون قد صورها من نسخة مصورة في كتاب بالمر (صحارى البرنو والسودان) الذي يشير إليه طرخان عند كلامه عن المحارم. ينظر طرخان ص 177 ـ 178 والملاحظة الثالثة أن طرخان خلط بين اسمي المايين الأخويين: رقم (58) إدريس بن علي ورقم (59) دونمة بن علي، فذكر أن الماي الذي أصدر المحرم هو إدريس بن علي، (ينظر إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 130، 195) والصحيح أن الذي أصدر المحرم هو دونمة بن علي (كما جاء نص المحرم في كتاب إمبراطورية البرنو ص 198 وص 6 في نص المحرم المخطوط الوارد في ص 203 من كتاب إمبراطورية البرنو). وهنالك إشكالية أخرى، وهي أن المَحْرَم كتب ووقع سنة 1106هـ كما جاء في المخطوط (ينظر ص 6 من مخطوط المحرم، يقابله ص 199 من المنشور في كتاب إمبراطورية البرنو الإسلامية لطرخان)، وهذه السنة لا تقع في عهد الماي دونمة بن علي، بل تقع في عهد أخيه وسابقه إدريس بن علي (1091 ـ 1111هـ/ 1680 ـ 1699م). وقد عد طرخان احتمال الصواب هو سنة 1116هـ وليس 1106هـ، وعزا ذلك إلى احتمال وجود خطأ وقع سهواً من ناسخ أو كاتب هذا المَحْرَم في ضبط السنة التي كتب فيها المحرم. وربما لا يكون رأي طرخان صائباً، أي أن سنة 1106هـ هي الصحيحة وأن الناسخ أو الكاتب لم يقع في الخطأ. إضافة لذلك فإن الماي دونمة صاحب هذا المَحْرَم قال فيه: (ثم أجاز السلطان إدريس بن علي بن عمر [أخوه وسابقه]، اللهم انصره على أعدائه) (ينظر ص 5 من مخطوط المحرم، ويقابلها ص 198 من المنشور عند طرخان). ولو لم تكن سنة 1106هـ التي وقع بها المحرم صحيحة لقال مثلاً عن أخيه: المرحوم أو يرحمه الله، مثلما قال عن أبيه علي في المحرم نفسه (ينظر ص 5 من مخطوط المحرم ويقابلها ص 198 من المنشور عند طرخان). وبناء على ما تقدم فإن من المحتمل أن يكون الأخوان إدريس ودونمة قد تقاسما السلطنة في آن واحد بعد وفاة أبيهما علي، أو أن إدريس قد خول أخاه دونمة التوقيع على المحرم سواء أكان مشاركاً له في الحكم أم نائباً عنه. ومع هذا يبقى هذا الموضوع غامضاً، ويحتاج إلى تحليل آخر.

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 131.

(2) طرخان، إمبراطورية برنو الإسلامية، ص 131.

(3) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 294؛ باني وكريدية، المسلمون في غرب إفريقية، ص 159.

خاضعة لحكم البرنو، وتدفع الجزية لها، وفي عام 1223هـ/ 1808م هاجم برنو نفسها التي عجزت عن صد هجومه، وفر سلطانها أحمد بن علي (1206 ـ 1223هـ/ 1791 ـ 1808م) أمام الجيش الزاحف متجهاً نحو كانم[1].

سادساً ـ الشيخ محمد الأمين الكانمي صاحب السلطة الفعلية في البرنو:

لما فر الماي أحمد ومعه ابنه وولي عهده إلى مدينة ميج Mege التقى مع الشيخ الأمين الكانمي، وطلب منه المساعدة[2].

والشيخ محمد الأمين الكانمي عربي من فزان، التي ولد فيها، وقد نسب نفسه إلى كانم لاستقراره فيها، ولتوثيق الصلة بها، فعرف بالكانمي، وكان يلقب بالشيخ. كان عالماً واسع المعرفة في مجال العلوم العقلية والنقلية[3]، ومن العلماء البارزين الذين يعملون على نشر الإسلام، وتثبيت قواعده، وتطهيره من الشوائب الوثنية، والحث على الجهاد. استقر في كانم حيث تزوج من ابنة أمير نغالا، واشتهر بثقافته وعقله وتقواه، ورفض أن يغادر البلاد أمام غزو الفولانيين[4]، وكوّن فرقة للمقاومة أكثر أفرادها من كانم، فقاوم الفولانيين بثبات، واستطاع أن يرد جيشهم، ويحول دون تقدمهم إلى شرق بحيرة شاد، ونجح في تحرير شرقي برنو بعد معركة انتصر فيها عليهم في نجورنو[5]، وأعاد الماي أحمد بن علي إلى عاصمة ملكه[6].

بعد هذا الانتصار حدثت منافسة بين الشيخ محمد الأمين الكانمي وبين أمراء البرنو الذين تخوفوا من تزايد نفوذه. لذا قرر السلطان أحمد بن علي أن يقود الجيش بنفسه ليتابع مقاومة

---

(1) يفر، مادة: البرنو دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588؛ باني وكريدية، المسلمون في غرب إفريقية؛ ص 159؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 133؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 294.
(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 133 ـ 134.
(3) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 295.
(4) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 134.
(5) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 295؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 134؛ قداح، إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص 85؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588.
(6) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588 ـ 589.

الفولانيين[1]، لكنه عجز عن تحقيق النصر، فاستدعى الكانمي ثانية ليواصل نضاله، فحقق انتصارات عديدة زادت من نفوذه وجعلته السلطان الفعلي في إمبراطورية البرنو[2]، فكان يولي ويعزل من يشاء من المايات الذين لم يبق لهم إلا الاسم[3]. فعندما غضب على الماي دونمة بن أحمد بن علي (1222 ـ 1226هـ/ 1807 ـ 1811م) عزله، وعين بدله عمه محمد نجلروما (1226 ـ 1229هـ/ 1811 ـ 1814)، لكن الشيخ محمد الأمين الكانمي لم يجد في الماي الجديد ما يناسبه، كما أن الماي الجديد لم يكن يخضع لأهواء الشيخ، فعزله، وأعاد دونمة الماي السابق مرة ثانية للسلطنة التي استمر فيها من (1229 ـ 1232هـ/ 1814 ـ 1817م) بعد أن اشترط الشيخ عليه أن يخصص له ولاتباعه نصف إيرادات إمبراطورية البرنو. ونفذ الماي دونمة هذا الشرط، وحافظ عليه فترة من الزمن، حتى شعر بثقل وطأة الشيخ محمد الكانمي، فاتفق مع سلطان باجرمى لغزو البرنو، وتعرضت مدينة كوكا ـ محل إقامة الشيخ محمد الكانمي لنهب جيش باجرمى. وحدث أن قتل الماي دونمه عن طريق الخطأ على يد جيش باجرمى، فتقدم إبراهيم بن أحمد [أخو الماي القتيل] على الشيخ محمد الكانمي أن يعطيه إيرادات إمبراطورية البرنو، وجميع مقاليد السلطة، مقابل تمكينه الحصول على العرش، فعينه ماياً للبرنو (1232 ـ 1262هـ/ 1817 ـ 1846م)[4].

ومن الملاحظ أن أوروبا منذ عهد الماي إبراهيم الواقع تحت نفوذ الشيخ محمد الأمين الكانمي كانت حريصة كل الحرص على ارتياد مناطق السودان الأوسط والغربي الداخلية، ومعرفتها جيداً تمهيداً لاستعمارها. فأرسلت إنكلترا في سنة 1236هـ/ 1821م بعثة من طرابلس بقيادة الميجر دكسون دنهام والملازم كلابرتون والدكتور أودني، فوصلوا إلى مرزوق، ثم إلى بحيرة تشاد بحثاً عن منابع نهر النيجر، ثم توجه كلابرتون وأودني إلى بلاد الهوسا. أما كلابرتون فوصل كانو، ومنها توجه إلى سوكوتو عاصمة حاكم بلاد الهوسا محمد بللو الفولاني، ثم

(1) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 295؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 588.
(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص 295.
(3) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص 295؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 137.
(4) طرخان إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 137؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 589.

زاروا كوكا في البرنو سنة 1238هـ/ 1823م. وفي عام 1240هـ/ 1825م قام كلابرتون برحلة استكشافية أخرى إلى غينيا، ثم توالت بعدها البعثات الاستكشافية الاستعمارية الإنكليزية للمنطقة[1].

حكم الماي إبراهيم بن أحمد وفق الشروط التي فرضها على نفسه للشيخ الكانمي، الذي تنازل عن سلطانه الفعلي لولده الشيخ عمر في عام 1251هـ/ 1835م حيث أصبح الحاكم الفعلي غير الرسمي، علماً بأن والده الشيخ محمد الأمين قد توفي سنة 1255هـ/ 1839م. وبتولي الشيخ عمر صلاحيات والده بدأت البرنو تعيش حالة من الاضطرابات والفوضى بسبب محاولة الماي إبراهيم التخلص من نفوذ أسرة الشيخ الكانمي. فاتفق مع أمير وداي الذي هاجم البرنو وهزم جيشها هزيمة منكرة. وما إن علم الشيخ عمر بمؤامرة الماي إبراهيم حتى قبض عليه ومستشاريه وأعدمهم جميعاً. في الوقت نفسه تقدم سلطان وداي المنتصر نحو كوكاوا مركز الشيخ عمر طالباً منه تولية علي بن دلاتو في منصب الماي، فاضطر الشيخ عمر للقبول، واشترى عودة سلطان واداي وجلاءه بمبلغ قدر بحوالي ألف جنيه إسترليني. ولما اطمأن الشيخ عمر الكانمي على زوال الخطر لم يسمح للماي المفروض عليه أن يحكم سوى أربعين يوماً، فحاربه وقتله سنة 1262هـ/ 1846م. وبمقتله ينتهي حكم الأسرة الماغوية السيفية، وهو الماي رقم (68) في سلسلة مايات الأسرة السيفية (السابع والخمسون من المايات المسلمين)[2]. وقد شبه البعض تحكم الشيخ الأمين الكانمي وابنه الشيخ عمر في عصر المايات الضعفاء بطائفة الحكام التي عرفت في أواخر عهد روما في القرن الخامس الميلادي بصناع الملوك، إذ كان بيدهم تعيين وعزل مايات برنو[3].

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 141.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 138 ـ 139؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 590؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 296.

(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 140.

سابعاً ـ أسرة الشيخ محمد الأمين الكانمي تتولى حكم البرنو:

مرّ بنا سابقاً كيف تولى الشيخ محمد الأمين الكانمي السلطة الفعلية في البرنو عام 1224هـ/ 1809م، وليس للمايات السيفيين سوى الاسم، وكان عدد المايات المعاصرين لحكمه ثلاثة هم: دونمة بن أحمد الذي تولى العرش مرتين، وأخوه إبراهيم بن أحمد، وعمهما محمد نجلروما. ولم يعاصر حكم ابنه الشيخ عمر بن محمد الكانمي من المايات سوى (12) سنة (1251 ـ 1263هـ/ 1835 ـ 1847م) الأخيرة من فترة حكم إبراهيم بن أحمد (حكم 1232 ـ 1263هـ/ 1817 ـ 1847م)، و(40) يوماً من حكم آخر مايات الأسرة السيفية علي بن دلاتو سنة 1262هـ/ 1846م.

تولى الشيخ عمر بن محمد الكانمي حكم البرنو فعلياً مدة 11سنة (1251 ـ 1262/ 1835 ـ 1846) ثم تولى عرشها رسمياً 34 سنة (1262 ـ 1297هـ/ 1846 ـ 1880م) بعد مقتل علي بن دلاتو سنة 1262هـ/ 1846م، فيكون مجموع حكمه لإمبراطورية البرنو (45) سنة. وبهذا يكون الشيخ عمر قد حكم في عصرين؛ الأول عصر ضعف دولة البرنو الذي لم يكن لماياتها في الحكم إلا الاسم، والثاني عصر اعتلاء شيوخ أسرة الكانمي حكم البرنو بسقوط الأسرة السيفية ومقتل آخر سلاطينها علي بن دلاتو على يد الشيخ عمر سنة 1262هـ/ 1846. وتعد هذه السنة بداية تولي أفراد الأسرة الكانمية الحكم في برنو، واقتنع عمر بلقب الشيخ فقط، وكان في مقدوره أن يلقب نفسه بالسلطان، لكنه سار على نهج أبيه[1]، وأصبحت كوكا عاصمة البرنو منذ ذلك الوقت. وقد استمر في حكمه حتى وفاته في سنة 1297هـ/ 1880م.

كان الشيخ عمر عادلاً مؤثراً للسلم، لكنه لسوء الحظ كان يخضع لمن حوله من وزراء وخدم، ولاسيما خادمه الخصي سَلْتِمَة الذي حظِيَ عنده بمكانة رفيعة بعد وفاة وزيره بشير، فأصبح هذا الخصي الحاكم الفعلي لبرنو، وهو الذي نفذ رغبات الشيخ عمر في أن يؤول العرش

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 590؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ح6، ص 296.

إلى أولاده، كما رتب نظام توارثهم له[1].

كان الشيخ عمر ميالاً إلى الأوروبيين، وهو الذي أحسن وفادة الرحالتين بارث ونجتيجال[2]. فقد زار الرحالة الألماني بارث ـ المبعوث من قبل إنكلترا ولحسابها ـ البرنو في عام 1269/ 1852م، وأقام فترة في العاصمة كوكا، بعد أن عبر من طرابلس الصحراء إلى قلب إفريقية عام 1265هـ/ 1849م، ماراً بأير، أو أهير، أو أغاديس، وتَسمّى باسم عبد الكريم، كما حصل من سلطان أهير الأمير عبد القادر على خطاب توصية إلى أمير دَوْرَى من بلاد الهوسا[3].

وفي الفترة ما بين 1268هـ/ 1851م و1271هـ/ 1854م زار تشاد وزندر وكاتسنا وكانو وسوكوتو وجواندو، وفي الأخيرة عثر على مخطوطة تاريخ السودان للسعدي، ثمّ توجه إلى سي (Say) عبر النيجر، وجمع خلال رحلته الكثير من الوثائق والمخطوطات والمعلومات، مما مكّنه من كتابة تاريخ لبرنو وغيرها من بلاد السودان الأوسط.

وقد عجَّ عهد الشيخ عمر الكانمي برحالة آخرين من بعد بارث، ذيلوا على أبحاثه وكتاباته، أمثال الدكتور إدوارد فوجل Vogel (1271 ـ 1273هـ/ 1854 ـ 1856م)، وبرمان Beurman سنة 1277هـ/ 1860م، وروِلف Rohlf سنة 1283هـ/ 1866م، وناچتيجال Nachtigal الذي حمل إلى الشيخ عمر الكانمي في كوكا هدايا ملك بروسيا (1297 ـ 1298هـ/ 1880 ـ 1881م) وذلك في عام 1297هـ/ 1880م[4]. كما قام الرحالة الفرنسي شارل مونتي Monteil برحلة إلى البرنو عام 1310هـ/ 1892م، واستقبله في كوكا الشيخ هاشم الكانمي، وهو الشيخ الخامس في سلسلة شيوخ البرنو من أسرة الشيخ الكانمي[5].

وبعد وفاة الشيخ عمر سنة 1297هـ/ 1880م تولى ابنه الشيخ بكر (1297 ـ 1302هـ/

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 590.
(2) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 590.
(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 141 ـ 142.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 142.
(5) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 142.

1880 ـ 1884م) الذي اشتهر بالكرم والدهاء في الحرب، لكنه توفي وهو يتجهز للقيام بحملة على واداي، خلفه أخوه إبراهيم الذي حكم سنة واحدة (1302 ـ 1303هـ/ 1884 ـ 1885م)، ثم تولى أخوهما الآخر الشيخ هاشم، وحكم من (1303 ـ 1311هـ/ 1885 ـ 1893م). وقد سبقت الإشارة إلى زيارة الرحالة الفرنسي مونتي له، ووصفه بأنه رجل فاضل ومسلم متحمس، له مشاركة في العلم، لكنه لم يكن يعنى بشؤون دولته، وعاش في قصره وسط نسائه البالغ عددهن 450 زوجة وسرية، وأولاده البالغ عددهم 350 طفلاً، وأسخط رعيته لوقوعه تحت نفوذ حظيته مَلَدَم.

أخذت معالم اضمحلال البرنو التي كانت ظاهرة أواخر أيام الشيخ عمر تزداد وضوحاً على مرّ الأيام. فقد انصرف الأهلون إلى الزراعة، وفقدوا بالتدريج صفاتهم الحربية. ولم يعد أحد يهتم بالشؤون العامة؛ لأن السلاطين أخذوا يسندون أرفع المناصب إلى أشخاص من نسل العبيد. وأخذت دلائل الفوضى تزداد بسرعة، وأصبح الأمراء المقطعون وكبار العمال يتصرفون وفقاً لأهوائهم، فأعلن البعض رفض دفع الجزية، وأعلن البعض الآخر استقلاله. وقامت قبائل واداي بغارات متوالية بقصد السلب، عاملين السيف في رقاب الناس من دون رحمة، حتى وصلوا إلى كوكا نفسها. وكان حال البرنو أشبه بالبناء المتداعي، ما إن يصيبه أي حادث مهما قل شأنه حتى ينهار، وقد تقوضت أركانه فعلاً أمام هجمات رباح الزبيري الذي دخل البرنو سنة 1311هـ/ 1893م[1].

ثامناً ـ رابح الزبيري ونهاية حكم أسرة الكانمي:

هيأ الضعف الذي كان عليه عهد الشيخ هاشم الكانمي الفرصة لثائر جديد ليزعزع نفوذ الأسرة الكانمية، ويحكم البرنو، وهو رابح الزبيري من سودان الخرطوم.

لُقب بالزبيري نسبة إلى الزبير باشا التاجر. اشتد نفوذه، فنال مكانة سياسية عن طريق ثروته

(1) يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 590 ـ 591؛ شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 296.

وقوته، وفتح دارفور باسم الحكومة المصرية، وأصبح حاكماً لبحر الغزال. لكن غوردون باشا الإنكليزي الذي تولى حكم السودان إبان عهد خديوي مصر إسماعيل غدر بالزبير باشا وبابنه سليمان، فقد أمر الإنكليز الخديوي إسماعيل باستدعاء الزبير باشا[1]. لكن هذا الاستدعاء أثار مخاوف مولى الزبير باشا وأحد قواده المدعو رابح، الذي كانت تربطه بالزبير روابط متينة سمحت له أن ينتسب إليه، فعرف برابح الزبيري، فقاد فيلقه المصري الضخم، وتخطى حدود السودان غرباً إلى واداي سنة 1310هـ/ 1892م، فاستولى على سلطنة باجرمي، ثم دخل كانم. وفي سنة 1311هـ/ 1893م قضى على سلطنة البرنو الكانمية، وأسقط الشيخ هاشم بن عمر آخر سلاطين الأسرة الكانمية، ليصبح حاكم هذه الإمبراطورية الفسيحة مدة تراوحت بين ست وعشر سنوات[2]. ولم يلبث الشيخ هاشم طويلًا بعد هذه الهزيمة، إذ قتله أحد أبناء أسرته[3].

وتولى رابح مقاومة الإنكليز الزاحفين من أوغندة وسودان وادي النيل، كما استعد أيضاً لمحاربة المستعمرين الفرنسيين المتوجهين من جهة الكونغو، وتشاد[4].

تحالف الاستعمار الفرنسي مع سلطان باجرمي الذي كان رابح قد أوقع به[5]، وفي سنة 1312هـ/ 1894م قسمت البرنو أول تقسيم استعماري بين إنكلترا وفرنسا وألمانيا[6].

دار صراع بين رابح من جانب، وبين الفرنسيين وأعوانهم من جانب آخر[7]. فبعثت فرنسا سنة 1315هـ/ 1897م جيشاً يقوده جنتل وصل من الكونغو إلى باجرمى، كما شن جنتل في سنة وفي العام 1317هـ/ 1899م هاجم رابح، لكن هذا استطاع أن ينزل الهزيمة بأحد فرق

(1) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 296 ـ 297؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 142؛ باني وكريديه، المسلمون في غرب إفريقية، ص 160.
(2) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 297؛ يفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 591؛ حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص 129.
(3) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 143.
(4) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 142.
(5) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 297.
(6) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 143.
(7) شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 297.

هذا الجيش، فتقدم جنتل بنفسه، وتمكن من هزيمة رابح في كونو Kunu. وصلت إمدادات فرنسية يقودها ثلاثة من القواد الفرنسيين أحدهم لامي Lamy، إلى رندر، وفي 22 شباط سنة 1900 انتصر الفرنسيون على رابح، وذبحوه في معركة قرب كوسيري kusseri. وكان قائد الجيش الفرنسي في هذه المعركة لامي الذي جُرح فيها جرحاً مميتاً[1]، وهكذا تكون نتيجة معركة كوسيرى انتصار فرنسا ومقتل القائدين من كلا الجانبين المتحاربين.

أعيد تقسيم أملاك البرنو ـ بعد مقتل رابح ـ بين إنكلترا وفرنسا، فأخذت فرنسا منطقة كانم، وأخذت إنكلترا برنو الأصلية بما فيها كوكا، بينما كان نصيب ألمانيا المناطق الجنوبية لبرنو بما فيها دكوة المزدحمة بالسكان[2].

وهكذا تلاشت إمبراطورية البرنو الإسلامية ذات التاريخ الطويل، في خضم حركة الاستعمار الأوروبية مطلع القرن العشرين.

تاسعاً ـ الدولة الإفريقية الحديثة:

أدت حركات التحرر الإفريقية الوطنية إلى قيام الدول الإفريقية الحديثة، فأصبحت أراضي إمبراطورية البرنو موزعة بين تلك الدول على النحو الآتي:

1 ـ جمهورية تشاد: التي كانت مستعمرة فرنسية، واستقلت في حزيران 1960، وتشمل أغلب الأجزاء الشرقية من إمبراطورية البرنو، وإقليم كانم بأكمله. وكانت عاصمتها زمن الاستعمار الفرنسي (فورن لامي) نسبة إلى القائد الفرنسي فورنو لامي Fourneau Lamy، وتقع جنوب بحيرة شاد عند مصب نهر شاري، ثم تغير اسمها إلى (نجامينا). وتقع في جمهورية شاد أطلال (جمي) عاصمة إمبراطورية كانم ـ البرنو في عصرها الكانمي.

2 ـ جمهورية إفريقية الوسطى: التي استقلت في آب 1960م، وكانت ضمن المستعمرات

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 143؛ يـفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 591.
(2) يـفر، مادة: البرنو، دائرة المعارف الإسلامية، م3، ص 592؛ طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 145.

الفرنسية، وتضم الأطراف الجنوبية من إمبراطورية البرنو، وعاصمتها (بانجوي) الواقعة على نهر أوبانجي رافد الكونغو الكبير.

3 ـ جمهورية النيجر: كانت مستعمرة فرنسية، استقلت في آب 1960، وتضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من إمبراطورية البرنو. وفيها مدينة (بلما) أو (البلماء) عاصمة حكومة الصو (العماليق) الأولى، كما تضم واحة (كُوار)، ومدينة (زندر) التي اشتهرت زمن إمبراطورية البرنو، ومملكة أهير (أغاديس) صاحبة العلاقات مع إمبراطورية البرنو، وعاصمتها (نيامي) الواقعة على نهر النيجر.

4 ـ جمهورية نيجيريا: كانت مستعمرة إنكليزية، استقلت في تشرين الأول 1960. وتضم إقليم برنو غرب بحيرة شاد ومدنه التاريخية المشهورة، كالعاصمة القديمة (نجازار جامو مكوكا) و(دكوا) و(مدجوري) و(نجوري) و(بوجي) إضافة إلى جميع إقليم الهوسا ومدنه التاريخية. وكانت عاصمة جمهورية نيجيريا (لاغوس) الواقعة على ساحل خليج غانا، أما الآن فهي (أبوجا). وأغلب سكان الجمهورية مسلمون، وفيها الكثير من المدارس العربية الإسلامية التي تعلم باللغة العربية.

5 ـ جمهورية الكمرون: كانت ضمن المستعمرات الفرنسية، واستقلت في أول كانون الثاني 1960، وتضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الشرقية من برنو. وفي حزيران من سنة 1961م انضمت الأجزاء الشمالية من جمهورية الكمرون إلى اتحاد مع نيجيريا. كانت عاصمتها (دوالا)، والآن هي (ياوندي)، ومن بين سكانها جالية إسلامية كبيرة[1].

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 145 ـ 147، بانيكار، الوثنية والإسلام، حاشية ص 177.

الملاحق

أولاً ـ ملاحق الباب الأول:

1 ـ سلاطين باتا[1]

السلطان	السنة
1 ـ سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني.	حكم عام 600هـ/ 1203م.
2 ـ محمد بن سليمان.	حكم عام 625هـ/ 1227م.
3 ـ أحمد بن سليمان.	حكم عام 650هـ/ 1252م.
4 ـ أحمد بن محمد بن سليمان.	حكم عام 670هـ/ 1271م.
5 ـ محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	(لابد أنه حكم عام 731هـ/ 1330م).
6 ـ عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 749هـ/ 1348م.
7 ـ محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 797هـ/ 1394م.
8 ـ أبو بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 875هـ/ 1470م.
9 ـ محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد.	توفي سنة 900هـ/ 1494م.
10 ـ أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 945هـ/ 1538م.
11 ـ بوانامكو بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 973هـ/ 1538م.
12 ـ محمد أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 1002هـ/ 1593م.
13 ـ أبو بكر بن مكو بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان.	توفي سنة 1041هـ/ 1631م.

(1) Werner, The History of Pata, PP. 148 – 281.

وهذه القائمة تبدأ من عام 600هـ/ 1203م، وستتوقف عن ذكر سلاطين باتا إلى نهاية القرن 10هـ/ 16م.

2 ـ سلاطين كلوة[1]

السلطان	السنة
ـ الحسن بن علي: أب لستة أولاد، كان سلطاناً لشيراز، هاجر مع أسرته، واستقروا في أماكن عديدة في الساحل الإفريقي الشرقي.	346هـ
1 ـ علي بن الحسن بن علي: وهو الابن الذي جاء إلى كلوا، واشتراها بكمية من الثياب (القماش) وحصّنها وحكمها 40 سنة، ثم انسحب إلى مافيا تاركاً ابنه محمد بن علي كحاكم لها مدة سنتين ونصف. وكان أخوه بسحت بن علي أول حاكم لمافيا لمدة 4,5 سنة.	346 ـ 386هـ
2 ـ علي بن بسحت: حكم كلوا 5 و4 سنة	386 ـ 390هـ
3 ـ داود بن علي: حكم سنتين، ثم فضل مافيا، ثم عين ابنه رقم (16) كحاكم.	---
4 ـ خالد بن بكر: اغتصب السلطة وأقامه المتمندلون وأهل شاغ حاكماً، وحكم 2، 5 سنة قبل أن يخلع.	394 ـ 396هـ
5 ـ الحسن بن سليمان بن علي: حفيد مؤسس كلوا، حكم 12 سنة، وقامت حرب مع المتمندلين، اضطرته إلى الهرب إلى زنجبار.	396 ـ 408هـ
ـ محمد بن الحسين المنذري: مغتصب آخر، حكم 12 سنة ثم خلع.	408 ـ 420هـ
ـ الحسن بن سليمان بن علي: عاد وحكم 14 سنة أخرى.	420 ـ 434هـ
6 ـ علي بن داود بن الحسين: حكم 60 سنة، وقد عين خلفاً لأبيه رقم (3)، وليست لدينا معلومات كافية عنهما.	434 ـ 494هـ
7 ـ ... لم يرد له ذكر، بينما يذكر دي باروس في النص البرتغالي أن حفيد علي بن داود ـ وهو بنفس الاسم ـ خلفه في الحكم، وكان شريراً بحيث خلعه شعبه بعد ست سنوات.	494 ـ 500هـ
8 ـ الحسن بن داود بن علي: جاء إلى العرش في سنة السبعين، وحكم 70 سنة، إلا أن دي باروس يخطئ هذا القول، ويذكر أنه حكم 24 سنة، وقد نصب على العرش بدلاً من سليمان الذي كان قد قتل.	500 ـ 524هـ
9 ـ ... الاسم محذوف، بينما يقول دي باروس إن اسمه سليمان، وقد حكم سنتين، وقد قطع الشعب رأسه، لأنه كان حاكماً ظالماً.	524 ـ 526هـ

(1) مأخوذة من: Freeman – Grenville, The Medieval History of The Coast of Tanganyika, PP. 66 – 73.
وقد أشار بعض الكتاب إلى أسماء سلاطين كلوة. مراجعة: Chittick, The Shirazi Colonization of East African Coast, P. 279; Walker, The History and The Coinage of The Sultans of Kilwa.

السنة	السلطان
526ـ566هـ	10 ـ ... الاسم محذوف، ويسميه دي باروس داود، وقد حكم 40 سنة، وهو ابن سليمان السابق أول حاكم لسفالة، وقد حصل على احتكار الذهب لصالح كلوا.
566ـ584هـ	11 ـ ... الاسم محذوف، ويسميه دي باروس سليمان حسين بن داود بن السلطان السابق، حكم 18 سنة.
584ـ586هـ	12 ـ ... الاسم محذوف، ويسميه دي باروس داود بن السلطان السابق، وقد حكم سنتين.
586ـ587هـ	13 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس: طالوت، وهو شقيق السلطان السابق.
587ـ612هـ	14 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس، الحسن أخو السلطان السابق، حكم 25 سنة ولم يخلف ذرية ذكوراً.
612ـ622هـ	15 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس Hale Boinji، وهو أخو الحاكم السابق، حكم 10 سنوات.
622ـ662هـ	16 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس Bone Soleiman، وهو قريب السلطان السابق، وقد حكم 40 سنة.
662ـ676هـ	17 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس علي داود، حكم 14 سنة.
676ـ694هـ	18 ـ الحسن بن طالوت، حكم 18 سنة، وكان الأول من أسرة أبي المواهب (لا توجد إضافة عنه في النص البرتغالي).
694ـ708هـ	19 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس سليمان بن السلطان السابق، حكم 14 سنة، وقتل بمؤامرة وهو يغادر المسجد، والنص العربي لتاريخ كلوا يذكر وجود نقود نقش عليها اسمه كاملاً، وهو سليمان بن الحسن الذي عرف باسم سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت.
708ـ710هـ	20 ـ داود بن سليمان، كان وصياً على العرش مدة سنتين وذلك خلال غياب أخيه في مكة (وهنا يتطابق النصان العربي والبرتغالي).
710ـ734هـ	21 ـ الحسن بن سليمان المطعون بن الحسن بن طالوت المهدلي: حكم 24 سنة وهو الذي زاره ابن بطوطة، وقد انهار المسجد الجامع في أيامه، ولم يعمر حتى حكم السلطان رقم (29). والمعلومات عنه مستقاة من النقود التي ضربت في عهده.
734ـ758هـ	22 ـ داود بن سليمان: يقول عنه النص العربي إنه حكم 24 يوماً، وهذا خطأ.
758هـ	23 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس سليمان شقيق السلطان السابق، حكم 20 يوماً قبل أن يستولي على الحكم عمه رقم 24.
758ـ764 هـ	24 ـ الحسين بن سليمان، وهو ابن السلطان رقم (19) حكم 6,5 سنة، ومات شهيداً وهو يجاهد الوثنيين من أهل الملل (ويقول دي باروس إنه لم يخلف أطفالاً).
764ـ766هـ	25 ـ طالوت بن الحسين: ابن السلطان رقم (24)، حكم سنتين وبضعة أشهر، ومات في طريقه إلى الحج.

السنة	السلطان
766 ـ 768هـ	26 ـ ... الاسم محذوف، وهناك نقود تسميه سليمان بن الحسين، ويقول دي باروس إنه شقيق السلطان رقم (19)، ورقم (25)، حكم سنتين قبل أن يزيحه عمه رقم (27).
768 ـ 792هـ	27 ـ ... الاسم محذوف، يسميه دي باروس سليمان، وهو عم السلطان رقم (26)، حكم 24 سنة وبضعة أشهر).
792 ـ 815هـ	28 ـ الحسين بن سليمان: ابن السلطان رقم (25)، حيث كان وصياً على العرش عند سفر السلطان رقم (25) إلى مكة، ويخطئ دي باروس النص العربي حين يذكر أنه حكم بعد وفاة والده مباشرة.
815 ـ 824هـ	29 ـ محمد بن سليمان بن الحسين: وهو شقيق السلطان رقم (28)، لقب بالملك العادل، وفي عهده يظهر منصبا الأمير والوزير.
824 ـ 846هـ	30 ـ سليمان بن محمد الملك العادل: وهو الذي عمر جامع كلوا العظيم. يقول دي باروس إنه لم يخلف إلا ولداً واحداً من جارية له.
846 ـ 859هـ	31 ـ إسماعيل بن الحسين: جاء إلى الحكم بعد نزاع على العرش، حكم 13 سنة، بينما يقول دي باروس إنه حكم 14 سنة.
859 ـ 860هـ	32 ـ الأمير محمد بن سليمان: حكم سنة كسلطان، وقد أصبح وزيره سعيد السلطان رقم (36).
....	33 ـ ... الاسم محذوف
860 ـ 861هـ	34 ـ أحمد بن سليمان: حكم سنة واحدة قبل وفاته. يقول عنه دي باروس إن اسمه محمود وإنه من الأسرة الملكية، إلا أنه كان فقيراً، ولم يستطع البقاء في السلطة بسبب فقره.
861 ـ 871هـ	35 ـ الحسن بن إسماعيل: ابن السلطان رقم (31)، حكم عشر سنوات.
871 ـ 881هـ	36 ـ سعيد بن الحسن بن سليمان: ابن السلطان رقم (35) وقد زاره ملك عدن المخلوع الذي خلع عام 858هـ إلا أن دي باروس يسميه زيداً.
881 ـ 882هـ	37 ـ الأمير سليمان بن محمد: حكم سنةً ونصف سنة، وقد عين كسلطان أثر نشوب نزاع داخلي على الحكم، وقد زاره أيضاً ملك عدن السابق. ويصفه دي باروس بأنه كان طاغية، وقد أبعد أولاد أخيه الثلاثة، الذي كان منهم الأمير يوسف، حيث عينه حاكماً على سفالة، وقد بقي حتى قدم البرتغاليون للساحل.
882 ـ 883هـ	38 ـ عبد الله بن الخطيب الحسن، حكم سنة ونصف سنة.
883 ـ 884هـ	39 ـ علي بن الخطيب الحسن: أخ السلطان رقم (38) حكم سنة ونصف سنة.
884 ـ 890هـ	40 ـ الوزير الحسن بن سليمان بن الوزير يارك: حكم ست سنوات، ثم خلعه الأمير الذي أصبح السلطان رقم (41) وهو الأمير محمد كواب.
890 ـ 891هـ	41 ـ سبحات: وهو من نسل السلطان رقم (29) حكم سنة واحدة، ثم توفي، وقد أقامه الأمير محمد كواب.

السلطان	السنة
42 ـ الحسن بن سليمان: وهو السلطان رقم (40) أيضاً، عاد إلى السلطة، لكنه خلع بعد خمس سنوات.	891 ـ 896هـ
43 ـ إبراهيم: وهو من نسل السلطان رقم (29)، وقد نصبه الأمير محمد كواب. وخلال عهده حاول السلطان الذي سبقه أن يستعيد السلطة، وقد قرر الأمير محمد كواب أن يحتفظ بالعرش لنفسه، فخلع إبراهيم، إلا أنه لم يحكم سوى 3 أسابيع فقط.	896 ـ 901هـ
44 ـ الفضيل بن سليمان بن الملك العادل، وفي عهده عام 904هـ مر بالمنطقة فاسكودي غاما، إلا أنه لم يزر كلوا.	901 ـ 905هـ
45 ـ الأمير إبراهيم بن سليمان: السلطان رقم (37) وكان حاكماً لكلوة حين فاوضه البرتغاليون ويذكر عنه دي باروس أنه لم يلقب بالسلطان، إلا أنه كان الحاكم الفعلي لكلوة حين وصلها البرتغاليون، وفي سنة 906هـ وصل بيدرو الفارز كابرال مع عدد من السفن، وفي 907هـ وصل جو آودي نوفا في سفينة منفردة، وفي عام 908هـ/ 1502م عاد فاسكودي غاما.	905 ـ 912هـ
46 ـ محمد ركن الدين الدابولي: جعل حاكماً لكلوة من قبل فاسكودي غاما، حكم سنة واحدة كما يقول دي باروس.	912هـ
47 ـ حاجي حسن...	...
48 ـ محمد مكاتو بن الأمير محمد كواب: لا نعرف مدة حكمه.	...
49 ـ الأمير إبراهيم: الذي كان السلطان رقم (45) حيث أعيد إلى الحكم.	...
50 ـ الأمير سعيد: وقد جاء بعد أخيه السلطان رقم (49).	...
51 ـ الملك العادل السلطان محمد بن السلطان الحسين بن السلطان سليمان بن السلطان محمد.	...

ثانياً ـ ملاحق الباب الثاني:

1 ـ ملوك مالي[1]

الاسم	سنوات حكمه
مانسا نوفن تراورى [من أسرة التروريين]	
جما كوناتي [مؤسس أسرة الكوناتيين]	
جورماندانا [برمندانة]	
مانسا ألو [آخر ملوك أسرة الكوناتيين]	
مامبي كيتا [من أوائل ملوك أسرة كيتا]	
موس ديجيو الأكوي	596-614هـ/ 1200-1218م
ناري فامغان بن الأكوي	614-627هـ/ 1218-1230م
كونو نيوغو سمبا كيتا	627هـ/ 1230م
كابالي سمبا كيتا	627هـ/ 1230م
ماري تانياكل كيتا	627هـ/ 1230م
نوتوى مارى برسيجوى كيتا	627هـ/ 1230م
سوسو تورو لاكانديا كيتا	627هـ/ 1230م
موسو كونو ماغمبا كيتا	627هـ/ 1230م
موسو كانداكى كيتا	627هـ/ 1230م
مانسا ماغمبا كيتا	627هـ/ 1230م
فينا دوجو كوماغن كيتا	627هـ/ 1230م
جاغابو جارى كيتا	627هـ/ 1230م
كالابمبا ديوكونتو كيتا	627هـ/ 1230م
سندياتا كيتا، أو ماري جاطة (المؤسس الحقيقي للدولة)	627-653هـ/ 1230-1255م
ولى (علي) بن ماري جاطة	653-668هـ/ 1255-1270م

---

(1) اعتمدت قائمة ملوك مالي هذه على كل من: ابن خلدون، تاريخ، ص 1655 ـ 1657؛ القلقشندي، صبح الأعشى، طبعة المؤسسة المصرية، ج5، ص 293 ـ 298؛ طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص 121 ـ 123.

الاسم	سنوات حكمه
واتي (والي) بن ماري جاطة	672-668هـ/ 1274-1270م
خليفة بن ماري جاطة	673-672هـ/ 1275-1274م
أبو بكر ابن بنت ماري جاطة	684-673هـ/ 1285-1275
ساكورة أو [سبكرة] (وهو مولى من مواليهم مغتصب للعرش) ((ورد اسمه عند القلقشندي باسم ساكُبُورة أو [سيكُرُه]))	699-684هـ/ 1300-1285م
قو بن ماري جاطة	704-699هـ/ 1305-1300م
محمد بن قو بن ماري جاطة	710-704هـ/ 1310-1305م
ابن أبي بكر سالم [ابن أخ] ماري جاطة وأخو منسا موسى بن أبي بكر الذي تولى الحكم بعده	712-710هـ/ 1312-1310م
منسا موسى بن أبي بكر سالم	737-712هـ/ 1337-1312م
منسا مغا [محمد] الأول بن موسى	742-737هـ/ 1341-1337م
سليمان أخو موسى (توهم ابن خلدون فجعل حكمه 24 سنة، ونقل عنه القلقشندي هذا الخطأ).	761-742هـ/ 1360-1341م
قنبتا بن سليمان	761هـ/ 1360 (حكم تسعة أشهر)
ماري جاطة الثاني بن منسا مغا بن منسا موسى	775-761هـ/ 1374-1360م
موسى الثاني بن ماري جاطة الثاني	789-775هـ/ 1387-1374م
منسا مغا الثاني أخو موسى الثاني	790-789هـ/ 1388-1387م
صندكي الوزير (مغتصب) وهو زوج أم موسى الثاني	790هـ/ 1388م (حكم أشهراً)
حرب أهلية بين قسمي الجيش: الموالي للأسرة المالكة القديمة والموالي لصندكي المغتصب	792-790هـ/ 1390-1388م
محمود المدعي النسب إلى منسا قو بن منسا ولي بن ماري جاطة الأول والملقب بمنسا مغا [الثالث]	792- هـ/ 1390- م
محمد الأول	-886هـ/ -1481م
محمد الثاني	-941هـ/ -1534م
محمد الثالث	-998هـ/ -1590م
ماما مغان	-1081هـ/ -1670م
مامبي كيتا [آخر السلاطين من سلالة ماري جاطة أو سندياتا]	

2 ـ ملوك سُنغاي

الملوك الوثنيون الملقبون بـ (زا):

اسم الملك

1 ـ زا الأيمن [مؤسس دولة سنغاي] (ق 1هـ/ 7م)

2 ـ زا زكي

3 ـ زا تكي

4 ـ زا اكي

5 ـ زا كو

6 ـ زا علي

7 ـ زا بي كمي

8 ـ زا بي

9 ـ زا كري

10 ـ زايم كروي

11 ـ زا يم

12 ـ يم دنك كيبع

13 ـ زا كُو كُرَى

14 ـ زا كِنكِن

الملوك المسلمون الملقبون بـ (زا) أيضاً:

15 ـ زا كُسُي [أول من أسلم] (400هـ/ 1010م)

16 ـ زا كُسُي داربي

17 ـ زا هن كُزونك دم

18 ـ زا بي كي كيم

19 ـ زا نتنا سَني

20 ـ زا بي كين كنب

21 ـ زا كين شَنُبُنْب

22 ـ زا تب

23 ـ زا يم داد

24 ـ زا فد زو

25 ـ زا علي كر

26 ـ زا بير فلك

27 ـ زا يا سبي

28 ـ زا دُورُ

29 ـ زا زنك بار

30 ـ زا بس بار

31 ـ زا بدا

الملوك المسلمون الملقبون بـ (سُنّ):

32 ـ سُن الأول علي كُلن بن زايا سبي (الذي فر من مالي، وأعلن استقلال مملكة سنغاي عن إمبراطورية مالي سنة 735هـ/ 1335م)

33 ـ سن سليمان نار بن زا يا سبي وأخو علي كُلن

34 ـ سن إبراهيم كبي

35 ـ سن عثمان كنف

36 ـ سن باركين انكبي

37 ـ سن موسى

38 ـ سن بكر زنك

39 ـ سن بكر دل بينب

40 ـ سن ماركري

41 ـ سن محمد داع

42 ـ سن محمد كوكيا

43 ـ سن محمد فار

44 ـ سنّ كربيف

45 ـ سنّ مار في كُلِ جم

46 ـ سنّ مارا ركَنَ

47 ـ سنّ مارا رَتَدنّ

48 ـ سن سليمان دام (تولى فترة قصيرة خلال سنة 869هـ/ 1464م)

السلاطين المسلمون الملقبون بـ (سُنّ) أيضاً في عصر الإمبراطورية:

49 ـ سُنّ علي [الكبير] بن سليمان دم (مؤسس الإمبراطورية 869 ـ 897هـ/ 1464 ـ 1492م)

50 ـ سن بار، أو [أبو بكر داغو] (897 ـ 898هـ/ 1492 ـ 1493م)

السلاطين المسلمون الأسيقيون الملقبون بـ (أسكيا):

51- أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر [بعد فترة معارك ضد أولاد سُنّ علي الكبير] (898ـ935هـ/ 1493ـ1529م)

52ـ أسكيا موسى بن محمد (935ـ938هـ/ 1529ـ1531م)

53ـ أسكيا محمد الثاني بنكن بن عمر (937ـ944هـ/ 1531ـ1537م. كمزاغ [عمر كمزاغ أخو أسكيا] مغتصب للعرش)

54ـ أسكيا إسماعيل بن محمد (944ـ946هـ/ 1537ـ1539م)

55ـ أسكيا إسحق بن محمد (946ـ956هـ/ 1539ـ1548م)

56ـ أسكيا داوود بن محمد (956ـ990هـ/ 1548ـ1582م)

57ـ أسكيا محمد الثالث [الحاج الثاني] بن داود (990ـ995هـ/ 1582ـ1586م)

58ـ أسكيا محمد بانِ الطيب بن داوود (995ـ996هـ/ 1586ـ1588م)

59ـ أسكيا إسحق الثاني بن داوود (996ـ999هـ/ 1588ـ1591م)

60ـ فترة حروب بدخول قائد السعديين جودر باشا سنة 999هـ/ 1591م مملكة سنغاي، ثم حملة الباشا محمود بن زرقون الذي وصل إلى تنبكت في شوال 999هـ/ آب 1591م، وانتصاره على إسحق الثاني، حيث عزل الجيش إسحق الثاني، وولى أخاه محمد كاغ الذي حارب المراكشيين.

ثالثاً ـ ملاحق الباب الثالث

1 ـ مايات البرنو

ـ مايات أخبارهم أسطورية (قبل الإسلام)[1]:

1 ـ سيف بن ذي يزن

2 ـ إبراهيم بن سيف بن ذي يزن

3 ـ دوجو أودوكو Dugu-Duku بن إبراهيم (كان يحكم حوالي عام 600م)

4 ـ فون Fune بن دوجو (حكم حوالي 50 سنة)

5 ـ أرشو أو أرستو Archu-Aristo-Arsu (كان يحكم حوالي عام 850م)

6- كاتوري Katuri بن أرشو (كان يحكم حوالي عام 900م)

7 ـ بيوما، أو ايوما، أو أديوما، أو واياما Byuma -Ayoma- Adyoma- Wayma (كان يحكم حوالي عام 1000م)

8 ـ بولو Bulu (كان يحكم حوالي 1020م)

9 ـ أرجي، أو أركي، أو أركو Arji- Arki-Arku (كان يحكم حوالي عام 1035م)

10 ـ كادي بن أرجي أوشو Kade-Shu (كان يحكم حوالي عام 1075م)

11 ـ جيل Jil، أو سالما، أو عبد الجليل (كان يحكم حوالي عام 1080م)

ـ مايات معروفون حكموا من العاصمة جيمي في كانم[2]:

12 ـ أوم بن جبيل (أو هيوم بن جيل) Umme-Hume (من حوالي 1086 ـ 1097م)

13 ـ دونمه بن أوم Dunama Ummemi (1098 - 1151)

14 ـ الماي دالا بيري (أو بيرى بن دونمه) Biri أو (1151 - 1177م) Mai Dala Biri Ibn Dunama

15 ـ دالا بكر (أو عبد الله بكر بن بيري) Dala Bikur (1177 - 1194م)

16 ـ سالما Salma (أو عبد الجليل بن بكر) (1194 ـ 1221م)

17 ـ أحمد دونمه (أو دونمه بن دابالا بن سالما) (دابالا اسم أمه، وسالما اسم أبيه 1221 ـ 1259م)

18 ـ كادى (أو عبد القديم) بن ماتالا (اسم أمه) (1259 ـ 1278)

19 ـ عثمان (أو بيري) بن زينب (1279 ـ 1300م)

20 ـ الحاج إبراهيم نيجال بن كاجودى Kagudi (1300 - 1321)

21 ـ عبد الله بن كادى Abd. Kademi (1321 - 1342)

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 180 ـ 181.

(2) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 181 ـ 182؛ بليع، قوائم الأسر الحاكمة في كتاب الوثنية والإسلام، ص 520 ـ 521.

22 ـ سالما (أو تسليم) Tsilim ابن جوا (أو ابن عبد الله) (1343 ـ 1348)

23 ـ كورجانا (أوكور) الصغير (1348 ـ 1349)

24 ـ كور الكبير Kore Ganne أو KURE (1349-1350)

25 ـ كور محمد (أو محمد) بن عبد الله (1351 ـ 1355)

26 ـ إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه حفصة بنت نيجال وأبوه إبراهيم) (1353 ـ 1376)

27 ـ داود بن فاطمة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه فاطمة بنت نيجال وأبوه إبراهيم) (1376 ـ 1386)

28 ـ عثمان بن داود (1386م) عثمان بن إدريس (1386)

29 ـ أبو بكر (لياتو) Liyatu بن داود (1386)

ـ انتقال الأسرة السيفية من كانم إلى برنو[1]:

30 ـ عمر بن إدريس (1387 ـ 1391)

31 ـ سعيد محمد مارا، أو ماجا (1391)

32 ـ كادى أوجا Auja بن إدريس (1391 ـ 1392)

33 ـ عثمان (أو بيري) بن إدريس (1392 ـ 1425) (صاحب الرسالة إلى برقوق سلطان المماليك في مصر).

34 ـ عثمان كالينوااما Kalinwama بن داود (1425)

35 ـ دونمه بن عمر (1425 ـ 1427)

36 ـ عبد الله أوجا بن عمر (1427 ـ 1436) (طرده كيغامة نيجال بن إبراهيم بالتآمر مع يريمه كاداي كاكو، وعين مكانه ابن عمه إبراهيم)

37 ـ إبراهيم بن عثمان (1436 ـ 1443) (أعاد العرش إلى ابن عمه عبد الله بعد وفاة كيغامة)

38 ـ كادى بن عثمان (1143 ـ 1444) (قتل ابن عمه إبراهيم وولي مكانه)

39 ـ دونمة بن بيري أو دونمة بن عثمان (1444 ـ 1448)

40 ـ محمد بن ماتالا (1448 ـ 1450م) (ماتالا اسم أمه)

41 ـ أوم بن عائشة بنت عثمان (1450 ـ 1452)

42 ـ محمد بن كادى (1452 ـ 1455) (فتح العثمانيون القسطنطينية في زمنه)

43 ـ جاجى بن إيمالاها Imalaha (1455 - 1461)

44 ـ عثمان بن كادى (1466 ـ 1467) (عزله علي جاجى وعين مكانه عمر بن عبد الله)

45 ـ عمر بن عبد الله أوجا (1466 ـ 1467)

46 ـ محمد بن محمد كادى (1467 ـ 1472)

47 ـ علي جاجى بن دونمه بن زينب (أبوه دونمه وأمه زينب) ـ (1472 ـ 1503) (بنى العاصمة بيرني في برنو، وهو أول من اتخذ لقب الغازي، وهو ابن الماي رقم 39)

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 182 ـ 184؛ بلبع، الوثنية والإسلام، ص 521 ـ 522.

48 ـ إدريس كاتاجارمابي بن علي بن عائشة (1503 ـ 1526) (دخل العاصمة السابقة جيمي في كانم)

49 ـ محمد بن إدريس (1527 ـ 1545)

50 ـ علي بن إدريس (1545 ـ 1546)

51 ـ دونمة محمد بن فانا Fanna بن محمد (1546 ـ 1555) فانا أمه ومحمد أبوه.

52 ـ عبد الله بن دونمه (1555 ـ 1563)

ـ وصاية الماجيرا عائشة على ابنها إدريس ألوما (1563 ـ 1570)

53 ـ إدريس بن علي ألوما، أو إدريس عائشة ألوما (1570 ـ 1603) (أعظم سلاطين برنو على الإطلاق)

ـ ضعف برنو وتدهورها:

54 ـ محمد بن إدريس (1603 ـ 1618)

55 ـ إبراهيم بن إدريس (1618 ـ 1625)

56 ـ الحاج عمر بن إدريس (1625 ـ 1644)

57 ـ الحاج علي طاير بن الحاج عمر (1644 ـ 1681 / 1680)

58 ـ إدريس بن علي (1680 ـ 1699)

59 ـ دونمه بن علي (1699 ـ 1717) (أصدر المَحْرَم المصور بالملاحق)

60 ـ الحاج حمدون بن دونمه (1717 ـ 1731)

61 ـ محمد بن الحاج حمدون (1731 ـ 1747)

62 ـ دونمه جانا (1747 ـ 1750)

63 ـ علي بن حاج حمدون (1750 ـ 1791)

64 ـ أحمد بن علي (1791 ـ 1808)

ـ ظهور أسرة الشيخ محمد الكانمي، وانقطاع سلسلة الملوك السيفية[1]:

65 ـ دونمه بن أحمد (1807 ـ 1811) (منذ عام 1809 كان الشيخ محمد أمين الكانمي صاحب السلطة الفعلية في برنو).

66 ـ محمد نجلروما (1811 ـ 1814) (عزله الشيخ الكانمي)

ـ عودة دونمه بن أحمد (1714 ـ 1817) (أعاده الشيخ الكانمي)

67 ـ إبراهيم أخو دونمه (1817 ـ 1847)

68 ـ علي بن دلاتو (1846) (حكم 40 يوماً، وهو آخر مايات الأسرة السيفية)

ـ أسرة الشيخ محمد أمين الكانمي تتولى حكم برنو[2]:

1 ـ الشيخ محمد أمين الكانمي (1809 ـ 1835) (صاحب السلطة الفعلية، لكنه لم يتول العرش رسمياً)

2 ـ الشيخ عمر بن محمد الكانمي (1835 ـ 1880) تولى عرش برنو بعد مقتل علي بن دلاتو عام 1846، واستقبل الرحالة

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 184 ـ 185؛ بلبع، الوثنية والإسلام، ص 523.

(2) طرخان، إمبراطورية برنو الإسلامية، ص 185.

بارث عام 1852.

3 ـ الشيخ بكر (1880 ـ 1884)

4 ـ الشيخ إبراهيم (1884 ـ 1885)

5 ـ الشيخ هاشم (1885 ـ 1893) (غزوة رابح قائد الزبير باشا عام 1893 وهزيمة برنو)

6 ـ الشيخ كياري، أو محمد الأمين (1893) (قتل سلفه، لكنه هزم أمام رابح وقتل)

ـ الاستعمار الأوروبي[1]:

7 ـ الشيخساندورما (1893)

أ ـ قتله رابح (1893)م.

ب ـ في عام 1894 قُسمت برنو بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا.

ج ـ قتل الفرنسيون رابحاً في 3 مارس 1900 بعد أن شنوا عليه أكثر من حملة.

8 ـ الشيخ عمر بن بكر (أوساند أكورا) (1900 ـ 1901) أعلنه الفرنسيون سلطاناً في زندر ثم عزلوه.

9 ـ الشيخ بكر جاروبال (1901 ـ 1922) أعلنه الفرنسيون سلطاناً في دكوا عام 1901، وهرب إلى كانم في نفس العام، ثم أعيد عام 1902 وعُين شيخاً على برنو البريطانية، وظل يحكم حتى مات في مدينة مدجوري 1922م.

---

(1) طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 185 ـ 186.

2ـ نص وصول هدية الماي إدريس ألوما سلطان البرنو إلى المنصور السعدي، والرسائل المتبادلة سنة 990هـ(1)

وصول هدية صاحب برنو إلى المنصور بحضرة فاس، وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته:

كان المنصور رحمه الله مسعوداً محظوظاً كما أشرنا إليه سابقاً، وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له، حتى كان ذلك سبباً في مبايعته له والدخول في طاعته. وكان من خبر ذلك ما حكاه في مناهل الصفا قال: (وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان، وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإماء وكسا السودان وطرفه، وكان من ذلك عدد كبير يناهز المتين، فوافق المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة، جلس نصره الله تعالى بالقبتين التوءَمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه، وهو آفرك، واستوقف الموالي والمماليك سماطين من التوءَمين إلى القبة العربية، ثم منها إلى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه إلى باب المعسكر القبلي، وأتى الرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان. وكان الملأ من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً، وكرسي المملكة وسرير الخلافة منصوباً به، والمهابة قد أخرست الألسن، وأخشعت القلوب والأبصار، فجلس الرسول هنالك ملياً، ثم توجه به على سبيل الترقي إلى القبة العربية، فجلس بها، ثم جاء الإذن الكريم بإيصاله إلى مقر أمير المؤمنين بالتوءَمتين، فوقف بين يديه، وتشرف بالنظر إلى طلعته السعيدة، فأدى الرسالة، وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية، وأعرب عن مقاصد مرسله، واعترف للمملكة العظيمة بحقها، وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله، ثم توجه به إلى معسكر ولي العهد وتاج الإسلام وكافل الأمة بعد والده المولى الأمير أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء، فأشرف الرسول على دنيا أخرى، وأبهة مدهشة، ومحلة هائلة، فوقف موقف الحيرة، واستدرج إلى أن وصل لقباب ولي العهد ومضاربه، وكان قد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود. ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنأ وحيى وفدى، وانصرف عنه إلى محل نزوله بالقصبة من فاس، وأدر عليه من الإنعام والإكرام ما لم يكن له في حساب.

وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار، وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالإصطنبول السلطان مراد العثماني يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان، فأخفق سعيه، ولم يحصل على طائل، فوجهه في هذه النوبة إلى ملك المغرب يطلب منه المدد، ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح، فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر إليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الإعراب عن مقاصدهم من فرسان الإنشاء والكتابة، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة، وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطري توات وتيكورارين، وأمل أن يجعلهما ركاباً لبلد السودان والاستيلاء على ممالكها التي وجه إليها عساكره بعد ذلك، فبلغت مملكة مالي عظيم السودان، إلى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة، وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو، ورجع الرسول إلى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسى من ملابس الخلافة وأسباب أخر.

ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة إلى سلطانه استأنف الهدية، وأعرب إذ ذاك عن مراده، ورد الرسول ثانية إلى باب أمير المؤمنين، فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش، فأزال اللبس، وبين الغرض، وصرح بالمقصود، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق

---

(1) الفشتالي، مناهل الصفا، ص 67 ـ 69؛ السلاوي الناصري، الاستقصا، ج5، ص 104 ـ 111.

والدعاء إلى التي هي أقوم، وطالبهم بالبيعة له، والدخول في دعوته النبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد إليها، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق، أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه، إذ هو الكافل لهذه الأمة، ووارث تراث النبوة، وقيضه الله لحماية بيضة الإسلام، وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام وأئمة السنة الأعلام، وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته، وعلق لهم ـ أيده الله ـ الإمداد على البيعة، والوفاء بهذا الشرط، فالتزمه الرسول، وزعم أيضاً عن سلطانه بالقبول والإجابة، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة، إذ ليس ببلدهم من يحسن الإنشاء، ويوفي الغرض لئلا يخلّوا بشيء من الشروط التي شارطهم عليها أمير المؤمنين، فأنشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ونصها:

(الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق مناراً يسامي في مطالعها النجوم، وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم، وحي على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت، واستنجز للسعادة أجلها المعلوم، وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والإمامة الحسنية العلوية التي صرفت الوجوه إلى قبلتها المشروعة، واستبان الحق بتبلج الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة، ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التي هي بسيف النبوة المصلت مقطوعة، وبلسان السنة مدفوعة، وقوض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة، وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التي هي على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعة، وخلع بظهورها على أعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها للدين المحمدي سيف الأنفة والامتعاض، وأشار للأعادي من بأسها المروع بلسان الحية النضناض، وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجاري على حصا عدلها الرضراض، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والأقطار تمهيداً أزال عن حكمه الاعتراض، وجلا بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التي ادلهمّ جوها وغيم، وأسعد الوجود بيمنها الذي لبث في أكتاف مجدها وخيم، وقضى لها بتراحم الأرض ومن عليها إن شاء الله إلى عيسى بن مريم، والصلاة والسلام على مولانا محمد الذي تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعة، ونهج للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعة، وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى الزلال وموارده العذبة ومشارعه، نبي الرحمة وشفيع الأمة، وعلى آله وأصحابه الكرام أئمة الهدى ومصابيح الظلام، والدعاء لمولانا الإمام العلوي الهمام، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، نجل سيد المرسلين وخاتم النبيين، وسليل الوصي والسبطين. وبعد:

فإنه لما أذن الله في ليل الجهالة أن ينجاب، وفي شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب، وفي العز الخلق الجلباب أن يعود إلى الشباب، وفي النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب، وفي الإمارة أن تستند إلى السنة والكتاب، وتتعلق من الشرع بأسباب، تدارك الله سبحانه الوجود، وأعز العالم الموجود، واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود، بطلوع شمس الخلافة النبوية، والإمامة الهاشمية العلوية، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها، وارتفع إلى حيث السها والفرقدين منارها، وتبلج بالإصباح نهارها، ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها، وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها، وانتشرت في الآفاق والأقطار على البعد والقرب آثارها، وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها، وفاض ببركتها على أكناف المعمور يمها الزاخر وتيارها. خلافة ينتمي إلى النبوة عنصرها، وتستنبط من رسالة الوحي أسطرها، ويناط بعروتها الوثقى خنصرها، وإمامة علي وليها والله نصيرها، والسبط بدورها الذي حياه منبرها وسريرها، والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء، والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفروعها في السماء، إماماً ألقى الله له في القلوب حباً جميلاً، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلاً، وخليفة استرعاه، فكان بحسن الرعي لخلقه وعباده كفيلاً، وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساماً صقيلاً، مولانا أمير المؤمنين، وخليفة الله في الأرضين، وسليل خاتم النبيين، ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين، والممنون بإمامته المقدسة على العالمين، بحر الندى والباس، وعصمة الله للناس، أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين، والأئمة الطيبين الطاهرين، وطيب بأنفاس المغفرة لحودهم، أجمعين. إمام تهتز لذكره أعطاف المنابر، وتتقلد من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر، وتستضيء البلاد بإكليل شرفه الزاهر، وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر، أبقى الله أيامه الغر بقاء يصحب النصر دوامه، وخلد له ولأعقابه هذا الأمر الكريم إلى يوم القيامة. ولما طلعت ـ أيده الله ـ على هذه الأصقاع

الزنجية طلائع إمامته النبوية وخلافته، ولاحت في سمائها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وأنافته، وتليت لمجده الآيات البينات التي تشهد له بتراث الرسالة، وتقضي له على الإسلام، وعلى الأنام بحكم الولاة والكفالة، وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بإمامته، والانقياد لدعوته، وتقليد بيعته، ما جاء به كتابه الحكيم، ووردت به سنة نبيه الكريم.....

ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان، فلا ناكر إن ليس في المعمور على هذا الشرط غيره ـ أيده الله ـ من ثان، فنهض بدليل الشرع أنه إمام الجماعة حقاً المستوفى شروطها، والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام أن يحوطها، وأن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دَعِيٌّ، ومحاولة دون إذنه المشروع بدعيّ، فتعين لذلك أن الرجوع إلى الحق فريضة، واستبان بما تقرر وعلم أن إمارة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة، وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضة، فانتدب لهذه الآثار صحيح الأخبار وصرف إلى رضى الله العناية، ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ومنتهى الغاية، الرئيس أبو العلاء إدريس أكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق، على حضرة الإخلاص والتصديق، وأخذت بزمامه السعادة إلى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق، والتأييد صاحب ورفيق، وروض الآمال أنيق، وراح الراحة والاطمئنان عتيق، إلى تقلد إمام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديساً وتشريفاً التي تؤسس إن شاء الله على تقوى من الله ورضوان، وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن، وآثر ـ أسعده الله ـ أن يؤدي فرضها المعدود من فروض الأعيان، وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع العام إلى القاصي والدان، وينشر سنتها المشروعة في صقعه وما يليه من الأصقاع والبقاع بالسودان، تقلداً يستضيء ـ إن شاء الله ـ بأنواره، ويستشرف به للعز المكين على مناره، ويخمد به للجهل جذوة ناره، وتنتظم به في اتباع الحق زمر أنصاره، ويجتلي به صورة إنسانه، ويستوجب من الله عوارف صنعه وإحسانه، ويرهف به للعدو على العزمات حد سيفه وسنانه، ويقرع به لرضا الله باب القبول، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول، ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوة، ويعود له به الزمان للشباب والفتوة، ويرفع به منار الإمارة على قواعد الشرع الوثيقة، ويعدل به في كل الأحوال عن المجاز إلى الحقيقة، وتتسنى له به وهي المقصد الأسنى والخاتمة الحسنى، الأسوة الحسنة بإمامي بني العباس السفاح والمنصور، ويحيي سنتها التي نقلها ثقات الأعلام والصدور، في مبايعتها الإمام الخليفة المهدي الأكبر سليل سيد المرسلين، وجد مولانا أمير المؤمنين، الذي رأى إمام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق، وفي منصب الإمامة على شرطها أعرق، وبسريرها ومنبرها أليق، فتأكد للمنتدب ـ أكرمه الله ـ بهذه الآثار الشريفة والمناقب المنيفة العزم والقصد، وأنجز له فيما أراده صادق الوعد، وساعد نيته الصالحة فيه السعد، فبايعه ـ أعلى الله يده ـ على الأمن والأمانة، والعفاف والديانة، والعدل الذي يشيد للمجد أركانه، مبايعة شايعه على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه وجموعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق، والمواثيق الشديدة الوثاق، وبجميع الأيمان الصادقة الإيمان، أعطوا بها صفقة أيديهم، ورفع بها العقيرة مناديهم، عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم، وأمضوها على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة إمضاء يدينون به في السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشدة، والأزمان المشتدة، والتزموا شروطها طوعاً، واستوعبوها جنساً ونوعاً، بنيات منهم خالصة صادقة، وعدة من الله لهم بالخير سابقة، وسعادة بالحسنى لاحقة، أبرموا عقدها، وأحكموا وعدها وعهدها، على حكم الكتاب والسنة والجماعة، والأخذ بسنتها أعقاباً عن أعقاب، وأحقاباً إثر أحقاب، إلى يوم القيامة واقتراب الساعة. لا يلحق عقدها الكريم فسخ، ولا يعقبه بحول الله نسخ، ولا يتطرق إليه نقض ولا نكث، ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث، وأجمع على هذا ـ أسعده الله ـ بالمواثيق المستفيضة، والأيمان اللازمة المغلظة، هو وأتباعه إجماعاً شرعياً، وحتموه على أنفسهم حتماً مقضياً، واعتقدوه اعتقادا أبدياً، وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفراداً وأزواجاً، وحداناً وأفواجاً، وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم الصادقة البرور، ومواثيقهم المثلجة للصدور، قائلين: بالله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس العليم بالخفيات، والخبير بالآجال والوفيات، وبجميع الرسل الكرام والأنبياء، وملائكة الرحمن في الأرض والسماء، وعلى أنهم إن حادوا عن هذا السبيل وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتبديل، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته، فهم براء من حول الله وقوته، ومن دينه وعصمته، ومستوجبون لعذابه وغضبه، وسخطه ونقمته، وبعداء من رحمته، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمته، وأنهم خالعون لرقبة الإسلام، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام، أعلنوا بهذا إعلاناً تعضده النجوى، وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى، وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى، استرضاء لله وللخلافة النبوية، والإمامة العلوية، ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقية، واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة، مستسلمين

إلى الله بالقلوب الخاشعة، ومتضرعين إلى بابه الكريم بالأدعية النافعة، في أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم، والعهد الصميم، بدءاً وختاماً، وأن يمنحهم بركته التي تصحبهم حالاً ودواماً، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره. أشهد على نفسه بها فيه، وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء إدريس أسعده الله وأكرمه، وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية)) انتهى.

ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم، وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه، وتوجه إلى بلاده بجواب مرسله، ولم يلبث أن رجعه سلطانه ثالثة، ووجه معه هدية ورسالة، وخاض القفر إلى دار الخلافة، فوصل إلى بلاد تيكورارين، وهناك اعترضته منيته، فاعتل وهلك، فأشخص أولو الأمر الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه، فوصلوا بها إلى حضرة أمير المؤمنين بمراكش، وقدموا إليه رسالتهم وهديتهم، فتقبلها بقبول حسن، وتم السرور، وعظم الحبور، واستقامت للمنصور الأمور.

بعث المنصور رسوله بالدعوة إلى آل سكية وكيفية ذلك:

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبي العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لأجله ردهم المنصور إلى صاحبهم مكرمين، وانتخب رسولاً عارفاً مجرباً ممن له بصيرة بأحوال السودان، فبعثه معهم عيناً يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها، وبعث معه رسالة إلى السلطان إسحق بن داود من آل سكية، صاحب مملكة كاغو من أرض السودان، يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذي بتغازي بين المغرب والسودان، ومنه يحمل الملح إلى أقطار السودان، وظيفة بأن يجعل كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالاً من الذهب العين لكل حمل، تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار؛ لأن ذلك بحر لا ساحل له.

وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى استفتى علماء أيالته وأشياخ الفتيا بها، فأفتوه بها هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه. وبعث إليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول، وكانت من إنشاء العلامة الأديب مفتي الحضرة المراكشية المولى أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي؛ لأن كاتب الإنشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي كان مريضاً يومئذ.

3 ـ كانم[1]

هي بلاد في أواسط السودان، شرق وشمال شرق تشاد. وإلى عهد قريب كانت تعرف من خلال كتابات بارث (Barth) الذي زار جزءاً منها في سنة 1851، وكذلك نَجتيكّال (Nachtigal) الذي جابها في سنة 1871 في طريقه إلى بوركو (Borcu). ولكن من سنة 1900 فصاعداً، ولما بدأت البعثات الفرنسية الاستكشافية التي قام بها نفر من الضباط الفرنسيين بمصاحبة الجهات العسكرية والإدارية لإقليم تشاد، جعل من الممكن تصحيح البيانات وإكمالها التي أوردها الرحالتان المذكوران.

وموقع كانم كما ذكره نَجتيكّال محاط من الشمال بطريق القوافل القادمة من كاوار (Kawar) إلى بحيرة تشاد، وفي الجنوب محاطة ببحر الغزال، وفي الشرق بمنخفض إكوي (Eguei)، ومن الغرب بالبحيرة. وتقع بين خطي عرض 14° ـ 16° شمالاً، وبين خطي طول 12° ـ 14° شرقاً. وتقدر مساحتها بحوالي 27,000 ـ 30,000 ميل مربع وعلى ضوء الاستكشافات الجغرافية الفرنسية يمكن تحديد موقع كانم بدقة شديدة، فهي تقع بين بحيرة تشاد غرباً وبحر الغزال جنوباً والجبال الضخمة في منطقة المنكا (Manga) التي تفصلها عن إيكويّ (Eguei) في الشرق.

وأبرز ما يميز كانم طوبوغرافياً هو وجود العديد من هضاب الكثبان الرملية، ولاسيما في القسم الشمالي التي تنتقل بسرعة شمالاً وغرباً، وتمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، والمفصولة بعضها عن بعض بمنخفضات أو أودية تمتد لمئات الياردات، وأحياناً لأربعة أوخمسة أميال طولاً، وتكون جافة....، فيما عدا فصل الأمطار، حيث تتكون البرك في الأجزاء الأكثر عمقاً وانخفاضاً. وتتكون أعماقها من تربة مليئة بالنتروجين، وتحتها توجد على عمق 3 ـ 30 قدماً طبقات ضخمة من الماء، حيث كانت تحفر الآبار في قيعان الأودية. وقد أوحى وجود هذه الطبقة التحتية (الجوفية) إلى أن كانم الحالية كانت بحيرة قديمة يصلها الماء من بحر الغزال، ولكنها جافة الآن، وأن الأودية نفسها كانت قيعاناً متصلة بالبحر القديم في منطقة تشاد. والشاطئ نفسه يتعرض إلى عملية تحول، وهو مُحاط ببحيرات صغيرة طويلة ممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، يبلغ عددها 300، منها 80 بحيرة مأهولة بالسكان، وتقع على بعد 2 ـ 3 من الشاطئ، وهي مقسمة إلى مجموعتين: أرخبيل كوري (Kuri) في الجنوب، وأرخبيل بدوما (Budduma) في الشمال. لقد أدى الجفاف التدريجي لبحيرة تشاد في الجزء الجنوبي الشرقي منها إلى وجود عدد من البحيرات في المنطقة. وقد أدت شبه الجزيرة والخلجان التي امتدت داخل الشاطئ إلى جعل البحّارة يسيرون في منعطفات كثيرة كي يصلوا إلى الجهة التي يقصدونها.

مناخ كانم مداري، وفيها فصلان متميزان، هما: فصل الشتاء الذي يمتد من شهر يوليو حتى شهر سبتمبر، وفصل الصيف الذي يمتد من شهر فبراير حتى يونيو. أما الفترة الوسطية من أكتوبر حتى يناير فهي فترة شتوية، وتمتاز بهبوط ملحوظ في درجة الحرارة، ولاسيما في الأودية حيث تهبط إلى درجة الصفر المئوي. أما الأمطار فهي قليلة، وأقل في الجنوب عنها في الشمال، وتضمحل الخضرة في الجزء الجنوبي، لكنها تزدهر في المنحدرات باتجاه الأودية. كما أنَّ قيعانها تظل جافة وقاحلة، في حين تنمو أشجار النخيل بكثافة في كثير من هذه الأودية، بل تكوِّن أحياناً واحات كتلك الواقعة في منطقة ماو (Mao) في منتصف كانم، ولا وجود لها في الجزء الشمالي الذي تغلب عليه صفة المراعي. أما الزراعة فتقتصر على المناطق المحيطة بالقرى المقامة على المنحدرات القريبة من منطقة الغابات، والدخن هو المحصول الأكثر وفرة هناك، إضافة إلى الباقلاء والقطن.

وتشكل تربية الخيول والماشية والأغنام والجمال مصدراً هاماً للدخل لدى السكان، كما أن صيد السمك حول البحيرة، والصيد عموماً في منطقة الداخل يُساهم في دعم سكان المنطقة. والحيوانات هناك كثيرة ومتنوعة: كوحيد القرن وفرس النهر والأسد والجاموس والنمر، ولاسيما في منطقة كانم القديمة، أما النعامة والوعل والغزال والزرافة فتكثُر في السهوب الشمالية، عدا الفيل

---

(1) مترجمة عن مقالة يفر، مادة: كانم، في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنكليزية، الطبعة الأولى، م2، ص 712 ـ 715.
Yver, G, Kanem, The Encyclopaedia of Islam, First Edition, Vol. 11, PP. 712 – 715.

فهو نادر الوجود.

ومن الصعب تحديد عدد السكان، لكن من المؤكد أنه يتراوح بين 80,000 ـ 100,000 نسمة(1)، أو حوالي شخصين إلى كل ميل مُربع، والسكان من النوع المقيم (غير المتنقل)، فيما عدا بعض الرُّحَل. وأماكن الإقامة أو المستوطنات الرئيسية تقع في جنوب منطقة نجوري (Nguri) جنوب شرق موندو (Mondo) في وسط ماو (Mao)، وهي ملتقى طرق ومركز تجاري، وتتصف بالكثافة السكانية والأعراق المتعددة، والواحة الأولى في بلد النخيل، ولا تزال غنية بالدخن الصالح لتربية الماشية.

وبحسب المصادر العربية التي درسها ماركوارت (Marquart) الذي أشرف على بيانات بارث (Cf. Burno) Barth، فإن مملكة كانم أسست من قبل الزغاوة (Zoghāwa) التي امتدت أراضيها في القرن الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين من دارفور إلى بحيرة تشاد وكوار (Kawar). ويذكر البكري والإدريسي أن سكان كانم كانوا عبدة للأصنام. وبعد وقت قصير من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وحتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فتح تيدا (Teda) كانم وتبِسْتي (Tibesti)، وهَزَم زغاوة، وأدخل الإسلام للمرة الأولى. ويبدو أن هذا الفتح يتزامن مع تولي يزنيس (Yazanis) العرش الذي زعم أنه حفيد سيف بن ذي يزن، وأخذ في نشر الإسلام، والذي أدخله الهادي العثماني جد يزنيس (Yazanis). ويورد كتاب الاستبصار(الذي نشره ڤون كريمر، ڤينا، 1852، ص 32، وترجمه فاجنان، ص 61) أن تحول كانم إلى الإسلام حدث حوالي سنة 500هـ/ 1106 ـ 1107م بحسب إسطورة قبيلة الهوسا (Hausa)، وأن أبا زيد الفزاري (نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع الهجري/ نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلادي) دعا إلى الإسلام في كانم وبوركو. وتشير معلومات أخرى إلى أن دخول الإسلام حدث في بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أيام حكم الملك أومي (Oumē).

على أية حال، رسخت هذه الديانة بقوة في كانم في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث قام بعض المسلمين من كانم بإشاعة المذهب المالكي الذي كان منتشراً في مصر، وذلك ما بين سنتي 640 ـ 650هـ/ 1242 ـ 1252م. وظل أحفاد سيف بن ذي يزن في السلطة طيلة بقاء المملكة، وحافظوا على لون بشرتهم الأبيض كالعرب حتى زمن سلا بن بيكورو الذي كان أول زنجي يحكم البلاد. وقامت هذه السلالة بتوسيع مملكة كانم على يد دونمة الأول وسالما ودونمة الثاني، حتى وصلت حدودها إلى مصر. وحافظ سلاطين كانم على علاقات ودية مع الحفصيين. لكن فترة الازدهار هذه سرعان ما تراجعت، وقامت قبائل البولالا (Bulala)، وهي إحدى قبائل الكانمو التي انسحبت في مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إلى جنوب شرق بحيرة تشاد، فهاجمت سلاطين كانم. وبعد قرن من القتال المتواصل استولت على بلاد السلاطين، وسقطت نجيمي (Ndjimi) عاصمة كانم على يد الغزاة، وعاد السلطان عمر بن إدريس (796 ـ 800هـ/ 394 ـ 1398م) إلى جنوب بحيرة تشاد، حيث أسس أحد خلفائه مملكة برنو. وفي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي قام حكام الدولة الجديدة بدورهم بالهجوم على بولالا وهزيمة كانم، وتحقق ذلك على يد إدريس كاتا كرمابي 910 ـ 912هـ/ 1504 ـ 1506م (Idreis Katā Karmabi)، مما جعل قبائل البولالا المنهزمة تدفع الجزية، وصارت كانم إحدى مقاطعات برنو، إلا أن خضوع البولالا لسلطة الفاتح الجديد ظل متزعزعاً. وخلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وجد سلاطين برنو أنفسهم مضطرين للجوء إلى القوة لإجبار جيرانهم على احترام المعاهدات التي بينهم. وهكذا نجد أن الأدارسة (979 ـ 1012هـ/ 1571 ـ 1603م) أرسلوا خمس حملات ضد البولالا تدعمها توبو. وانتصر سلطان برنو على خصومه، لكن نفوذه ونفوذ خلفائه من بعده لم يحظ بالاعتراف إلا من سكان الشواطئ المحيطة بالبحيرة، في حين أن المناطق الداخلية أفلتت من الخضوع لهم.

لقد مكن ضعف برنو البولالا من استعادة استقلالها. ولكن في منتصف القرن السابع عشر الميلادي هزموا بدورهم من قبل قبيلة تانجور (Tundjur)، فغادروا كانم واستقروا غرب بحر الغزال ثم إلى فيتري (Fitri)، حيث لا يزال أحفادهم إلى اليوم. وفرضت قبيلة تانجور (Tundjur) سلطتها على سكان كانم جميعهم، لكنها واجهت هجمات البرنويين الذين دحروهم إلى إقليم موندو (Mondo)، حيث صاروا مجرد تابعين لهم. واستقرت جنود البرنو تحت قيادة عبد من الهوسا اسمه دلافنا (Dalafna)

---

(1) لا يعبرّ هذا الرقم عن الواقع الحالي لعدد السكان. المؤلفان.

بصورة دائمة في كانم، حيث اليوم أحفادهم الذين يعرفون باسم دلاتوا (Dalatua). واستقر رئيسهم أليفا (Alifa) في منطقة ماو (Mao)، وأصبح ممثلاً لسلطان برنو، ويدفع لهم جزية سنوية. لكن نفوذ البرنويين لم يعمر طويلاً، فمنذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي هوجمت كانم من أعداء جدد، هم الودايويون الذين ادعوا أن البلاد هي ملك سابق للبولالا الذين استقروا في وداي (Wädaï). واحتل السلطانان عبد الكريم سابون (1220 ـ 1235هـ/ 1805 ـ 1819م) ومحمد شريف جزءاً من الجنوب من دون قتال. ولم تكن برنو التي غزاها فولبي (Fulbe) قادرة على التدخل، وكانت كانم التي شغلتها النزاعات بين تانجور ودلاتوا في حالة مزرية من الفوضى الكاملة، مما مكّن دلاتوا من الانتصار على منافسيها، ولكن تحت سيادة الوداي، وأعطي إلى رئيسها أليفا (Alifa) ماو (Mao) لقب رئيس البحر، وصار ممثلاً لسلطان الوداي الذي يعطي باسم الرئيس الألقاب الفخرية لحكام كانبو وهداد (HaddD). أما المواطنون الذين لا يريدون الخضوع إلى حكام الوداي، فكان مصيرهم اللجوء إلى جزر بحيرة تشاد.

أثار وصول أولاد سليمان سنة 1846م اضطرابات جديدة، ولما طردتهم تركيا من فزّان ذهبوا إلى شمال بحيرة شاد، وبدؤوا عمليات سطو ونهب، ولكن لما هزموا هزيمة منكرة على يد الطوارق سنة 1267هـ/ 1850م نزحوا إلى برنو، وعندها أدخل السلطان بقاياهم في خدمته، وأوكل إلى أولاد سليمان مهمة الدفاع عن الحدود ضد الودايويين.

اهتبل أولاد سليمان الفرصة لإعداد أنفسهم، ومن ثم قاموا بسلب ونهب أصدقائهم وأعدائهم على السواء.

وفي فترة زيارة ناچتيجال (Nachtigal) إلى كانم سنة 871م كان هناك سادة فعليون للبلاد. حاول تانجور حاكم موندو أن يقاومهم، لكنه وجماعته هزموا هزيمة ساحقة سنة 1301هـ/ 1883م، وجعلوا في فئة العبيد. وأفلح هداد حاكم نجومو (Ngumo) في الاحتراس من هؤلاء البدو الرحل، ومن سهامهم السامة. ومع ذلك ظل الموقف متوتراً جداً، حيث كانت كانمبو والهداد يتقاتلان معاً، بينما الودايويون كانوا يقومون بغزوات متكررة. وأخيراً بعد موت الشيخ عبد الجليل أخذت الفئات المختلفة لأولاد سليمان يقاتل بعضها بعضاً.

الاحتلال الفرنسي:

وضع الاحتلال الفرنسي حداً لهذه الفوضى، فأصبحت كانم مستعمرة فرنسية، بحسب الاتفاقية الأنكلو ـ فرنسية في 21 مارس 1899م، بعد أن زارتها بعثات الجولاند (Joalland) والفورنو ـ لامي (Foureau-Lamy) سنة 1900م، والواقع أنها احتلت ما بين 1901 ـ 1905م. ورغم أن ذلك تم من دون معارضة من قبل كانمبو، إلا أن السيطرة الأوروبية قوبلت بعقبة هي المقاومة السنوسية للاحتلال، والتي أسست سنة 1900م في الزاوية في بئر العلي (Bir ALali) في شمال كانم، إذ حاول محمد البرّاني رئيس الإخوان (الأخوة الكبرى) في رئاسة الرابطة العربية لطرابلس والطوارق وأولاد سليمان، أن يعتقل طليعة الجيش الفرنسي.

لقد أجبر إخلاء الزاوية سنة 1902م عدداً من أولاد سليمان على التخلي عن القتال والكفاح، في حين لم يرتضِ ذلك الذين انضموا إلى كتائب تابو (Tubo)، واستمروا في قتالهم حتى كانون الثاني 1905م، حيث أُخضع رئيسهم الشيخ أحمد.

المصادر والمراجع

1 ـ مصادر ومراجع الباب الأول

أولاً: المخطوطات:

الإدريسي، أبو عبد الله محمد (ت 650هـ/ 1160م):

1 ـ نزهة المشتاق، مخطوطة في مكتبة المجمع العلمي العراقي، رقم 725.

الأزكوي، سعيد بن سرحان:

2 ـ كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، نسخة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد، رقم 2005.

الباقري اللاموي، شيبو فرج بن حميد:

3 ـ خبر اللامو، ترجمها من السواحيلية إلى اللغة الإنكليزية ونشرها: William Hichens, Bantu Studies, Vol. X11, The University of The Witwatrsr and Press, 1938.

البخاري، الإمام علاء الدين:

4 ـ كتاب الطراز المنقوش في محاسن الحبوش، مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 3128.

البكري القرطبي، أبو عبيد الله عبد الله (ت 487هـ/ 1094م):

5 ـ المسالك والممالك، مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد، رقم 1260.

البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279هـ/ 892م):

6 ـ أنساب الأشراف، مخطوطة مايكروفلم، تعود للدكتور عبد الأمير دكسن.

ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ/ 1286م):

7 ـ كتاب عجايب الأقاليم السبعة المعمورة، مكتبة المتحف البريطاني، رقم or. 1524.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م):

8 ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، مكتبة المتحف البريطاني، رقم or. 2181.

الصوافي، عبد الله، نقلاً عن أوراق الشيخ محيي الدين الزنزباري:

9 ـ السلوة في أخبار كلوة، مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 2666.

مؤلف مجهول:

10 ـ عجائب المخلوقات ولطائف الموجودات، مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 1528.

مؤلف مجهول:

11 ـ تاريخ عمان، مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 6568

ابن وصيف (ت599هـ/ 1203م):

12 ـ من عجايب الدنيا، مكتبة المتحف البريطاني رقم or. 1526

ثانياً: المصادر:

ـ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت 630هـ/ 1232م):

1 ـ الكامل في التاريخ، القاهرة، 1920.

ـ الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (560هـ/ 1160م):

2 ـ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن، 1968.

ـ الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري):

3 ـ كتاب الأقاليم، نشر: مولر.

4 ـ المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني، القاهرة، 1961.

ـ ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (ت 749 هـ/ 1348م):

5 ـ نخب الذخائر في أحوال الجواهر، تحقيق: انستاس ماري الكرملي، القاهرة، 1939.

ـ الباكوي، عبد الرشيد صالح بن نوري:

6 ـ تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، ترجمة: ضياء الدين بن موسى بونياتوف، موسكو، 1971.

ـ بامخرمة، أبو محمد عبد الله، (ت903هـ/ 1498م):

7 ـ تاريخ ثغر عدن، ليدن، 1936.

ـ ابن بطريق، افتيشيوس المكنى بسعيد (ت 328هـ/ 939م):

8 ـ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، 1905.

ـ ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد (ت 779هـ/ 1377م):

9 ـ تحفة النظار، المسماة رحلة ابن بطوطة، تحقيق: أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى، القاهرة، 1938.

ـ البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/ 1094م):

10 ـ معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، ط1، القاهرة، 1945.

ـ البلاذري، أحمد بن يحيى (279هـ/ 892م):

11 ـ فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة.

ـ بنيامين بن يونة التطيلي (ت 569هـ/ 1173م):

12 ـ رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، ط1، بغداد 1945.

ـ البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت440هـ/ 1048م):

13 ـ في تحقيق ما للهند، حيدر آباد، الهند، 1958.

14 - تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، تحقيق ب، بولجاكوف، مراجعة إمام إبراهيم أحمد، القاهرة، 1964.

15- الجماهر في معرفة الجواهر، ط1، حيدر آباد، الهند، 1355.

16- القانون المسعودي، ط1، حيدر آباد، الهند، 1955.

ـ ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد عبد الله (ت 646هـ/ 1248م):
17 ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، القاهرة، 1291.
ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (874هـ/ 1469م):
18 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1929.
ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ/ 868م):
19 ـ الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط 1، وما بعدها، القاهرة، 1938.
20 ـ رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1964.
21 ـ التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، 1966.
22 ـ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1948.
23 ـ كتاب القول في البغال، تحقيق شارل بلا، ط 1، القاهرة، 1955.
ـ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت 614هـ/ 1217م):
24 ـ رحلة ابن جبير، بيروت، 1955.
ـ الجعدي، عمر بن علي بن سمرة (ت بعد 586هـ/ 1190م):
25 ـ طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، 1957.
ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ/ 1200م):
26 ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط 1، حيدر آباد الدكن، 1957.
ـ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت 626هـ/ 1228م):
27 ـ معجم البلدان، تصحيح أمين الخانجي، ط 1، القاهرة، 1906.
28 - المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، اعتناء: كوتجن، 1846.
ـ الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/ 1495م):
29 ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975.
ـ الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت 1089هـ/ 1678م):
30 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، 1350.
ـ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت ق 4هـ):
31 ـ صورة الأرض، بيروت.
ـ الحيمي، الحسن بن أحمد (ت 1070هـ/ 1659م):
32 ـ سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، القاهرة، 1958.
ـ ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/ 913م):
33 ـ المسالك والممالك، نشر: دي غويه، بريل، 1889.
ـ الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 383هـ/ 993م):

34 ـ مفاتيح العلوم، القاهرة، 1342.
ـ الدميري، كمال الدين، محمد بن موسى (ت 808هـ/ 1405م):
35 ـ حياة الحيوان الكبرى، مطبعة حجازي، القاهرة.
ـ ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 943هـ/ 1536م):
36 ـ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، القاهرة.
ـ الرامهرمزي، بزرك بن شهريار:
37 ـ كتاب عجايب الهند بره وبحره وجزايره، بريل، 1883 ـ 1886.
ـ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت 1274هـ/ 1857م):
38 ـ الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي، 1977.
39 ـ الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، 1978.
ـ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ق 3هـ):
40 ـ الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891.
ـ ابن الزبير، القاضي الرشيد (منسوب)، 562هـ:
41 ـ الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، 1959.
ـ الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط القرن 6هـ):
42 ـ كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، 1968.
ـ السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد (ت 1332هـ/ 1913م):
43 ـ تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، الكويت، 1947.
ـ ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ/ 1268م):
44 ـ كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، ط1، بيروت، 1971.
45 ـ بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان فرنيط خينيس، تطوان 1958.
ـ السيرافي، أبو زيد الحسن (ت 368هـ/ 978م):
46 ـ رحلة السيرافي إلى الهند والصين، تحقيق علي البصري، بغداد، 1961.
ـ السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت 911هـ/ 1505م):
47 ـ نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر، دمشق، 1349.
ـ الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد:
48 ـ الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، القاهرة، 1968.
ـ شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن طالب (ت 727هـ/ 1326م):
49 ـ نخبة الدهر في عجايب البر والبحر، بطربورغ، 1865.
ـ ابن طباطبا، أبو إسماعيل إبراهيم بن ناصر (ت 479هـ/ 1086م):

50 ـ منتقلة الطالبية، تحقيق محمد مهدي الخرسان، ط1، النجف، 1968.

ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/ 922م):

51 ـ تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1939.

52 ـ المنتخب من كتاب ذيل الذيل، وهو ملحق بالجزء الثامن من تاريخ الأمم والملوك للطبري، القاهرة، 1939.

ـ الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت 873هـ/ 1468م):

53 ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، باريس، 1894.

ـ العرشي، القاضي حسين بن أحمد، (ت 1330هـ/ 1912م):

54 ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تحقيق أنستاس ماري الكرملي، القاهرة، 1939.

ـ عمارة اليمني، نجم الدين عمارة (ت 569هـ/ 1173م):

55 ـ تاريخ اليمن، المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط2، مطبعة السعادة، 1976.

ـ الغزالي، الإمام أبو حامد محمد (ت 505هـ/ 1111م):

56 ـ إحياء علوم الدين، القاهرة.

ـ الفاسي المكي، الإمام تقي الدين محمد بن أحمد (ت 832هـ/ 1428م):

57 ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، 1962.

أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ت 732هـ/ 1331م):

58 ـ المختصر في أخبار البشر، ط1، القاهرة.

59 ـ تقويم البلدان، تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس 1840.

ـ ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد:

60 ـ مختصر كتاب البلدان، ليدن، 1302.

ـ قدامة بن جعفر، أبو الفرج (ت 320هـ/ 932م):

61 ـ الخراج وصنعة الكتابة، نشر: دي غويه، بريل، 1889.

ـ القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد (ت 1019هـ/ 1610م):

62 ـ أخبار الدول وآثار الأول، وهو على هامش كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، القاهرة، 1290.

ـ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت 682هـ/ 1283م):

63 ـ آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، 1960.

64 ـ عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، وهو على هامش كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري، مطبعة حجازي، القاهرة.

ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م):

65 ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

ـ الكتاب المقدس:

66 ـ العهد العتيق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960.

ـ الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ/ 961م):

67 ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة، تصحيح رفن غست، بيروت، 1908.

ـ ابن ماجد، شهاب الدين أحمد (ت بعد 904هـ/ 1498م):

68 ـ ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق تيودور شوموفسكي، ترجمة محمد منير مرسي، القاهرة، 1969.

69 ـ كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري، دمشق، 1971.

ـ مالك بن أنس (ت بعد 179هـ):

70 ـ المدونة الكبرى، دار صادر، بيروت.

ـ ابن المجاور، يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي (ت 690هـ/ 1291م):

71 ـ صفة بلاد اليمن المسمى تاريخ المستبصر، تصحيح أوسكار لوفغرين، ليدن، 1951.

ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (346هـ/ 957م):

72 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1958.

73 ـ التنبيه والإشراف، تصحيح عبد الله الصاوي، القاهرة، 1938.

74 ـ أخبار الزمان (منسوب)، تحقيق عبد الله الصاوي، ط1، القاهرة، 1938.

ـ المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 387هـ/ 997م):

75 ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ/ 1441م):

76 ـ الخطط المقريزية، لبنان، 1959.

77 ـ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، ط1، القاهرة، 1969.

ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ/ 1311م):

78 ـ لسان العرب، بيروت، 1955.

ـ المهري، سليمان بن أحمد بن سليمان (كان حياً 917هـ/ 1511م):

79 ـ العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري، دمشق، 1970.

80 ـ المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر، تحقيق إبراهيم خوري، دمشق، 1970.

81 ـ مصنفات سليمان المهري، من سلسلة العلوم البحرية عند العرب، تحقيق إبراهيم خوري، دمشق، 1972.

ـ ناصر خسرو، (ت 481هـ/ 1088م):

82 ـ سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، ط2، بيروت، 1970.

ـ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت 213هـ/ 828م):

83 ـ سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1937.

ـ الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت 334هـ/ 945م):

84 ـ صفة جزيرة العرب، تحقيق داود هنريك مولير، ليدن، 1884.

ـ ابن الوردي، زين الدين عمر (ت 749هـ/ 1348م):
85 ـ تاريخ ابن الوردي، القاهرة، 1285.
ـ ابن الوردي، سراج الدين عمر بن منصور (ت 861هـ):
86 ـ خريدة العجايب وفريدة الغرايب، القاهرة، 1994.
ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت 284هـ/ 897م):
87 ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1955.
88 ـ البلدان، ليدن، 1891.

ثالثاً: المراجع:

ـ ارنولد، توماس وآخرون
1 ـ الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، القاهرة ـ 1957.
ـ الأسعد، رشيد جبر
2 ـ أضواء على القضية الأرتيرية، بغداد ـ 1969.
ـ إسكندر توفيق
3 ـ بحوث في التاريخ الاقتصادي، القاهرة، 1961.
ـ أمين، أحمد
4 ـ فجر الإسلام، ط7، القاهرة ـ 1955.
5 ـ ضحى الإسلام، ط5، القاهرة ـ 1956.
ـ أمين، محمد محمد
6 ـ تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى. مستل من كتاب العلاقات العربية الإفريقية للمؤلف نفسه. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1977.
ـ باسكوم، وليم هيرسكوفتز
7 ـ الثقافة الإفريقية، ترجمة عبد الملك الناشف، صيدا، 1966.
ـ بافقيه، محمد عبد القادر
8 ـ تاريخ اليمن القديم، بيروت، 1973.
ـ باوزير، سعيد عوض
9 ـ صفحات من التاريخ الحضرمي، القاهرة، 1978.
ـ البكري، صلاح
10 ـ تاريخ حضرموت السياسي، ط2، القاهرة، 1956.
ـ بولم، دنيز
11 ـ الحضارات الإفريقية، ترجمة نسيم نصر، ط1، بيروت، 1974.
ـ ثابت، محمد

12 ـ جولة في ربوع العالم الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، مصر.
ـ جنثر، جون
13 ـ داخل إفريقية، ترجمة حسن جلال العروسي، القاهرة.
ـ الحداد، محمد يحيى
14 ـ تاريخ اليمن السياسي، ط1976، 3.
ـ حراز، السيد رجب
15 ـ إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي، القاهرة، 1968.
16- أرتيريا الحديثة، 1557 ـ 1941، معهد البحوث والدراسات العربية، 1974.
ـ حسن، ناجي
17 ـ ثورة زيد بن علي، ط1، النجف، 1966.
ـ حسن، حسن إبراهيم
18 ـ اليمن، البلاد السعيدة، القاهرة.
19ـ انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، القاهرة، 1957.
ـ حوراني، جورج فضلو
20 ـ العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة.
ـ دافدسن، باذل
21 ـ إفريقية تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.
ـ الدوري، عبد العزيز
22 ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد، 1948.
ـ دوزي، رينهارت
23 ـ المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، 1971.
ـ زامباور
24 ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن محمد محمود، القاهرة، 1951.
ـ زكي، عبد الرحمن
25 ـ الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، القاهرة، 1965.
26ـ المسلمون في العالم اليوم، القاهرة، 1958.
ـ زلوم، عبد القادر
27 ـ عمان والإمارات السبع، بيروت، 1963.
ـ زياده، نقولا
28 ـ الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، 1962.

- زيدان، جرجي
29 - العرب قبل الإسلام، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة.
30 - تاريخ التمدن الإسلامي، تعليق حسين مؤنس، دار الهلال.
- سالم، السيد عبد العزيز
31 - تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية
- السالمي، محمد بن عبد الله وناجي عساف
32 - عمان تاريخ يتكلم، دمشق، 1963.
- السامر، فيصل
33 - الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، باريس، 1977.
34 - ثورة الزنج، ط2، بغداد، 1971.
- سلوم، داود
35 - الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحيلية، مستلة من مجلة كلية الآداب، العدد 1976، 19.
- سوسة، أحمد
36 - الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، نقابة المهندسين العراقيين مع مساهمة مؤسسة كولبنكيان، 1974.
- السيار، عائشة علي
37 - دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية، ط1، بيروت، 1957.
- شاخت وبوزورث
38 - تراث الإسلام (القسم الأول)، ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت، 1978.
- شلبي، أحمد
39 - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط2، القاهرة، 1957.
- شهاب، حسن صالح
40 - أضواء على تاريخ اليمن البحري، بيروت، 1977.
- العارف، ممتاز
41 - الأحباش بين مأرب وأكسوم، بغداد، 1975.
- العاني، عبد الرحمن
42 - عمان في العصور الإسلامية الأولى، بغداد، 1977.
- العزيز، حسين قاسم
43 - موجز تاريخ العرب والإسلام، بيروت، 1971.
- العقاد، صلاح وجمال زكريا قاسم
44 - زنجبار، القاهرة، 1955.

ـ علي، جواد
45 ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 1950.
46 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، بيروت، 1969.
ـ العلي، صالح أحمد
47 ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط2، بيروت، 1968.
ـ عمر، فاروق
48 ـ مقدمة في دراسة التاريخ العماني (الخليج العربي)، بغداد، 1979.
ـ قاسم، جمال زكريا
49 ـ دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية، القاهرة، 1968.
50 ـ العلاقات العربية الإفريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
ـ القوصي، عطية
51 ـ تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، 1976.
ـ لوريمر، ج
52 ـ دليل الخليج، بيروت، 1969.
ـ ماهر، سعاد
53 ـ البحرية في مصر الإسلامية، وزارة الثقافة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
ـ متز، آدم
54 ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط3، القاهرة، 1957.
ـ محمود، حسن أحمد
55 ـ الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، القاهرة، 1963.
ـ مؤمن، مصطفى
56 ـ سمات العالم الإسلامي المعاصر، ط1، بيروت، 1974.
ـ نقولا، ديمتري
57 ـ الرحلات الإفريقية القديمة، مجلة الرواد، وهي الجزء الثاني من كتاب أعلام المقتطف، القاهرة، 1927.
ـ نيلسن، ديتلف وآخرون
58 ـ التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، القاهرة، 1958.
ـ هنتس، والتر
59 ـ المكاييل والأوزان، ترجمة كامل العسلي، الأردن.
ـ ويدنر، دونالد
60 ـ تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي.

ـ الويسي، حسين بن علي
61 ـ اليمن الكبرى، القاهرة ـ 1962.

رابعاً: المقالات:

ـ الامبابي، عبد الواحد
1 ـ إفريقية والخليج العربي، مجلة التجارة ـ صادرة عن غرفة تجارة الشارقة، العدد 221، السنة السابعة 1978.
ـ بتروشفسكي
2 ـ تكوين الدولة العربية الإسلامية، ترجمة: حسين قاسم العزيز، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 9 ـ 10، السنة 1976، 5.
ـ بكر
3 ـ مادة: زنج، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وآخرون، م3، ص 378.
ـ سعد، كمال
4 ـ مدن عربية في إفريقية، مجلة آفاق عربية، العدد 12، آب 1976.
ـ طرخان، إبراهيم علي
5 ـ الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مجلة المنهل، جزء 12، السنة 27، المجلد 32، جدة، شباط 1972.
ـ عبد الرسول، كوثر
6 ـ دراسات في الهجرات الحديثة إلى إفريقية، حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، المجلد الثالث عشر، القاهرة، 1973.
ـ غروهان
7 ـ مادة سفينة، دائرة المعارف الإسلامية، م11.
ـ غيدان، عصام عيسى
8 ـ العرب في السواحل الإفريقية، مجلة العربي، الكويت.
ـ فران، غابرييل
9 ـ مادة: سفالة، دائرة المعارف الإسلامية، م11.
ـ فرنر، أليس
10 ـ مادة: زنجبار والسكان السواحيليون، دائرة المعارف الإسلامية، م10.
ـ ماسنيون
11 ـ مادة: زنج، دائرة المعارف الإسلامية، م10.
ـ مدني، أمين
12 ـ حقائق وإيضاحات مع الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في رحلة ابن جبير، مجلة قافلة الزيت، جدة، 1978.
ـ ناجي، سلطان
13 ـ مظاهر الحضارة اليمنية القديمة، مجلة آفاق عربية، السنة 4، تشرين الأول، 1978.
ـ هارتمان

14 ـ مادة: جدة، دائرة المعارف الإسلامية، م6.

ـ هل

15 ـ مادة: أبنوس، دائرة المعارف الإسلامية، م1.

خامساً: المراجع الأجنبية:

Andrzejewski, B:

1 - Is There Arabic Influence In Somali Poetry. Seminar

on Islamic Influence on The literary Cultures of Africa. School of Oriental and African Studies, University of London, 6th June – 1968.

Ayany, S. G:

2 – Ahistory of Zanzibar, London – 1970.

Baker, E. G:

3 - Notes on the shirazi of East Africa. Tanganyika Notes and Records, No. 11, Dar Esalam, Aprile – 1944.

Barbosa, D:

4 - The Book of Duarte Barbosa. Translated From The Portuguese: L. Dames. Hukluyt Society. London.

Brady, C.T:

5 - Commerce and Conouest In East Africa. The Essex Institute – 1950.

Chittick, N:

6 - Notes On Kilwa. Tanganyika Notes and Records. No. 53, October – 1959.

7 - Anew look At The History of Pata. Journal of African History, Vol. X, No. 3, 1969.

8 - Kilwa and The Arab Settlement of The East African coast. Journal of African History, Vol. IV. No. 2, Cambridge University Press, 1963.

9 - The Shirazi Colonization of East Africa. Journal of African History, Vol. 3, 1965.

10 - The Peopling of The East African Coast. East Africa and The Orient cultural Syntheses In Pre – Colinicl Times. London – 1975.

Coupland, R:

11 - East Africa And Its Invaders. Oxford, The Clarendon Press – 1838.

Davidson, B:

12 - The Growth of African Civilization, 1974.

Devic, L M:

13 - Le Pays Des Zendjs, Paris – 1883.

Doke, C.M:

14 - The Earliest Records of Bantu. Bantu Studies journal, Vol. XII, Johnnesburg – 1938.

Dorman, M. H:

15 - The Kilwa Civilization And The Kilwa Ruins. Tanganyika Notes And Records, No. 6, London -1938.

Eliot, C:

16 - The East Africa Protectorate, London. 1950.

17 - Encyclopeadia Britannica, Tanzania, Vol. 17. 1974.

18 - Encyclopeadia International, Katanga, vol. 10, New york.

Fitzgerald, M. I:

19 - Orita. Ibadan, Journal of Religious studies, No. VII, Nigeria, December – 1971.

Fllury, S:

20 - The kufic Inscriptions of Kisimkazi Mosque, Zenzibar 500. H, Journal of The Royal Asiatic Society, April – 1922.

Forster, N:

21 - Anote On Some Ruins Near Bagamoyo. Tanganyika Notes and Records, No. 3, London, April – 1937.

Freeman - Grenville, G. S. P:

22 - Some Preliminary Observations On Medieval Mosques Near Dar Esalam. Tanganyika Notes and Records, No. 36, 1954.

23 - The East African Coast. Clarendon Press, Oxford – 1962.

24 - Coinage In East Africa Before Portoguese Time. Numismatic Chronicle, Vol, XVII, London – 1957.

25 - The Medieval History of The Coast of Tanganyika, Berlin – 1962.

Gray, J:

26 - Ahistory of Kilwa. Tanganyika Notes and Records, Part. 1, 2. Edited by: J. P. Moffett, No. 31, July – 1951.

27 - History of Zanzibar From The Middle Ages To 1856, London – 1962.

Guillian, M:

28 - Documents Sur L' Histoire, La Geographie, Et La Commerce, De L' Afrique Oriental. Paris – 1856.

Hollingsworth, L. W:

29 - a Ashort History of The East Coast of Africa. London 1929.

Holt, E. M. (Editer):

30 - The Cambridge History of Islam. Cambridge University Press - 1970.

Ingrams, W. H:

31 - Zanzibar. Its History and Its People. London – 1931.

Juynboll. Th. W:

32 - Abd. Encyclopaedia of Islam. Vol. I, 1913.

Johnston, H:

33 - The Opening Up of Africa. London – 1928.

Kirby, C. P:

34 - East Africa: Kenya, Uganda and Tanzania, London – 1968.

Kirkman, j:

35 - Takwa, The Mosque of The Pillar. Arts Orientalis, The Arts of Islam and The East, vol. 3, Jermany – 1952.

36 - The Arab City of Gedi. London, Oxford University Press, 1954.

37 - Mnarani of Kilifi: The Mosques and The Tombs. Ars Orientalis, Vol. 3.

38 - Man and Monuments On The East African Coast. London – 1964.

Ki – Zerbo, j:

39 - Histoire De L' Afrique Noire. Paris – 1978.

Lin – Hart.4 P. (Editer):

40 - The Medicine Man Swife Ya Nguvu Mali Hasani Bin Ismail, London, Oxford, The Clarendon Press, 1968.

Mathew, G:

41 - Islamic Merchant Cities of East Africa Times, Juni – 26, 1951.

42 - Songo Mnara. Tanganyika Notes and Records, No. 53, October – 1959.

March, Z, and Kingsnorth, G:

43 - Ahistory of East Africa, An Introductony Survey. Cambridge University Press – 1972.

Murphy, E. J:

44 - History of African Civilization. New York.

Oliver, R. And Fage, J:

45 - Ashort History of Africa. 1972.

Oliver, R. And Mathew, G:

46 - History of East Africa. Oxford – 1968.

Ommanncy, F:

47 - Lslc of Cloves, Aview of Zanzibar, Longmons Grean and Coltd, 1955.

Posnansky, M. (Editer):

48 - Prelude To East African History, London, Oxford University Press.

Pearce, F:

49 - Zanzibar, The Island Metropolis of East Africa. London – 1920.

Piggott, D:

50 - History of mafia. Tanganyika Notes and Records, No. 11, April, 1944.

Prins, A:

51 - The Swahili Speaking People of Zanzibar, and, The East African Coast, 1961.

Reusch, R:

52 - History Of East Africa. 1954.

Robinson, A. E:

53 - The Shirazi Colonization of East Africa. Tenganyika Notes and Records, No. 7, June – 1939.

54 - Some Historical Notes On East Africa. Tanganyika Notes and Records No. 2, October – 1936.

Schoff, w. (Editer):

55 - The Periplus of The Erythraean Sea. London – 1912.

Stigand, C:

56 - The Land of Zinj. London – 1913.

57 - The Cambridge History of Africa. Cambridge University Press.

Strong:

58 - The History of Kilwa. Journal of The Royal Asiatic Society, Part. 11, April – 1895.

Trimingham, S:

59 - Islam In East Africa, Oxford – 1964.

60 - The Arab Geographers And The African Coast.

Vincent, W:

61 - The Periplus of The Erythrean Sea. London – 1800.

Werner, A:

62 - The History of Pata. Journal of The African Society, Vol. XIV, London, 1914 – 1915.

Walker, J:

63 - The History and Coinage of The Sultans of Kilwa. The Mumismatic Chronicle, Vol. XVI, 1936.

Yajima, H:

64 - The Arab Dhow Trade In The Indian Ocean. Tokyo 1976.

Zamani:

65 - Asurvey of East African History, Edited By: B. Aogot and J. Akieran. Longmans of Kenya – 1969.

2 ـ مصادر ومراجع البابين الثاني والثالث

أولاً ـ المصادر:

الإدريسي، أبو عبد الله بن محمد (ت 561هـ/ 1147م).

1 ـ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1968.

الاصطخري، إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).

2 ـ المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، 1961م.

ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم (ت 799هـ/ 1377م).

3 ـ رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، د. ت وطبعة أخرى كتب هوامشها طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م.

البكري، أبو عبيد (ت 487هـ/ 1094م).

4 ـ المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، صورة أصدرتها مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة الجزائر، 1857م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (729هـ/ 893م).

5 ـ فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987

التنبكتي، أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، عرف ببابا التنبكتي (ت 1036هـ/ 1627م).

6 ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، على هامش كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

7 ـ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق: أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت

ابن حجر (ت 852هـ/ 1449م).

8 ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ضبطه وصححه عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

ابن حزم، علي بن أحمد سعيد (ت 456هـ/ 1064).

9 ـ رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1987، الجزء الثاني.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت بعد 367هـ/ 977م).

10 ـ صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1967.

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن (ت 808هـ/ 1405م).

11 ـ تاريخ ابن خلدون، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، د. ت

ابن خياط.

12 ـ تاريخ خليفة بن خياط.

دونمة، الماي دونمة بن علي (ت 1129هـ/ 1717).

13 ـ مَحْرَم، أصدره ماي البرنو، نسخه مخطوطة مصورة تتكون من 7 صفحات، في كتاب (إمبراطورية البرنو الإسلامية) لإبراهيم علي طرخان، ص 201 ـ 204.

الديار بكري (ت 966هـ/ 1559م).

14 ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، دار صادر، بيروت، جزءان.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت حوالي 532هـ/ 1137م).

15 ـ الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، 1968.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ/ 1497م).

16 ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، المجلد الرابع، الجزء السابع.

السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت 1315هـ/ 1897م).

17 ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.

السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عاو (كان حياً 1066هـ/ 1656م).

18 ـ تاريخ السودان، تحقيق هوداس وبنوة، باريس، 1964.

ابن سعيد، علي بن موسى (ت 685هـ/ 1286م).

19 ـ بسط الأرض في الطول والعرض، نشر خوان فرنيط خينس، تطوان، 1958.

السيوطي، عبد الرحمن (ت 911هـ/ 1505م).

20 ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر، 1321هـ.

وطبعة ثانية، وضع حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي (ت 619هـ/ 1223م).

21 ـ شرح مقامات الحريري البصري، أشرف على نشره وطبعه وتصحيحه محمد عبد المنعم الخفاجي، المكتبة الثقافية، بيروت، دون تاريخ.

وما جاء في صلاح الدين المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1982.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت 749هـ/ 1349م).

22 ـ التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، 1992.

23 ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة ويوسف أحمد بني ياسين، إصدارات مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2001م.

وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، ص 43 ـ 70.

الغرناطي، أبو حامد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي (ت 565هـ/ 1170م).

24 ـ تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1993.

ابن فرحون (ت 799هـ/ 1397م).

25 ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.
أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت 732هـ/ 1349م).
26 ـ تقويم البلدان، باريس.
الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز بن محمد الصنهاجي الفشتالي (ت 1031هـ/ 1621م).
27 ـ مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، 1972.
وطبعة أخرى تحقيق عبد الله كنون (مختصر الجزء الثاني)، المطبعة المهدية، تطوان، 1964.
ابن الفقيه، أحمد بن محمد الحمداني، المعروف بابن الفقيه (ت بعد 290هـ/ 903م).
28 ـ مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988.
القزويني، زكريا بن محمد القزويني (ت 682هـ/ 1283م).
29 ـ آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.
القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م).
30 ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة كوستا تسوماس وشركاه.
وطبعة ثانية تحقيق نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
وطبعة ثالثة تحقيق يوسف علي طويل، بيروت، 1987.
وطبعة صلاح الدين المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، ص 101 ـ 137.
كعت، الفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت وذيله (ت 1002هـ/ 1594م).
31 ـ تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس ودلافوس، باريس، 1981.
مؤلف مجهول، (كتبه سنة 372هـ/ 983م).
32 ـ حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1999م.
المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت 1111هـ/ 1699م).
33 ـ تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، 1284هـ.
المسعودي، علي بن الحسين (ت 346هـ/ 957م).
34 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف البقاعي، دار إحياء التراث، بيروت، 2002م.
المقريزي، أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م).
35 ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987م.
الوزان، حسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت 957هـ/ 1550م).
36 ـ وصف إفريقية، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، 1983م.
الوفراني، محمد الصغير بن الحاج عبد الله الوفراني النجار المراكشي (ت 1139هـ/ 1669م).

37 ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية هوداس، مكتبة الطالب، الرباط، د. ت.

الولاتي البرتلي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 1219هـ/ 1804م).

38 ـ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م.

ياقوت الحموي، ابن عبد الله (ت 626هـ/ 1228م).

39 ـ معجم البلدان، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت، 1979.

ثانياً ـ المراجع:

أحمد، مهدي رزق الله.

1 ـ حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية، ط1، منشورات الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1998.

باري، محمد فاضل علي وسعيد إبراهيم كريديه.

2 ـ المسلمون في غرب إفريقية، تاريخ وحضارة، دار الرشاد، بيروت، 2006.

حسن، حسن إبراهيم.

3 ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984.

دندس، عصمت عبد اللطيف.

4 ـ دور المرابطين في نشر الإسلام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

زبادية، عبد القادر.

5 ـ مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر، 1917.

الزركلي، خير الدين.

6 ـ الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.

زكي، عبد الرحمن.

7 ـ تاريخ الدول الإسلامية السودانية، القاهرة، 1961.

زيادة، نقولا.

8 ـ إفريقيةت، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.

السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون.

9 ـ تاريخ المغرب العربي، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1988.

سلا، عبد القادر محمد.

10 ـ المسلمون في السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، 1986.

شقير، نعوم.

11 ـ جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، 1967.

شلبي، أحمد.

12 ـ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط4، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1983.

الشيخلي، صباح إبراهيم وعادل الألوسي.

13 ـ تاريخ الإسلام في إفريقية وجنوب شرق آسيا، بغداد، 1989.

صالح، عمر محمد.

14 ـ الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، مؤسسة الرسالة، 1983.

طرخان، إبراهيم علي.

15 ـ إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

16 ـ إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، 1970.

17 ـ دولة مالي الإسلامية، دارسات في التاريخ القومي الإفريقي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.

عبد القادر، دريد.

18 ـ تاريخ الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء، الموصل، 1985.

عبد اللطيف، علي محمد.

19 ـ إفريقية العربية، بنغازي، 1998.

علي، فاي منصور.

20 ـ أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغاي الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

الغربي، محمد.

21 ـ بداية الحكم المغربي في السودان، إشراف نقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت.

الغنيمي، عبد القادر مقلد.

22 ـ الإسلام وحضارته في وسط إفريقية، سلطنة البولالا، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1966.

فروخ، عمر.

23 ـ تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت.

فليجة، أحمد نجم الدين.

24 ـ إفريقية، دراسة عامة وإقليمية، بغداد.

فهد، بدري محمد.

25 ـ الصلات بين العرب وإفريقية (الثقافية والسياسية والاقتصادية والإجتماعية)، دار المناهج، عمان، 2002م.

قداح، نعيم.

26 ـ إفريقية الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، كوناكري، 1960.

كاني، أحمد محمد.

27 ـ الجهاد الإسلامي في غرب إفريقية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987.

كحالة، عمر رضا.

28 ـ معجم المؤلفين، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.

محمود، حسن أحمد.

29 ـ الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار الفكر العربي.

30 ـ قيام دولة المرابطين، القاهرة، 1957.

مخلوف، محمد بن محمد.

31 ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية عن أحمد بابا التنبكتي، دار الفكر.

المراكشي، العباس بن إبراهيم.

32 ـ الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام.

المنجد، صلاح الدين (وعلّق عليها وقدّم لها).

33 ـ مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1982.

ثالثاً ـ الكتب المترجمة باللغة العربية:

بارث:

1 ـ رحلات واستكشافات في شمال ووسط إفريقية، لندن، 1857 ـ 1858.

باسارج، س:

2 ـ زور أوبر ملا شكستالنك في كانم.

بانيكار، ك. مادهو:

3 ـ الوثنية والإسلام، تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية، ترجمة وتعليق وتحقيق على مصادر العربية: أحمد فؤاد بلبع، من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1988.

بول:

4 ـ اللجنة الفرنسية الإفريقية، ومعلومات عن المستعمرات.

بول، في:

5 ـ الحالة الاجتماعية لسكان الجزائر وإفريقية الشمالية، 1911.

بيكر:

6 ـ الحركات في السودان، دار الإسلام.

جنتيل، ب:

7 ـ غزو شاد 1894 ـ 1916، باريس ـ 1970.

8 ـ المحافظات الثلاث عشر التابعة لجمهورية تشاد، 1962.

جنتيل، أي:

9 ـ سقوط إمبراطورية الكابة، باريس ـ 1902.

جوزيف، جوان:

10 ـ الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقية السوداء، ترجمة: مختار السويفي.
جولان، ل:
11 ـ زندر في شاد وغزو كانم من الناحية الجغرافية، 1901.
ديستينيف، ح:
12 ـ بحيرة تشاد، مجلة العلوم العامة، 1903.
13 ـ فورت لامي، الحوليات الرسمية لتشاد ـ 1970.
روفرين أي. لو:
14 ـ أهل الصحراء والسواحل في شاد، باريس ـ 1962.
زيربو، جوزيف لي:
15 ـ تاريخ إفريقية السوداء. ترجمة: يوسف شلبي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.
شاپيل، جين:
16 ـ ليالي الرحل في الصحراء، باريس ـ 1957.
فاج:
17 ـ تاريخ غرب إفريقية، ترجمة: السيد يوسف النصر، دار المعارف القاهرة.
فورو، ف:
18 ـ من الجزائر إلى الكونغو، مروراً بشاد، 1902.
فورو ـ لامي:
19 ـ الوثائق العلمية، باريس ـ 1902.
فوكيه:
20 ـ كانم، استعراض القوات الاستعمارية، 1906.
كاربو، هـ:
21 ـ إقليم تشاد ووداي، باريس ـ 1912. منشورات مدرسة الآداب الجزائرية العدد 16، 17.
كورنيك، ح. ل:
22 ـ التاريخ السياسي لتشاد 1900 ـ 1962.
كورنيه:
23 ـ تشاد، باريس ـ 1910.
لاباتون:
24 ـ المناطق العسكرية في تشاد.
لارجو، مي:
25 ـ الوضع في المقاطعات والمحميات في تشاد من وجهة النظر الاقتصادية، عرض للمستعمرات 1903 ـ 1904.

مامسون ولابوف:
26ـ سكان تشاد في الشمال على خط عرض 10، باريس ـ 1959.
ماركورت:
27ـ بنين ـ ساملونك.
مورو، أي:
28ـ سنتان في إقليم تشاد.
مليارد:
29ـ تاريخ كانم، مذكرات جيم، 1951.
نجتيجال، ج:
30ـ صحارى برنو والسودان، ليبزيك ـ 1579/ 1589، م2، الكتاب الخامس.
هارتمان، م:
31ـ الشوا وتوندجير، الشرق الإسلامي، 1.
هود، كير توماس:
32ـ ممالك السودان الغربي ترجمة: عبد الواحد الأمبابي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ.
هورت، س. ل:
33ـ تشاد وسكانها من الناحية الجغرافية، 1904.
هوكو، ب:
34ـ تشاد، باريس ـ 1965.
35ـ وثائق فرنسية عن جمهورية تشاد، ملاحظات ودراسات، وثيقة رقم 3411 في 18 تموز ـ 1967، وزارة الإعلام.
يفر، جي:
36ـ دائرة المعارف الإسلامية.

رابعاً ـ البحوث والدوريات:

أحمد إبراهيم ذياب
1ـ علماء بلاد السودان الغربي في القرنين السادس والسابع عشر وآثارهم العلمية، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد، 1985.
التميمي، عبد الجليل
2ـ مساهمة أحمد بابا التنبكتي في الحضارة العربية الإسلامية من خلال كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد، 1985.
الجمل، شوقي عطا الله
3ـ التنبكي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط، مجلة المناهل، الرباط، 1976، السنة الثالثة، العدد 6.
الحاج، محمد أحمد

4 ـ الشيخ عثمان بن فودي والحضارة العربية الإسلامية في الإقليم الشمالي لجمهورية نيجيريا الاتحادية، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد، 1985.

حاطوم، نور الدين وآخرون

5 ـ المدخل إلى التاريخ، مطبعة الهلال، دمشق، 1981 ـ 1982.

حجي، محمد

6 ـ الحركة الفكرية في عهد السعديين، منشورات المغرب للتأليف والترجمة والنشر، د. ت، جـ2.

الحرير، إدريس صالح

7 ـ العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام هناك. مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسات جهاد الليبيين، يناير، 1983، العدد الأول.

حسنين، أحمد الياس

8 ـ الإسلام في مملكة غانا من خلال كتاب أبي عبيد الله البكري (المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب)، مجلة دراسات إفريقية، العدد 4، 1985.

9 ـ دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر، في كتاب ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، 1985.

طرخان، إبراهيم علي

10 ـ إمبراطورية صنغي الإسلامية، مجلة كلية الآداب جامعة الرياض، المجلد الثامن، 1981.

11 ـ غانة في العصور الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة، 1970، المجلد 13.

العبيدي، عبد العزيز بن راشد

12 ـ وسائل انتشار الإسلام في إفريقية، دراسة تاريخية، مجلة دراسات إفريقية، 1985، العدد 1.

العراقي، أحمد

13 ـ انتشار اللغة العربية في بلاد غربي إفريقية عبر التاريخ، مجلة دراسات إفريقية، 1985، العدد الأول.

14 ـ ابن فودي، عبد الله محمد فودي من علماء غربي إفريقية في القرن التاسع عشر، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد، 1985.

قاسم، جمال زكريا

15 ـ تاريخ العرب في إفريقية، رؤية موضوعية في الدراسات التاريخية للحلقة النقاشية، من مطبوعات جامعة الكويت، 1993 ـ 1994.

أمين، محمد محمد

16 ـ علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر في عصر سلاطين المماليك (1250 ـ 1517م)، مجلة الدراسات الإفريقية، يصدرها معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1975، العدد 4.

عمر، موسى عز الدين

17 ـ انتشار الإسلام في غرب إفريقية حتى القرن السادس عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية

الإسلامية، بغداد، 1985.

النقر، عمر عبد الرزاق

18 ـ دراسة أولية في أسانيد الشيخ عثمان بن فودي، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد، 1985.

خامساً ـ دائرة المعارف الإسلامية باللغة العربية:

1 ـ برو كلمان، دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، مراجعة: محمد مهدي علام، مادة: السعدي، م11، ص 411 ـ 412.

2 ـ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سنغال م12، ص 263 ـ 265.

3 ـ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سنغاي م12، ص 265 ـ 267.

4 ـ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: السودان م 12، ص 327 ـ 334.

5 ـ دلافوس، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: سوسو، م12، ص 378 ـ 379.

6 ـ كاره ده فو، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: تمبكتو، م5، ص 465 ـ 468.

7 ـ ليفتزيون، ن، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: مالي، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ح27، ص 8425 ـ 8433.

8 ـ شنب، محمد، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أحمد بابا، م1، ص 457 ـ 459.

9 ـ موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: ليو الإفريقي، ح27، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1997، ص 8335 ـ 8339.

10 ـ يفر، ج، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: البرنو، م3، ص 576 ـ 592.

11 ـ يفر، ج، دائرة المعارف الإسلامية، مادة: جنّي، م7، ص 145 ـ 147.

12 ـ يفر، ج، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مادة: غانة. طبعت برعاية الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، مركز الشارقة للإبداع الفكري، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ح23، ص 7062 ـ 7065.

سادساً ـ دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنكليزية:

-Yver,G, Kanem, the encylopaedia of Islam, first edition, Vol. 11, PP. 712 – 715.

-Yver,G, Kanem, the encylopaedia of Islam, new edition, Brill, Leiden, 1975, Vol. IV, PP. 540 – 541.

فهرس المحتويات